

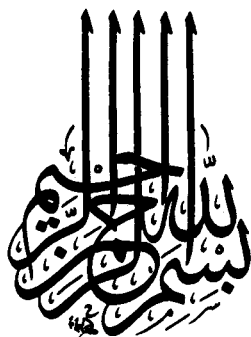
المُفِيدُ فِي

خُطَبِ الْجُمُعَةِ وَالْعِيدِ

تأليف
إبراهيم بن محمد الحقيقل

الجزء الرابع

دار الخيرية



المُفِيدُ
فِي

خطب الجمعة والعيد

③ إبراهيم بن محمد الحقيـل ، ١٤٢٥ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الحقيـل ، إبراهيم بن محمد

المفيد في خطب الجمعة والعيد / الرياض ، ١٤٢٥ هـ.

٥٧٦ ص؛ ٢٤ × ١٧ سم ٤ مج

ردمك : ٤-٦٠٣-٤٤-٩٩٦٠ (مجموعة)

٩٦٦٠-٤٤-٦٠٧-٧ (ج ٤)

١- خطبة الجمعة ٢- الخطب الدينية أ - العنوان.

١٤٢٥/٩٠٧

ديوي : ٢١٣

رقم الايداع : ١٤٢٥/٩٠٧

ردمك: ٤-٦٠٣-٤٤-٩٦٦٠ (مجموعة)

٩٦٦٠-٤٤-٦٠٧-٧ (ج ٤)

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م

دار ابن خزيمة

لِلنَّشْرِ وَالتَّوْزِيعِ

المملكة العربية السعودية - الرياض
المركز - شارع الاحساء - غرب حديقة الحيوان
هاتف: ٤٧٣٠٧٨٨ - ٤٧٦٩٩٣٢ - فاكس: ٤٧٦٠٧٩٥

السير والأعلام

- | | |
|----------------------------|-----------------------|
| ١٥٤- مقتل عمر رضي الله عنه | ١٦٢- أبو والـدرداء |
| ١٥٥- سيد الشهداء حمزة | ١٦٣- أبو دجانة |
| ١٥٦- أبو عبيدة بن الجراح | ١٦٤- الإمام البخاري |
| ١٥٧- ذو الجناحين | وفيات الأعلام: |
| ١٥٨- عبد الله بن مسعود | ١٦٥- الشيخ ابن باز |
| ١٥٩- سيف الله المسلول | ١٦٦- الشيخ الألباني |
| ١٦٠- عمرو بن العاص | ١٦٧- الشيخ ابن عثيمين |
| ١٦١- البراء بن مالك | |

١٥٤- مقتل عمر رضي الله عنه

٢٤/١٢/١٤٢٢ هـ

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلَّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠]، [٧١] .

أما بعد: فإن أصدق الحديث كلام الله تعالى، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها الناس: من توفيق الله تعالى للعبد أن يستعمله في طاعته، ويبعده عن معصيته؛ فيعمر أيامه ولياليه بطاعة الله عزَّ وجلَّ، ويكون دأبه المسارعة في الخيرات، والكف عن المحرمات. وإذا ما كان هذا دأبُ العبد دهره كله فإنه حريٌّ بأن يختم له بصالح عمله؛ فينال الفوز الأكبر برضوان الله تعالى وجنته.

من حافظ على أمر الله تعالى فإنه يختم شهوره وأعوامه بصالح عمله، ومن ختم شهوره وأعوامه بالصالحات؛ ختم عمره بالصالحات أيضاً. ومن كان مخلطاً يعمل صالحاً ويعمل سيئاً فيخشى عليه أن يختم له بالسوء، ومن كان لا يعمل إلا السوء فهو هالك إلا أن يتوب قبل أن يموت.

ومن عباد الله الصالحين من تتراحم عليه الأعمال الصالحة؛ فيوفق لأدائها، لو ختم له بواحد منها لختم له بالخير، ولكن الله تعالى يزيده من الخير لصلاح قلبه وعمله، فيختم له بجميعها؛ كما كانت خاتمة فاروق هذه الأمة عمر بن الخطاب رضي الله عنه؛ فإنه ختم عامه الذي مات فيه بالحج، ومن حج فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه، ولم يلبث إلا زمناً يسيراً بعد حجه حتى قضى؛ وتلك علامة خير، وحسن ختام، ثم إنه رضي الله عنه قتل ظلماً وعدواناً؛ وتلك شهادة وحسن ختام، وطعن رضي الله عنه وهو يصلي وهذا أيضاً من حسن خاتمته، وما قضى نجه رضي الله عنه وأرضاه إلا وقد قام بحقوق رعيته فمضى وهم عنه راضون، وفجعوا بقتله رضي الله عنه، وناله من دعائهم واستغفارهم له ما ينفعه؛ وتلك من علامات الخير.

ورغم أنه رضي الله عنه ممن شهد لهم النبي صلى الله عليه وسلم بالجنة، وأخبر عليه السلام في بعض أحاديثه أنه رأى قصراً لعمر في الجنة؛ فإن عمر لم يغتر بذلك؛ بل اجتهد في الخير حتى ختم له بأعمال صالحة كثيرة، كانت دليلاً على حسن خاتمته، رضي الله عنه وأرضاه.

سمعتة ابنته أم المؤمنين حفصة رضي الله عنها يدعو قائلاً: «اللهم ارزقني قتلاً في سبيلك، ووفاء في بلد نبيك، قالت: قلت: وأنى ذلك؟ قال: إن الله يأتي بأمره أنى شاء»^(١)، وهذا من حسن ظنه بربه، ويقينه بقدرته جلّ جلاله.

وحج في العام الذي قتل فيه، وسأل الله في حجته حسن الختام. عن سعيد بن المسيب رحمه الله تعالى: «أن عمر لما أفاض من منى أناخ بالإبطح، فكوم كومة من بطحاء، وطرح عليها طرف ثوبه ثم استلقى عليها، ورفع يديه إلى السماء وقال: اللهم كبرت سني، وضعفت قوتي، وانتشرت رعيتي، فاقبضني إليك غير مضيع ولا مفرط، قال سعيد: فما انسلخ ذو الحجة حتى طعن»^(٢).

وخطب مرة فقال: «رأيت ديكاً نقرني ثلاث نقرات، ولا أراه إلا حضور أجلي... فما مرّ إلا تلك الجمعة حتى طعن»^(٣)، وفي رواية: «أن رؤياه عُبرت بأنه يقتله رجل من الأعاجم»^(٤).

كان من سياسته رضي الله عنه أنه لا يأذن لسبي بقي على كفره أن يدخل المدينة، أو يعمل فيها؛ حتى كتب إليه المغيرة بن شعبة رضي

(١) طبقات ابن سعد (٢/٢٥٢).

(٢) حلية الأولياء (١/٥٤) والطبقات (٢/٢٥٥)، والآحاد والمثاني لابن أبي عاصم (١/١٠٧)، وفضائل الصحابة للإمام أحمد (١/٣٩٨).

(٣) أخرجه مسلم في المساجد باب نهى من أكل ثوماً... (٥٦٧).

(٤) الطبقات (٢/٢٥٥)، وفتح الباري لابن حجر (٧/٧٨). وفي الطبقات أن أسماء بنت عميس رضي الله عنها هي التي عبرتها بذلك.

الله عنه وهو على الكوفة يذكر له غلاماً عنده صانعاً ويستأذنه في أن يدخله المدينة ويقول: «إن عنده أعمالاً تنفع الناس، إنه حداد نقاش نجار، فأذن له، فضرب عليه المغيرة كل شهر مئة، فشكى إلى عمر شدة الخراج، فقال له: ما خراجك بكثير في جنب ما تعمل، فانصرف ساخطاً فلبث عمر ليالي فمر به العبد فقال: ألم أحدث أنك تقول: لو أشياء لصنعت رحي تطحن بالريح، فالتفت إليه عابساً فقال: لأصنعن لك رحي يتحدث الناس بها، فأقبل عمر على من معه فقال: توعدني العبد».^(٥)

وفي حديث أبي رافع: «أن غلام المغيرة أبا لؤلؤة المجوسي لقي عمر فقال: إن المغيرة أثقل علي، فقال: اتق الله وأحسن إليه، ومن نية عمر أن يلقي المغيرة فيكلمه فيخفف عنه، فقال العبد: وسع الناس عدله غيري، وأضمر على قتله».^(٦)

فلما كان فجر يوم الأربعاء قبل نهاية شهر ذي الحجة بأربعة أيام كمن أبو لؤلؤة في المسجد، ومعه سكين ذات طرفين مسمومة، فوقف عمر يعدل الصفوف للصلاة، فلما كبر يصلي بالناس طعنه العبد في كتفه وفي خاصرته فقال عمر: «وكان أمر الله قدراً مقدوراً»^(٧)، ثم أخذ العبد يسعى لا يمر على أحد يمينا ولا شمالاً إلا طعنه؛ حتى طعن ثلاثة

(٥) الطبقات (٢٦٢/٣)، وتاريخ الطبري (٥٥٩/٢).

(٦) أخرجه أبو يعلى (٢٧٣١) والحاكم (٩١/٣) والبيهقي (١٦/٤) وصححه ابن حبان (٦٩٠٥)، وقال الهيثمي في الزوائد (٧٦/٩): ورجاله رجال الصحيح.

(٧) الطبقات (٢٦٥/٣)، والفتح (٧٨/٧).

عشر رجلاً مات منهم سبعة، فلما رأى ذلك رجل من المسلمين طرح عليه برنساً، فلما ظن العليج أنه مأخوذ نحرو نفسه، وتناول عمر يد عبدالرحمن بن عوف فقدمه للصلاة بالناس، فصلى بهم صلاة خفيفة... وحمل عمر إلى بيته وقد غلبه النزف حتى غشي عليه، فلما أسفر الصبح استيقظ فقال: «أصلى الناس؟ قالوا له: نعم، قال: لا إسلام لمن ترك الصلاة، ثم توضأ وصلى، وقال ابن عمر: وتساند إليّ وجرحه يشغب دماً، إني لأضع إصبعي الوسطى فما تسد الفتق»^(٨).

فقال عمر لابن عباس: «أخرج فناد في الناس: أعن ملاء منكم كان هذا؟ فقالوا: معاذ الله، ما علمنا ولا اطلعنا»^(٩)، وفي رواية: «فطن عمر أن له ذنباً إلى الناس لا يعلمه، فدعا ابن عباس وكان يحبه ويدنيه، فقال: أحب أن تعلم عن ملاء من الناس كان هذا، فخرج لا يمر بملاء من الناس إلا وهم يبكون؛ فكأنما فقدوا أبكار أولادهم فأخبره، قال ابن عباس: فرأيت البشر في وجهه»^(١٠).

حتى إن القوم قالوا: «لوددنا أن الله زاد في عمرك من أعمارنا، من محبتهم له رضي الله عنه»^(١١).

(٨) الطبقات (٢٦٣/٣)، والفتح (٧٩/٧).

(٩) الطبقات (٢٥٩/٣).

(١٠) جاء ذلك في رواية ابن عمر عند الطبراني في الأوسط (٥٧٩)، وحسن

إسناده الهيثمي في الزوائد (٧٤/٩ - ٧٥).

(١١) الطبقات (٢٦٥/٣).

فلما علم عمر أن الذي قتله عبد مجوسي قال: «الحمد لله الذي لم يجعل قاتلي يحاجني عند الله بسجدة سجدتها قط»، وفي حديث جابر أن عمر رضي الله عنه قال: «لا تعجلوا على الذي قتلني، فقليل: إنه قتل نفسه، فاسترجع عمر، فقليل له: إنه أبو لؤلؤة، فقال: الله أكبر»^(١٢).

فجاء الطبيب فسقى عمر نبيذاً فخرج من جرحه، ثم سقاه لبناً فخرج من جرحه، فعرف أنه الموت فقال: «الآن لو أن لي الدنيا كلها، لافتديت به من هول المَطْلَع»^(١٣).

فجعل الناس يشنون عليه، ويذكرون أعماله العظيمة في الإسلام فكان يجيبهم فيقول: «إن المغرور من تغرونه»^(١٤).

وجاءه شاب فقال: «أبشر يا أمير المؤمنين ببشرى الله لك من صحبة رسوله صلى الله عليه وسلم، وقدم في الإسلام ما قد عملت، ثم وليت فعدلت، ثم شهادة، قال: وددت أن ذلك كفاف لا علي ولا لي، فلما أدبر إذا إزاره يمس الأرض قال: ردوا عليّ الغلام، قال: يا ابن أخي، ارفع ثوبك؛ فإنه أبقى لثوبك، وأتقى لربك»^(١٥). قال ابن

(١٢) الفتح (٧/٧٩).

(١٣) جاء ذلك في حديث أبي رافع المخرج في هامش (٦).

(١٤) جاء ذلك في حديث ابن عمر المخرج في هامش (١٠).

(١٥) جاء ذلك في حديث عمرو بن ميمون عند البخاري في فضائل الصحابة باب قصة البيعة والاتفاق على عثمان بن عفان رضي الله عنه (٣٧٠٠).

مسعود: «يرحم الله عمر لم يمنعه ما كان فيه من قول الحق»^(١٦).
وأرسل ابنه عبد الله إلى عائشة قال: «انطلق إلى عائشة أم المؤمنين
فقل: يقرأ عليك عمر السلام - ولا تقل: أمير المؤمنين، فإني لست اليوم
للمؤمنين أميراً - وقل: يستأذن عمر بن الخطاب أن يدفن مع صاحبيه»^(١٧)،
وإنما قال ذلك لثلاث تفهم عائشة أنه أمر، وهو الإمام فطاعته واجبة،
فترك لها الخيار، وطلب منها هذا الطلب على سبيل الرجاء، وليس
على سبيل الأمر.

فسلم عبد الله بن عمر واستأذن على عائشة فوجدها قاعدة تبكي،
فقال: «يقرأ عليك عمر بن الخطاب السلام، ويستأذن أن يدفن مع
صاحبيه، فقالت: كنت أريده لنفسي، ولأوثرنه به اليوم على نفسي،
فلما أقبل قيل: هذا عبد الله بن عمر قد جاء، قال: ارفعوني، فأسنده
ابن عباس إليه، فقال: ما لديك؟ قال: الذي تحب يا أمير المؤمنين،
أذنت، قال: الحمد لله، ما كان من شيء أهم إليّ من ذلك، فإذا أنا
قضيت فاحملوني، ثم سلم فقل: يستأذن عمر بن الخطاب، فإن أذنت
لي فأدخلوني، وإن ردتني ردوني إلى مقابر المسلمين»^(١٨).

وكان ابن عباس يشي عليه وهو مسند له، فلما انتهى من ثنائه قال
عمر: «ألصق خدي بالأرض يا عبد الله بن عمر، قال ابن عباس:

(١٦) أخرجه أحمد في فضائل الصحابة (٣٢٩) وانظر: فتح الباري (٧/ ٨١).

(١٧) جاء ذلك في حديث عمرو بن ميمون المخرج في هامش (١٥).

(١٨) المصدر السابق.

فوضعتة من فخذي على ساقي . فقال : ألصق خدي بالأرض ، فوضعتة حتى وضع لحيته وخده بالأرض ، فقال : ويلك عمر إن لم يغفر الله لك» (١٩) .

قال عبد الله بن عامر بن ربيعة : «رأيت عمر أخذ تبة من الأرض فقال : ليتني كنت هذه التبة ، ليتني لم أخلق ، ليت أُمي لم تلدني ، ليتني لم أكن شيئاً ، ليتني كنت نسياً منسياً» (٢٠) .

فلما مات رضي الله عنه قال علي : «ما على الأرض أحد ألقى الله بصحيفته أحب إلي من هذا المسجى بينكم» (٢١) .

وصلى عليه صهيب الرومي في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ودفن بجانب صاحبيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبي بكر رضي الله عنه (٢٢) .

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم : ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رَجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب : ٢٣] .

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم ، ، ،

(١٩) جاء ذلك في حديث ابن عمر المخرج في هامش (١٠) ، والطبقات (٢٧٤ / ٣) .

(٢٠) الطبقات (٢٧٤ / ٣) ، وتاريخ الخلفاء (٢١٩) .

(٢١) الطبقات (٢٨٢ / ٣) .

(٢٢) الطبقات (٢٨١ / ٣) ، وقد كان صهيب رضي الله عنه يصلي بالناس في مسجد

رسول الله صلى الله عليه وسلم بتكليف من عمر ؛ كما في حديث أبي رافع : «أن عمر أمر صهيباً يصلي بالناس» .

الخطبة الثانية

الحمد لله، حمداً طيباً كثيراً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى،
أحمده وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده
لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله وسلم وبارك
عليه وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهداهم إلى يوم الدين.
أما بعد: فاتقوا الله تعالى وأطيعوه؛ فإن الأيام تمضي، والأعمار
تنقص، وما يكاد عام يبتدي إلا وينتهي، وكل يوم يمضي يباعدنا عن
الدنيا، ويقربنا من القبر والآخرة، وما الإنسان إلا أيام هي أيام عمره.
فالسعيد من عمل للآخرة، ولم تغره الدنيا ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا
اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لَغَدٍّ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (١٨)
وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿[الحشر:
١٨، ١٩].

أيها الإخوة في الله: كان مقتل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي
الله عنه فاجعة لا كالفواجع؛ لأنه كان حصن الإسلام، ودرع الأمة،
وباب الفتنة الذي ظل مغلقاً حتى كسر بقتله؛ فخرجت الفتن على أمة
محمد صلى الله عليه وسلم.

قالت أم أيمن رضي الله عنها يوم أصيب عمر: «اليوم وهى الإسلام»^(٢٣).
وقال زيد بن وهب رحمه الله تعالى: «أتينا ابن مسعود فذكر عمر
فبكى حتى ابتل الحصى من دموعه وقال: إن كان عمر حصناً حصيناً

(٢٣) الطبقات (٣/ ٢٨١)، ومجمع الزوائد (٩/ ٧٧).

للإسلام يدخلون فيه ولا يخرجون منه، فلما مات عمر انثلم الحصن؛
فالناس يخرجون من الإسلام»^(٢٤).

وبكى سعيد بن زيد رضي الله عنه وقال: «على الإسلام أبكي،
إنَّ موت عمر ثلم الإسلام ثلثة لا ترتق إلى يوم القيامة»^(٢٥).

وقال حذيفة أمين سر رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضي الله
عنه: «إنما كان مثل الإسلام أيام عمر مثل امرئ مقبل لم يزل في إقبال،
فلما قتل أدبر فلم يزل في إدبار»^(٢٦).

وقال أنس رضي الله عنه: «ما من أهل بيت من العرب حاضر وباد
إلا قد دخل عليهم بقتل عمر نقص»^(٢٧).

إن هذه الآثار وغيرها عن جِلَّةِ الصحابة وفقهائهم رضي الله عنهم
وأرضاهم، لتبين حجم الخسارة بقتل عمر رضي الله عنه؛ إذ في وقته
ما كان لمنافق أن يطلع قرنه، ولا لمفسد أن ينشر فساد؛ هيبه لعمر
وخوفاً منه، فلما قتل ظهرت الفتن، وعمل المنافقون والمفسدون على
هدم الإسلام، حتى قتل في هذه الفتن ظلماً وعدواناً الخليفتان الراشدان
عثمان وعلي رضي الله عنهما، ووقع السيف في أمة محمد صلى الله
عليه وسلم.

(٢٤) الطبقات (٢/٢٨٣)، ومجمع الزوائد (٩/٧٧).

(٢٥) الطبقات (٢/٢٨٤).

(٢٦) الطبقات (٣/٢٨٥).

(٢٧) الطبقات (٣/٢٨٦).

لقد كان أعداء الإسلام يعلمون ما لعمر رضي الله عنه من مكانة عند المسلمين، ويدركون قوة الإسلام بحكمه وعدله؛ فكان لابد من قتله.

والإمام العادل لا يوجد أي مسوغ لقتله؛ لأن الناس مؤمنهم وكافرهم يرضون بالعدل، ويحبون الحاكم العادل، ويخضعون له، وعدل عمر لا يخفى على أحد حتى شهد له به أعداؤه، ولكن أهل الأحقاد والضغائن لا يشفع عندهم عدله وإن عدل، وهذا ما كان في قلب المجوسي أبي لؤلؤة ومن معه ممن تأمروا على قتل عمر، ولم يشف ما في صدورهم من غيظٍ إلا دمُ عمر رضي الله عنه.

ولذلك استغرب عمر لما أخبر أن قاتله هو أبو لؤلؤة المجوسي وقال: «قاتله الله، لقد أمرت به معروفاً»^(٢٨).

ومعروف عمر في أبي لؤلؤة لم يزل حقه عليه، وهو الذي كان يأتي إلى السبي الصغار من المجوس فيمسح على رؤوسهم ويكي ويقول: «إن العرب أكلت كبدي، ويقول: أكل عمر كبدي»^(٢٩).

إنه إذاً حقد ديني على عمر، وعلى من يدين بدين عمر، ولا زالت مظاهر هذا الحقد موجودة إلى اليوم، وستظل إلى يوم

(٢٨) صفة الصفوة (٢٨٨)، والتمهيد والبيان في مقتل الشهيد عثمان لابن أبي

بكر المالقي الأندلسي (٢٤).

(٢٩) تاريخ الطبري (٢/٥٣٠)، والبداية والنهاية (٧/١١٢)، والطبقات (٣/

٢٦٤)، والمتنظم (٤/٢٨٠).

القيامة يشعلها الكفار على كل من يدين بدين عمر رضي الله عنه .
والشريعة كتاباً وسنةً تثبت ذلك ، والتاريخ يدل عليه ، والواقع
يشهد له .

فكل الأمم تجتمع على أمة الإسلام ، وكل أصحاب الديانات رغم
ما بينهم من عدااء يتآزرون على المسلمين ، ولن يرضوا منهم إلا الكفر
الصراح كما جاء في القرآن .

فأعمال عباد العجل الصهيينة في أبناء فلسطين تدل على ذلك .
وأعمال عباد الصليب في البوسنة وكوسوفا وإندونيسيا دلت على
ذلك .

وأعمال عباد البقر الهندوس من حرق المسلمين أحياء تدل على
ذلك .

وأعمال عباد المادة من الشيوعيين دلت على ذلك في بلاد الأفغان
ثم الشيشان .

وأعمال خلفائهم الرأسماليين تدل على ذلك في قرى الأفغان التي
تمحى من الوجود .

والسلسلة ستظل متصلة من الكيد والمكر والتآمر؛ حتى لا يبقى
على وجه الأرض مسلم موحد لو استطاعوا ذلك .

إن الذين يظنون أن البشرية ستنعم بالأمن والرخاء مع تطور الإنسان
ورقيه حاملون؛ فإن أهل الحضارة المعاصرة ما زادتهم حضارتهم إلا قوة
وشدة وحقداً على أهل الإسلام؛ بل وعلى البشرية جمعاء .

وإن المخذوعين الذين يظنون أن الصراع سيتوقف أو أنه لا علاقة للدين به جاهلون بالسنن الكونية، وبالآيات الشرعية الدالة على بقاء الصراع بين الحق والباطل إلى قيام الساعة.

وخير لهم إن كانوا يعقلون أن يستمسكوا بإسلامهم حتى يلقوا الله عز وجل وهم لم يبدلوا ولم يغيروا.

وإن ذلة المسلمين وضعفهم لا تستوجب التخلي عن الإسلام الحق، أو التبرؤ منه، مهما كانت التبعات والتضحيات، وكلما عظم البلاء عظم الأجر، وكلما اشتدت المحن اقترب الفرج، ولن يغلب عسر يسرين. ألا وصلوا وسلموا على محمد بن عبد الله كما أمركم بذلك

ربكم،،،

١٥٥- أسد الله وسيد الشهداء حمزة بن عبدالمطلب رضي الله عنه

الجمعة ١٤١٨/١١/١ هـ

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (١٠٢) ﴿[آل عمران]﴾ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ (١) ﴿[النساء]﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ (٧١) ﴿[الأحزاب]﴾.

أما بعد: فيا أيها الإخوة المؤمنون: في زمن الإخفاقات المتكررة، والهزائم المتتابة، والإحباط المتوالي، واليأس الذي يلف قلوب كثير من أهل الإسلام، وكل ذلك سببه الوهن الذي أصاب المسلمين؛ حتى جعلهم يقدمون مصالحهم على مصالح أمتهم، ويهتمون بذواتهم أكثر من اهتمامهم بالدين.

نعم! الوهن سبب ذلك: حب الدنيا وكرهية الموت، وضعف

اليقين بالآخرة، وعدم التفريق بين النصر والهزيمة، وعدم المبالاة بالغزو والمسح والتزوير الذي يمارس على تعاليم الإسلام وشرائعه. في هذه الأجواء المعتمدة، والأحوال المتردية؛ نحتاج إلى مطالعة تاريخ الصدر الأول، والنظر في سير الصحابة المجاهدين، والشهداء والمهاجرين، الذين بذلوا النفس والنفيس لإعلاء كلمة الدين، ونشر الإسلام في أرجاء المعمورة.

وهذه سيرة بطل من أبطال الإسلام، وأسد من أسد الله تعالى، كان قوياً في إسلامه، بطلاً في جهاده، عظيماً في استشهاده. لقبه النبي صلى الله عليه وسلم: أسد الله، وسماه: سيد الشهداء. رضع هو والنبي صلى الله عليه وسلم من ثدي واحد؛ فكان أخاه من الرضاعة^(١). إنه ابن عبدالمطلب حمزة عم رسول الله صلى الله عليه وسلم.

كان من خبر إسلامه: «أن أبا جهل مرّ برسول الله صلى الله عليه وسلم فأذاه وشتمه، ونال منه ما يكره من العيب لدينه، والتضعيف له؛ فلم يكلمه رسول الله صلى الله عليه وسلم. ومولاة لعبد الله بن جُدعان في مسكن لها فوق الصفا تسمع ذلك، ثم انصرف عنه فعمد إلى نادي قريش عند الكعبة فجلس معهم. فلم يلبث حمزة أن أقبل متوشحاً قوسه، راجعاً من قنصٍ له - وكان صاحب قنص - وكان إذا رجع من قنصه بدأ بالطواف بالكعبة، وكان أعز فتى في قريش وأشدّه

(١) أسد الغابة (٦٧/٢) والإصابة وعزاه للصحيح (٢/٢٨٥) ومستدرك الحاكم

شكيمة، فلما مرّ بالموالاة قالت له: يا أبا عمارة لو رأيت ما لقي ابنُ أخيك أنفأ من أبي الحكم، وجده ها هنا جالساً فأذاه وسبه وبلغ منه، ولم يكلمه محمد؛ فاحتمل حمزة الغضب، لما أراد الله به من كرامته. فخرج يسعى مُغذّاً لأبي جهل فلما رآه جالساً في القوم أقبل نحوه؛ حتى إذا قام على رأسه رفع القوس فضربه بها، فشجه شجة منكراً، ثم قال: أتشتمه فأنا على دينه، أقول ما يقول؛ فردّ علي ذلك إن استطعت. فقامت رجال من بني مخزوم إلى حمزة لينصروا أبا جهل، فقال أبو جهل: دعوا أبا عمارة فوالله لقد سببت ابن أخيه سباً قبيحاً. وتم حمزة على إسلامه، فلما أسلم عرفت قريش أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد عزّ وامتنع، وأن حمزة رضي الله عنه سيمنعه؛ فكفوا بعض الشيء». أخرجه البيهقي والحاكم^(٢).

ولما كانت الهجرة هاجر إلى المدينة، وشهد بدرًا وأبلى فيها بلاءً عظيماً مشهوراً. بارز أبطال قريش فصرعهم، وأتى على صفوفهم فهدّها حتى قال أحد أسرى المشركين: «من الرجل المُعلّم بريشة نعام؟ قالوا: حمزة رضي الله عنه، قال: ذاك فعل بنا الأفاعيل»^(٣).

(٢) أخرجه الحاكم (٢١٣/٣) والبيهقي في الدلائل (٤٥٩/١) وابن سعد (٩/٣) وابن إسحاق كما في سيرة ابن هشام (٣٤/٢) وابن الأثير في أسد الغابة (٢/٦٧) وعزاه الهيثمي في المجمع للطبراني وقال: مرسل ورواته ثقات (٩/٢٦٧) ومعنى (مُغذّاً) أي: مسرعاً.

(٣) أخرجه ابن سعد (٦/٣) وانظر: أسد الغابة (٦٨/٢).

ثم في شوال من السنة الثالثة حضر أحداً وقاتل قتالاً عظيماً. قال سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: «كان حمزة يقاتل يوم أحد بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم بسيفين ويقول: أنا أسد الله»^(٤). كان يُسيّر فرسه بركبتيه، وفي يمينه سيف وفي يساره سيف يقاتل بهما. الله أكبر ما هذه الجرأة! وكيف كانت تلك المهارة؟!

كانت شهادته رضي الله عنه في أحد، يروي قصتها قاتله، فقد أخرج البخاري في صحيحه من حديث جعفر بن عمرو أن وحشياً قال: «إن حمزة قتل طعيمة بن عدي بن الخيار بيد، فقال لي مولاي جُبَيْر بن مُطْعِم: إن قتلت حمزة بعلمي فأنت حر، قال: فلما أن خرج الناس عام عَيْنَيْن - وعينين جبل بحيال أحد بينه وبينه واد - خرجت مع الناس إلى القتال، فلما اصطفوا للقتال خرج سباعٌ فقال: هل من مبارز؟ قال: فخرج إليه حمزة بن عبدالمطلب فقال: يا سباعُ يا ابنَ أُمِّ أُنْمَارٍ مقطّعة البظور، اتحاذُ الله ورسوله صلى الله عليه وسلم! قال: ثم شدّ عليه فكان كأمس الذاهب، قال: وكمنت لحمزة تحت صخرة، فلما دنا مني رميته بحربتي فأضعها في نُتْتِه حتى خرجت من بين

(٤) أخرجه الحاكم دون قوله «بسيفين» وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي (٢١٤/٣) أما الرواية التي فيها ذكر قتاله بسيفين فأخرجها ابن أبي شيبة في مصنفه (٣٨٢/٦) برقم (٣٢٢٠٨) والطبراني في الكبير (١٤٩/٣) برقم (٢٩٥٣) والحاكم (١٩٢/٣) وذكرها ابن الأثير في أسد الغابة وعزاها لابن إسحاق (٦٨/٢).

وركيه فكان ذلك العهد به...»^(٥) وفي رواية: «فجعل حمزة يهدُّ الناس بسيفه»^(٦) وفي أخرى: «فرأيت رجلاً إذا حمل لا يرجع حتى يهزمنا، فقلت: من هذا؟ قالوا: حمزة، قلت: هذا حاجتي»^(٧) ثم ذكر بقية الحديث.

قُتل حمزة رضي الله عنه، ومثل به المشركون انتقاماً من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد تأثر لذلك كثيراً، فوقف على حمزة فرآه قد شقُّ بطنه، وقد مثل به، فكره أن ينظر إليه، ثم وقف بين ظهراي القتلى فقال: «أنا شهيد على هؤلاء، لفوهم في دمائهم فإنه ليس من جريح يجرح في الله إلا جاء يوم القيامة يذمى، لونه لون الدم، وريحه ريح المسك، قدموا أكثرهم قرأناً فاجعلوه في اللحد»^(٨).

وروى أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقف على حمزة حيث استشهد فنظر إلى منظر لم ينظر إلى شيء قط

(٥) أخرجه أحمد (٥٠١/٣) والبخاري في المغازي باب قتل حمزة بن عبدالمطلب رضي الله عنه (٤٧٢) والطيالسي (٢٣٤٨) وهو في سيرة ابن هشام (٧٠/٣) والدلائل للبيهقي (٢٤١/٣).

(٦) هذه رواية ابن إسحاق كما في الفتح (٤٢٧/٧).

(٧) هذه رواية ابن عائد كما في الفتح (٤٢٧/٧).

(٨) أخرجه ابن سعد (٩/٣) وابن أبي شيبة في المصنف برقم (١٨٦٣٤) وذكره الحافظ في المطالب العالية (٤٢٦٩) وقال البوصيري في مختصر اتحاف السادة المهرة: رواه ثقات (٥٢٢٦) وعزاه الهيثمي في المجمع للطبراني وقال: ورجاله رجال الصحيح (١١٩/٦).

كان أوجع لقلبه منه، ونظر إليه وقد مثّل به فقال: «رحمة الله عليك، فإنك كنت ما علمت وصولاً للرحم، فعولاً للخيرات، ولولا حزن من بعدك عليك؛ لسرني أن أتركك حتى يحشرك الله من أرواح شتى، أما والله علي ذلك لأمثلن بسبعين منهم مكانك»، فنزل جبريل عليه السلام بخواتيم النحل ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ (١٢٦)﴾ [النحل] فكفر النبي صلى الله عليه وسلم عن يمينه، وأمسك عن الذي أراد وصبر^(٩).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما قُتل حمزة أقبلت صفية أخته فلقيت علياً والزبير، فأرياهما أنهما لا يدریان، فجاءت النبي صلى الله عليه وسلم فقال: «إني أخاف على عقلها، فوضع يده على صدرها ودعا لها فاسترجعت وبكت، ثم جاء فقام عليه وقد مثل به فقال: لولا جزع النساء لتركته حتى يحشر من حواصل الطير وبطون السباع..» وفي رواية الزبير أن صفية رضي الله عنها جاءت بثوبين لتكفين حمزة وكان إلى جنب حمزة قتيل من الأنصار؛ فكرهوا أن يتخيروا لحمزة فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «أسهموا بينهما فأيهما طار له أجودُ الثوبين فهو له» فأسهموا بينهما؛ فكفن حمزة في ثوب، والأنصاري

(٩) أخرجه ابن سعد (٩/٣) والحاكم (٢١٨/٣) وهو ضعيف لضعف صالح المري؛ ولكن في معناه حديث أبي بن كعب رضي الله عنه عند أحمد (١٣٥/٥) والترمذي في التفسير باب من تفسير سورة النحل وقال: حسن غريب (٣١٢٩) وصححه ابن حبان (٤٨٧).

في ثوب^(١٠)؛ ولكن ثوب حمزة كان قصيراً فجعلوا يجرونه على وجهه فتكشف قدماه، ويجرونه على قدميه فينكشف وجهه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اجعلوه على وجهه واجعلوا على قدميه من هذا الشجر» فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم رأسه فإذا أصحابه يبيكون، فقال: «ما يبكيكم»؟ قيل: يا رسول الله، لا نجد لعمك اليوم ثوباً واحداً يسعه، فقال: «إنه يأتي على الناس زمان يخرجون إلى الأرياف؛ فيصيون فيها مطعماً وملبساً ومركباً»^(١١) أي من كثرة الخيرات وانفتاح الدنيا.

كان حمزة رضي الله عنه من شهداء أحد، بل هو سيد الشهداء كما قال النبي عليه الصلاة والسلام: «سيد الشهداء حمزة، ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله» أخرجه الحاكم وصححه^(١٢).
وشهد عليه الصلاة والسلام لشهداء أحد بالجنة فقال: «لما أصيب

(١٠) أما حديث ابن عباس فأخرجه ابن سعد (٩/٣) وأما حديث الزبير فأخرجه أحمد (١٦٥/١) وأبو يعلى (٦٨٦) والبخاري (١٧٩٧) والبيهقي في السنن (٤٠١/٤) والدلائل (٢٩٠/٣).

(١١) أخرجه ابن سعد (١٠/٣) وابن أبي شيبة في المصنف برقم (١٨٦٠٣) وذكره الحافظ في المطالب العالية (٤٢٦٦) وعزه الهيثمي للطبراني وقال: ورجاله ثقات (١١٩/٦).

(١٢) أخرجه الحاكم وصححه (٢١٥/٣) والطبراني في الأوسط (٤٠٧٩) وأورده الألباني في السلسلة الصحيحة واستوفى الكلام عليه، وذكر له شواهد يصحح بها (٣٧٤).

إخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها، وتأوي إلى قناديل من ذهب معلقة في ظل العرش، فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم ومقيلهم قالوا: من يبلغ إخواننا عنا أننا أحياء في الجنة نرزق لئلا ينكلوا عند الحرب، ولا يزهّدوا في الجهاد. قال الله: أنا أبلغهم عنكم فأنزلت: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا﴾ [آل عمران: ١٦٥] أخرجه أبو داود (١٣).

وحرّم الله أجسادهم على الأرض أن تبليها، فبعد أربعين عاماً من وقعة أحد أراد معاوية رضي الله عنه أن يجري عينه التي بأحد؛ فكتبوا إليه: إنا لا نستطيع أن نجريها إلا على قبور الشهداء، فكتب إليهم: انبشوهم، قال جابر: فرأيتهم يحملون على أعناق الرجال كأنهم قوم نيام، وأصابت المسحاة طرف رجل حمزة بن عبدالمطلب فانبعث دماً (١٤).

كان عمر حمزة لما استشهد سبعاً وخمسين سنة (١٥) فرضي الله عنه وأرضاه، ورضي عن الصحابة أجمعين.

(١٣) أخرجه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أحمد (٢٦٦/١) وأبو داود في الجهاد باب فضل الشهادة (٢٥٢٠) والحاكم (٢٩٧/٢) ونحوه عند مسلم من حديث ابن مسعود رضي الله عنه (١٨٨٧).

(١٤) أخرجه ابن سعد (٧/٣) وابن الأثير في أسد الغابة (٧١/٣)، وعزاه الحافظ في الإصابة لفوائد أبي طاهر (٢٨٧/٢).

(١٥) انظر: أسد الغابة (٧٠/٣).

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رَجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا
اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ (٢٣)
[الأحزاب:]. بَارَكَ اللَّهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ.

الخطبة الثانية

الحمد لله حمداً طيباً كثيراً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى،
أحمده وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده
لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم وبارك
عليه، وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهداهم إلى يوم الدين.

أما بعد: فيا عباد الله؛ اتقوا الله تعالى بفعل ما أمر، واجتنبوا الفواحش
ما بطن منها وما ظهر، واعلموا أن الله مع المتقين.

أيها الإخوة المؤمنون: تُظهر سيرة حمزة رضي الله عنه المعاني
العظيمة للإسلام حينما فعل المشركون في أحد الأفاعيل بشهداء المسلمين
من جدد أنوفهم، وبقر بطونهم، وشرط أجسادهم؛ حتى استخرجوا
كبد حمزة من بطنه، ويحلف رسول الله صلى الله عليه وسلم ليمثلن
بهم إذا ظهر عليهم؛ لكن ينزل عليه الوحي في موقفه ذاك ليبين أن
العقاب لا بد أن يكون على قدر الجريمة، وأن المثلة بالمثلة، وأن الصبر
خير من ذلك كله، وما كان من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا
أن صبر وكفّر عن يمينه.

فأيّ تزوير يمارس ضد الإسلام والمسلمين وتاريخهم على أيدي
أعداء الله من الملاحدة واليهود والنصارى والمنافقين حينما يصمون

المسلمين بالعنف والأصولية، ومحبة الدماء، والتلذذ بتعذيب الضحايا؛ رغم أن تاريخهم يحكي شرفهم في القتال، ويثبت نزاهتهم في حروبهم، وما أكثر ما عفوا وصفحوا في حال ظهورهم وانتصارهم.

فالمرأة والوليد والشيخ الكبير لا يقتلون، ومن لم يشارك في الحرب لا يقتل، والأسير يكرم حتى يقضى في أمره، والجريح لا يجهز عليه، والثمر لا يقطع، والزرع لا يحرق، والأمن لا يروغ. والمسلمون ينفذون تلك الوصايا؛ لأنهم لا ينطلقون في جهادهم من تحقيق مصالح ذاتية، وليس يدفعهم للقتال أحقاد دفيئة، أو أضغان قديمة.

ومع ذلك تُخفى الحقائق، ويمارس التزوير ضد المسلمين في كل وسيلة تسمع أو تقرأ أو ترى، بينما يصور غيرهم بأنهم رحماء، ومن العفو أقرب، وعن الانتقام أبعد. ماذا فعل الصليبيون في بيت المقدس لما اغتصبوه وبقي في أيديهم ما يزيد على تسعين سنة؟! إن التاريخ يذكر أن الدماء في الأقصى بلغت الركب، وأن الصليبيين لم يفرقوا بين طفل رضيع، أو امرأة ضعيفة، أو شيخ طاعن في السن؛ بل كانت سيوفهم تعمل القتل في الرقاب كلها. ولست محتاجاً لأن أرجعكم إلى ذاكرة التاريخ؛ لأن ممارسات الصليبيين الصرب الدموية قريبة العهد؛ ولأن أفعال اليهود بمسلمي الأقصى تنقل إلى الأسماع والأبصار كل صباح ومساء.

وما من فريضة تلصق بالإسلام، إلا ويتولى كبرها منافقو العرب

ممن نزع الله منهم الإيمان؛ فامتلأت قلوبهم أحقاداً زرقاً على الإسلام وأهله؛ ولكنهم يضرون أنفسهم ولن يضروا الله تعالى شيئاً، ولن يضروا المسلمين ما بقي المسلمون مستمسكين بشريعتهم، عاضين عليها بالنواجذ. وإن كيدهم ومكرهم عائد عليهم بأمر الله عز وجل، ولا تزال الأيام تفضحهم وتظهر عوراتهم ونفاقهم ﴿وَمَكْرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٥٤)﴾ [آل عمران: ٥٤] ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا (١٥) وَأَكِيدُ كَيْدًا (١٦) فَمَهْلُ الْكَافِرِينَ أَمْهَلُهُمْ رُويْدًا (١٧)﴾ [الطارق: ١٥ - ١٧].

ألا وصلوا وسلموا على خير خلق الله كما أمركم بذلك رب العزة والجلال..

* * *

١٥٦- دروس من سيرة أبي عبيدة رضي الله عنه

١٣/٦/١٤١٧هـ

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢] ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أما بعد: فإن أحسن الحديث كلام الله تعالى، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها الإخوة المؤمنون: تحيا القلوب بذكر الصالحين من عباد الله تعالى، ولا سيما إذا كانوا خيار هذه الأمة ممن عايشوا التنزيل، وصحبوا الرسول صلى الله عليه وسلم، ونشروا الإسلام في بقاع الأرض، فتذاكر أخبارهم وسيرهم يفرح قلوب المؤمنين، ويغني عن المناقنين، ويقود إلى التأسي بهم، وهذه قطوف من سيرة أحدهم في فضله ومناقبه،

وزهده وأخلاقه، وجهاده وتضحياته، وإيثاره وإنفاقه.

كان من السابقين الأولين، أسلمَ قبل دخول النبي صلى الله عليه وسلم دار الأرقم بن أبي الأرقم، وهو من المهاجرين، غزا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقاد الصحابة والتابعين في معارك كبرى، ويكفي في فضله: أن النبي صلى الله عليه وسلم قد شهد له بالجنة، ذلكم هو أبو عبيدة عامر بن الجراح أمين هذه الأمة رضي الله عنه، روى أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن لكل أمة أميناً وإن أميننا أيتها الأمة أبو عبيدة بن الجراح» رواه الشيخان^(١). وفي لفظ لمسلم: «إن أهل اليمن قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: ابعث معنا رجلاً يعلمنا السنة والإسلام، قال: فأخذ بيد أبي عبيدة بن الجراح فقال: هذا أمين هذه الأمة»^(٢).

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «ما تعرضت للإمارة وما أحببتها غير أن ناساً من أهل نجران أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فاشتكوا إليه عاملهم، فقال: «لأبعثن عليكم الأمين» قال عمر: فكننت فيمن تطاول رجاء أن يبعثني، فبعث أبا عبيدة» أخرجه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي^(٣). وقال فيه النبي صلى الله عليه وسلم: «نعم الرجل

(١) أخرجه البخاري في فضائل الصحابة باب مناقب أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه (٣٧٤٤) ومسلم في فضائل الصحابة رضي الله عنهم باب فضائل أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه (٢٤١٩).

(٢) هذه الرواية لمسلم (٢٤١٩).

(٣) أخرجه الحاكم في معرفة الصحابة وصححه وقال: على شرط الشيخين، ووافقه =

أبو عبيدة بن الجراح^(٤).

لقد كان لهذا الصحابي منزلةً جليلة، ومقام رفيع عند رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث سئلت عائشة رضي الله عنها: «من كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مستخلفاً لو استخلفه؟ قالت: أبو بكر، فقيل لها: ثم من بعد أبي بكر؟ قالت: عمر، ثم قيل لها: من بعد عمر؟ قالت: أبو عبيدة بن الجراح، ثم انتهت إلى هذا» رواه مسلم^(٥) ولما توفي النبي صلى الله عليه وسلم قال أبو بكر يوم السقيفة: «قد رضيت لكم هذين الرجلين فبايعوا أيهما شئتم، فأخذ بيد عمر ويد أبي عبيدة»^(٦). إن هذا الفضل كله جعل عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول لما وقع الوباء في الشام: «إن أدركني أجلي وأبو عبيدة حي استخلفته فإن سألني الله عز وجل: لم استخلفته على أمة محمد صلى

= الذهبي (٢٦٦/٣)، وجاء بنحوه من حديث حذيفة رضي الله عنه عند البخاري في فضائل الصحابة باب مناقب أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه (٣٧٤٥) ومسلم في فضائل الصحابة باب فضائل أبي عبيدة بن الجراح رضي الله تعالى عنه (٢٤٢٠).

(٤) أخرجه أحمد (٤١٩/٢) والترمذي في المناقب باب مناقب معاذ بن جبل وزيد ابن ثابت وأبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنهم وقال: حديث حسن (٣٧٩٥) والحاكم وصححه وقال: على شرط مسلم ووافقه الذهبي (٢٨٩/٣ - ٤٢٥) وصححه ابن حبان (٧١٢٩).

(٥) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي بكر الصديق رضي الله عنه (٢٣٨٥) وأحمد في فضائل الصحابة (٢٠٤).

(٦) أخرجه عبدالرزاق في مصنفه (٩٧٥٨) وانظر: فتح الباري (٦٩/٧).

الله عليه وسلم؟ قلت: إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إن لكل نبي أمة أميناً وأميني أبو عبيدة بن الجراح»^(٧). لكن أبا عبيدة رضي الله عنه توفي في خلافة عمر بالطاعون.

ولما بلغ معاذ بن جبل أن بعض أهل الشام استعجزَ أبا عبيدة أيام حصار دمشق، ورجَّح خالد بن الوليد عليه؛ غضب معاذُ وقال: «أبأبي عبيدة يظن، والله إنه لمن خيرة من يمشي على الأرض»^(٨). وقال عمر ابن الخطاب يوماً لجلسائه: تمنوا، فتمنوا، فقال عمر: «لكني أتمنى بيتاً ممتلئاً رجالاً مثل أبي عبيدة بن الجراح»^(٩).

ما بلغ أبو عبيدة هذه المنزلة الرفيعة عند الله تعالى، وعند رسوله صلى الله عليه وسلم، وعند الصحابة رضي الله عنهم، إلا بسبقه في الإسلام، وتضحيتِه بكلِّ غالٍ في سبيل الله تعالى، مع زهد في الدنيا وإيثارٍ لدين الله تعالى على حظوظ نفسه، وحسنٍ في الأخلاق والسجايا. أما الجهاد في سبيل الله تعالى فلقد شهد المشاهد مع رسول الله

(٧) أخرجه أحمد في المسند (١٨/١) وفي فضائل الصحابة (١٢٨٧) وعمر بن شبه في تاريخ المدينة (٨٨٦/٣) وهو منقطع لأنه من رواية شريح بن عبيد وراشد بن سعد ولم يدركا عمر رضي الله عنه، ولكن للحديث شواهد منها حديث أنس رضي الله عنه المخرج في هامش (١).

(٨) عزاه الحافظ في الإصابة لابن سعد وحسنه (٥٨٩/٣).

(٩) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٤١٣/٣) وأحمد في فضائل الصحابة (١٢٨٠) والحاكم في معرفة الصحابة (٢٢٧-٢٦٣) وقال الذهبي في التلخيص: «على شرط البخاري ومسلم» (٥٠٠٥).

صلى الله عليه وسلم، ولما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم بقي أبو عبيدة مجاهداً خلافة الصديق رضي الله عنه، وأول خلافة الفاروق رضي الله عنه حتى كان رأس الجيش، وقائد المسلمين في وقعة اليرموك التي استأصل الله فيها جيوش الروم، وقتل منهم خلق عظيم.

لقد كان له رضي الله عنه خلال جهاده الطويل مواقف مشهودة، وبطولاتٌ محمودة. . ثبت في أحد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حين انهزم الناس، وهو الذي نزع بثنيته حلقتي المغفر من وجنتي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فسقطت ثناياه، وتألم من أجل رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكن ثغره حسن بذهابهما حتى قيل: «ما رأي هَتم قط أحسن من هتم أبي عبيدة»^(١٠). هذا مثل يضربه أبو عبيدة في محبته لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وفدائه له بكل شيء.

ومثل آخر من توضحيات أبي عبيدة رضي الله عنه التي قل أن توجد في البشر، هذا المثل يدل دلالة واضحة على أن دين الله تعالى في قلب أبي عبيدة أهم من أي شيء آخر، فهو لا يوالي إلا في الله، ولا يعادي إلا فيه سبحانه وتعالى. ولقد صدق أبو عبيدة في مولاته ومعاداته مع الله تعالى، ولم يكن مجرد زاعم، بل حوّل هذا الإيمان إلى واقع محسوس حينما قتل أباه في غزوة بدر على الشرك، عن عبدالله بن شوذب قال: «جعل أبو أبي عبيدة يتصدى لأبي عبيدة يوم

(١٠) تهذيب الكمال (٥٥/١٤) والنهاية لابن الأثير (٢٤٢/٥) وسير أعلام النبلاء

بدر، فجعل أبو عبيدة يحيد عنه، فلما أكثر، قصده أبو عبيدة فقتله
فأنزل الله عز وجل فيه هذه الآية ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ
يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ
أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ
تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ
حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢] (١١).

الله أكبر، يقتل أبو عبيدة أباه في أول معركة في الإسلام بين الإيمان
والكفر؛ ليثبت أن دين الله تعالى لا هوادة فيه، وليدخل الرعب في
قلوب المشركين، وليعلمهم أن المؤمنين عندهم الاستعداد التام للتضحية
بأقرب قريب، وبكل غالٍ ونفيس في سبيل الله تعالى.

إن هذا لهو الإيمان واليقين، فكيف إذا انضم إلى ذلك إثارة دين
الله تعالى على حظوظ النفس وهواها، وهل يحقق ذلك إلا الخُلص
من عباد الله تعالى؟! روى موسى بن عقبة: «أن عمرو بن العاص استمد
رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة ذات السلاسل، فانتدب أبا
بكر وعمر في سرية من المهاجرين، فأمر نبي الله عليهم أبا عبيدة،
فلما قدموا على عمرو بن العاص قال: أنا أميركم. فقال المهاجرون:
بل أنت أمير أصحابك وأميرنا أبو عبيدة، فقال عمرو: إنما أنتم مدد
أمددت بكم، فلما رأى ذلك أبو عبيدة - وكان رجلاً حسن الخلق،

(١١) أخرجه البيهقي (٢٧١٩) والحاكم (٢٦٥/٣) والطبراني في الكبير (١٥٤/١)

برقم (٣٦٠) وجود إسناده الحافظ في الإصابة (٥٨٧/٣).

لين الشيمة، متبعاً لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وعهده - فسلم الإمامة لعمره» وفي رواية: «أن المغيرة قال لأبي عبيدة رضي الله عنه: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرك علينا وإن ابن النابغة ليس لك معه أمر - يعني عمرو بن العاص - فقال أبو عبيدة: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرنا أن نتطاول، فأنا أطيعه لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم»^(١٢).

رضي الله عن أبي عبيدة كيف انتصر على نفسه وهواه، ودحر الشيطان، ولم يجعل للخلاف موضعاً، إن هذا الانتصار على النفس هو الذي جعل جيوش الصحابة رضي الله عنهم تنتصر على قوى البغي والعدوان من المشركين العرب، والمنافقين، واليهود، وفارس والروم، كل هذه الأمم حطم الإسلام ظلم قاداتها وساستها، ودخلت جماهيرهم في دين الله تعالى أفواجاً.

المشركون العرب بشجاعتهم، والمنافقون بدسائسهم، واليهود بمكرهم وغدرهم، وفارس والروم بأعدادهم وعتادهم لم يستطيعوا الصمود أمام جيش الإسلام؛ لأن أفرادهم انتصروا على أنفسهم، وقهروا رغباتهم لصالح الإسلام، فلم تُجد فيهم الدسائس، ولم تنفع معهم المؤامرات

(١٢) سير أعلام النبلاء (١/٨-٩) وجاء نحوه مسنداً مرسلأ عن عامر الشعبي أخرجه أحمد (١/١٩٦) وقال الهيثمي في الزوائد (٦/٢٠٦): «رواه أحمد وهو مرسل ورجاله رجال الصحيح» وضعفه الشيخ أحمد شاکر لإرساله في شرحه على المسند (١٦٩٨) وانظر: زاد المعاد (٣/٣٨٧) والإصابة (٣/٥٨٨).

والمكائد، فكانوا صفاً واحداً على أعدائهم، رغم قلة العدد والعتاد، لكن هذه القلة من أمثال أبي عبيدة رضي الله عنه قوية من داخلها، متماسكة في بنائها، تنهار أمامها قوى الأعداء مهما كانوا.

روى ابن المبارك: «أن عمر رضي الله عنه بلغه أن أبا عبيدة حُصر بالشام، وتألّب عليه العدو، فكتب إليه عمر: أما بعد: فإنه ما نزل بعبد مؤمن شدة إلا جعل الله بعدها مخرجاً، وإنه لا يغلبُ عسرٌ يسرين ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

فكتب إليه أبو عبيدة: أما بعد: فإن الله تعالى يقول: ﴿إِعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠] فخرج عمر بكتابه فقرأه على المنبر، فقال: يا أهل المدينة: إنما يعرض بكم أبو عبيدة أو بي، ارغبوا في الجهاد»^(١٣).

ولما كان أبو عبيدة رضي الله عنه مجاهداً حاثاً على الجهاد؛ كان متقللاً من الدنيا، همه الآخرة، لا يدخر شيئاً من المال، فقد أرسل عمر إلى أبي عبيدة بأربعة آلاف درهم أو بأربعمائة دينار، وقال للرسول:

(١٣) أخرجه ابن المبارك في الجهاد (٢١٧) واللفظ له، وأخرجه مختصراً مالك في الموطأ (٩٦١) وابن أبي شيبة في مصنفه (٢٢٢/٤) برقم (١٩٤٨٦) وابن عبد البر في الاستذكار (١٨/٥) والحاكم وصححه وقال: على شرط مسلم، ووافقه الذهبي (٢/٣٠٠-٣٠١).

«انظر ما يصنع بها، قال: فقسمها أبو عبيدة، ثم أرسل إلى معاذ بمثلها، وقال للرسول مثل ما قال، فقسمها إلا شيئاً يسيراً، قالت له امرأته: نحتاج إليه، فلما أخبر الرسول عمر قال: الحمد لله الذي جعل في الإسلام من يصنع هذا»^(١٤).

لقد كان أبو عبيدة رضي الله عنه زاهداً في الدنيا، وكان زهده حقيقة لا تصنعاً وتكلفاً، وليس زهداً من قلة، بل عن غنى وجدّة وسعة؛ فلقد كان أمير الشام لعمر بن الخطاب رضي الله عنه، وقدم عمر إلى الشام لتفقد أحوال الناس فقال لأبي عبيدة: «اذهب بنا إلى منزلك، قال: وما تصنع عندي؟ ما تريد إلا أن تُعَصِّرَ عينيك عليّ، قال: فدخل، فلم ير شيئاً، قال: أين متاعك؟ لا أرى إلا لبداً وصحفة وشناً وأنت أمير؟! أعندك طعام؟ فقام أبو عبيدة إلى جَوَّةٍ، فأخذ منها كسيرات، فبكى عمر، فقال له أبو عبيدة: قد قلت لك: إنك ستعَصِّرَ عينيك عليّ يا أمير المؤمنين، يكفيك ما يبلغك المقيّل، قال عمر: غيّرنا الدنيا كلنا غيرك يا أبا عبيدة»^(١٥).

فيا لروعة تلك النفوس العظيمة التي ملكها أصحابها، فخطموها وألزموها كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، فلم يكثرثوا بالدنيا وقد حطت عند أقدامهم، وتملكوها بأيديهم؛ وبذلك دانت لهم الأرض، وفتحوا البلدان. فاللهم ارض عنهم وأرضهم، اللهم

(١٤) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٤١٣/٣).

(١٥) سير أعلام النبلاء (١٧/١) وعزاه الذهبي لسنن أبي داود برواية ابن الأعرابي.

إنا نشهدك على محبة أصحاب نبيك صلى الله عليه وسلم، اللهم إنا نتقرب إليك بذلك، ونتقرب إليك ببغض من أبغضهم فارض اللهم عنهم، واحشرنا في زمرتهم، واجمعنا بهم في دار النعيم.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم.

الخطبة الثانية

الحمد لله؛ فهو المستحق للحمد وحده، أحمدده وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجهم إلى يوم الدين.

أما بعد: فاتقوا الله تعالى وأطيعوه؛ فالتقوى جماع الأمر كله، وما نال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ما نالوا إلا بتقوى الله تعالى.

أيها الإخوة: مع هذه المناقب العظيمة، والمواقف المشهودة، والعجائب التي لا تنقضي في سيرة أبي عبيدة رضي الله عنه، هل رأى أعماله تلك، أو داخله العجبُ بها؟! كلا، بل كان رضي الله عنه مزرياً بنفسه، محتقراً لها، يرى أن التسابق في الفضل إنما يكون بالطاعة

فيقول رضي الله عنه: «يا أيها الناس: إني امرؤ من قريش، وما منكم من أحمر ولا أسود يفضلني بتقوى إلا وددت أني في مسلاخه»^(١٦).
ورغم أعماله الجليلة، وسبقه في الإسلام، وجهاده الطويل؛ فإنه لم يأمن مكر الله تعالى، وكان مع رجائه في الله تعالى خائفاً منه، يقول رضي الله عنه: «وددت أني كنت كبشاً فيذبحني أهلي فيأكلون لحمي ويشربون مرقتي»^(١٧).

يقول هذا أبو عبيدة رضي الله عنه، ويخاف هذا الخوف من الله تعالى، وهو من هو صحبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وسابقة في الإسلام، وزهداً في الدنيا، وجهاداً في سبيل الله تعالى، فما عسانا أن نقول نحن؟! وإيماننا ضعيف، وأعمالنا قليلة، وحرصنا على الدنيا كما نرى، وإذا عملنا عملاً فيه ما فيه من القصور والمخالفات؛ تعاضمنا ذلك في أنفسنا، كأننا نمنّ على الله تعالى بعبادته، ونحن نعصيه وهو يعطينا، فغفرانك اللهم.

وإذا كان كبار الصحابة، وخيار الأمة يزرون بأنفسهم، ويحرقون أعمالهم، فنحن أولى بهذا الإزراء والتحقير والمحاسبة، فهل نعقل ذلك، ونسير على الجادة حتى نوافي القوم علّنا نحشر في زمريهم؟!

(١٦) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه عن ثابت البناني (١١٦/٧) برقم (٣٤٦٢٠) وابن سعد في الطبقات (٤١٢/٣) وعزاه الحافظ لابن أبي الدنيا في الإصابة وجود إسناده (٥٨٩/٣).

(١٧) أخرجه عبدالرزاق في مصنفه (٢٠٦١٥) والبيهقي في الشعب (٧٩٠).

عسى أن نكون كذلك، ونسأل الله المغفرة والرحمة.

كانت تلك سيرة أبي عبيدة رضي الله عنه الذي مات بالطاعون، والطاعون شهادة، روى أبو سعيد المقبري رحمه الله تعالى قال: «لما طعن أبو عبيدة قال: يا معاذ صلّ بالناس، فصلّى معاذ بالناس، ثم مات أبو عبيدة، فقام معاذ في الناس فحثهم على التوبة ثم قال: إنكم أيها الناس قد فُجِعتم برجل والله ما أزعَمُ أنني رأيت من عباد الله عبداً قط أقلّ غمراً، ولا أبر صدرأً، ولا أبعد غائلةً، ولا أشدّ حباً للعاقبة، ولا أنصح للعامة منه؛ فترحموا عليه رحمه الله، ثم اصبحروا للصلاة عليه، فوالله لا يلي عليكم مثله أبداً، فاجتمع الناس، وأُخرج أبو عبيدة، وتقدم معاذُ فصلّى عليه حتى إذا أتى به قبره دخل قبره معاذ بن جبل وعمرو بن العاص والضحاك بن قيس، فلما وضعوه في لحده وخرجوا فشنوا عليه التراب قال معاذ بن جبل: يا أبا عبيدة، لأُثْنينّ عليك ولا أقول باطلاً أخافُ أن يلحقني بها من الله مقت، كنت والله ما علمت من الذاكرين الله كثيراً، ومن الذين يمشون على الأرض هوناً، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً، ومن الذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً، وكنت والله من المخبتين المتواضعين الذين يرحمون اليتيم والمسكين، ويبغضون الخائنين المتكبرين» رواه الحاكم^(١٨).

فهل نعتبر يا عباد الله، ونجعلُ هذا الصاحب الجليل وأمثاله قدوة لنا في الأعمال الصالحة، وقدوةً لأولادنا ومن تولينا، خاصة مع

(١٨) أخرجه الحاكم في معرفة الصحابة (٣/٢٦٣-٢٦٤).

انقلاب الموازين، واختلاط المفاهيم التي جعلت القدوة أسافل الناس، وحثالة البشر، من أرباب الشهوات، وأهل الفسوق والعصيان.

إننا نرجو بتذاكر أخبار هؤلاء الأعلام أن تحيا قلوبنا، وأن نعود إلى رشدنا؛ ففسير على الجادة التي ساروا عليها، والتي رسمها نبي الأمة صلى الله عليه وسلم طريقاً إلى الجنة، فمن ابتغى الجنة في غير تلك الجادة التي سار عليها القوم فقد أخطأ الطريق.

ثم صلوا وسلموا على نبيكم كما أمركم بذلك ربكم.

١٥٧- إطلالة على سيرة ذي الجناحين جعفر بن أبي طالب

الجمعة ١٢/٤/١٤١٨ هـ

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فيا أيها المسلمون: اتقوا الله تعالى حق التقوى، واستمسكوا بالعروة الوثقى؛ فإن أجسامكم على النار لا تقوى، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمَنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كَفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٢٨) [الحديد].

أيها الإخوة المؤمنون: بعدما يهتدي العبد إلى الله تعالى، ويعمر قلبه بالإيمان؛ تتغير مجريات حياته، وتتحول اهتماماته، ويتنقل من الدونية إلى الفوقية، تعلو همته، ويبعد نظره، وتسمو نفسه، فلا ترضى من الدنيا بشيء؛ بل همها الأكبر متعلق بالآخرة. ولذا تجد أن صاحب تلك النفس النفيسة، وهذا القلب الحي العامر، لا يرضى بغير محبة الله بديلاً، فلا تبصره إلا ماشياً في مرضاة الله تعالى، مجاناً لمغاضبه ومساخطه.

ما أحوجنا - أيها الإخوة - إلى الاقتراب من تلك النفوس السامقة، والقلوب الصالحة؛ لعل الله يصلح لنا القلوب، ويزكي منا النفوس، ويرزقنا التقوى دائماً وأبداً.

أيها الإخوة: هذه إطلالة سريعة، ووقفه عابرة على سيرة من أعجب السير، من تأمل أحوال صاحبها مع اعتباره وادكاره؛ نبض قلبه بالحياة بإذن الله تعالى. صاحبها صاحب شرف في الدنيا والآخرة، فنسبه ضارب في العراقة والمجد، نسب الطاهرين من بني هاشم، أوسط قریش نسباً. وصفاته وأخلاقه تتقدم الصفوف الأولى من الكمال البشري. يقول أبو نعيم الأصبهاني في وصفه: «الخطيب المقدم، السخي المطعام، خطيب العارفين، ومضيف المساكين، ومهاجر المهاجرتين، ومصلي القبلتين، البطل الشجاع، الجواد الشعشاع...»^(١).

ومع كل هذا الوصف والمجد يبلغ المنتهى في التواضع، فلا يأنف من أن يكون جندياً من جنود الحق تحت إمرة مولى من موالي ابن عمه الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم. خاطبه النبي صلى الله عليه وسلم يوماً فقال: «أشبهت خلقي وخلقي» أخرجه البخاري^(٢). إنه جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه وأرضاه، تقدم إسلامه

(١) حلية الأولياء (١/١١٤).

(٢) أخرجه البخاري في الصلح باب كيف يكتب: هذا ما صالح فلان بن فلان... إلخ (٢٦٩٩).

جداً حتى إنه يُقَدَّم في أوائل من أسلموا^(٣)، وهاجر إلى الحبشة فراراً بدينه، كما قالت أم سلمة رضي الله عنها: «لما ضاقت علينا مكة وأوذى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وفتنوا، ورأوا ما يصيبهم من البلاء؛ فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن بأرض الحبشة ملكاً لا يظلم عنده أحد فالحقوا ببلاده حتى يجعل الله لكم فرجاً ومخرجاً»^(٤).

كان جعفر رضي الله عنه من المهاجرين إلى الحبشة فراراً بدينه، لكن قريشاً لم يتركوهم بل أرسلوا في أثرهم عمرو بن العاص وعبدالله ابن أبي ربيعة فالتقى وفد المشركين بالمسلمين في مجلس الملك العادل النجاشي رحمه الله تعالى؛ فكانت المناظرة العظيمة بين داهية العرب عمرو بن العاص رضي الله عنه ممثلاً للمشركين وبين جعفر بن أبي طالب خطيب المسلمين ذلك اليوم.

تروي أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها تفاصيل تلك المناظرة العظيمة فتقول: «لما نزلنا أرض الحبشة جاورنا بها خير جار: النجاشي، أمناً على ديننا، وعبدنا الله تعالى، لا نؤذى ولا نسمع شيئاً نكرهه. فلما بلغ ذلك قريشاً، ائتمروا بينهم أن يبعثوا إلى النجاشي فينا رجلين منهم جلدنين، أهدوا للنجاشي هدايا مما يُستطرف من متاع مكة، فلم

(٣) قال ابن إسحاق: أسلم بعد خمسة وعشرين رجلاً، وقيل: بعد أحد وثلاثين، الإصابة (٢/٨٥).

(٤) جزء من حديث طويل تخريجه في الفقرة التالية.

ييق من بطارقه بطريق إلا دفعا إليه هديته قبل أن يكلمنا النجاشي وطلبوا منهم معونتهم عند النجاشي .

ثم إنهما قدما هداياهم إلى النجاشي فقبلها منهما، ثم كلماه فقالا له : أيها الملك : إنه قد ضوى إلى بلدك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينك، وجأؤوا بدين ابتدعوه، لا نعرفه نحن ولا أنت . وقد بعثنا إليك منهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرتهم لتردهم إليهم، فهم أعلى بهم عينا، وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه .

قالت : فقلت بطارقه حوله : صدقاً أيها الملك، قومهم أعلى بهم عينا، وأعلم بما عابوا عليهم فأسلمهم إليهما فليرداهم إلى بلادهم وقومهم .

قالت : فغضب النجاشي ثم قال : لاها الله - أي لا والله - إذن لا أسلمهم إليهما ولا يكاد، قوم جاوروني، ونزلوا بلادي، واختاروني على من سواي حتى أدعوهم فأسألهم عما يقول هذان في أمرهم، فإن كانوا كما يقولان أسلمتهم إليهما، ورددتهم إلى قومهم، وإن كانوا على غير ذلك منعهم منهما، وأحسن جوارهم ما جاوروني .

قالت : ثم أرسل إلى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعاهم، فلما جاءهم رسوله اجتمعوا، ثم قال بعضهم لبعض : ما تقولون للرجل إذا جثتموه، قالوا : نقول والله ما علمنا، وما أمرنا به نبينا صلى الله عليه وسلم كائناً في ذلك ما هو كائن .

فلما جاؤوا - وقد دعا النجاشي أساقفته فنشروا مصاحفهم حوله -
سألهم فقال لهم: ما هذا الدين الذي قد فارقتم فيه قومكم، ولم تدخلوا
في ديني ولا في دين أحد من هذه الملل؟ قالت: فكان الذي كلمه
جعفر بن أبي طالب فقال له: أيها الملك! كنا قوماً أهل جاهلية، نعبد
الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء
الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله
إلينا رسولاً منا يعرف نسبه وصدقه، وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله
لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من الحجارة والأوثان،
وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة...

قالت: فعدد عليه أمور الإسلام؛ فصدقناه وآمنا به واتبعناه على
ما جاء به من الله، فعبدنا الله وحده، فلم نشرك به شيئاً، وحرمنا ما
حرم علينا وأحللنا ما أحل لنا. فعدا علينا قومنا، فعذبونا وفتنونا عن
ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله وأن نستحل الخبائث.
فلما قهرونا وظلمونا، وضيقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا
إلى بلادك، واخترناك على من سواك، ورجونا أن
لا نظلم عندك أيها الملك.

قالت: فقال النجاشي: هل معك مما جاء به عن الله من شيء؟
قالت: فقال له جعفر: نعم، فقال له النجاشي: فاقرأه، قالت: فقرأ
عليه صدرّاً من [كهيعص] قالت: فبكى والله النجاشي حتى اخضلت
لحيته، وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم، حين سمعوا ما تلا عليهم.

ثم قال النجاشي: إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة. انطلقا فلا والله لا أسلمهم إليكما ولا يكادون.

قالت: فلما خرجا من عنده، قال عمرو بن العاص: والله لآتينه غداً عنهم بما أستأصل به خضراءهم: والله لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى بن مريم عبد. قالت: ثم غدا عليه من الغد فقال: أيها الملك: إنهم يقولون في عيسى بن مريم قولاً عظيماً؛ فأرسل إليهم فسلمهم عما يقولون فيه. قالت: فأرسل إليهم ليسألهم عنه قالت: ولم ينزل بنا مثلها قط؛ فاجتمع القوم ثم قال بعضهم لبعض: ماذا تقولون في عيسى بن مريم إذا سألكم عنه؟ قالوا: نقول والله ما قال الله، وما جاءنا به نبينا كائنا في ذلك ما هو كائن.

قالت: فلما دخلوا عليه قال لهم: ماذا تقولون في عيسى بن مريم؟ قالت: فقال: جعفر بن أبي طالب: نقول فيه الذي جاءنا به نبينا صلى الله عليه وسلم، هو عبدالله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول. قالت: فضرب النجاشي بيده إلى الأرض فأخذ منها عوداً ثم قال: والله ما عدا عيسى بن مريم ما قلت هذا العود، قالت: فتناخرت بطارقه حوله حين قال ما قال. فقال: وإن نخرتم والله، اذهبوا فأنتم شيوم بأرضي - أي آمنون - من سباكم غرم - قالها ثلاثاً - ما أحب أن لي دبراً من ذهب وأني آذيت رجلاً منكم.

وفي رواية قال: مرحباً بكم وبمن جئتم من عنده، أشهد أنه رسول الله، وأنه الذي نجد في الإنجيل، وأنه الرسول الذي بشر به

عيسى بن مريم؛ انزلوا حيث شئتم، والله لولا ما أنا فيه من الملك لأتيته حتى أكون أنا الذي أحمل نعليه، قالت: وأمر لنا بطعام وكسوة». حديث صحيح عظيم أخرجه أحمد وابن إسحاق وأبو نعيم^(٥).

وهكذا كان جعفر رضي الله عنه خطيب القوم والمحامي عنهم؛ بل كان إسلام النجاشي على يديه وتلك منقبة عظيمة. وبقي جعفر مع من بقي من المسلمين في الحبشة.

فلما ظهر الإسلام وكان عام فتح خيبر، هاجر جعفر ومن معه من الحبشة إلى المدينة. فلما رجع النبي صلى الله عليه وسلم من خيبر تلقاه جعفر فالتزمه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقبّل بين عينيه وقال: «ما أدري بأيهما أنا أفرح، بقدوم جعفر أم بفتح خيبر». أخرجه الحاكم مرسلًا صحيحاً^(٦).

(٥) أخرجه أحمد (٢٠١/١) وأبونعيم في الحلية (١١٥/١) وابن إسحاق في سيرته (١٩٤-١٩٧) وعنه ابن هشام (٣٤٤/١) والسياق منه، إلا أنني اختصرته فمأذكرت عقبه نقط فهو من حذف للاختصار، قال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح غير ابن إسحاق وقد صرح بالسماع، انظر: مجمع الزوائد (٢٧/٦) وذكره الذهبي في السيرة النبوية وقال: رواها جماعة عن ابن إسحاق (١١٧) وصححه الشيخ شاکر في شرحه على المسند (١٧٤٠).

(٦) أخرجه الطبراني في الكبير (١٠٠/٢٢) برقم (٢٤٤) والأوسط (٢٠٠٣) والصغير (٢٠/١) برقم (٣٠) والحاكم وقال: إنما ظهر بمثل هذا الإسناد الصحيح مرسلًا، قال الذهبي: وهو الصواب (٢١١/٣) وذكره ابن الأثير في أسد الغابة (٥٤٢/١) وابن حجر في الإصابه (٨٦/٢) والهيثمي في المجمع وعزاه للطبراني في الثلاثة وذكر أن في رجال الكبير أنس بن سلم ولم يعرفه قال: =

وعلى الرغم من أن جعفرًا كان من أعلام الجهاد، آتاه الله قوة في لسانه فلا يحتاج، مع قوته وثباته في القتال فإنه كان متواضعاً طائعاً لله ورسوله.

لما جهز رسول الله صلى الله عليه وسلم جيش مؤتة جعل أميرهم مولاه زيد بن حارثة ثم جعفرًا ثم ابنَ رواحة، فلم يغضب من ذلك جعفر؛ بل وثب وقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: «بأبي أنت وأمي! ما كنت أرهب أن تستعمل زيداً عليّ»^(٧).

وانطلق جيش مؤتة وقاتل المسلمون الروم حتى قتل زيد، فاستلم إمارة الجيش جعفر فقاتل قتالاً مريراً حتى قتل ثم عقبه ابنُ رواحة، قال من رأى جعفرًا يوم مؤتة: «لكأني أنظر إلى جعفر يوم مؤتة حين اقتحم عن فرسٍ له شقراء فعفرها ثم قاتل حتى قتل»^(٨)، قال ابن

= وبقيّة رجاله ثقات (٢٧٢/٩) وذكره الذهبي في السير وعزاه محققه لطبقات ابن سعد، انظر السير (٢١٣/١٠).

(٧) سير أعلام النبلاء (٢٠٩/١).

(٨) أخرجه أبو داود في الجهاد باب في الدابة تعرب في الحرب وقال عقبه: هذا الحديث ليس بالقوي (٢٥٧٣) وأبو نعيم في الحلية (١١٨/١) والبيهقي في الدلائل (٣٦٣/٤) والطبري في تاريخه (١٠٨/٣) وابن إسحاق كما في سيرة ابن هشام (٣٧٨/٢) والحاكم وعزاه الذهبي في التلخيص للترمذي والنسائي ولم أجده عندهما، انظر: المستدرک مع التلخيص (٢٣٠/٣) وعزاه الهيثمي للطبراني وقال: ورجاله ثقات. انظر: المجمع (١٥٩-١٦٠) وحسنه الحافظ في الفتح (٥٨٤/٧) والألباني في صحيح سنن أبي داود (٢٢٤٣) =

إسحاق: «وهو أول من عقر في الإسلام»^(٩).

قاتل رضي الله عنه حتى قتل، لم يفر من كثرة العدد، ولم يرهب قوة العدو؛ بل كان ثابتاً مقداماً. أتدرون كم كانت جراحه رضي الله عنه؟ جاءت في أخبار لولا ثبوتها في صحيح البخاري وغيره لما كانت تصدق.

روى البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما: «أنه وقف على جعفر يومئذ وقد قتل قال: فعددت به خمسين بين طعنة وضربة ليس منها

= وقال الشيخ أحمد شاكر: «صرح ابن إسحاق بسماعه من يحيى بن عباد، وهو كذلك في سيرة ابن هشام عن ابن إسحاق والحديث صحيح» اهـ من تعليقه على سنن أبي داود (٦٣/٣).

قال الخطابي في شرحه: «هذا يفعله الفارس في الحرب إذا أزحق وأيقن أنه مغلوب فينزل ويجابه العدو راجلاً، وإنما يعقر فرسه لئلا يظفر به العدو فيقوى به على قتال المسلمين. وقد اختلف الناس في الفرس يقف على صاحبه فيعقره لئلا يظفر به العدو فرخص فيه مالك بن أنس. وعن أبي حنيفة أنه قال: إذا ظفر المسلمون بدواب ومواش فعجزوا عن حملها ذبحوها وحرقوا لحومها، وكره ذلك الأوزاعي والشافعي وأحمد بن حنبل، واحتج الشافعي بحديث النبي صلى الله عليه وسلم «من قتل عصفوراً فما فوقه بغير حق سأل الله تعالى عن قتله» واحتج بنهيه عن قتل الحيوان إلا لمأكله، قال: وأما أن يعقر بالفارس من المشركين فله ذلك؛ لأن ذلك أمر يجد به السبيل إلى قتل من أمر بقتله. وضعف أبو داود إسناد حديث جعفر وكره أيضاً عقر الدابة.

اهـ. انظر: معالم السنن بهامش سنن أبي داود (٦٣/٣).

(٩) سير أعلام النبلاء (٢٠٩/١) والإصابة (٨٦/٢).

شيء في دبره - يعني في ظهره - ^(١٠)، وفي البخاري أيضاً عن ابن عمر : «وجدنا ما في جسده بضعا وتسعين من طعنة ورمية» ^(١١) وجاء في حديث آخر عند الحاكم وغيره : «أخذ اللواء بيده اليمنى فقطعت ثم باليسرى فقطعت فعوضه الله عنهما بجناحين يطير بهما في الجنة» ^(١٢)، وفي الطبراني بإسناد حسن من حديث عبدالله بن جعفر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «هنيئاً لك يا عبدالله ابن جعفر أبوك يطير مع الملائكة في السماء»، وعند الترمذي وصححه ابن حبان من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «رأيت جعفرأ يطير في الجنة مع الملائكة» ^(١٣) وفي صحيح البخاري : «أن ابن عمر كان إذا سلم على عبدالله بن جعفر قال : السلام عليك يا ابن ذي الجناحين» ^(١٤).

(١٠) أخرجه البخاري في المغازي باب غزوة مؤتة (٤٢٦٠).

(١١) أخرجه البخاري في المغازي باب غزوة مؤتة (٤٢٦١).

(١٢) أخرجه الحاكم وسكت عنه الذهبي (٢٣٢/٣) وقد ذكر الحافظ في الفتح عدداً من الأحاديث الحسنة في شأن جناحي جعفر رضي الله عنه (٩٦/٧).

(١٣) أما حديث عبدالله بن جعفر فأخرجه الطبراني، وحسنه الحقاظ ابن حجر في الفتح (٩٦/٧) والهيثم في مجمع الزوائد (٢٧٣/٣) والمنذري في الترغيب والترهيب (٢٨٨/٢) برقم (٢٠٣٥). وأما حديث أبي هريرة فأخرجه الترمذي في المناقب باب مناقب جعفر بن أبي طالب أخي علي رضي الله عنهما (٢٧٦٣) وصححه ابن حبان (٤٠٤٧) والحاكم وقال : على شرط مسلم، ووافقه الذهبي (٢١٢/٣).

(١٤) أخرجه البخاري في فضائل الصحابة باب مناقب جعفر (٣٧٩).

وقد حزن النبي صلى الله عليه وسلم على جعفر، قالت عائشة رضي الله عنها: «لما جاءت وفاة جعفر عرفنا في وجه النبي صلى الله عليه وسلم الحزن»^(١٥).

وعن عبدالله بن جعفر قال: «جاء النبي صلى الله عليه وسلم بعد ثلاث من موت جعفر فقال: لا تبكوا على أخي بعد اليوم، وادعوا لي الحلاق، فجيء بالحلاق فحلق رؤوسنا ثم قال عليه الصلاة والسلام مداعباً: أما محمد فشبيه عمنا أبي طالب، وأما عبدالله فشبيه خَلْقِي وخُلْقِي، قال عبدالله: ثم أخذ بيدي فأشالها وقال: اللهم اخلف جعفرًا في أهله وبارك لعبدالله في صفقة يمينه قالها ثلاثاً، قال عبدالله: وجاءت أمنا فذكرت له يتمنا وجعلت تُفرح له، فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم: العَيْلَةُ تخافين عليهم وأنا وليهم في الدنيا والآخرة»^(١٦).

(١٥) أخرجه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي (٢٣٢/٣).

(١٦) أخرجه أحمد (٢٠٤-٢٠٥/١) من مسند عبدالله بن جعفر، وذكره ابن كثير في البداية وقال: رواه أبو داود ببعضه والنسائي في السير بتمامه من حديث وهب بن جرير به (٢٥١/٤) والهيثمي في المجمع وقال: روى أبو داود وغيره بعضه، رواه أحمد والطبراني ورجالهما رجال الصحيح (١٥٦-١٥٧) وصححه الشيخ أحمد شاكر في تخريجه للمسند برقم (١٧٥٠) وذكر قوله: «وجعلت تفرح له» ونقل عن النهاية قول أبي موسى: هكذا وجدته بالحاء المهملة، وقد أضرب الطبراني عن هذه الكلمة فتركها من الحديث، فإن كان بالحاء فهو من أفرحه إذا غمه وأزال عنه الفرح، وأفرحه الدين إذا أثقله، وإن كانت بالجيم فهو من المفرج الذي لا عشيرة له فكانها أرادت أن أباهم توفي =

اللهم ارض عن جعفر وأرضه، وارض عن الصحابة أجمعين،
واحشرنا في زمرةهم يارب العالمين، وألحقنا بهم في دار النعيم، وأقول
قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.

الخطبة الثانية

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على
الظالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ولي الصالحين،
وأشهد أن محمداً عبده ورسوله النبي الأمين صلى الله وسلم وبارك
عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين،
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (١٠٢)
[آل عمران].

أيها الإخوة المؤمنون: كان هذا الإمام الكبير، والصاحب الجليل
جواداً كريماً، محباً للضعفاء والمساكين، قال أبو هريرة رضي الله
عنه: «إن كنت لألصق بطني بالحصباء من الجوع، وإن كنت لاستقرئ
الرجل الآية وهي معي كي ينقلب بي فيطعمني، وكان أخير الناس
للمسكين جعفر بن أبي طالب، كان ينقلب بنا فيطعمنا ما كان في
بيته؛ حتى إن كان ليخرج إلينا العكة التي ليس فيها شيء فنشقها
فنلحق ما فيها» (١٧).

= ولا عشيرة لهم، والرواية الثابتة في المسند وابن كثير بالحاء المهملة، انظر:
شرح المسند لأحمد شاكر (٣/ ١٧٥).

(١٧) أخرجه البخاري في فضائل الصحابة باب مناقب جعفر (٣٧٠٨).

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يكنيه أبا المساكين^(١٨).

وأخرج الإمام أحمد والترمذي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: «ما احتذى النعال، ولا ركب المطايا بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أفضل من جعفر بن أبي طالب»^(١٩) يعني في الجود والكرم.

أيها الإخوة: كانت هذه إطلالة سريعة على سيرة هذا الصاحب الجليل، الكبير الشأن، العظيم المنزلة في إيمانه وصبره، وهجرته وجهاده، وأخلاقه وصفاته.

رجال باعوا نفوسهم لله تعالى، هم أفاضل البشر رغم أنوف المنافقين والمارقين. يجب أن تقرأ سيرتهم، وأن تحفظ مكانتهم كما حفظها الله تعالى؛ فقد ترضى عنهم، فقال سبحانه: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (١٠٠) [التوبة].

(١٨) الإصابة (٨٦/٢).

(١٩) أخرجه أحمد (٤١٣/٢) والترمذي في المناقب باب مناقب جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه وقال الترمذي: حديث حسن صحيح غريب (٣٧٦٤) والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (٢٣٣/٣) وصححه الحافظ في الإصابة (٨٦/٢).

ما أجمل أن يربى على سيرتهم شباب المسلمين وناشئتهم، وأن يقرأها كبارهم. ما أحسن أن تعطر بها المجالس، ويقضى بسماعها وقت الفراغ؛ ففيها أحكام الشرع، وأخبار الجهاد والكفاح، وأنباء البطولات والملاحم، وفيها العبرة والعظة فرضي الله عنهم وأرضاهم. ألا وصلوا وسلموا على نبيكم محمد بن عبدالله كما أمركم بذلك ربكم...



١٥٨- سيرة عبدالله بن مسعود رضي الله عنه

الجمعة ١٤ / ١٠ / ١٤١٧ هـ

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (١٠٢) ﴿[آل عمران]﴾ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ (١) ﴿[النساء]﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ (٧١) ﴿[الأحزاب]﴾.

أما بعد: فبذكر أخبار الصالحين تستروح القلوب المؤمنة، وتبصرُ الحقَّ أعينٌ غشيتها الباطل، وتستبينُ الطريقَ أقوامٌ أضلته، وتلحقُ بالركب فتأم تخلف عنه. فذكر الصالحين يُعطرُ المجالس، ويُطربُ الأسماع ولا سيما إذا كانوا من الصحب الكرام؛ إذ هم قدوتنا.

وهذه سيرة أحدهم، هاجر الهجرتين، وصلى إلى القبلتين، وشهد المشاهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو الذي أجهز على أبي جهل، وبأيع بيعة الرضوان، وشهد له رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة^(١)، وكان من السابقين إلى الإسلام حتى قال: «لقد

(١) انظر: أسد الغابة لابن الأثير (٣/ ٣٨٣).

رأيتني سادس ستة وما على ظهر الأرض مسلمٌ غيرُنا»^(٢)، ذلكم هو أبو عبدالرحمن الهذليُّ عبدُالله بن مسعود رضي الله عنه وأرضاه. يحكي خبر إسلامه فيقول: «كنت أرعى غنماً لعقبة بن أبي مُعيط فمرَّ بي رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «يا غلام، هل من لبن؟» قلت: نعم؛ ولكني مؤتمن، قال: «فهل من شاة لم ينزُ عليها الفحل؟» فأتيته بشاة، فمسح صِرْعَهَا فنزل لبن فحلب في إناء فشرب وسقى أبا بكر ثم قال للضرع: «اقلص» فقلص. ثم أتيته بعد هذا فقلت: يا رسول الله، علمني من هذا القول، فمسح رأسي، وقال: «يرحمك الله إنك غُلَيْمٌ معلَّم» أخرجه أحمد^(٣).

كان رضي الله عنه يُعدُّ من ضعفة الناس ومساكينهم، ومع ذلك تحمل الأذى وأسلم، قال سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: «كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ستة نفر، فقال المشركون: اطرده هؤلاء عنك فلا يجترئون علينا. وكنت أنا وابنُ مسعود وبلالٌ ورجلٌ من هذيل وآخران، فأنزل الله ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (٥٢) وكذلك فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا

(٢) أخرجه أبو نعيم (١٢٦/١) والحاكم وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي (٣٥٤/٣).

(٣) أخرجه أحمد (٣٧٩/١) والذهبي في سير أعلام النبلاء وقال: هذا حديث صحيح الإسناد (٤٦٥/١) وصححه الشيخ أحمد شاكر في شرحه على المسند (٣٥٩٨).

أَهْؤُلَاءِ مِنَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ مَنْ بَيْنَنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴿٥٣﴾ [الأنعام] أخرجه مسلم^(٤).

وعلى الرغم من ضعفه في جسده وعشيرته فإنه كان قوي الإيمان، ثابت الجنان، يتحدى المشركين بكل إباء وعزة.

قال عروة بن الزبير: «كان أول من جهر بالقرآن بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة عبدالله بن مسعود، قال: اجتمع يوماً أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: والله ما سمعت قريش هذا القرآن يُجهر لها به قط فَمَنْ رجل يسمعه؟ قال عبدالله بن مسعود: أنا، قالوا: إنا نخشاهم عليك، إنما نريد رجلاً له عشيرة يمنعونه من القوم إن أرادوه، قال: دعوني فإن الله عز وجل سيمنعني.

قال: فغدا ابن مسعود حتى أتى المقام في الضحى وقريش في أنديتها فقام عند المقام ثم قال: بسم الله الرحمن الرحيم رافعاً صوته ﴿الرَّحْمَنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢)﴾ [الرحمن] قال: ثم استقبلها يقرأ فيها. قال: وتأملوا فجعلوا يقولون: ما يقول ابنُ أم عبد، قال: ثم قالوا: إنه ليتلو بعض ما جاء به محمد. فقاموا إليه فجعلوا يضربون في وجهه، وجعل يقرأ حتى بلغ منها ما شاء الله أن يبلغ، ثم انصرف إلى أصحابه وقد أثروا في وجهه فقالوا: هذا الذي خشينا عليك، قال: ما كان أعداءُ الله أهونَ عليّ منهم الآن ولئن شئتُم لأغادينهم بمثلها، قالوا:

(٤) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة باب فضل سعد بن أبي وقاص (٢٤١٣) وابن ماجه في الزهد باب مجالسة الفقراء (٤١٢٨).

حسبك فقد أسمعتهُم ما يكرهون» أخرجه أحمد^(٥).

كان رضي الله عنه كثير الاختلاف إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وكان في السفر يعتني بفراش رسول الله صلى الله عليه وسلم وسواكه ونعليه وطهوره^(٦). حتى من كثرة اختلافه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يُظنُّ أنه من أهل بيته، قال أبو موسى الأشعري رضي الله عنه: «قدمت أنا وأخي من اليمن، فمكثنا حيناً ما نرى إلا أن عبدالله بن مسعود رجل من أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم؛ لما نرى من دخوله ودخول أمه على النبي صلى الله عليه وسلم»^(٧). وقال أبو الدرداء لعلقة لما قدم عليه: «أوليس عندكم ابنُ أم عبد صاحبُ النعلين والوسادة والمطهرة...»^(٨).

وبسبب هذه الملازمة أخذ ابنُ مسعود الهدى والسمت من رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى كان يُشَبَّه به، قال حذيفة بن اليمان رضي

(٥) أخرجه أحمد في فضائل الصحابة (١٥٣٥) وابن الأثير في أسد الغابة (٣/٣٨٣) وذكره ابن هشام في السيرة (١/٣١٤) وهو من مراسيل عروة ورجاله ثقات.

(٦) أخرجه ابن سعد (٣/١٥٣) ونحوه في الحلية (١/١٢٦)

(٧) أخرجه البخاري في فضائل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم باب مناقب عبدالله بن مسعود رضي الله عنه (٣٧٦٣) وأيضاً (٤٣٨٤) واللفظ له، ومسلم في فضائل الصحابة باب فضائل عبدالله بن مسعود وأمّه رضي الله عنهما (٢٤٦٠) والترمذي في المناقب باب مناقب عبدالله (٣٨٠٦).

(٨) أخرجه الحاكم وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبي (٣/٣٥٧) وأخرجه بنحوه الترمذي من حديث أبي هريرة وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب (٣٨١١).

الله عنهما: «إن أشبه الناس هدياً وسمتاً ودلاً بمحمد صلى الله عليه وسلم عبدُ الله بن مسعود من حين يخرج إلى حين يرجع فما أدري ما في بيته، ولقد علم المحفوظون من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم أن ابنَ أم عبد من أقربهم وسيلة عند الله يوم القيامة» صححه الترمذي والحاكم والذهبي^(٩).

ولقد أخذ القرآن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى كان عالماً به، من كبار من يؤخذ عنهم القرآن من الصحابة؛ بل جعله النبي صلى الله عليه وسلم في مقدمة القراء. روى عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «خذوا القرآن من أربعة: من ابن مسعود وأبي بن كعب ومعاذ بن جبل وسالم مولى أبي حذيفة» قال عبد الله بن عمرو في ابن مسعود: «لا أزال أحبه بعدما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم بدأ به»^(١٠).

ويبين مدى علمه بكتاب الله فيقول رضي الله عنه: «والله الذي لا إله غيره، ما أنزلت سورة من كتاب الله إلا أنا أعلم أين نزلت، ولا أنزلت آية من كتاب الله إلا أنا أعلم فيمن نزلت، ولو أعلم أحداً أعلم

(٩) أخرجه الترمذي في المناقب باب مناقب عبد الله بن مسعود وقال: هذا حديث حسن صحيح (٣٨٠٧) والحاكم واللفظ له وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبي (٣٥٦/٣).

(١٠) أخرجه البخاري في فضائل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم باب مناقب سالم مولى أبي حذيفة رضي الله عنه (٣٧٥٩) ومسلم في فضائل الصحابة باب من فضائل عبد الله بن مسعود وأمه رضي الله عنهما (٢٤٦٤) وأحمد في المسند (١٩٠/٢) وفي فضائل الصحابة (١٥٤٩).

مني بكتاب الله تبلغه الإبل لركبت إليه» أخرجه الشيخان ^(١١).
ولهذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب سماع القرآن من
ابن مسعود رضي الله عنه حتى قال له يوماً: «اقرأ علي القرآن» قال:
قلت: يا رسول الله: أقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال: «إني أشتهي أن
أسمعه من غيري»، فقرأت عليه سورة النساء حتى بلغت ﴿فَكَيْفَ إِذَا
جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ (٤١) [النساء] فغمزني
برجله؛ فإذا عيناه تذرفان» متفق عليه ^(١٢).

وقال علقمة: «جاء رجل إلى عمر فقال: إني جئتكم من عند رجل
يملي المصاحف عن ظهر قلب؛ ففزع عمر، فقال: ويحك! انظر ما
تقول، وغضب، فقال: ما جئتكم إلا بالحق، قال: من هو؟ قال: عبدالله
ابن مسعود، فقال: ما أعلم أحداً أحقَّ بذلك منه، وسأحدثك عن عبدالله:
إنا سمرنا ليلة في بيت أبي بكر في بعض ما يكون من حاجة النبي
صلى الله عليه وسلم، ثم خرجنا ورسول الله صلى الله عليه وسلم
بيني وبين أبي بكر فلما انتهينا إلى المسجد إذا رجل يقرأ، فقام النبي
صلى الله عليه وسلم يستمع إليه فقلت: يا رسول الله، أعثمت، فغمزني

(١١) أخرجه البخاري في فضائل القرآن باب القراء من أصحاب النبي صلى الله
عليه وسلم (٥٠٠٢) ومسلم بنحوه في فضائل الصحابة باب من فضائل عبدالله
بن مسعود وأمه رضي الله عنهما (٢٤٦٣).

(١٢) أخرجه البخاري في فضائل القرآن باب من أحب أن يستمع القرآن من غيره
(٤٠٤٩) ومسلم في المسافرين باب فضل استماع القرآن (٨٠٠) والترمذي
في التفسير باب ومن سورة النساء (٣٠٢٨).

بيده: اسكت، قال: فقرأ وركع وسجد، وجلس يدعو ويستغفر، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «سل تعطه» ثم قال: «من سره أن يقرأ القرآن رطباً كما أنزل فليقرأ قراءة ابن أم عبد» فعلمت أنا وصاحبي أنه عبد الله، فلما أصبحت غدوت إليه لأبشره، فقال: سبقك بها أبو بكر، وما سابقته إلى خير قط إلا سبقني إليه» أخرجه أبو نعيم وأحمد بنحوه^(١٣).
كان رضي الله عنه تلاءً للقرآن، يحيي به ليله كما روى عون بن عبد الله عن أخيه عبيد الله قال: «كان عبد الله إذا هدأت العيون قام فسمعت له دويّاً كدويّ النحل»^(١٤).

وقد بلغ ابن مسعود عند رسول الله صلى الله عليه وسلم منزلة عظيمة، وتبوأ مكاناً عالياً حتى قال عليه الصلاة والسلام في حقه: «رضيت لأمتي ما رضي لها ابن أم عبد» أخرجه الحاكم مرسلًا ومسنداً وصححه ووافقه الذهبي^(١٥).

(١٣) أخرجه أحمد (٤٤٥/١) وابن ماجه في السنة باب فضل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، من دون ذكر القصة (١٣٨) وأبو نعيم في الحلية، والقصة واللفظ له (١٢٤/١) والحاكم وصححه، وقال: على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي (٣١٨/٣) وصححه الشيخ أحمد شاكر في شرحه على المسند (٤٢٥٥) ثم الألباني في السلسلة الصحيحة (١/٢٣٠).

(١٤) أخرجه ابن أبي شيبة (٦٦١٧) والحاكم (٣٥٦/٣).

(١٥) أخرجه الحاكم مرسلًا عن القاسم بن عبد الرحمن برقم (٥٣٨٨) ومسنداً من حديث زيد بن وهب عن عبد الله بن مسعود (٥٣٨٧) وله شاهد من حديث عمرو بن حريث عند الحاكم أيضاً برقم (٥٣٩٤) وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي، انظر: المستدرک (٣/٣٥٩-٣٦١).

وما نال تلك المنزلة إلا لأنه كان معظماً لله تعالى، معظماً لكتابه، محتفياً بسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، يرتعد عند التحديث بها. روى الإمام أحمد بإسناده إلى مسروق قال: «حدثنا عبدالله يوماً فقال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فرعُد حتى رَعُدت ثيابه، ثم قال: نحوذا أو شبيهاً بذا» (١٦).

وقال عمرو بن ميمون: «كان عبدالله تأتي عليه السنة لا يحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فحدث ذات يوم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بحديث فعلقه كآبة وجعل العرق يتحادر على جبهته ويقول: نحو هذا أو قريباً من هذا» أخرجه الحاكم وصححه (١٧).

وكان رضي الله عنه فقيهاً عالماً بالفرائض، استُفتي أبو موسى الأشعري في المواريث فأخطأ فصوبه ابن مسعود فقال أبو موسى: «لا تسألوني ما دام هذا الخبر فيكم» أخرجه البخاري (١٨). ولذلك كان أبو موسى رضي الله عنه يقول: «مجلسٌ كنت أجالسه ابن مسعود أوثقُ في نفسي من عمل سنة» (١٩).

(١٦) أخرجه أحمد (٤٢٣/١).

(١٧) أخرجه الحاكم وصححه على شرط الشيخين وقال الذهبي في التلخيص: على شرط البخاري ومسلم (٣١٤/٣).

(١٨) أخرجه البخاري في الفرائض باب ميراث ابنة ابن مع ابنة واللفظ له (٦٧٣٦) وأبو داود في الفرائض باب ما جاء في ميراث الصلب (٢٨٩٠) والترمذي في أبواب الفرائض باب ما جاء في ميراث بنت الابن مع بنت الصلب (٢٠٩٣) وأحمد (٤٦٣/١).

(١٩) المعرفة والتاريخ (٥٤٥/٢) وسير أعلام النبلاء (٤٩٣/١).

وقد شهد له أكابر الصحابة بالعلم كعمر بن الخطاب رضي الله عنه قال زيد بن وهب: «إني جالس مع عمر بن الخطاب إذ جاء ابن مسعود فكاد الجلوس يوارونه من قصره، فضحك عمر حين رآه، فجعل عمر يكلمه، ويتهلل وجهه ويضحكه وهو قائم عليه ثم ولّى فأتبعه عمر بصره حتى توارى، فقال: كُنَيْفٌ مُلِيٌّ علماً»^(٢٠) أي: وعاءٌ مليءٌ علماً. وأثنى عليه علي بن أبي طالب رضي الله عنه فمما قال فيه: «قرأ القرآن وأحلّ حلاله، وحرم حرامه، فقيهٌ في الدين، عالمٌ بالسنة»^(٢١). وشهد له النبي صلى الله عليه وسلم بأن موازينه تثقل به يوم القيامة رغم أنه كان قصيراً خفيف اللحم، قال علي بن أبي طالب: أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ابن مسعود فصعد شجرة يأتيه منها بشيء، فنظر أصحابه إلى ساق عبد الله فضحكوا من حموشة ساقه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «م تضحكون؟ لَرَجُلٌ عبد الله أثقلُ في الميزان يوم القيامة من أحد» أخرجه أحمد^(٢٢).

كان رضي الله عنه حريصاً على جمع الكلمة، ملتزماً السمع والطاعة

(٢٠) طبقات ابن سعد (٢/٢٦٢) والحلية (١/١٢٩) وسير أعلام النبلاء (١/٤٩١).

(٢١) سير أعلام النبلاء (١/٤٩٢).

(٢٢) أخرجه أحمد (١/١١٤) وأبونعيم (١/١٢٧) وأبو يعلى (٥٣٩) وابن سعد

(٣/١٥٥) من حديث علي رضي الله عنه، وقال الهيثمي في المجمع: رواه

أحمد وأبو يعلى والطبراني ورجالهم رجال الصحيح غير أم موسى وهي ثقة

(٩/٢٨٨) وبنحوه حديث معاوية بن قرة عن أبيه أخرجه الحاكم وصححه

ووافقه الذهبي (٣/٣١٧) وحسنه الحافظ في الإصابة (٦/٢١٧).

في عسره ويسره، ومنشطه ومكرهه، بعيداً عن الفتنة وأهلها مع أنه كان متبوعاً في الدين، إماماً للناس، له أتباعٌ يأترون بأمره، ويتتهون بنهيه. وكان بينه وبين عثمان رضي الله عنه خلاف في مسائل فبعث إليه عثمانُ يأمره بالمجيء من الكوفة إلى المدينة؛ فاجتمع إليه الناس فقالوا: أقم فلا تخرج ونحن نمنعك أن يصل إليك شيء تكرهه، فقال: «إن له عليّ طاعة، وإنها ستكون أمور وفتن لا أحب أن أكون أول من فتحها، فردّ الناسَ وخرج إليه»^(٢٣).

فرضي الله عنه وعن عثمان وعن الصحابة أجمعين، ما أقوى إيمانهم، وما أشد اتباعهم، وما أعظم تحريهم للحق. كان الواحد منهم ينتصر للحق لا لنفسه؛ فكان الخلاف بينهم محموداً، لأنه خلافٌ سببه اجتهادٌ في الوصول إلى الحق، وليس خلافاً فيه إثباتٌ للرأي، وانتصار للنفس ولو كان على حساب الحق والدليل كما في كثير من خلاف الخلف المتأخرين. فاللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه، وأقول قولِي هذا وأستغفر الله لي ولكم فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

الخطبة الثانية

الحمد لله حمداً طيباً كثيراً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى،

(٢٣) أخرجه ابن الأثير في أسد الغابة (٣/٣٨٧) وذكره الذهبي في السير (١/

٤٨٩) والحافظ في الفتح (٦/٢١٧) وعزاه لابن سعد كما في الإصابة (٦/

٢١٧) ورجاله ثقات.

أحمده وأشكره وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم عليه وآله وصحبه ومن سار على نهجهم واقتفى أثرهم إلى يوم الدين.

أما بعد: فلقد كان لهذا الصحابي الجليل أقوال ومأثورات تدل على أنه أوتي علماً وحكمة، كما تظهر مدى زهده في الدنيا، وإيثاره الآخرة عليها، فمن أقواله رضي الله عنه: «من أراد الآخرة أضرب بالدنيا، ومن أراد الدنيا أضرب بالآخرة، يا قوم فأضربوا بالفاني للباقي»^(٢٤).

وقال رضي الله عنه: «ارض بما قسم الله تكن من أغنى الناس، واجتنب المحارم تكن من أروع الناس، وأد ما افترض عليك تكن من أعبد الناس»^(٢٥).

وكان رضي الله عنه يبغض المنافقين ويقول: «جاهدوا المنافقين بأيديكم، فإن لم تستطيعوا فبالستكم، فإن لم تستطيعوا إلا أن تكفهرُوا في وجوههم فافعلوا»^(٢٦).

ما أحوجنا في هذا العصر مع انتشار النفاق وكثرة المنافقين أن ننكر عليهم، ونجاهدهم، ونسأل الله تعالى أن يفضحهم، ويظهر عوراتهم للناس؛ فذلك من الولاء لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم ولدينه، كما أن فيه اقتفاءً لأثر الصحابة رضي الله عنهم.

(٢٤) سير أعلام النبلاء (١/٤٩٦).

(٢٥) سير أعلام النبلاء (١/٤٩٧).

(٢٦) المصدر السابق (١/٤٩٧).

أيها الإخوة: ومع هذه المكانة والمنزلة لهذا الإمام الكبير؛ إذ كان من السابقين والمجاهدين، والعلماء العاملين، فإنه كان مزرياً بنفسه، متواضعاً لله تعالى، حذراً أن يداخله كِبَرٌ أو عَجَبٌ، فكان يقول: «لو تعلمون ذنوبي ما وطئ عقي رجلاً، ولحيتم على رأسي التراب، ولوددت أن الله غفر لي ذنباً من ذنوبي وأني دُعيت عبدالله بن روثة»^(٢٧).
جاء في سيرته رضي الله عنه أنه مرض فعاده عثمان وقال: «ما تشكي؟ قال: ذنوبي، قال: فما تشتهي؟ قال: رحمة ربي؟ قال: ألا أمر لك بطبيب؟ قال: الطبيبُ أمرضني، قال: ألا أمر لك بعطاء؟ قال: لا حاجة لي فيه»^(٢٨).

عاش بضعا وستين سنة، وتوفي سنة ثلاث وثلاثين، وأوصى أن يصلي عليه الزبير بن العوام.^(٢٩) وجاء نعيه إلى أبي الدرداء فقال: «ما ترك بعده مثله»، صححه الحافظ^(٣٠) وقال أبو وائل: «ما أعدلُ بابن مسعود أحداً»^(٣١)، وقال الأعمش: «كان شقيقاً يذكر صحابة النبي صلى الله عليه وسلم فلم يذكر ابن مسعود! فقلت له: أراك لا تذكر ابن مسعود

(٢٧) أخرجه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي (٣٥٧/٣).

(٢٨) سير أعلام النبلاء (٤٩٨/١).

(٢٩) ذكر ذلك الذهبي في السير (٤٩٩/١) وفي أسد الغابة أن الذي صلى عليه عثمان، وقيل: عمار بن ياسر، وقيل: الزبير رضي الله عنهم (٣٨٧/٣) ووفاته سنة ٣٢ هـ وقيل: سنة ٣٣ هـ.

(٣٠) أخرجه البخاري في التاريخ الصغير (٦٠/١) وصححه الحافظ في الإصابة (٢١٧/٦).

(٣١) سير أعلام النبلاء (٤٩٤/١).

قال: «ذاك رجل لا أفضل عليه أحداً»^(٣٢)، قال الشعبي: «ما دخل الكوفة أحد من الصحابة أنفع علماً ولا أفقه صاحباً من عبدالله»^(٣٣).
 أيها الإخوة: هذه قطوف من سيرة هذا الإمام الكبير، والصاحب الجليل، فيها من الخير والهدى شيء كثير لمن كان مهتدياً بهدي صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، سائراً على طريقهم، مستناً بسنتهم ففي ذلك الخير العظيم؛ فاعرفوا لهم حقهم، واقتفوا أثرهم، واحذروا الأهواء أن تضل بكم عن الصراط المستقيم، ثم صلوا وسلموا على محمد بن عبدالله كما أمركم بذلك ربكم...

* * *

(٣٢) أخرجه الحاكم وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبي (٣/٣٦١).

(٣٣) سير أعلام النبلاء (١/٤٩٤).

١٥٩- سيف الله المسلول خالد بن الوليد رضي الله عنه

الجمعة ٢٩/٤/١٤١٩هـ

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ومن سار على نهجهم، واهتدى بهداهم إلى يوم الدين.

أما بعد: فأوصيكم ونفسي بتقوى الله عز وجل، فهي وصية الله لنا ولمن قبلنا، ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾ [النساء: ١٣١].

أيها المؤمنون: ليست سيرة أبي بكر، ولا سيرة عمر، وليست سيرة سعد وخالد وأولئك الأبطال العظماء إلا فصولاً متشابهة، أو نسخاً مكررة من سيرة المعجزة الكبرى في تاريخ البشر.. سيرة الانبعاث الأعظم لقوى الخير في الإنسان.. سيرة الفتح الذي حير نوابغ القواد، وأعلام المؤرخين.. سيرة الجندي الذي كان منزوياً وراء الرمال، نائماً في وهج الشمس، لا يعرف المجد إلا في الحب والحرب.. في كأس خمر أو قصيدة شعر، أو غزوة سلب ونهب، فلما هذبتة مدرسة

الإيمان صيرته الجندي الأكمل في تاريخ الحروب. لم يعرف التاريخ جندياً أخلص منه لدينه، ولا أقدم منه إلى غايته، ولا يعرف نفساً أظهر من نفسه، ولا سيفاً أمضى من سيفه. الجندي الذي مشى في كل واد، وصعد كل جبل، خاض البحار، وعبر الأنهار، وجاب الأرض كلها حتى نصب للإسلام على كل رابية راية، وأبقى للإسلام في كل أرض وطناً لا تقوى على استلابه من أهله مردة الشياطين^(١).

هؤلاء هم صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضي الله عنهم وأرضاهم، وهذا أحدهم: كان فارس الإسلام، وليث المشاهد، وقائد الجند المجاهدين، هاجر مسلماً في السنة الثامنة للهجرة^(٢) فلقيه عمرو بن العاص في الطريق، فقال له: «إلى أين أبا سليمان؟ قال: أذهبُ والله أسلم إنه والله لقد استقام المنسم - أي الطريق - إن الرجل لنبيٍّ ما أشك فيه...»^(٣).

(١) بتصرف يسير من: رجال من التاريخ للشيخ علي الطنطاوي (٤٥).

(٢) انظر: سير أعلام النبلاء (٣٦٦/١) والإصابة (٧٠/١).

(٣) أخرجه أحمد (١٩٨/٤) وابن إسحاق كما في سيرة ابن هشام (٢٧٦/٢) والواقدي في المغازي (٧٤١/٢) والحاكم (٤٥٤/٣) وقال الساعاتي: سنده جيد (١٣٤/٢١) وقال الهيثمي: رواه أحمد والطبراني ورجالهما ثقات (٩/٣٥١). وفي رواية أحمد (المنسم) وفي رواية الحاكم (الميسم) بالياء بدل النون. قال السهيلي: «من رواه (الميسم) فهي العلامة، أي: قد تبين الأمر واستقامت الدلالة، ومن رواه (المنسم) بفتح الميم وبالنون، فمعناه: استقام الطريق، ووجبت الهجرة، والمنسم مقدّم خوف البعير، وكُنّي به عن الطريق لتوجهه به فيه» الروض الأنف (٣٨٦/٦).

شهد مؤتة والفتح وحنيناً، وحارب أهل الردة، وغزا العراق، وشهد حروب الشام، وهدم العزى فلا عزى بعدها. قاتل الأعداء من كل الأجناس، وصارع الأبطال، وبارز الشجعان، ولم يبق في جسده قيد شبر إلا وعليه طابع الشهداء، ثم بعد ذلك ما مات إلا على فراشه! فلا نامت أعين الجبناء^(٤).

لما استشهد قادة جيش مؤتة زيدٌ ثم جعفرٌ ثم ابنُ رواحة رضي الله عنهم وأرضاهم أخذ الراية ثابت بن أقرم فقال: «يا معشر المسلمين اصطلحوا على رجل منكم، قالوا: أنت، قال: ما أنا بفاعل، فاصطلح الناس على خالد بن الوليد...»^(٥).

حمل خالدُ الراية ومامعه إلا بقية ثلاثة آلاف ويحيط به من العدو مئتا ألف، وليس في الدنيا قائدٌ يستطيع أن ينقذ هذه القبضة من الرجال من وسط هذا اللج إلا أن يأتي بأعجوبة؛ وقد أتى بها خالد، واستطاع أن يخرج من لجة البحر من غير أن يبتل، وأن ينسحب من وسط اللهب من غير أن يحترق، وأن يسجل للذكاء العربي الذي هذبه الإسلام هذه المنقبة في تاريخ الحروب^(٦).

لقد عمل خطة أنقذ بها الجيش من الإبادة، شهد قادة الأعداء قبل الأصدقاء أن تاريخ الحروب لم يسجل مثلها؛ إذ كان يقاتل وهو

(٤) سير أعلام النبلاء (١/٣٦٦).

(٥) انظر: صحيح السيرة النبوية لإبراهيم العلي (٣٩١).

(٦) رجال من التاريخ (٤٧-٤٨).

يحتال للخلوص بالجيش من هذا المأزق المتضايق . وقاتل الانسحاب شاق ومرهق لاسيما وخالد لا يريد إشعار الروم بالحفاظ على الجيش وسحبه . ودخل الليل على المتحاربين فتوقف القتال ، فأعاد خالد تنظيم قواته القليلة ، فجعل مقدمته ساقته ، وساقته مقدمته ، وميمته ميسرته ، وميسرته ميمته ؛ فأنكر الأعداء ما كانوا يعرفون من رايات وهيئة المسلمين وقالوا : قد جاءهم مدد ، فرعبوا ، وكان هدف خالد مناوشتهم وإلحاق الخسائر بهم دون إدخال المسلمين في حرب عامة معهم تكون خطراً عليهم ، واكتفى بذلك ثم أثر الانصراف بمن معه^(٧) .

وهذا العمل من خالد جعل النبي صلى الله عليه وسلم يسميه سيف الله ، ويطلق على الغزوة فتحاً حيث قال عليه الصلاة والسلام : «ثم أخذ الراية سيف من سيوف الله حتى فتح الله عليهم» أخرجه البخاري^(٨) .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم لا يعدل به وبعمرو بن العاص في الحرب أحداً منذ أسلما^(٩) .

(٧) انظر : فقه السيرة للغزالي (٣٦٨) والرحيق المختوم (٣٩١) .

(٨) جاء ذلك في أحاديث عدة كما في حديث أبي عبيدة عند أحمد (٩٠ / ٤) وحديث أنس عند البخاري في فضائل الصحابة باب مناقب خالد بن الوليد (٣٧٥٧) وحديث وحشي بن حرب عند أحمد (٨ / ١) والحاكم (٢٩٨ / ٣) وعزاه الهيثمي للطبراني وقال : رجالهما ثقات (٣٤٨ / ٩) .

(٩) أخرجه البيهقي في الدلائل (٣٤٣ / ٤) .

وأثنى عليه النبي صلى الله عليه وسلم فقال: «نعم عبدالله وأخو العشيرة خالد بن الوليد» أخرجه أحمد والحاكم^(١٠).

وأثنى على عقله فقال عليه الصلاة والسلام: «قد كنت أرى لك عقلاً رجوت ألا يسلمك إلا إلى خير»^(١١).

وهذا العقل الذي مُدح به خالد صنع الأعاجيب في الحروب، وأبرز العبقریات في الشدائد.

كان رضي الله عنه لا ينام ولا ينيم إلا على تعبئة، ولا يخفى عليه من أمر عدوه شيء^(١٢).

ومن عجائب ذكائه ودهائه في فتح الأنبار: أن العدو حفروا خندقاً يمنع المسلمين الوصول إليهم فما كان من خالد رضي الله عنه إلا أن أمر بالإبل فنحرت، ثم ألقاها في الخندق، وجعلها جسوراً في الخندق المحفور حتى وصل إلى العدو وفتح الأنبار^(١٣).

امتاز خالد رضي الله عنه في قيادة الجيش بحسن التنظيم، وسرعة الحركة التي بهر بها عقول قادة الجيوش، العرب منهم والعجم؛ حيث

(١٠) أخرجه أحمد (٨/١) والحاكم (٢٩٨/٣) والطبراني في الكبير (١٢/٤) قال الهيثمي: رواه أحمد والطبراني ورجالهما ثقات (٣٤٨/٩).

(١١) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٢٥٢/٤) وابن عساكر كما في تهذيب تاريخ دمشق (٩٧/٥).

(١٢) انظر: تاريخ الطبري (٤٣٩/٣) والكمال لابن الأثير (٣٩٤/٢).

(١٣) انظر: تاريخ الطبري (٣٧٤/٣) والكمال لابن الأثير (٣٩٤/٢).

انتقل بعشرة آلاف من الحيرة في العراق إلى الشام، مخترقاً الصحراء التي ليس فيها نقطة ماء إلا ما حمله على ظهور الإبل وما ابتكره من حمل الماء في بطونها؛ فحبس الإبل عن الماء حتى ظمأت ثم أوردتها عليه حتى ارتوت ثم قطع شفاهاها، فأصبح الماء في بطونها نقياً، ينحرون عدداً منها كل يوم فيأكلونها ويشربون ما في بطونها من ماء نقي. كانت المسافة تقارب تسعمائة كيل قطعها خالدٌ بجيش جرّار في مدة لا تتجاوز خمسة أيام^(١٤).

إن الواحد منا لو قطع هذه المسافة بعربته لاحتاج أن يرتاح من عناء سفره؛ ولكن خالداً وجيشه قطعها على ظهور الإبل تحت شمس الهاجرة، ووسط برد الليل، مع الجوع والعطش والخوف. فلما وصل رأى أمامه جيشاً كثيفاً من الروم، وجيشاً أكثف منه يتجمع قريباً منه، والمجموع مئتان وأربعون ألف مقاتل مدججين بالسلاح، وجيشُ المسلمين لا يزيد على ستة وأربعين ألف مقاتل. سلاحهم ضعيف، ومنزلهم بعيد، والمدد عنهم منقطع. فما شكّا خالد بعد رحلته تعباً، ولا ابتغى راحة؛ بل حمل التبعة كاملة، وبادر إلى العمل، وجمع فصائل الجيش تحت قيادته، ونظمه فأحسن تنظيمه. وعمد إلى الجيش الرومي الأدنى فضربه في أجنادين ضربة أذهبت روعه، وأطارت صوابه، ومزقته شر ممزق.

(١٤) كانت المسافة بالتحديد ثمانمائة وستين كيلاً (٨٦٠)، وانظر: تاريخ الطبري (٤٠٨/٣) ورجال من التاريخ (٤٨).

ثم وثب إلى الجيش الآخر في اليرموك، ويوم اليرموك هو اليومُ الأغرُ في سيرة خالد رضي الله عنه، وهو من أيام الإسلام المعدودات^(١٥)، كسر فيه خالد جيش الروم القوي، وفرق شمله الكثيف، وولى الروم مدبرين، ودخلت الشام في حظيرة الإسلام بعد أن بكأها هرقل الروم وهو يقول: «عليك السلام.. سلاماً لا اجتماع بعده، ولا يعود إليك رومي أبداً إلا خائفاً»^(١٦). فأين خالدٌ وجيشه يرون الروم تصول وتجول في أرض الله، وتأمر وتنهى، وتعاهد وتغدر، وتقاطع من تشاء! وتضرب من تشاء! متى تشاء!! بكل أمنٍ واستعلاء، وتغطرس وكبرياء!! ولا يمنعها أحد، بعد أن أضاع الخلف كثيراً مما كان عليه السلف، فالله المستعان.

لقد كان أعداءُ خالد رضي الله عنه يعلمون قوة إيمانه، ويدركون حدة عقله ودهائه، ألبسهم ثياب الهزيمة ثوباً من بعد ثوب، وجرعهم كؤوس الذلّ كأساً من بعد كأس. وعرفه الروم حق المعرفة؛ وفي معركة الفِراض قال الروم لخالد: «إما أن تعبروا إلينا وإما أن نعبر إليكم، فقال خالد: بل اعبروا إلينا، قالوا: فتنحوا حتى نعبر، فقال خالد: لا نفعل ولكن اعبروا أسفل منا. وعندئذ قالت الروم والفرس بعضهم لبعض: احتسبوا ملككم، هذا رجل يقاتل عن دين، وله عقل وعلم ووالله ليُنصَرَّن ولنخْذلن، فعبروا أسفل من جيش خالد فاقتتلوا اقتتالاً

(١٥) رجال من التاريخ (٤٩).

(١٦) تاريخ الطبري (٤٤٦/٢).

شديداً حتى هزمهم خالد وجنده^(١٧).

وفي معركة كاظمة نزل على غير ماء ثم أمر مناديه فنادى: «جالدوهم على الماء فلعمري ليصيرن الماء لأصبر الفريقين، وأكرم الجندين»^(١٨).

وكان رضي الله عنه لا يعتبر بالكثرة قدر اعتباره بالصبر والتنظيم والإقدام؛ فمن مآثورات قوله: «إنما تكثر الجنود بالنصر، وتقل بالخذلان لا بعدد الرجال»^(١٩).

ومع هذه القيادة والسيادة لم يكن بذلك القائد الذي يوجه جنده ولا يُقَدِّم، أو يخطط للمعركة ولا يقاتل؛ بل كان يستأثر دون جنده بالمخاطر، ويؤثرهم بالخير والأمان، ويحب لهم ما يحب لنفسه، وكان حبهم له يزداد كلما ازداد إقداماً وبلاءً وشجاعة بدليل أن جنده الذين قاتلوا معه المرتدين، وصاحبوه في قتاله في العراق والشام عندما عادوا إلى العراق نسوا الفخر كله إلا فخرهم بأيامهم مع خالد رضي الله عنه وأرضاه^(٢٠).

ويكفي دليلاً على شدة بأسه وإقدامه أنه قاتل في مؤتة قتالاً مريراً حتى تكسرت تسعة أسياف في يده، لولا أن البخاري أخرج ذلك في

(١٧) تاريخ الطبري (٣/٣٨٣) والكامل لابن الأثير (٢/٣٩٩).

(١٨) تاريخ الطبري (٣/٣٤٩).

(١٩) تاريخ الطبري (٣/٣٩٧) والكامل لابن الأثير (٢/٤١٢).

(٢٠) انظر: تاريخ الطبري (٣/٣٤٩) والقيادة العسكرية في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم للدكتور عبدالله الرشيد (٥٩٩).

صحيحه لما كان يصدق^(٢١). ويوم الولجة في حرب الفرس جُبُنَ الناس عن فارسٍ كان يعدل في الحرب ألف رجلٍ فخرج إليه خالدٌ فبارزه فصرعه.

وما جيشٌ قابل جيش خالدٍ إلا كان مهزوماً، وما ذاق خالد طعم الهزيمة لا في الجاهلية ولا في الإسلام.

ولما ولي عمرُ الخلافة خاف افتتان الناس بخالدٍ وانتصاراته، وعقله ودهائه؛ فعزله عن القيادة ليفهمهم أن النصر من الله، وأن الله ينصرهم بخالدٍ وبغير خالد؛ ليتكلموا على الله لا على بشر مهما سما وعلا شأنه. فأبى خالد إلا أن يضم إلى انتصاراته العسكرية انتصاره على نفسه، فامثل وأطاع، وصار جندياً تحت إمرة أبي عبيدة رضي الله عنه وقال قولته المشهورة: «إني لا أقاتل لعمر؛ ولكني أقاتل لرب عمر»^(٢٢). فرضي الله عنه وأرضاه، وجعل الفردوس الأعلى مأواه. وأقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

الخطبة الثانية

الحمد لله حمداً طيباً كثيراً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى، أحمده وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا

(٢١) أخرجه أحمد في فضائل الصحابة (١٤٧٥) والبخاري في المغازي باب غزوة مؤتة (٤٢٦٥-٤٢٦٦) والبيهقي في الدلائل (٣٧٣/٤) وابن سعد في الطبقات (٢٥٣/٤) والحاكم (٤٢/٣).

(٢٢) رجال من التاريخ (٥١)، وراجع: ج (٢) ص (٩٢).

شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فإن خالداً رضي الله عنه وأرضاه لم يتخلف عن غزوة منذ أسلم، وكان في طليعة جيوش المسلمين الجرارة، ومن أبرزهم حضوراً في المعارك الحاسمة حتى شغله الجهاد عن كثرة قراءة القرآن. ونعم الشاغلُ الجهادُ في سبيل الله تعالى، قال قيس ابن أبي حازم: «سمعت خالداً يقول: منعني الجهادُ كثيراً من القراءة»^(٢٣).

ومع شجاعته وإقدامه، ورغم كثرة المعارك التي حضرها، والجراح التي أصابت جسده؛ حتى مافيه موضعُ شبرٍ إلا وفيه جرحٌ فإن الله تعالى كتب له السلامة في حروبه، وقدّر له أن يموت على فراشه، يقول رضي الله عنه: «لقد حضرت مئة زحف أو زهاءها، وما في جسدي موضعُ شبرٍ إلا وفيه ضربة أو طعنة أو رمية، وها أنا أموت على فراشي كما يموت العَيْرُ فلا نامت أعين الجبناء»^(٢٤).

لقد قوي إيمانه حتى بلغ من قوته أنه أشرب حبَّ الجهاد في سبيل الله تعالى وخدمة دينه، كان همُّه الأكبر الجهاد في سبيل الله..

(٢٣) أخرجه أبو يعلى في مسنده (١٤٣/١٣) برقم (٧١٨٨) قال الهيثمي: ورجاله رجال الصحيح (٣٥٠/٩) وصححه البوصيري في مختصر اتحاف السادة المهرة (٧٦٧١) وصححه الحافظ ابن حجر في المطالب العاليه (٢٧٧/٤) برقم (٤٠٠٨).

(٢٤) انظر: أسد الغابة (١٤٣/٢) والاستيعاب (١٦٩/٣).

تعلق به قلبه دون كل محبوب، ولا أدل على ذلك من قوله: «ما من ليلة يُهدى إليّ فيها عروسٌ أنا لها محبٌ أحبُّ إليّ من ليلةٍ شديدة البرد، كثيرة الجليد في سرية أُصَبِّح فيها العدو»^(٢٥). فله درُّ خالدٍ رضي الله عنه وأرضاه؛ وهذا الشعور يملك عليه قلبه، وتمتلئ به نفسه، حتى يكون همُّه الأكبر الجهادَ في سبيل الله تعالى، وخدمة دينه.

وما تحطمت عروشُ كسرى وقيصر، وفتحت بلدانُ الشرق والغرب إلا على أيدي رجال كان هذا همهم، وذاك شعورهم. ولما تغير ذلك الهمُّ في خلفهم، وانحصر في الدنيا وحطامها ذلوا وانهزموا، وهانوا واستيحيوا، فهل من خالدٍ وأمثال خالد يعود فيهم يوماً؟!

عن أبي وائل قال: لما حضرت خالداً الوفاة قال: «لقد طلبت القتل مظانه فلم يُقدَّر لي إلا أن أموت على فراشي، وما من عملي شيء أرجى عندي بعد التوحيد من ليلة بثُّها وأنا متترسٌ والسماء تُهلني تنتظر الصبح حتى نغير على الكفار. ثم قال: إذا متُّ فانظروا إلى سلاحي وفرسي فاجعلوه عدة في سبيل الله»^(٢٦).

فلما توفي خرج عمرٌ على جنازته وقال: «ما على آل الوليد أن يسفحن على خالد من دموعهن ما لم يكن نفعاً أو لقلقلة»^(٢٧).

(٢٥) أخرجه أبو يعلى في مسنده (١٤١/١٣) برقم (٧١٨٥) وقال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح (٣٥٠/٩) وانظر: الثقات لابن حبان (١٠١/٣).

(٢٦) أخرجه ابن المبارك في الجهاد (٥٣) والخرائطي في مكارم الأخلاق (١٧٧) والطبراني في الكبير (١٠٦/٤) برقم (٣٨١٢).

(٢٧) أخرجه ابن المبارك في الجهاد (٥٣) ونحوه عند الحاكم في المستدرک مختصراً=

ورضي الله عن خالد لم يخلف تركة وهو الذي فتح الفتوح، وهدم العروش، وغنم الغنائم، وحمل مئاقيل الذهب والفضة؛ لأنه قاتل الله تعالى لا للدرهم والدينار ولا للعرش والسلطة التي يتقاتل الناس عليها، ويبدلون في سبيلها كل شيء. قال نافع: «لما مات خالد لم يدع إلا فرسه وسلاحه وعلامه فقال عمر: رحم الله أبا سليمان كان على غير ما ظنناه به»^(٢٨). وقال عمر لما مات خالد: «قد ثلم الإسلام ثلماً لا ترتق»^(٢٩) وقال: «كان والله سداداً لنحور العدو ميمون النقية»^(٣٠). ولقد كان رضي الله عنه جديراً بمقولة أبي بكر رضي الله عنه: «عجز النساء أن يلدن مثل خالد»^(٣١) وصدق الصديق رضي الله عنه وأرضاه. أيها الإخوة: كانت تلك أجزاء يسيرة من سيرة هذا البطل الكرار، والقائد المقدام، الذي عاش ستين سنة. قضى ما يقارب شطرها في الجهاد في سبيل الله تعالى فرضي الله عنه ورضي عن الصحابة أجمعين، ألا وصلوا وسلموا على محمد بن عبد الله كما أمركم بذلك ربكم...

= وسكت عنه الذهبي في التلخيص (٢٩٧/٣) وعلقه البخاري (١٦٠/٣) وقال الحافظ في الفتح: وصله المصنف في التاريخ الأوسط (١٦١/٣)، وانظر: التاريخ الصغير للبخاري (٤٦/١) وسير أعلام النبلاء (٣٨٣/١) والإصابة (٧٤/٣) والنقع: وضع التراب على الرأس، واللقلة: رفع الصوت. (٢٨) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٢٧٩/٧) وذكره الذهبي في السير بلفظ: كان على ما ظنناه به (٣٨٣/١) والمعنى مختلف تماماً.

(٢٩) تهذيب تاريخ ابن عساكر (٩٣/٥).

(٣٠) تهذيب تاريخ ابن عساكر (١١٣/٥).

(٣١) تاريخ الطبري (٣٥٩/٣) والكامل لابن الأثير (٣٨٩/٢).

١٦٠- لمحات من سيرة عمرو بن العاص رضي الله عنه

الجمعة ١٤١٨/٢/١ هـ

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران] ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب].

أما بعد: فيحتاج المسلمون إلى تذكيرهم بسير رجالاتهم، وأخبار سابقهم، والوقوف على صفاتهم وأفعالهم؛ للاقتفاء والتأسي؛ ومن أجل تخفيف سيل الغزو الثقافي، والمسح الأخلاقي الذي يتتابع على عقول الناشئة والكبار، رجالاً ونساءً. يجرهم إلى الإعجاب برموز الشرق والغرب من الكافرين والمنافقين، أو من فساق المسلمين وشذآذهم. في زمن يسير فيه كثير من المسلمين خلف كل زائف من الحضارة، ويقلدون كل رمز من رموزها، ويتبعونهم حذو القذة بالقذة كما أخبر

عن ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فسيرة الصحابة ومن اهتدى بهداهم يجب أن تكون الأنموذج الذي يربى عليه شباب المسلمين وناشئتهم إن كان المسلمون يريدون صلاحاً وعزاً . ويتأكد الحديث عن سيرتهم وأيامهم إذا كان المنافقون والكافرون يجلبون بخيلهم ورجلهم لتشويه تلك الصورة الناصعة في تاريخ البشرية ، ويعلمون نبذ كل قديم ، ويصيحون بطرح ماعلق في الأذهان من الماضي زعماً أن ذلك سبب التخلف والرجعية ، حتى ولو كان دين الله تعالى متمثلاً في القرآن العظيم وسنة سيد المرسلين عليه الصلاة والسلام ، وأخبار صحبه الكرام رضي الله عنهم وأرضاهم . هذه مقولة المنافقين ، وهذا وزرهم ﴿ أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ ﴾ [الأنعام] .

أيها الإخوة: وهذه لمحات من سيرة داهية من دهاة العرب ، وفذ من أفذاذ قريش ، يضرب به المثل في الفطنة والدهاء والحزم^(١) ، تأخر إسلامه إلى الثامنة من الهجرة حيث هاجر فيها ومثل بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم معلناً إسلامه .

لما سئل عن سبب تأخر إسلامه وهو صاحب العقل الراجح قال رضي الله عنه وأرضاه : «إنا كنا مع قوم لهم علينا تقدمٌ وسنٌ ، توازي حلومهم الجبال ، ما سلكوا فجاً فتبعناهم إلا وجدناه سهلاً ، فلما أنكروا على النبي صلى الله عليه وسلم أنكروا معهم ولم نفكر في أمرنا وقلدناهم ، فلما ذهبوا وصار الأمر إلينا نظرنا في أمر النبي صلى الله عليه وسلم

فإذا الأمر بين فوق في قلبي الإسلام»^(٢).

إنه عمرو بن العاص رضي الله عنه وأرضاه، يحكي قصة إسلامه فيقول: «لما انصرفنا من الخندق جمعت رجالاً من قريش فقلت: والله إن أمر محمد يعلو علواً منكراً، والله ما يقوم له شيء، وقد رأيت رأياً، قالوا: وما هو؟ قلت: أن نلحق بالنجاشي على حاميتنا؛ فإن ظفر قومنا، فنحن من قد عرفوا، نرجع إليهم. وإن يظفر محمد فنكون تحت يدي النجاشي أحب إلينا من أن نكون تحت يدي محمد، قالوا: أصبت، قلت: فابتاعوا له هدايا...»

قال: وقدمنا عليه فوافقنا عنده عمرو بن أمية الضمري قد بعثه النبي صلى الله عليه وسلم في أمر جعفر وأصحابه، فلما رأيته قلت: لعلني أقتله، وأدخلت الهدايا، فقال النجاشي: مرحباً وأهلاً بصديقي وعجب بالهدية، فقلت: أيها الملك! إني رأيت رسول محمد عندك وهو رجل قد وترنا، وقتل أشرفنا، فأعطينه أضرب عنقه، فغضب، وضرب أنفه ضربة ظننت أنه قد كسره، فلو انشقت لي الأرض دخلت فيها، وقلت: لو ظننت أنك تكره هذا لم أسألكه، فقال: سألتني أن أعطيك رسول رجل يأتيه الناموس الذي كان يأتي موسى الأكبر تقتله - يعني جبريل عليه السلام - فقلت: وإن ذاك لكذلك؟ قال: نعم، والله إني لك ناصح فاتبعه، فوالله ليظهرن كما ظهر موسى وجنوده.

(٢) نسب قريش للزبير بن بكار (٤١٠) والإصابة (١٢٢/٧) إلا أنه تصحف فيها

إلى «وكانوا ممن يوارى حلومهم الخبال...».

قلت: أيها الملك، فبايعني أنت له على الإسلام، فقال: نعم؛ فبسط يده فبايعته لرسول الله صلى عليه وسلم على الإسلام، وخرجت على أصحابي وقد حال رأيي، فقالوا: ما وراءك؟ فقلت: خير.

فلما أمسيت جلست على راحلتي وانطلقت وتركتهم، فوالله إني لأهوى إذ لقيت خالد بن الوليد فقلت: إلى أين يا أبا سليمان؟ قال: أذهب والله أسلم؛ إنه والله لقد استقام الميسم، إن الرجل لنبي ما أشك فيه، فقلت: وأنا والله.

فقدمنا المدينة، فقلت يارسول الله، أبايعك على أن يغفر لي ما تقدم من ذنبي ولم أذكر ما تأخر فقال لي: «يا عمرو بايع فإن الإسلام يجب ما كان قبله» أخرجه أحمد والحاكم^(٣).

وفرح رسول الله صلى الله عليه وسلم بإسلامه وإسلام خالد، يقول عمرو رضي الله عنه: «ما عدل بي رسول الله صلى الله عليه وسلم وبخالد منذ أسلمنا أحداً من أصحابه في حربه» أخرجه البيهقي^(٤).

وشهد له النبي صلى الله عليه وسلم بالإيمان فقال: «ابنا العاص

(٣) أخرجه أحمد (١٩٨/٤) وابن إسحاق كما في سيرة ابن هشام (٤٧٦/٢) والواقدي في المغازي (٧٤١/٢) والحاكم (٤٥٤/٣) وقال الساعاتي: سنده جيد (١٣٤/٢١) وقال الهيثمي: رواه أحمد والطبراني ورجالهما ثقات (٩/٣٥١) وفي رواية أحمد (المنسم) بالنون وفي رواية الحاكم بالياء (الميسم) وانظر في معناها ص (٧٢) من هذا المجلد.

(٤) أخرجه البيهقي في الدلائل (٣٤٣/٤).

مؤمنان هشام وعمرو» أخرجه أحمد والحاكم وصححه ^(٥).

وكانت ثقة النبي صلى الله عليه وسلم فيه كبيرة - خاصة في أمور الحرب - فقد ولاه قيادة جيش فيه أبو بكر وعمرو وكبار الصحابة. يقول عمرو رضي الله عنه: بعث إليّ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «خذ عليك ثيابك وسلاحك ثم ائتني، فأتيته وهو يتوضأ فصعد في النظر ثم طأطأه فقال: إني أريد أن أبعثك على جيش فيسلمك الله ويغنمك، وأرغب لك من المال رغبة صالحة. قال: قلت: يا رسول الله، ما أسلمت من أجل المال ولكنني أسلمت رغبة في الإسلام، وأن أكون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: يا عمرو، نعم المال الصالح للمرء الصالح» أخرجه أحمد والحاكم وصححه ^(٦).

ولما خرج الصحابة في ذات السلاسل تحت إمرة عمرو رضي الله عنه أصابهم برد شديد فأرادوا أن يوقدوا ناراً فمنعهم حتى قال

(٥) أخرجه أحمد (٣٢٧/٢) والحاكم وصححه على شرط مسلم (٢٤٠/٣) وابن سعد (١٩١/٤) ويشهد له قصته مع سالم مولى أبي حذيفة حيث وصفهما الرسول عليه الصلاة والسلام بأنهما مؤمنان كما في مسند أحمد (٢٠٣/٤) وعزاه المزني في تحفة الأشراف للنسائي في الكبرى (١٥٥/٨) وحسنه الحافظ في الإصابة (١٢٤/٧) وقال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح (٣٠٠/٩).

(٦) أخرجه أحمد واللفظ له (١٩٦/٤) والبخاري في الأدب المفرد (٢٩٩) وصححه ابن حبان (٢٢٧٧) والحاكم وقال: على شرط مسلم، ووافقه الذهبي (٢/٢) وعزاه الهيثمي للطبراني في الكبير والأوسط ولأبي يعلى وقال: ورجال أحمد وأبي يعلى رجال الصحيح (٣٥٣/٩) وحسنه الحافظ في الإصابة (١٢٤/٧).

عمر بن الخطاب لأبي بكر: «ألا ترى إلى ما صنع بالناس يمنعهم منافعهم . فقال أبو بكر: دعه فإنما ولّاه رسول الله علينا لعلمه بالحرب، وفي رواية: أنهم لما قدموا شكوه إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا نبي الله! كان فيهم قلّةٌ، فخشيت أن يرى العدو قلتهم، ونهيتهم أن يتبعوا العدو مخافة أن يكون لهم كمين؛ فأعجب ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم»^(٧).

كان رضي الله عنه فقيهاً . اجتهد فأقره النبي صلى الله عليه وسلم على اجتهاده، روى عبدالرحمن بن جبير عن عمرو بن العاص قال: «احتلمت في ليلة باردة في غزوة ذات السلاسل فأشفقت إن اغتسلت أن أهلك، فتيمنت ثم صليت بأصحابي الصبح، فذكروا ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال: «يا عمرو صليت بأصحابك وأنت جنب؟ فأخبرته بالذي منعني من الاغتسال وقلت: إني سمعت الله يقول: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ (٢٩) [النساء] فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يقل شيئاً» أخرجه أبو داود وصححه ابن حبان والحاكم^(٨).

ومن مناقبه رضي الله عنه: أنه هدم صنم سواع بعد فتح مكة،

(٧) كلا الروايتين في تاريخ ابن عساكر، وانظر: السير للذهبي (٦٦/٣).

(٨) أخرجه أبوداود في الطهارة باب إذا خاف الجنب البرد تيمم (٣٣٤) والبيهقي

(٢٢٥/١) والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (١٧٧/١) وعلقه البخاري، وقوى

سنده الحافظ ابن حجر (٣٨٥/١).

وفي عهد أبي بكر حارب قضاة لما ارتدوا عن الإسلام، وكان في معركة اليرموك على ميمنة الجيش الإسلامي، وثبت في مكانه حين أصاب الرومُ أعينَ سبعمئة من المسلمين ومعه أصحاب الرايات، وقاتل الروم بقوة حتى كتب الله تعالى النصر للمسلمين. وله مشاركات فاعلة في فتح الشام، وهو الذي فتح مصر^(٩).

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه معجباً بدهائه حتى إن عمر إذا استضعف رجلاً في رأيه قال: «أشهد أن خالقك وخالق عمرو واحد» يريد خالق الأضداد^(١٠).

ولم يدفعه دهاؤه وحنكته إلى الغرور والتكبر؛ بل كان حسن الخلق، يقول قبيصة بن جابر: «صحبت عمرو بن العاص فما رأيت رجلاً أبين قرآناً، ولا أكرم خلقاً، ولا أشبه سريرة بعلانية منه»^(١١). فرضي الله عنه وأرضاه، وجعل دار الخلد مثواه، وأقول قولِي هذا وأستغفر الله لي ولكم فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

(٩) انظر: الفتوح لابن عبدالحكم (٨٣) وتاريخ الطبري (٢٤٩/٣) والكامل لابن

الأثير (١٥٦-٣٤٦/٢) والإصابة (١٢٤/٧).

(١٠) وفيات الأعيان (٢١٥/٧) ونحوه في الإصابة (١٢٤/٧) والاستيعاب (١١٨٨).

(١١) الإصابة (١٢٣/٧).

الخطبة الثانية

الحمد لله حمداً طيباً كثيراً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى، أحمدته وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ومن سار على نهجهم واقتفى أثرهم إلى يوم الدين.

أما بعد: فاتقوا الله - عباد الله - كما أمر، واجتنبوا الفواحش ما بطن منها وما ظهر.

أيها الإخوة المؤمنون: كان لهذا الصحابي الجليل قصةً في تأخر إسلامه، وقصةً في سبب إسلامه، وقصةً عند احتضاره، عاتب فيها نفسه، ورجا رحمة ربه، ووصف الموت وشدته وصفاً دقيقاً. أخرج ابن سعد أن عمرأ قال: «عجباً لمن نزل به الموت وعقله معه، كيف لا يصفه؟ فلما نزل به الموت، ذكره ابنه بقوله وقال: صفه، قال: يا بني! الموت أجلٌ من أن يوصف؛ ولكني سأصف لك: أجدني كأن جبل رضوى على عنقي، وكأن في جوفي الشوك، وأجدني كأن نفسي يخرج من إبرة»^(١٢).

هذا وصف احتضار رجلٍ صحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وشهد له بالإيمان، وأبلى في الإسلام بلاءً حسناً، وقضى دهرأ من عمره مجاهداً في سبيل الله تعالى، يا ترى كيف سيكون احتضارنا

(١٢) طبقات ابن سعد (٤/ ٢٦٠) والسير للذهبي (٣/ ٧٥).

ونحن بهذا التقصير والعصيان؟! نسأل الله تعالى أن يتولانا بعفوه ورحمته .

قال ابن شُماسة المَهْرِي: «حضرنا عمرو بن العاص وهو في سياقة الموت فبكى طويلاً وحول وجهه إلى الجدار، فجعل ابنه يقول: يا أبتاه، أما بشرك رسول الله صلى الله عليه وسلم بكذا؟ أما بشرك رسول الله صلى الله عليه وسلم بكذا؟ قال: فأقبل بوجهه فقال: إن أفضل ما نُعِدُّ شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، إني قد كنت على أطباق ثلاث، لقد رأيتني وما أحدٌ أشدَّ بغضاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم مني، ولا أَحَبَّ إليَّ أن أكون قد استمكنت منه فقتلته، فلو مُتُّ على تلك الحال لكنت من أهل النار. فلما جعل الله الإسلام في قلبي أتيت النبي صلى الله عليه وسلم فقلت: ابسط يمينك فلأبائعك فبسط يمينه، قال: فقبضت يدي، قال: «مالك يا عمرو؟» قال: قلت: أردت أن أشرط، قال: «تشرط بماذا؟»، قلت: أن يُغفر لي، قال: «أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها، وأن الحج يهدم ما كان قبله؟» وما كان أحدٌ أَحَبَّ إليَّ من رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا أَجَلَّ في عيني منه، وما كنت أطيق أن أملاً عينيَّ منه إجلالاً له، ولو سئلت أن أصفه ما أطق لأني لم أكن أملاً عينيَّ منه، ولو مُتُّ على تلك الحال لرجوت أن أكون من أهل الجنة، ثم ولينا أشياء ما أدري ما حالي فيها، فإذا أنا مُتُّ فلا تصحبني نائحة ولا نار، فإذا دفنتموني فشنوا عليّ التراب شناً ثم أقيموا حول قبري قدر ما تُنحرُ جزور ويقسم لحمها حتى أستانس بكم،

وأنظر ماذا أراجعُ به رسلَ ربي» أخرجه مسلم في صحيحه^(١٣).
وعن ثابت البناني قال: «كان عمرو على مصر فثقل فقال لصاحب شرطته: أدخلْ وجوه أصحابك، فلما دخلوا نظر إليهم وقال: ها قد بلغتُ هذه الحال، ردُّوها عني، فقالوا: مثلك أيها الأمير يقول هذا؟ هذا أمر الله الذي لا مردَّ له، قال: قد عرفت؛ ولكن أحببت أن تتعظوا، لا إله إلا الله، فلم يزل يقولها حتى مات»^(١٤).

وفي رواية عن عبدالله بن عمرو أن أباه قال عند موته: «... اللهم إنك أمرتنا فأضعنا، ونهيتنا فركبنا، فلا بريء فأعتذر، ولا عزيز فأنتصر؛ ولكن لا إله إلا أنت. وما زال يقولها حتى مات»^(١٥).

كانت وفاته ليلة عيد الفطر سنة ثلاث وأربعين، وصلى عليه ابنه عبدالله ودفن يوم العيد رضي الله عنه وأرضاه^(١٦) وقد قارب التسعين.
﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ...﴾ [الأحزاب: ٥٦].

* * *

(١٣) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان باب كون الإسلام يهدم ما قبله وكذا الهجرة والحج (١٢١).

(١٤) سير أعلام النبلاء (٧٦/٣).

(١٥) طبقات ابن سعد (٢٦٠/٤) والسير (٧٧/٣).

(١٦) انظر: مجمع الزوائد (٣٥٤/٩) وطبقات ابن سعد (٢٦١/٤) والسير (٣/٧٧) والإصابة (١٢٥/٧).

١٦١- بطولات البراء بن مالك رضي الله عنه

الجمعة ١٨/٥/١٤١٨هـ

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهداهم واستن بسنتهم إلى يوم الدين.

أما بعد: فيا أيها الناس اتقوا الله تعالى وأطيعوه، واحذرو نقمته فلا تعصوه؛ فإن الله تعالى ينذر ويعذر، ويرسل بالآيات تخويفاً، ثم يأخذ بغتة، والناس في غفلة ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ (١٠٢) ﴿[هود].

أيها الإخوة المؤمنون: حينما يتربى الإنسان في بيئة صالحة فإنه يكون للصالح أقرب، وعن الفساد أبعد؛ فحيثما يحتف به الطهر والنقاء فإن مسالك الشيطان تضعف، ومجاري الشهوات تضيق. وإذا نفذ من خلالها شيء في حالة غفلة سرعان ماتنبهه نفسه اللوامة، فتُظهِر أمامه هدايات الوحي الرباني فيؤوب إلى ربه تائباً منيباً. بخلاف من تجره نفسه إلى الفساد، وليس عنده من الوحي ما يصلح حاله، وتحيط به بيئة تعج بالشهوات وتطفح بالمنكرات؛ فإن هذا يوشك أن يغرق في المستنقعات الآسنة. وحظوظه في الخلاص والنجاة أقل وأضعف إلا أن يتغمده الله برحمته من عنده؛ توقظه من رقدته، وتنبيهه من غفلته

فيسارع إلى طريق السعادة والفلاح.

نعم! البيئة لها أثرها، والأشخاص المحيطون بالإنسان يؤثرون فيه. فالوالدان يؤثران في أولادهم، والإخوان والأخوات يؤثر بعضهم في بعض، والمعلم يتأثر به طلابه. وكما أن الطيور على أشكالها تقع فكذلك الأقران على أشكالهم يجتمعون.

وهذا مثل مضروب في سيرة رجل أخذ من الشجاعة أعلاها، وبلغ من الإقدام منتهاه؛ دفاعاً عن دين الله تعالى، وجهاداً في سبيله، وذلك حينما خالط الإيمان بشاشة قلبه.

تربى في بيت صالح، ترعاه أمٌ صالحة، تقدم إسلامها فكانت من السابقين، وكان صداقها إسلام زوجها، فما أغلاه وأعزه من صداق، فلاغرو أن يخرج هذا الفتى بشجاعة منقطعة النظير، وقد تربى على يدي تلك المرأة العظيمة.

أم هذا الفتى هي: أم سليم بنت ملحان الأنصارية. كانت في الجاهلية تحت مالك بن النضر، فلما أسلمت غضب عليها وخرج إلى الشام ومات هناك^(١)، فخطبها أبو طلحة فقالت له: «أما إني فيك لراغبة، وما مثلك يُرَد؛ ولكنك كافر وأنا امرأة مسلمة، فإن تسلم فلك مهري ولا أسألك غيره، فأسلم وتزوجها وحسن إسلامه»^(٢). روى ابنها أنس أن أبا طلحة خطبها قبل أن يسلم فقالت: «يا أبا طلحة: أأست تعلم أن إلهك الذي

(١) الإصابة لابن حجر (٢٢٦/١٣).

(٢) انظر: سنن النسائي (١١٤/٦) وأسد الغابة (٣٣٣/٧).

تعبد نبت من الأرض؟ قال: بلى، قالت: أفلا تستحيي تعبد شجرة؟! إن أسلمت فإنني لا أريد منك صداقاً غيره، قال: حتى أنظر في أمري. فذهب ثم جاء فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فقالت: يا أنس، زوج أبا طلحة فزوجها»^(٣).

تُعَدُّ رضي الله عنها من عقلاء النساء^(٤)، أتت بابنها أنس وجعلته خادماً للنبي صلى الله عليه وسلم فخدمه عشر سنوات^(٥)، وكانت امرأة شجاعة لا تهاب القتال، تغزو مع رسول الله صلى الله عليه وسلم^(٦)، ولها قصص مشهورة في ذلك منها:

ما أخرجه ابن سعد بسند صحيح «أن أم سليم اتخذت خنجراً يوم حنين، فقال أبو طلحة: يا رسول الله! هذه أم سليم معها خنجر، فقالت: اتخذته إذا دنا مني أحد من المشركين بقرت به بطنه»^(٧) فلا عجب حينئذ

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة (١٧٦٤٥) والنسائي في السنن الكبرى في النكاح باب إنكاح الابن أمه (٥٣٩٥) والحاكم وصححه وقال: على شرط مسلم، وله شاهد صحيح على شرط الشيخين وقال الذهبي: على شرط مسلم (٢/١٩٥ - ١٩٦) ونسبه الحافظ إلى الإمام أحمد في المسند - ولم أعثر عليه فيه - وذكر أن له طرقاً عدة، انظر: الإصابة (٢٢٧/١٣). وأخرج النسائي نحوه بسند صحيح في النكاح باب التزويج على النساء (٦/١١٤).

(٤) أسد الغابة (٧/٣٣٤).

(٥) انظر في ذلك: صحيح مسلم كتاب فضائل الصحابة باب من فضائل أنس بن مالك (٢٤٨٠) و (٢٤٨١) ومسند أحمد (٣/١١٠).

(٦) أسد الغابة (٧/٣٣٤) والإصابة (١٣/٢٢٧).

(٧) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٨/٣١٢) وصححه الحافظ في الإصابة (١٣/٢٢٧).

أن يتأثر بها ابنها البراء بن مالك حتى يكون من أشجع الناس؛ لأنه تربى في بيت الإيمان والشجاعة.

شهد رضي الله عنه أحداً وما بعدها، وبائع تحت الشجرة^(٨)، وله مواقف مشهودة، وبطولات مشهورة، وقد بلغ من إقدامه وشجاعته أن عمر رضي الله عنه كتب إلى أمراء الجيش: «لا تستعملوا البراء على جيش من جيوش المسلمين فإنه مهلكة من المهالك يقدم بهم»^(٩).

ومن الصور الرائعة في إقدامه وشجاعته: أنه لما استعصى على المسلمين الدخول على مسيلمة الكذاب، وقد تحصن بحديقته؛ أمر البراء أصحابه أن يحتملوه على ترس على أسنة رماحهم، ويلقوه في الحديقة، فاقتحم إليهم، وشدَّ عليهم، وقاتل حتى افتتح باب الحديقة فدخلها المسلمون. فجرح يومئذ بضعة وثمانين جرحاً، أقام خالد بن الوليد عليه شهراً يداوي جراحه^(١٠).

وروى ابن سيرين عن أنس أن خالد بن الوليد قال للبراء يوم اليمامة: «قم يا براء، قال: فركب فرسه فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: يا أهل المدينة لا مدينة لكم اليوم، وإنما هو الله وحده والجنة، ثم حمل وحمل الناس معه فانهزم أهل اليمامة، فلقي البراء محكم اليمامة فضربه البراء

(٨) انظر: حلية الأولياء (١/ ٣٥٠).

(٩) أخرجه الحاكم (٣/ ٢٩١) وانظره في: أسد الغابة (١/ ٣٦٤) والاستيعاب (١/

٢٨٥) وسير أعلام النبلاء (١/ ١٩٦).

(١٠) أخرجه خليفة في تاريخه (١٠٩) وانظره في: الإصابة (١/ ٢٣٦) والاستيعاب

(١/ ٢٨٧) وسير أعلام النبلاء (١/ ١٩٦).

وصرعه، فأخذ سيف مُحكَّم اليمامة فضرب به حتى انقطع^(١١). وفي رواية البغوي قال البراء: «لقيت يوم مسيلمة رجلاً يقال له: حمار اليمامة، رجلاً جسيماً بيده السيف أبيض، فضربت رجله فكأنما أخطأته، وانعقر فوق علي قفاه فأخذت سيفه وأغمدت سيفي، فما ضربت به ضربة حتى انقطع^(١٢)، ما هذه الشجاعة؟! وما هذه القوة؟! وما هذا الإقدام؟! ويضرب مثلاً أعظم حينما أنقذ أخاه أنساً من شراك العدو بعدما علقت به، فقد روى عبدالله بن أبي طلحة قال: «بينما أنس بن مالك وأخوه البراء بن مالك عند حصن من حصون العدو، والعدو يلقون كلاب في سلاسل محماة فتعلق بالإنسان فيرفعونه إليهم، فعلق بعض تلك الكلاب بأنس بن مالك فرفعوه حتى أقلوه من الأرض، فأتى أخوه البراء فقليل له: أدرك أخاك - وهو يقاتل الناس - فأقبل يسعى حتى نزا في الجدار ثم قبض بيده على السلسلة وهي تدار فما برح يجرحهم ويداه تدخان حتى قطع الحبل، ثم نظر إلى يديه فإذا عظامه تلوح قد ذهب ما عليها من اللحم، وأنجى الله عز وجل أنس ابن مالك رضي الله عنه بذاك» أخرجه الطبراني وحسنه الهيثمي^(١٣).

لقد كان رضي الله عنه وأرضاه حسن الصوت يحب الترنم والحداء،

(١١) نسبه الحافظ إلى السراج في تاريخه، انظره في الإصابة (٢٣٦/١).

(١٢) نسبه الحافظ إلى البغوي من طريق أيوب عن ابن سيرين عن أنس عن البراء كما في الإصابة (٢٣٧/١).

(١٣) أخرجه الطبراني في الكبير (٢٧/٢) رقم (١١٨٢) وقال الهيثمي: وإسناده حسن (٣٢٥/٩).

قال أخوه أنس: «دخلت على البراء وهو يتغنى بالشعر، فقلت له: يا أخي، تتغنى بالشعر، وقد أبدلك الله به ما هو خير منه: القرآن؟ قال: أتخاف عليّ أن أموت على فراشي، وقد تفرّدت بقتل مئة من المشركين، سوى من شاركت فيه!! إني لأرجو ألا يفعل الله ذلك بي» أخرجه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي^(١٤).

وقد استجاب الله له فلم يمت على فراشه بل قتل في ساحات الوغى. وكيف لا يستجاب له وقد عدّه النبي صلى الله عليه وسلم من مجابي الدعوة!! ووصفه بأنه من الضعفاء الذين لا يؤبه لهم، وسبحان الله! كيف يكون بهذه الشجاعة والقوة والإقدام ومع ذلك يذكره النبي صلى الله عليه وسلم ضمن الضعفاء ومن لا يؤبه له!! لولا أن البراء كان متواضعاً زاهداً في الدنيا، متقللاً منها، طيب القلب، حسن الخلق، جعل نفسه من عامة الناس وفقرائهم، ولم يخفِ الناس شجاعته وقوته؛ لأنه لم يجعلها لإرهاب المسلمين بل لإرهاب أعدائهم. لذلك كان مُتَضَعِّفاً عند إخوانه، قوياً في مواجهة أعدائه.

وهذا هو الوصف المذكور في التنزيل ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩] فيا لجمال تلك الصفة في البراء وإخوانه حيث لم يستعمل بقوته على الناس، أو يتسلط بشجاعته؛

(١٤) أخرجه أبو نعيم (١/ ٣٥٠) والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (٣/ ٢٩١) وذكره الحافظ في الإصابة عن البغوي وصححه (١/ ٢٣٦) وذكره ابن عبد البر في الاستيعاب (١/ ٢٨٥) وعزاه الهيثمي للطبراني وقال: رجاله رجال الصحيح (٩/ ٣٢٤).

بل شدد على نفسه في إخفائها عند إخوانه حتى أصبح لا يؤبه به،
فلله دره ما أملكه لنفسه!! وما أقواه على أعداء الله تعالى!!

وكان رضي الله عنه مجاب الدعوة، روى أنس بن مالك رضي
الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كم من ضعيف
مستضعف ذي طمرين لا يؤبه له، لو أقسم على الله لأبره منهم البراء
ابن مالك» وإن البراء لقي زحفاً من المشركين وقد أوجع المشركون في
المسلمين، فقالوا له: يا براء إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:
«لو أقسمت على الله لأبرك فأقسم على ربك». قال: أقسمت عليك
رب لما منحتنا أكتافهم. فمنحوا أكتافهم. ثم التقوا على قنطرة السوس
فأوجعوا في المسلمين، فقالوا له: يا براء أقسم على ربك، فقال: أقسمت
عليك يا رب لما منحتنا أكتافهم وألحقني بنبي الله صلى الله عليه وسلم،
فمنحوا أكتافهم وقتل البراء شهيداً^(١٥).

وكان ذلك يوم فتح تُسُر في خلافة عمر رضي الله عنه سنة عشرين
من الهجرة النبوية.^(١٦)

فرضي الله عن هذا البطل الكرار، ورضي الله عن أمه أم سليم التي
ربت فأحسن التربية، فكانت هي وابنها أنس وابنها البراء من عظماء

(١٥) أخرجه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي (٣/ ٣٣٠) والترمذي في المناقب
من دون ذكر القصة، وقال: هذا حديث حسن صحيح من هذا الوجه (٣٨٥٣)
وانظر: الاستيعاب (١/ ٢٨٦) والحليه (١/ ٣٥٠) وأسد الغابة (١/ ٣٦٤)
والإصابة (٢٣٧).

(١٦) سير أعلام النبلاء (١/ ١٩٦).

الإسلام، ومن مشاهير التاريخ في الإيمان والخير، ورضي الله عن الصحابة أجمعين.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ (٢٣) ﴿[الأحزاب] بَارَكَ اللَّهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ...﴾

الخطبة الثانية

الحمد لله، حمداً طيباً كثيراً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى، أحمده وأشكره وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فيا عباد الله اتقوا الله تعالى، وأخلصوا له أعمالكم، واصدقوا في أقوالكم وأفعالكم ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ (١١٩) ﴿[التوبة: ١١٩].﴾

أيها الإخوة المؤمنون: لقد كان البراء رضي الله عنه بعيداً عن الأضواء وبريق الشهرة حتى إنه كان رث الهيئة متواضعاً... من رآه لا يأبه به؛ لكنه كان في دين الله تعالى والجهاد في سبيله من أقوى الأبطال المشاهير. كم نحتاج إلى تأمل هذه السيرة والاعتبار بها؟! في ظل اللهاث وراء الأضواء والشهرة!! حتى ولو كانت شهرة في الرديء من الخلال، والمنحط من الأخلاق والصفات. وكم نحتاج إلى إبراز ودراسة أحوال ذلك البيت الصالح الذي خرج أنساً والبراء على يدي مربية عظيمة كأم

سليم؟! ونحتاج إلى ذلك أكثر، والتزوير الإعلامي العالمي على أشده في صناعة المنحطين رموزاً، وجعل شذاذ الآفاق عظماء.

وينخدع كثير من المسلمين بتلك الرموز المزورة، مع ذلك الزخم الإعلامي، الذي حول بغياً من بغايا بني الأصفر إلى عظمة من العظماء!!^(١٧)

وبعد هدوء الضجيج الإعلامي، وسكون العاصفة، وانجلاء الغبار، الذي غطى على العيون السادرة؛ فأصبحت ترى التزوير حقيقة، هل يصدق المسلم بل العاقل أن الرذيلة تتحول إلى فضيلة؟! وأن ارتقاء المرأة في أحضان من تشاء من الرجال أضحى مدعاة للإعجاب والتصفيق؟! مساكين أولئك المخدوعون!! خدعتهم كلمات جميلة عن معاناة المساكين والمضطهدين!! وصور منتقاة من هنا وهناك!! انخدعوا فظنوا أن الكفر ليس ذنباً، وربما ظنوا أن عبادة الصليب ليست كفراً، وظنوا أن الآيات القرآنية والأحاديث النبوية في أن عمل الكافر يحبط مهما عمل من خير ما دام كافراً، ظنوا أنها لا تنطبق على تلك الكافرة الفاجرة

(١٧) هذا إشارة إلى مصرع البريطانية (ديانا) حيث أرعد الإعلام وأزبد بفضائياته وإذاعاته وصحفه ومجلاته معزياً البشرية، ومستعرضاً سيرة تلك الفاجرة بالتفصيل الملل، والتكرار الثقيل؛ وأصبح الأمر كأنه مصيبة حلت على جميع البشر وانساق العامه وراء هذا الزخم الإعلامي، فصارت أحاديث الناس عنها، وولغ في هذا المستنقع الآسن أناس يظن بهم الخير وأصحاب أقلام منتسبون للدعوة إشادة بهذه العاهرة الفاجرة حتى إن بعض الكتاب قال: كادت تسلم، وبعضهم قال: رحلت خيرة العالم... إلخ، ونعوذ بالله من زيغ القلوب.

﴿وَقَدَّمْنَا إِلَىٰ مَا عَمَلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنْثُورًا﴾ (٢٣) ﴿[الفرقان] لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ١٧] ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣] ﴿إِنَّهُ مَنْ يُّشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ (٧٢) [المائدة]، ويقول النبي صلى الله عليه وسلم «والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة لا يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار» أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه (١٨) ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ (١٠٣) الذين ضلَّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا (١٠٤) أولئك الذين كفروا بآيات ربهم وَلَقَاءَهُ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا (١٠٥) ذَلِكَ جَزَاءُهمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوءًا (١٠٦) ﴿[الكهف].

أقلام تتسمى بالإسلام سجلت إعجابها بتلك الشخصية المزدولة، ناسية أو متناسية الوحي الرباني، والهدي النبوي. ويزيد من سوء تلك الأقلام أنها ما كتبت يوماً عن عظماء الإسلام!! وأعلام الأنام!! ألا كُسرَتْ تلك الأقلام!؟

وإذا كان عذر أهل الكتاب أنهم ليس لهم في التاريخ، ولا عندهم من العظماء إلا بغايا ومحقوقون! فما عذر أقلام أهل الإسلام وتاريخهم مليء بالعظماء من الرجال والنساء!؟

(١٨) أخرجه مسلم في الإيمان باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم إلى جميع الناس ونسخ الملل بملته (١٥٣).

إن هذا يجسد حجم المأساة، ويظهر عمق الهوة التي تتردى فيها أمة الإسلام في جوانب الأصول والمعتقدات، والأديبات والأخلاقيات؛ حيث اهتزاز ركن الولاء والبراء، وانقلاب الرذيلة والسفور والخيانات الزوجية إلى فضيلة ورقي وتقدم، فياللعار ويالتبعية البغيضة!! والانهازمية المقيتة!! ما أفدح تلك الهزيمة النفسية؟! وما أشد وقعها على قلوب العقلاء والمتبصرين؟!

هل زالت مآسي المسلمين حتى لم يبق مايتباكون عليه إلا مصرعُ سافرة عاهرة من الإفرنج، أين الحديث عن مآسي النساء المسلمات في فلسطين وكشمير، والمسلمات في البوسنة اللائي ترملن وتيتم أطفالهن على أيدي أبناء دين تلك الهالكة، ذلك الدين المحرف المتطرف.

ما أقبح أهل التبعية والتقليد الأعمى وهم يتقمصون ثياب العدو الغالب مادياً، ويرددون أفكاره؛ حتى أصبحوا بمثابة الصدى لأقواله، والمحابر لأقلامه!! أين هم عن كلام الله فليسمعوه ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢] أين هم من هذه الآية الكريمة ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١] ألا يخافون أن يحشروا معهم؟! والمرء مع من أحب، ومن تشبه بقوم فهو منهم.

أسأل الله تعالى أن يحفظ قلوبنا من الزيف والضلال، وأن يصلح أحوال المسلمين، ويردهم إليه رداً جميلاً. سبحان ربك رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

١٦٢- سيرة حكيم الأمة أبي الدرداء رضي الله عنه

الجمعة ٢٨/٧/١٤١٨ هـ

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (١٠٢) ﴿آل عمران﴾ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ (١) [النساء] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ (٧١) [الأحزاب].

أما بعد: فإن قراءة التاريخ، وتأمل سير الغابرين، والاستفادة من علومهم وتجاربهم في الحياة؛ تنمي العقول، وتصلق المواهب؛ ويكاد من فعل ذلك أن لا يخطئ أبداً، وأن يكون الصواب والتوفيق حليفه دوماً ما دام مستضيئاً بنور الكتاب وهدى السنة النبوية؛ ذلك أن الأحداث تتشابه، الصواب في حادثة منها غالباً ما يكون هو الصواب فيها كلها، والخطأ في واحدة منها غالباً ما يكون خطأ فيها كلها. وما التاريخ إلا صوراً متكررة، وحوادث متجددة، تنتقل من مكان إلى مكان، ومن

زمان إلى زمان، والبشر حيالها يخطئون ويصيبون. لكن من قرأ تاريخ السابقين، ووقف على تجاربهم كان عن الخطأ بعيداً، ومن الصواب قريباً.

ومن هذا المنطلق نحتاج إلى النظر في سير الرجال وأحوال الماضين، لا سيما من ساروا على الطريق الصحيحة، ولم يحيدوا عنها قيد أنملة؛ حتى بلغوا المنزلة ونالوا الكرامة، رجال الصدر الأول من هذه الأمة، الذين نشروا الإسلام، وصدقوا الوعد، وأوفوا بما عاهدوا؛ فرضي الله عنهم وأرضاهم، وجزاهم عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء.

أيها الإخوة: وهذه دروسٌ من حياة أحدهم، كان مشهوراً بالعقل والحكمة، موصوفاً بالزهد والعبادة. أصبحت أقواله مناراً للباحثين، وطريقاً للسالكين.. أسلم وشهد أحداً وما بعدها^(١)، وأخذ القرآن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان من كتاب الوحي^(٢).. رحل في عهد عمر إلى الشام يعلم الناس القرآن^(٣)، ويذكر أنه أول من سن

(١) اختلف في شهوده أحداً، والراجح أنه شهدا ذكر ذلك ابن الأثير في أسد الغابة (٣٠٧/٤) والحافظ ابن حجر، وذكر أنه أبلى فيها حتى قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم: «نعم الفارس عويمر» انظر: الإصابة (١٨٣/٧) وسير أعلام النبلاء (٣٣٨/٢) والحديث مرسل في الطبقات (٣٩٢/٧) والمستدرک (٣٣٧/٣).

(٢) انظر: سير أعلام النبلاء (٣٣٩/٢).

(٣) جاء ذلك في قصة طويلة أخرجها ابن سعد (٣٥٦/٢) والبخاري في التاريخ الصغير (٤١/١).

حلقات تحفيظ القرآن، وجاء في بعض الروايات أنهم عدوا من في حلقة فإذا هم يزيدون على ألفٍ وستمئة قارئ يعلمهم القرآن^(٤).

ثم استعمل على القضاء فكان أول قاضٍ لدمشق. جاء الناس يهتثونه بالقضاء فقال: «أتهنئوني بالقضاء وقد جُعِلت على رأس مَهْوَاةٍ مزلتها أبعدُ من عدنٍ أبين. ولو علم الناس ما في القضاء لأخذوه بالدول رغبة عنه وكراهية له. ولو يعلم الناس ما في الأذان لأخذوه بالدول رغبة فيه وحرصاً عليه»^(٥).

ذلكم أبو الدرداء عويمرُ بنُ عامرٍ الأنصاريُّ الخزرجيُّ^(٦) حكيم هذه الأمة كما في بعض المراسيل وأقوال السلف^(٧). ثم كانت له أقوال أكدت أن كلامه كلامُ حكيم، قال رضي الله عنه: «كنت تاجراً قبل أن يبعث النبي صلى الله عليه وسلم، فلما بعث محمد زاولت التجارة

(٤) انظر: سير أعلام النبلاء (٢/٣٤٦).

(٥) أخرجه ابن سعد (٧/٢٧٥).

(٦) وقع خلاف كبير في اسمه واسم أبيه فقيلاً: عويمر بن عامر، وقيل: عويمر ابن زيد، وقيل: عويمر بن قيس، وقيل: عامر بن مالك، وقيل: عويمر بن عبدالله، وقيل: عويمر بن ثعلبة... انظر: الطبقات (٧/٢٧٤) وأسد الغابة (٤/٣٠٦) والسير (٢/٣٣٥) والإصابة (٧/١٨٣).

(٧) كما في الحديث المرسل «حكيم أمتي عويمر» وقد ضعفه السيوطي في الجامع الصغير بعد أن نسبهُ للطبراني في الأوسط (٣٧٥٢) وكذا المناوي في فيض القدير (٣/٣٩٦) وكذا الألباني في ضعيف الجامع (٢٧٣٩). وأما أقوال السلف فمنها قول ابن عمر رضي الله عنهما المخرج في هامش (١٣).

والعبادة فلم تجتمعا، فأخذتُ العبادة وتركت التجارة»^(٨)، فهو رضي الله عنه لما رأى أن التجارة تراحم العبادة، ورأى من نفسه عدم القدرة على جمعهما أقبل على الأفضل.

ومن الناس من يستطيع الجمع بينهما كما كان أبو بكر رضي الله عنه تاجراً عابداً عالماً، وكذلك عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه. فالميزان: القدرة على الجمع بينهما، فمن كان قادراً فذلك أفضل، ومن لم يكن قادراً فالعبادة في حقه أفضل^(٩).

كان أبو الدرداء رضي الله عنه من علماء الصحابة وعبادهم.. آخى النبي صلى الله عليه وسلم بينه وبين سلمان، فزار سلمانُ أبا الدرداء، فرأى أمَّ الدرداء متبذلة، فقال لها: «ما شأنك؟ قالت: أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة في الدنيا، فجاء أبو الدرداء فصنع له طعاماً فقال له: كل، قال: فإني صائم، قال سلمان: ما أنا بآكل حتى تأكل، قال: فأكل، فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء يقوم قال: نَمْ، فنام، ثم ذهب يقوم فقال: نَمْ، فلما كان من آخر الليل قال سلمان: قم الآن، فصليا. فقال له سلمان: إن لربك عليك حقاً، ولنفسك عليك حقاً، ولأهلك عليك حقاً، فأعطِ كلَّ ذي حق حقه. فأتى النبي صلى الله عليه وسلم

(٨) أخرجه ابن سعد (٢٧٥/٧) وذكره الهيثمي في المجمع وقال: رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح (٣٦٧/٩).

(٩) انظر: سير أعلام النبلاء ففيه كلام جيد حول ذلك (٣٣٨/٢).

فذكر ذلك له، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «صدق سلمان» أخرجه البخاري^(١٠).

وأما علمه فكما قال القاسمُ بن عبد الرحمن: «كان أبو الدرداء من الذين أوتوا العلم»^(١١)، وقال أبو ذرٍ لأبي الدرداء: «ما حملت ورقاء ولا أظلت خضراء أعلم منك يا أبا الدرداء»^(١٢)، ومن أجل علمه كان الناس محتاجين إليه، متزاحمين عنده، كما يُتَزاحم على أبواب السلاطين. قال عبد الله بن سعيد: «رأيت أبا الدرداء دخل مسجد النبي صلى الله عليه وسلم ومعه الأتباع مثل ما يكون مع السلطان بين سائلٍ عن فريضة، وبين سائلٍ عن حساب، وبين سائلٍ عن شعر، وبين سائلٍ عن حديث، وبين سائلٍ عن معضلة»^(١٣).

ثم إنه كان مزكياً لعلمه، يعلم الناس ويُقرئهم. وما أقبل الناس عليه إلا لعلمه ولأنه كان عاملاً بعلمه فلا يعلم شيئاً إلا عمل به على الفور، قال ابن إسحاق: «كان الصحابة يقولون: أتبعنا للعلم والعمل أبو الدرداء»^(١٤).

لقد كان رضي الله عنه موصوفاً بالعقل والحكمة حتى إن ابن عمر رضي الله عنهما يقول: «حدثونا عن العاقلين معاذٍ وأبي الدرداء»^(١٥).

(١٠) أخرجه البخاري في الصوم باب من أقسم على أخيه ليفطر في التطوع (١٩٦٨) والترمذي في الزهد باب (٦٣) وقال: حديث صحيح (٢٤١٣).

(١١) أخرجه ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل (٢٧/٧).

(١٢) التاريخ الكبير للبخاري (٧٧/٧).

(١٣) الطبقات (٢/٣٥٠) والجرح والتعديل (٢٧/٧).

ولا أدل على عقله وحكمته من أنه كان يديم التفكير والاعتبار، سئلت أم الدرداء: «أيُّ عبادة أبي الدرداء كانت أكثر؟ قالت: التفكير والاعتبار»^(١٤)، وكيف لا يكون دائم التفكير وهو القائل: «تفكر ساعة خيرٌ من قيام ليلة»^(١٥).

ومن حكمته رضي الله عنه ما رواه أبو قلابة: «أن أبا الدرداء مرَّ على رجل قد أصاب ذنباً وكانوا يسبونهُ، فقال: أرأيتم لو وجدتموه في قلب ألم تكونوا مستخرجيه؟ قالوا: بلى، قال: فلا تسبوا أحاكم، واحمدوا الله الذي عافاكم، قالوا: أفلا نبغضه؟ قال: إنما أبغض عمله، فإذا تركه فهو أخي»^(١٦)، وقال رضي الله عنه: «إني لأمركم بالمعروف وما أفعله ولكن لعل الله يأجرني فيه»^(١٧)، وكتب إلى خالد بن مسلم: «سلام عليك أما بعد: فإن العبد إذا عمل بمعصية الله أبغضه الله، فإذا أبغضه الله بغضه إلى عباده»^(١٧).

ومن أقواله في العلم والتعلم قوله: «لن تكون عالماً حتى تكون متعلماً، ولا تكون متعلماً حتى تكون بما علمت عاملاً، إن أخوف ما أخاف إذا وقفتُ للحساب أن يقال لي: ما عملت فيما علمت»^(١٨). وخاطب

(١٤) الحلية (٧/ ٣٠٠) والزهد لابن المبارك (٢٨٦).

(١٥) الطبقات (٧/ ٢٧٥).

(١٦) أسد الغابة (٤/ ٣٠٧).

(١٧) السير (٢/ ٣٤٥).

(١٨) الطبقات (٢/ ٣٥٧).

الناس قائلاً: «مالي أرى علماءكم يذهبون، وجهالكم لا يتعلمون، تعلموا فإن العالم والمتعلم شريكان في الأجر»^(١٩).

وجاءه رجل فقال: أوصني: فقال: «اذكر الله في السراء يذكرك في الضراء، وإذا ذكرت الموتى فاجعل نفسك كأحدهم، وإذا أشرفت نفسك على شيء من الدنيا فانظر إلى ما يصير»^(٢٠).

ومن وصاياه رضي الله عنه قوله: «اعبد الله كأنك تراه، وعد نفسك في الموتى، وإياك ودعوة المظلوم، واعلم أن قليلاً يغنيك خيرٌ من كثير يلهيك، وأن البر لا يبلى، وأن الإثم لا ينسى»^(٢١).

ومن حكمه في المال والغنى قوله: «أهل الأموال يأكلون وتأكّل، ويشربون ونشرب، ويلبسون ونبلس، ويركبون ونركب، ولهم فضول أموال ينظرون إليها وننظر إليها معهم وحسابها عليهم ونحن منها برآء»^(٢٢). وقال: «الحمد لله الذي جعل الأغنياء يتمنون أنهم مثلنا عند الموت، ولا نتمنى أننا مثلهم حينئذ، ما أنصفنا إخواننا الأغنياء، يحبوننا على الدين ويعادوننا على الدنيا»^(٢٣).

وحكمته رضي الله عنه لم تقتصر على أمور الدين؛ بل إنه كان حكيماً حتى في أمور الدنيا وتصريف الأموال. ومن ذلك قوله: «أعوذ

(١٩) شعب الإيمان للبيهقي (١١٩٦) وانظر: الحلية (٢/ ٢١٢-٢١٣).

(٢٠) الحلية (١/ ٢٠٩) والسير (٢/ ٣٥٠).

(٢١) السير (٢/ ٣٥٠) وإحياء علوم الدين (٣/ ١١٠).

(٢٢) الزهد لابن المبارك (٥٩٢) والسير (٢/ ٣٥٠) وإحياء علوم الدين (٢/ ١٤٦).

(٢٣) السير (٢/ ٣٥٠).

بالله من تفرقة القلب، قيل: وما تفرقة القلب؟ قال: أن يُجعل لي في كل وادٍ مال»^(٢٤).

ومن حكمته أنه كان يقدم من الأدعية الأهم فالمهم، فقد أوجعت عينه حتى ذهبت فليل له: «لودعوت الله؟ فقال: ما فرغت بعد من دعائه لذنوبي فكيف أدعو لعيني»^(٢٥).

ينضم إلى هذا الفضل والحكمة كثرة ذكر وتسبيح، وقد ذكر عنه أنه لا يفتر من الذكر، قيل له: «كم تسبح كل يوم؟ قال: مئة ألف إلا أن تخطئ الأصابع»^(٢٦).

وكان يدعو لأصحابه كثيراً، قالت أم الدرداء: «كان لأبي الدرداء ستون وثلاثمئة خليل في الله يدعو لهم في الصلاة، فقلت له في ذلك، فقال: إنه ليس رجل يدعو لأخيه في الغيب إلا وكل الله به ملكين يقولان: ولك بمثل، أفلا أرغب أن تدعو لي الملائكة»^(٢٧).

ومن عجيب اعتباره: أنه في انتصارات المسلمين، يعتبر بما حلّ بالعدو قبل أن يفرح بالنصر، قال جبير بن نفير: «لما فتحت قبرص مرّ بالسبي على أبي الدرداء فبكى فقلت له: تبكي في مثل هذا اليوم الذي أعز الله فيه الإسلام وأهله؟ قال: يا جبير، بينا هذه الأمة قاهرة

(٢٤) السير (٣٤٨/٢).

(٢٥) السير (٣٤٩/٢).

(٢٦) السير (٣٤٨/٢).

(٢٧) السير (٣٥١/٢).

ظاهرة إذ عصوا الله فلقوا ما ترى، ما أهون العباد على الله إذا هم عصوه»^(٢٨)، فلم تنسه فرحة النصر الاعتبار بما حل بالعدو لما خالفوا أمر الله، وَمَنْ مِنَ العباد يعتبر في مواطن الفرح والسرور.

فرضي الله عنه وأرضاه، ما أكثر حكمته، وما أشدّ اعتباره، ورضي الله عن الصحابة أجمعين، وجمعنا بهم في دار النعيم، وأقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

الخطبة الثانية

الحمد لله، حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى، أحمده وأشكره وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فيا عباد الله، اتقوا الله تعالى وأطيعوه، واحذروا غضبه فلا تعصوه، وخذوا من هدي الصالحين، واعتبروا بأخبار الماضين.

أيها الإخوة: كان أبو الدرداء رضي الله عنه يحب البقاء في الدنيا ليتزود من الأعمال الصالحات للآخرة، قال رضي الله عنه: «لولا ثلاث ما أحببت البقاء، ساعة ظمأ الهواجر، والسجود في الليل، ومجالسة أقوام ينتقون جيد الكلام كما يُنتقى أطيبُ التمر»^(٢٩).

ولا زالت الحكمة على لسانه حتى في حال مرضه، فقد اشتكى

(٢٨) الحلية (٢١٧/١) وذم الهوى لابن الجوزي (٢١١) والسير (٣٥١/٢).

(٢٩) السير (٣٤٩/٢).

مرة فدخل عليه أصحابه فقالوا: «يا أبا الدرداء ما تشكي؟ قال: اشتكي ذنوبي، قالوا: فما تشتهي قال: أشتهي الجنة، قالوا: أفلا ندعوا لك طبيباً؟ قال: هو الذي أضجعني»^(٣٠).

وظل رضي الله عنه يعظ الناس حتى في حال احتضاره وموته وقدمه على ربه، قالت أم الدرداء: «لما احتضر أبو الدرداء جعل يقول: من يعملُ ليومي هذا؟ من يعملُ لمضجعي هذا؟»^(٣١).

وبكى عند موته فقالت له أم الدرداء: «وأنت تبكي يا صاحب رسول الله؟ قال: نعم، ومالي لأبكي ولا أدري علام أهجم من ذنوبي»^(٣٢).

توفي قبل مقتل عثمان رضي الله عنه وعن عثمان^(٣٣). توفي ومعه شهادة بالإيمان من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد قال للنبي صلى الله عليه وسلم يوماً: «بلغني أنك تقول إن ناساً من أمتي سيكفرون بعد إيمانهم قال: «أجل يا أبا الدرداء، ولست منهم» أخرجه الطبراني^(٣٤).

أيها الإخوة: كانت هذه أجزاء من سيرة هذا الإمام الحكيم . . أجزاء من أيامه وحياته وعلمه وعبادته، وأقواله وأفعاله . . سيرة من

(٣٠) الطبقات (٢٧٦/٧) والزهد لابن أبي عاصم (١٣٤) وروي ذلك عن ابن مسعود رضي الله عنه كما مرّ في سيرته . .

(٣١) السير (٣٥٢/٢).

(٣٢) أسد الغابة (٣٠٧/٤).

(٣٣) تاريخ دمشق لأبي زرعة (٢٢٠/١) والسير (٣٥٣/٢).

(٣٤) أخرجه الطبراني وقال الهيثمي: ورجاله رجال الصحيح غير أبي عبد الله الأشعري وهو ثقة. انظر: مجمع الزوائد (٣٦٧/٩).

أنصع السير في جبين التاريخ، وصورة من أجمل الصور التي حفظتها دواوين الإسلام. فهل يعقل أن يستبدل أهل الإسلام الذي هو أدنى بالذي هو خير؟!

هل يعقل أن يستبدلوا سيرة محمد صلى الله عليه وسلم وسيرة أصحابه رضي الله عنهم وأرضاهم بأخبار الساقطين والساقطات، والتافهين والتافهات، من أهل التمثيل الخليع، أو الغناء الرقيع، أو اللاهين والرياضيين؟! فمتى يستفيق الناس من غفلتهم متى؟ ومتى يدركون قدر كنوزهم ومدخراتهم التي حفظها الله تعالى لهم بتدوين علماء الإسلام وحفاظهم؟ فإدراك ذلك يعني استشعار المسؤولية، واستشعار المسؤولية سبب نهضة الأمة ونصرها على عدوها. وإن ذلك لقريب متى ما أذى كل فرد دوره، ومتى ما ربيت أجيال الأمة على أخلاق سلفها وسيرهم. وما ذلك على الله بعزيز، ألا وصلوا وسلموا على خير خلق الله كما أمركم بذلك ربكم...

* * *

١٦٣- سيرة مجاهد (أبو دجانة الأنصاري)

الجمعة ١٨/١٢/١٤١٧هـ

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٠٢)﴾ [آل عمران] ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (٦١)﴾ [النساء] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧١)﴾ [الأحزاب].

أما بعد: فلقد علم صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن في الجهاد فضلاً لا يضاهاى، وخيراً لا يتناهى، وأيقنوا أن الجنة تحت ظلال السيوف، وأن الرىِّ الأعظم في شرب كؤوس الحتوف، فشمروا للجهاد عن ساق الاجتهاد، ونفروا إلى ذوي الكفر والعناد.. جهزوا الجيوش والسرايا، وبذلوا في سبيل الله العطايا.. أقرضوا أموالهم لمن يضاعفها ويزكيها، ودفعوا سلع النفوس من غير مماطلة لمشتريها.. ضربوا الكافرين فوق الأعناق، واستعذبوا من المنية مرّ المذاق، وباعوا

الحياة الفانية بالعيش الباق^(١).

روى أبو بكر بن عبدالله بن قيس الأشعري رضي الله عنه قال: «سمعت أبي وهو بحضرة العدو يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن أبواب الجنة تحت ظلال السيوف»، فقام رجل رث الهيئة، فقال: يا أبا موسى، أنت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول هذا؟ قال: نعم، قال: فرجع إلى أصحابه فقال: أقرأ عليكم السلام، ثم كسر جفن سيفه فألقاه، ثم مشى بسيفه إلى العدو فضرب به حتى قُتل» أخرجه مسلم والترمذي^(٢).

كان السابقون من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مهاجرين وأنصاراً، المهاجرون لهم الهجرة، والأنصار لهم النصرة. وجميعهم تعاهدوا على عبادة الله وحده، وطاعة نبيه، ونشر دينه، والجهاد في سبيله، حتى قال قائل الأنصار في بدر لما استشارهم النبي صلى الله عليه وسلم في قتال المشركين: «... امض لما أردت فنحن معك، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد»^(٣).

(١) بتصرف من علو الهمة لمحمد أحمد المقدم (٢٩٨).

(٢) أخرجه مسلم في الإمارة باب ثبوت الجنة للشهيد (١٩٠٢) والترمذي في فضائل الجهاد باب ما جاء أي الأعمال أفضل (١٦٥٩).

(٣) القائل هو سعد بن معاذ رضي الله عنه، وقيل: سعد بن عبادة رضي الله عنه، انظر: صحيح مسلم (١٧٧٩) والبداية والنهاية (٣/٣٥١) وسيرة ابن هشام (٣٠٥/٢).

والحديث عن الجهاد والمجاهدين، والأنصار والمهاجرين، حديث تحبه النفوس المؤمنة، التي لم تنخدع بعد بالرموز المزورة من أهل المبادئ المنحرفة، والأفكار الهدامة، وذوي الانحلال الأخلاقي ممن ينشرون الفساد باسم الفن والإثارة.

وهذه نظرة في سيرة علم من أعلام الجهاد، وبطل من أبطال الإسلام، إذا ذكرت أحياناً لازم ذكره ذكرها؛ فقد كان بلاؤه فيها عظيماً، مع حسن بلائه في بدر وحنين، وخير واليمامة التي كان استشهادها بها. ذلكم أبو دجانة سماك بن خَرْشَة الساعدي الأنصاري رضي الله عنه وأرضاه. كان من المستقبلين للنبي صلى الله عليه وسلم يوم هجرته، وكان مع سعد بن عبادة والمنذر بن عمرو يقولون: «هلم يارسول الله إلى العز والثروة، والقوة والجَلَد والعدد، آخذين بخطام ناقته؛ لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول لهم ولغيرهم: «خَلُّوا سَبِيلَهَا فَإِنَّهَا مَأْمُورَةٌ»^(٤).

وكان الأسود بن المطلب من المستهزئين برسول الله صلى الله عليه وسلم، المحاربين لدعوته؛ فدعا عليه النبي صلى الله عليه وسلم أن يعمى ويشكل ولده فجلس في ظل شجرة فجعل جبريل يضرب وجهه وعينه بورقها وشوكها حتى عمى، وقيل: أوماً إليه فعمى فشغله ذلك

(٤) الثقات لابن حبان (١/١٣٤) والسيرة الحلبية (٢/٢٤٤) وسبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد للصالح الشامي (٣/٢٧٢).

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقُتل ابنه معه كافراً، قتله أبو دجانة رضي الله عنه^(٥).

وفي أحد جرّد النبي صلى الله عليه وسلم سيفاً باتراً ونادى أصحابه: «من يأخذ هذا السيف بحقه؟» فقام إليه رجال يأخذوه، منهم: علي بن أبي طالب والزبير بن العوام وعمّر بن الخطاب رضي الله عنهم؛ حتى قام إليه أبو دجانة فقال: وما حقه يا رسول الله؟ قال: أن تضرب به وجوه العدو حتى ينحني. قال: أنا آخذه بحقه يا رسول الله، فأعطاه إياه».

كان أبو دجانة رجلاً شجاعاً يختال عند الحرب، وكانت له عصابة حمراء إذا اعتصب بها علم الناس أنه سيقاتل حتى الموت، فلما أخذ السيف عصب رأسه بتلك العصابة^(٦).

أقبل أبو دجانة معلماً بعصابته الحمراء، أخذاً سيف رسول الله صلى الله عليه وسلم، مصمماً على أداء حقه، فقاتل حتى أمعن في الناس، وجعل لا يلقي مشركاً إلا قتله. وأخذ يهدّ صفوف المشركين هدأً؛ حتى قال الزبير بن العوام: «وجدت في نفسي حين سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم السيف فمنعني وأعطاء أبا دجانة، وقلت في نفسي:

(٥) الكامل في التاريخ لابن الأثير (٢/ ٥٠).

(٦) الرحيق المختوم للمباركفوري (٢٥٦) وقصة أخذ السيف أخرجها مسلم في فضائل الصحابة باب فضائل أبي دجانة (٢٤٧٠) وأحمد في المسند (٣/ ١٢٣) والحاكم وصححه (٣/ ٢٣٠) وانظر: تاريخ الطبري (٢/ ٦٣) والكامل لابن الأثير (٢/ ١٠٦) ودلائل النبوة (٣/ ٢٣٤) وسبل الهدى والرشاد (٤/ ١٩٤).

أنا ابن صفية عمته، ومن قريش، وقد قمت إليه فسألته إياه قبله؛ فاتاه إياه وتركني، والله لأنظرن ما يصنع؟ فاتبعته فأخرج عصابة له حمراء فعصب بها رأسه فقالت الأنصار: أخرج أبو دجانة عصابة الموت... فجعل لا يلقي أحداً إلا قتله. ولا يرتفع له شيء إلا هتكه وأفراه. وكان في المشركين رجلٌ لا يدع لنا جريحاً إلا ذفّف عليه، فجعل كل واحد منهما يدنو من صاحبه، فدعوت الله أن يجمع بينهما، فالتقيا فاختلعا ضربتين، فضرب المشركُ أبا دجانة فاتقاه بدرقته فعضت بسيفه فضربه أبو دجانة فقتله». واخترق أبو دجانة صفوف المشركين يهدها ويفرقها حتى خلص إلى نسوة قريش، قال رضي الله عنه: «رأيت إنساناً يخمش الناس خمشاً شديداً فصمدت له، فلما حملت عليه السيف ولول فإذا امرأة فأكرمت سيف رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أضرب به امرأة». فلما رأى الزبير رضي الله عنه أفاعيل أبي دجانة في المشركين رضي وقال: «الله ورسوله أعلم»^(٧).

وكان عبيد بن حازم العامري من الشجعان، أقبل على المسلمين يعدو كأنه سبُعٌ ضارٍ فضرب رجلاً من المسلمين فجرحه فوثب إليه أبو دجانة فناوشه ساعة ثم ذبحه بالسيف ذبحاً^(٨).

(٧) جاء بالفاظ متقاربة في كتب السير، وقصة الزبير أخرجها الحاكم وصححها ووافقه الذهبي (٢٣٠/٣) والبيهقي في دلائل النبوة (٢٣٣/٣) وقال الهيثمي:

رواه البزار ورجاله ثقات، انظر: مجمع الزوائد (١٠٩/٦).

(٨) سبل الهدى والرشاد (٢٠٩/٤).

ولما دارت الدائرة على المسلمين في أحد ثبت أبو دجانة يدافع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم جعل من جسده ترساً دون رسول الله صلى الله عليه وسلم يقع النبل في ظهره وهو منحني على رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى كثرت فيه النبل، ومع كثرة النبل الذي أصابه، والجراح التي أنهكته فإن أبا دجانة سلم من الموت^(٩). ولقد أثنى النبي صلى الله عليه وسلم على قتال أبي دجانة في أحد حيث أعطى عليّ فاطمة رضي الله عنهما سيفه بعد أحد وقال: «هاك السيف فإنها قد شفتني فقال له: لئن كنت أجدت الضرب بسيفك لقد أجاد سهل بن حنيف وأبو دجانة وعاصم بن ثابت الأفلح والحارث ابن الصمة»^(١٠).

وشارك رضي الله عنه في حصار بني النضير، وندبه النبي صلى الله عليه وسلم مع علي بن أبي طالب وسهل بن حنيف في عشرة من أصحابه لملاحقة اليهود الذين أرادوا أخذ المسلمين على حين غرة، فأدركوهم فقتلوهم، وطرحوا رؤوسهم في بعض البئار^(١١).

(٩) حادثة جعل أبي دجانة ظهره ترساً لرسول الله صلى الله عليه وسلم أخرجها البيهقي في دلائل النبوة (٢٣٤/٣) وهي في سيرة ابن هشام (١١٨/٣) وفي الكامل (١٠٨/٢) والرحيق المختوم (٢٧١).

(١٠) أخرج الحاكم وصححه ووافقه الذهبي (٢٠٤/٣) وابن الأثير في أسد الغابة (٥٥١/٢) وأورده الهيثمي في المجمع وقال: رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح (١٢٣/٦).

(١١) سبل الهدى والرشاد (٣٢٢/٤).

وفي خير وحينما حميت المبارزة بين اليهود والصحابة خرج يهودي يدعو إلى المبارزة فخرج له رجل من آل جحش فقتله اليهودي، ثم دعا إلى المبارزة فخرج إليه أبو دجانة وقد عصب رأسه بعصابته الحمراء فوق المغفر يختال في مشيته، فبدره أبو دجانة فضربه فقطع رجله ثم ذقف وأخذ سلبه: درعه وسيفه، فجاء به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنقله رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك، وأحجم اليهود عن البراز فكبر المسلمون ثم تحاملوا على حصن اليهود فدخلوه يقدمهم أبو دجانة رضي الله عنه حتى فتحوه^(١٢).

وفي حنين أصابت أبا دجانة جراح شديدة، وأبلى بلاءً حسناً^(١٣)، وحضر رضي الله عنه غزوة العسرة، وأعطاه النبي صلى الله عليه وسلم راية الخزرج^(١٤).

ولما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم واصل أبو دجانة جهاده مع الصديق بكل شجاعة وإقدام، وكان تحت إمرة خالد بن الوليد رضي الله عنه في قتال مسيلمة ومن معه من المرتدين؛ بل كان من المشاركين في قتل عدو الله مسيلمة، روي عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال: «رمى أبو دجانة بنفسه يوم اليمامة إلى داخل الحديقة - وكانت

(١٢) أخرجه الواقدي في المغازي (٦٦٦/٢) وعنه البيهقي في الدلائل (٢٢٤/٤)

وهو في سبل الهدى والرشاد (١٤٩/٥).

(١٣) سبل الهدى والرشاد (٣٣٠/٥).

(١٤) سبل الهدى والرشاد (٤٤٣/٥).

تسمى حديقة الموت - فانكسرت رجله فقاتل وهو مكسور الرجل حتى قتل رضي الله عنه وأرضاه»^(١٥).

فلله دره ما أشجعه وما أقواه، وما أشد رغبته فيما عند الله . أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ (٢٣) ﴿[الأحزاب] بَارَكَ اللَّهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ . . .

الخطبة الثانية

الحمد لله ، حمداً طيباً كثيراً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى ، أحمده وأشكره وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجهم إلى يوم الدين .

أما بعد: فاتقوا الله - عباد الله - بفعل ما أمر، واجتنب الفواحش ما بطن منها وما ظهر ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ (٢٩) ﴿[الأنفال] .
أيها الإخوة المؤمنون: كان ذلك استعراضاً سريعاً لبعض فصول

(١٥) أخرجه الحاكم من رواية الواقدي وهو متروك الحديث (٢٢٩/٣) وابن سعد في الطبقات كما في سير أعلام النبلاء (٢٤٣/١) وخبر قتاله وهو مكسور الرجل في أسد الغابة (٥٥١/٢) ومشاركته في قتل مسيلمة في أسد الغابة أيضاً (٩٣/٦) والمشهور أن البراء بن مالك رضي الله عنه هو الذي رمي في الحديقة، ولا يمنع أن يكون البراء وأبو دجاجة كلاهما رمي في الحديقة.

سيرة صاحب جليل، وتذكيراً بملاحم الجهاد والقوة، والشجاعة والإقدام، التي دونتها السير والتاريخ لأبي دجانة رضي الله عنه وأرضاه. ومع كل هذه القوة والشدة فإن أبا دجانة لم يكن له حظ من الدنيا وافر؛ بل عاش فقيراً رضي الله عنه، ولما قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم أرض بني النضير بعد إجلائهم بين المهاجرين لم يعط الأنصار شيئاً سوى سهل بن حنيف وأبي دجانة فإنه أعطاهما لفقرهما رضي الله عنهما^(١٦).

لقد كان أبو دجانة محل ثقة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان أهلاً لتحمل المسؤوليات وورد أن النبي صلى الله عليه وسلم لما خرج إلى حجة الوداع استعمله على المدينة^(١٧) وهو أهل لذلك رضي الله عنه. ومع هذه المنزلة التي يتبوّؤها أبو دجانة من كسب ثقة رسول الله صلى الله عليه وسلم وجهاده وتضحياته لم يكن مفاخراً بعمله، أو ذاكراً له؛ بل كان يزري بنفسه.

وقد حباه الله نعمة أخرى عظيمة وهي سلامة القلب، قال زيد ابن أسلم: دُخل على أبي دجانة وهو مريض وكان وجهه يتهلل، فقيل له: «ما لوجهك يتهلل؟ فقال: ما من عمل شيء أوثق عندي من اثنتين:

(١٦) انظر: مصنف عبدالرازق (٣٥٨/٥) وسنن أبي داود كتاب الخراج باب في خبر النضير (٣٠٠٤) وفيه أنه أعطى لرجلين من الأنصار ولم يسمهما، والطبري في تاريخه (٨٥/٢) وابن الأثير في الكامل (١١٩/٢).

(١٧) وقيل: استعمل سباع بن عُرْقُطَة، وانظر: سبل الهدى والرشاد (٤٥٠/٨).

كنت لا أتكلم فيما لا يعينني، والأخرى فكان قلبي للمسلمين سليماً»^(١٨).

أيها الإخوة: هذه النماذج من البشر هي التي ينبغي أن تبكى كما يجب أن تحتذى.. هم السروج التي تضيء الطريق الصحيح، وتدل على الصراط المستقيم في ظلام التخبطات الفكرية، والانحراف الأخلاقي، والعيش من أجل الدنيا، والتكالب عليها.

إن تجرد هؤلاء الرجال من الدنيا جعلهم يفتكون بأشد الناس فتكاً. لا يقف أمامهم شيء، وهل يمكن أن يقف في وجه من يريد المنية شيء مهما بلغت قوته؟!!

إن عيش هؤلاء الرجال من أجل الآخرة، وتسخير الدنيا سبيلاً إليها، وعدم الاهتمام بلذائذها؛ جعل منهم جيشاً جهادياً قوياً، لا يهاب المنايا، ولا يكل من كثرة القتال، ولا يهتم لبعد البلدان. إنما همه أن ينشر دين الله في الأرض، ويقيم شرعه؛ فأسقطوا الدولتين العظيمتين في وقتهم: فارس والروم بعدد وعتاد قليل، لكن بإيمان قوي راسخ.

والمسلمون في هذا الوقت يشكلون أعداداً كثيرة لكن نزعت منهم البركة، وحلّ بينهم الخلاف والتنافر؛ لأن الدنيا صارت هدفاً بديلاً عن الآخرة عند كثير منهم.. يتقاتلون من أجلها، فماذا كانت العاقبة؟!!

لقد كانت مزيداً من الذل والهوان، وتسلب الأعداء في كل مكان. فهل ندرك ونحن نطالع تلك السيرة ومثيلاتها أن للنصر أسباباً إذا

(١٨) أخرجه ابن سعد (٥٥٦/٣) وهو في سير أعلام النبلاء (٢٤٣/١)

عملها المسلمون نصرُوا بإذن الله تعالى، وإذا تركوها كان الفصل بينهم وبين عدوهم كثرة المتاع، وقوة العتاد. أسأل الله تعالى أن يردنا إليه رداً جميلاً، وأن يرفع عن المسلمين الذلة والهوان إنه سميع مجيب، وصلوا وسلموا على محمد بن عبد الله كما أمركم بذلك ربكم...

* * *

١٦٤- الإمام البخاري وكتابه الصحيح

الجمعة ٤/٢/١٤١٩هـ

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران] ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب].

أما بعد: فإن التاريخ حفظ رجالاً من أهل الإسلام لا يمكن زوال ذكرهم إلا بزوال الإسلام، ولن يزول الإسلام إلى قيام الساعة. إنهم حملة هذا الدين وناقلوه إلى الناس، عبر هذه القرون الطوال.

هذا أحدهم: كان نحيف الجسم، وليس بالطويل ولا القصير^(١) من علماء القرن الثالث الهجري، ذاق اليتيم كما هي سنة أكثر العظماء، وعاش في كنف والدته^(٢). وكانت الكتاتيب بوابة بروزه وشهرته وإمامته.. سيرته من أعجب العجب في ذكائه وحفظه وفقهه.. في

(١) تاريخ بغداد (٦/٢) ووفيات الأعيان (٤/١٩٠).

(٢) انظر: تاريخ الإسلام للذهبي (٢٣٩/١٨).

عبادته وزهده وورعه، ذلكم هو أمير المؤمنين في الحديث أبو عبد الله محمد بن إسماعيل الجعفي مولا هم البخاري رحمه الله تعالى ورضي عنه.

أُلهم حفظ الحديث وهو في الكتاب وعمره عشر سنوات، وكان يصحح للشيخ خطأه في الإسناد وهو ابن إحدى عشرة سنة، وحفظ كتب العلماء الكبار وهو ابن ست عشرة سنة، ثم حج مع والدته وجاور بمكة لطلب الحديث.

بدأ تصنيف بعض كتبه وهو ابن ثمان عشرة سنة^(٣)، والكتب التي كتبها وهو في هذه السن المبكرة يقوم على دراستها عشرات من كبار الدارسين في هذا العصر لنيل درجات علمية عالية، وما يفونها حقها، أليس هذا عجباً!! ثم انظروا إلى اهتمامات أبناء الحادية عشرة والسادسة عشرة وأبناء العشرين.

وأعجب من ذلك أنه كان يصاحب أقرانه إلى المشايخ لأخذ الحديث وهم يكتبون وهو لا يكتب، ويأمرونه بالكتابة فلا يكتب، فلما ألحوا عليه قرأ عليهم ما كتبوه عن ظهر قلب فزاد على خمسة عشر ألف حديث ثم قال لهم: «أترون أنني أختلف هذراً وأضيع أيامي»^(٤).

لقد كان أهل المعرفة من البصريين يعدون خلفه في طلب الحديث وهو شاب حتى يغلبوه على نفسه ويجلسوه في بعض الطريق فيجتمع

(٣) انظر: تاريخ بغداد (٧/٢) وطبقات الشافعية الكبرى للسبكي (٢/٢١٦).

(٤) تاريخ بغداد (١٤/٢) وطبقات الحنابلة (١/٢٧٦).

عليه ألوف أكثرهم ممن يكتب عنه، وكان شاباً لم يخرج شعراً وجهه بعد^(٥).

قدم بغداد، وقد كان أئمة الحديث فيها يسمعون عن قوة حفظه فأرادوا امتحانه، فعمدوا إلى عشرة من حفاظهم، مع كل واحد عشرة أحاديث قلبوا أسانيدھا وخلطوها، فأخذوا يلقونها على البخاري حديثاً حديثاً وهو يقول: لا أعرف هذا الحديث؛ حتى أنهوا المائة حديث، ثم أعاد عليهم المائة حديث بخطهم، ثم أعادها مرة أخرى مصححة؛ فأقروا له بالحفظ، وأذعنوا له بالفضل^(٦). قال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى: «هنا يُخْضَعُ للبخاري، فما العجب من رده الخطأ إلى الصواب فإنه كان حافظاً؛ بل العجب من حفظه للخطأ على ترتيب ما ألقوه عليه من مرة واحدة»^(٧).

قال أبو بكر الكلؤاذاني: «ما رأيت مثل محمد بن إسماعيل كان يأخذ الكتاب من العلم فيطلع عليه اطلاعاً فيحفظ عامة أطراف الأحاديث من مرة واحدة»^(٨).

انضم إلى هذا الحفظ العجيب اهتماماً بالغ بالحديث يشغله عن

(٥) تهذيب الأسماء واللغات (١/ ٧٠) وطبقات الشافعية الكبرى (٢/ ٢١٧) وطبقات الحنابلة (١/ ٢٧٧).

(٦) باختصار من وفيات الأعيان (٤/ ١٩٠) وتهذيب الكمال (٣/ ١١٧١).

(٧) مقدمة فتح الباري لابن حجر (٥١١).

(٨) سير أعلام النبلاء (١٢/ ٤١٦) ومقدمة فتح الباري (٥١١).

النوم كثيراً، قال محمد بن يوسف: «كنت مع البخاري بمنزله ذات ليلة فأحصيت عليه أنه قام وأسرج يستذكر أشياء يعلقها في ليلة ثمانية عشرة مرة»^(٩).

وكان ثمرة هذا الحرص، وتلك الحافظة، رصيذاً كثيراً من الأحاديث بلغ أكثر من ستمائة ألف حديث بين مقبول ومردود يختزنها البخاري في ذاكرته بأسانيدھا وفوائدها وعللھا.

ولقد رآه غير واحد في المنام يمشي خلف النبي صلى الله عليه وسلم، كلما رفع النبي صلى الله عليه وسلم قدمه وضع أبو عبد الله قدمه في ذلك الموضع؛ وتلك كرامة في التأسي والافتاء^(١٠). بل إن البخاري رأى النبي صلى الله عليه وسلم في المنام، قال يصف تلك الرؤيا: «وكأنني واقف بين يديه وييدي مروحة أذب بها عنه، فسألت بعض المعبرين فقال لي: أنت تذب عنه الكذب؛ فهو الذي حملني على إخراج الجامع الصحيح»^(١١).

وقال: «كنا عند إسحاق بن راهويه فقال: لو جمعتكم كتاباً مختصراً لصحيح سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: فوقع ذلك في

(٩) تهذيب الكمال (٣/ ١١٧٠) وطبقات الشافعية الكبرى (٢/ ٢٢٠) ونحوه في تاريخ بغداد (٢/ ١٣) وتهذيب الأسماء واللغات (١/ ٧٥) وسير أعلام النبلاء (٤٠٤/ ٤).

(١٠) تاريخ بغداد (٢/ ١٠) وطبقات الشافعية الكبرى (٢/ ٢٢١) ومقدمة فتح الباري (٥١٤).

(١١) مقدمة فتح الباري وقال الحافظ: وروينا بالإسناد الثابت فذكره (٩).

قلبي فأخذت في جمع الجامع الصحيح»^(١٢).

كانت رؤياه وقولُ شيخه حافزاً على جمعه الصحيح الذي لا يوجد على وجه الأرض كتابٌ أصحُّ منه إلا كتابُ الله تعالى. وما كان ذلك إلا توفيقاً من الله تعالى، وكرماً منه لهذا الإمام العظيم، ثم تحري هذا الإمام ودقته، وكثرة استخارته؛ حتى خرج كتابه على أحسن وجه، يقول رحمه الله تعالى: «ما وضعت في كتاب الصحيح حديثاً إلا اغتسلت قبل ذلك وصليت ركعتين»^(١٣). ويقول: «صنفت الجامع من ستمئة ألف حديث في ست عشرة سنة وجعلته حجة فيما بيني وبين الله»^(١٤).

ابتدأ تصنيفه وترتيبه وتبويبه في المسجد الحرام^(١٥) وحول تراجمه في الروضة الشريفة في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان يصلي لكل ترجمة ركعتين^(١٦)، ويدل هذا على تعظيمه لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ لأنه كان يرى أن الاشتغال بالحديث من

(١٢) تاريخ بغداد (٩/٢) وطبقات الشافعية الكبرى (٢/٢٢١) وسير أعلام النبلاء (٤٠١/١٢).

(١٣) طبقات الحنابلة (١/٢٧٤) وتاريخ بغداد (٩/٢) ووفيات الأعيان (٤/١٩٠).

(١٤) مقدمة فتح الباري (٥١٣) وتاريخ بغداد (٢/١٤) وطبقات الحنابلة (١/٢٧٦).

وفيات الأعيان (٤/١٩٠) قال الذهبي: رويت من وجهين ثابتين عنه، انظر:

تاريخ الإسلام (١٨/٢٤٩).

(١٥) مقدمة فتح الباري (٥١٣).

(١٦) مقدمة فتح الباري (٥١٤).

أعظم ما يقرب إلى الله تعالى حتى كأن المشتغل بالحديث مجالس لرسول الله صلى الله عليه وسلم وصحبه الكرام. قال تلميذه الفربري: «أملئ يوماً عليّ حديثاً كثيراً، فخاف ملالي فقال: طُبْ نفساً فإن أهل الملاهي في ملاهيهم، وأهل الصناعات في صناعتهم، والتجار في تجاراتهم وأنت مع النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه»^(١٧).

بعلمه وعمله واتباعه للسنة وإخلاصه بلغ صيته آفاقاً، وأثنى عليه العلماء؛ حتى قال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى: «ولو فتحتُ بابَ ثناء الأئمة عليه ممن تأخر عن عصره لفني القرطاس، ونفدت الأنفاس فذاك بحر لا ساحل له»^(١٨). ونقل عن قتيبة بن سعيد قوله: «جالست الفقهاء والزهاد والعباد فما رأيت منذ عقلتُ مثلَ محمد بن إسماعيل وهو في زمانه كعمر في الصحابة»^(١٩)، وقال: «لو كان محمد في الصحابة لكان آية»^(٢٠).

وبلغ من محبتهم للبخاري ما قاله يحيى بن جعفر البيكندي: «لو قدرتُ أن أزيد في عمر محمد بن إسماعيل من عمري لفعلت؛ فإن موتَي يكون موت رجل واحد، وموته ذهابُ العلم»^(٢١).

(١٧) سير أعلام النبلاء (١٢/٤٤٥).

(١٨) مقدمة فتح الباري (٥١٠).

(١٩) سير أعلام النبلاء (١٢/٤٣١).

(٢٠) مقدمة فتح الباري (٥٠٦).

(٢١) تاريخ بغداد (٢/٢٤) وتهذيب الكمال (٣/١١٧٢) وتاريخ الإسلام (١٨/٢٥٤).

ومع علمه وحفظه كان آية في العبادة، لم يشغله الحديث عن القرآن؛ إذ كان يختم في كل يوم من رمضان ختمة^(٢٢). ويصلي في آخر الليل ثلاث عشرة ركعة^(٢٣). وكان فيه خشوع عجيب؛ قام يصلي يوماً فلسعه زنبورٌ سبع عشرة مرة حتى تورم جسده ولم يقطع صلاته حتى أتمها فقالوا له في ذلك فقال: «كنت في سورة فأحببت أن أتمها»^(٢٤). وكان فيه من الورع والتقوى ما يدعو للدهشة والإعجاب ويكفي في ذلك قوله: «إني لأرجو أن ألقى الله ولا يحاسبني أنني اغتبت أحداً»^(٢٥). ومن دقيق محاسبته لنفسه في ذلك أنه قال يوماً لأبي معشر الضرير: «اجعلني في حلٍ يا أبا معشر، فقال: من أي شيء؟ قال: رويت يوماً حديثاً فنظرت إليك وقد أعجبت به وأنت تحرك رأسك ويدك، فتبسمت من ذلك، قال: أنت في حلٍ رحمك الله يا أبا عبد الله»^(٢٦).

وبلغ من شدة ورعه أن ابنه أرسل إليه بضاعة فطلبها بعض التجار بربح خمسة آلاف درهم فقال: «انصرفوا الليلة؛ فجاءه من الغد تجار آخرون وطلبوها بربح عشرة آلاف فقال: إني نويت أن أبيعها للذين

(٢٢) تاريخ بغداد (١٢/٢) وتهذيب الكمال (٣/ ١١٧٠).

(٢٣) طبقات الشافعية الكبرى (٢/ ٢٢٠) وسير أعلام النبلاء (٤٤١).

(٢٤) تاريخ بغداد (١٢/٢) وتهذيب الكمال (٣/ ١١٧٠) وطبقات الشافعية الكبرى (٢/ ٢٢٣).

(٢٥) طبقات الحنابلة (١/ ٢٧٦) وسير أعلام النبلاء (١٢/ ٤٣٩) ومقدمة فتح الباري (٥٠٥).

(٢٦) سير أعلام النبلاء (١٢/ ٤٤٤).

أتوا البارحة ولا أحب أن أغَيّر نيتي»^(٢٧).

وقد ورث من أبيه مالاً جليلاً وكان يدفعه إلى بعض من يتاجر به مضاربة، وكان منهم من أخذ خمسة وعشرين ألفاً ولم يرجع إليه شيئاً، ف قيل للبخاري: «استعن بكتاب الوالي عليه حتى يعيد إليك مالك فقال رحمه الله: إن أخذت منهم كتاباً طمعوا ولن أبيع ديني بدنياي». ثم صالح غريمه على أن يعطيه كل شهر عشرة دراهم وذهب ذلك المال كله^(٢٨).

وأرسل إليه أحد الولاة أن يأتيه بكتايبه الصحيح والتاريخ حتى يسمعهما منه فقال لرسول الوالي: «أنا لا أذلُّ العلم، ولا أحمله إلى أبواب الناس؛ فإن كانت لك إلى شيء منه حاجة فاحضر في مسجدي أو في داري...»^(٢٩). فصار ذلك سبباً وحشة بينه وبين الوالي مع سعي الوشاة بينهما فنفاه عن البلد فدعا عليهم - وكان مجاب الدعوة - وقال: «اللهم أرهم ما قصدوني به في أنفسهم وأولادهم وأهاليهم». قال الرواة: «فما مضى على دعوته شهر حتى صار عاقبة الوالي إلى العزل والذل ثم الحبس، ومن سعى فيه ابتلي في أهله حتى رأى فيهم ما

(٢٧) تاريخ بغداد (١١/٢) وطبقات الشافعية الكبرى (٢/٢٢٧) وسير أعلام النبلاء (٤٤٧/١٢) ومقدمة فتح الباري (٥٠٤).

(٢٨) بتصرف واختصار من طبقات الشافعية الكبرى (٢/٢٢٧) وسير أعلام النبلاء (٤٤٦/١٢) وتاريخ الإسلام (٤٦١/١٨).

(٢٩) بتصرف واختصار من طبقات الشافعية الكبرى (٢/٢٢٧) وانظر: مقدمة فتح الباري (٥٠٣) وسير أعلام النبلاء (٤٤٦/١٢).

يجل عن الوصف، وآخر ابتلي في أولاده بالبلايا»^(٣٠).

توفي رحمه الله تعالى ليلة عيد الفطر سنة ست وخمسين ومئتين وعمره اثنتين وستين سنة^(٣١). وبوفاته رحمه الله تعالى طويت صفحة من صفحات العلماء العاملين؛ لكن ضوءها لم يخفت بل ظل يضيء الطريق للسائرين، غرة في جبين تاريخ المسلمين ورجاله الأفاضل. ولو لم يكن من ضوئها إلا كتابه الصحيح لأضاء ما بين الخافقين، وكان شاهداً له إلى يوم الدين.

قال الطواويسى: «رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في النوم ومعه جماعة من أصحابه وهو واقف في موضع فسلمت عليه فرد علي السلام فقلت: ما وقوفك يا رسول الله؟ قال: أنتظر محمد بن إسماعيل البخاري، فلما كان بعد أيام بلغني موته فنظرت فإذا قد مات في الساعة التي رأيت النبي صلى الله عليه وسلم فيها»^(٣٢).

رحمه الله تعالى رحمة واسعة، ورضي عنه، وجمعنا به في دار كرامته، ونفعنا بما نقول ونسمع، وأقول ماتسمعون وأستغفر الله لي ولكم فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

(٣٠) بتصرف واختصار من تاريخ بغداد (٣٢/٢) وطبقات الشافعية الكبرى (٢/٢٣٣)

وسير أعلام النبلاء (٤٦٥/١٢) ومقدمة فتح الباري (٥١٨).

(٣١) مقدمة فتح الباري (٥١٨) وانظر: وفيات الأعيان (٤/١٩٠) وتاريخ بغداد

(٣٤/٢) وسير أعلام النبلاء (٤٦٨/١٢).

(٣٢) تاريخ بغداد (٣٤/٢) وتهذيب الكمال (١١٧٢/٣) وطبقات الشافعية الكبرى

(٢٣٢) وسير أعلام النبلاء (٤٦٨/١٢) ومقدمة فتح الباري (٥١٨).

الخطبة الثانية

الحمد لله حمداً طيباً كثيراً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى، أحمده وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهداهم إلى يوم الدين.

أما بعد: فاتقوا الله تعالى - عباد الله - فبالتقوى ينال العلم والعمل ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيَعْلَمَكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (٢٨٢) [البقرة].

أيها المؤمنون: سيرة الإمام البخاري تتحدث عن دروسها، فهي من الوضوح بما لا مزيد عليه؛ ولكن اللافت للنظر: أن هذا الإمام الذي خدم السنة والإسلام لم تكن معرفته أجداده بالإسلام إلا قريباً من ولادته؛ إذ إن جد أبيه المغيرة كان فارسياً على دين قومه^(٣٣)، عرف الإسلام فأسلم فكان من عقبه هذا الإمام الكبير!!

ومن دخل الإسلام عن قناعة ليس كمن ورثه أباً عن جد كما هو حال كثير من المسلمين الذين لا يعرفون من الإسلام إلا أنهم ورثوه عن الآباء والأجداد. أما تناديهم فعلى القومية والوطنية التي فرقوا بها بين المسلمين. هذا البخاري الذي عرفته جميع الآفاق، وكتابه أصبح كتاب بعد كتاب الله تعالى، ليس عربياً بل أعجمي الأصل والبلد، فالعبرة ليست بعروبة النشأة واللسان؛ ولكنها بالدين الصحيح قولاً وعملاً، وليس ميراثاً وتسمياً.

(٣٣) تاريخ الإسلام (٢٤٢/١٨) ومقدمة فتح الباري (٥٠١).

ووصول البخاري إلى هذه المنزلة من العلم والعمل والحفظ والفقه، والورع والعبادة، والزهد والقوة، مع شهرة واسعة، وقبول في الأرض، يطرح سؤالاً مهماً، مالذي بلغ به هذه المنزلة؟! إن الذي أوصله إلى ذلك المكان الرفيع - مع ما ذُكر من شمائله - صلاحُ أبويه، فأمه كانت كثيرة العبادة والدعاء. وقد أكرمها الله وابنها بكرامة عجيبة؛ ذلك أن ابنها محمداً ذهب عيناه في صغره، فرأت والدته الخليل إبراهيم في المنام فقال لها: «يا هذه قد ردَّ الله على ابنك بصره بكثرة دعائك؛ فأصبح وقد رد الله عليه بصره»^(٣٤)، وأما أبوه فمعدود في العلماء الورعين. فصلاح الأبوين له أثره على الذرية، وهو سبب الصلاح والتوفيق. وقد حفظ الله مال اليتيمين بصلاح أبيهما ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِّنَ رَبِّكَ﴾ [الكهف: ٨٢].

والدرس المهم في سيرة هذا الإمام: التورع عن الشبهات، والبعد عن الحرام. ووالد البخاري كان أيضاً متورعاً عن الحرام. وجميع ما خلفه لأهله كان مالاً حلالاً لا شبهة فيه ولا حرام فقد قال عند موته: «لا أعلم من مالي درهماً من حرام ولا درهماً من شبهة»^(٣٥). فكان بناءً جسد ابنه من خالص الحلال؛ فاستحق أن يكون إماماً.

(٣٤) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة باب كرامات الأولياء لأبي القاسم اللالكائي (٢٩٠/٩) وأخرجه الخطيب بإسناد آخر (٢٠٧/٢) وتاريخ الإسلام (٢٤٣/١٨) وطبقات الحنابلة (٢٧٤/١).

(٣٥) تاريخ الإسلام (٢٣٩/١٨).

يا ترى لو أن جسد ابنه بني من السحت والحرام أيكون أمير المؤمنين في الحديث، ويوفق لتصنيف الجامع الصحيح؟! لا أظن ذلك؛ لأن كل جسد نبت من حرام فالنار أولى به، ولا يكون التوفيق والتسديد إلا لأولياء الله تعالى. وأولياء الله لا يواقعون الشبهات، ولا يتخوضون في الحرام.

إن الآباء يفرحون بصلاح أبنائهم ورفعتهم ومجدهم؛ لكن كثيراً منهم لا يتحرى في كسبه، ولا يتورع عن الشبهات والحرام. فيتغذى أولادهم على الحرام. ولا تكون الإمامة في الدين لجسد نبت من حرام. أيها الإخوة: لو تأملنا في أعداد البشر الذين يترحمون على البخاري، ويستغفرون له منذ القرن الثالث الهجري وإلى اليوم؛ بل وإلى آخر الزمان لعرفنا فضله ومنزلته. مدارس المسلمين وجامعاتهم، ودور الحديث وأربطة العلماء، ودروس طلاب العلم على مر الزمان يدرسون صحيح البخاري، وفي كل درس يقولون: قال البخاري رحمه الله تعالى؛ بل آلات المطابع، وأصابع الراقمات، وأزرار الحاسوبات، وأقلام المشتغلين بالعلم تكتب: قال البخاري رحمه الله تعالى.

إنه فضل عظيم، ومنقبة كبرى، لا يمكن إحصاء من يقولها ويكتبها عبر التاريخ الطويل؛ ناهيك عن أجر حفظ السنة، والاشتغال بالعلم، وفناء العمر في التعليم. كل ذلك ناله هذا الإمام المبجل رحمه الله تعالى رحمة واسعة.

وهذا يحفز العلماء إلى الإخلاص، ويدعو طلاب العلم إلى الجد

في الطلب؛ حتى ينالوا بعضاً من هذا الفضل ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ (٢١) [الحديد] ألا وصلوا وسلموا على نبيكم كما أمركم بذلك ربكم...

* * *

١٦٥- وفيات الأعلام (١)

الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله تعالى

الجمعة ٥/٢/١٤٢٠هـ

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهداهم إلى يوم الدين ..

أما بعد: فيا أيها الناس: اتقوا الله تعالى واعملوا صالحاً ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحشر: ١٨].

أيها المؤمنون: كلما تقادمت الأرض كثر خرابها، وقلّ صلاحها؛ حتى تقوم الساعة وما في الأرض من يقول: ربي الله! وخراب الأرض ليس خراب عمران، أو نقص موارد، ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [الرعد: ٤١]. قال ابن عباس رضي الله عنهما: «خرابها بموت علمائها وفقائها وأهل الخير منها»^(١)، وقال مجاهد رحمه الله تعالى: «هو موت العلماء»^(٢).

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٨٠٥) عند تفسير الآية (٤١) من سورة الرعد.

(٢) المصدر السابق (٢/ ٨٠٥).

يزداد النقص فيها شيئاً فشيئاً؛ حتى يرفع العلم، ويثبت الجهل.
وذلك من أشراط الساعة كما أخبر بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم^(٣).

ولذهاب العلم كيفية ذكرها رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله:
«إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالماً اتخذ الناس رؤوساً جهالاً فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلّوا وأضلّوا» أخرجه البخاري ومسلم^(٤)، وقال ابن عباس لما مات زيد بن ثابت: «من سرّه أن ينظر كيف ذهاب العلم فهكذا ذهابه»^(٥).

وما من شك في أن العلم إذا ذهب بقبض العلماء كثر الجهل،
وإذا كثر الجهل كثر الفساد، وقلّ الصلاح، فلا يؤمر بمعروف ولا ينهى
عن منكر، قال النبي عليه الصلاة والسلام: «لا تقوم الساعة حتى يأخذ
الله شريطته من أهل الأرض، فيبقى فيها عجاجة لا يعرفون معروفاً

(٣) كما في حديث أنس رضي الله عنه عند البخاري في العلم باب رفع العلم وظهور
الجهل (٨٠)، ومسلم في العلم باب رفع العلم وقبضه وظهور الجهل والفتن
في آخر الزمان (٢٦٧١).

(٤) أخرجه البخاري في العلم باب كيف يقبض العلم (١٠٠) ومسلم في العلم
باب رفع العلم وقبضه وظهور الجهل والفتن في آخر الزمان (٢٦٧٣) من حديث
عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

(٥) أخرجه الطبراني في الكبير (٤٧٥١) والحاكم (٤٢٢/٣) وله طرق كثيرة ذكرها
الحافظ ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (٦٠١/١).

ولا ينكرون منكراً» أخرجه الإمام أحمد^(٦).

وإذا وقع ذلك فلا تسلم عن الفتن والمصائب؛ لأنها من الكثرة بما لا يتصور كما قال النبي عليه الصلاة والسلام: «يوشك أن يغربل الناس غربلة، وتبقى حثالة من الناس قد مَرَجَتْ عهودهم وأماناتهم وكانوا هكذا، وشبك بين أصابعه...» أخرجه أحمد^(٧).

وإذا أردتم أن تشاهدوا ما أخبرت به هذه الأحاديث واقعاً محسوساً فانظروا إلى أحوال بلادٍ ذهب علماؤها ومصلحوها، وكثر مفسدوها، وترأسها جهال؛ تجدوا أحوالها مزرية، وجهل أهلها مركباً. تراهم يتعلقون بالمخلوق دون الخالق، ويتقربون إلى الله تعالى بما يغضبه. يطوفون بالقبور، ويذبحون لها، ويستغيثون بها، ويدعونها من دون

(٦) أخرجه الإمام أحمد (٢/ ٢١٠) والحاكم وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين إن كان الحسن سمعه من عبد الله بن عمرو ووافقه الذهبي (٤/ ٤٣٥) وصححه الشيخ شاکر في شرحه للمسند وأثبت سماع الحسن من عبد الله بن عمرو بشبوت المعاصرة الكافية في الحكم بذلك حتى يثبت عدم السماع في حديث بعينه، انظر: شرحه على المسند برقم (٦٩٦٤)، وإثبات السماع انظره في رقم (٦٥٠٨)، وذكره الهيثمي وقال: رواه أحمد مرفوعاً وموقوفاً ورجالهما رجال الصحيح (٨/ ١٣).

(٧) أخرجه أحمد (٢/ ٢٢١) والبخاري تعليقاً في الصلاة باب تشبيك الأصابع في المسجد وغيره (٤٨٠) وقال الحافظ ابن حجر: وصله إبراهيم الحربي في غريب الحديث انظر: الفتح (١/ ٦٧٥) والحديث أخرجه أيضاً أبو داود في الملاحم باب الأمر والنهي (٤٣٤٣)، وابن ماجه في الفتن باب الثبوت في الفتنة (٣٩٥٧) والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (٤/ ٤٣٥)، وصححه الشيخ شاکر في شرحه على المسند (٦٣/ ٧٠).

الله تعالى، ويظنون ذلك قرابة، ويحسبون أنهم على شيء وهم في الباطل والضلال، ﴿ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٤]، وإذا وجد الشرك فما هو أقل منه أولى أن يوجد من البدع والخرافات، والكبائر والموبقات، والانحرافات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والأخلاقية وغيرها. وهذا يبرز أهمية قيمة العلماء الربانيين - علماء الملة والدين - ولا يدرك ذلك إلا من عاش أو رأى الجاهلية الأولى، وهل يدرك قيمة الصحة إلا من مرض أو رأى مريضاً متألماً؟! وهل يعرف معنى الحرية إلا من حبس أو شاهد حبساً؟!!

والأمة الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها تحتسب على الله تعالى وفاة عَلمٍ أعلامها، وإمام أئمتها في عصره سماحة الشيخ أبي عبد الله ابن باز، وتحسب أنه إمام العلماء الربانيين في وقته علماً وفقهاً، وزهداً وورعاً، وسمتاً وخلقاً، ودعوة وجهاداً. ذلك الشيخ الذي أطبق المؤمنون من أمة محمد صلى الله عليه وسلم في مشارق الأرض ومغاربها في هذا العصر على محبته وتوقيره.

إن هذا الإمام المبجل الذي وُدِّع الجمعة الماضية، وألقى عليه محبوبه آخر نظرة في الدنيا ما هو إلا حلقة في سلسلة متصلة من أعلام الإسلام وعظمائه تضرب في تاريخ الأمة منذ القرن الأول الهجري قبل ما يزيد على ألف وأربعمئة سنة، تناقلوا الحق جيلاً بعد جيل، وطائفة بعد طائفة، وإماماً من بعد إمام. وستظل هذه السلسلة متصلة

إلى أن يأتي أمر الله تعالى كما ثبت ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ورغم الإيمان بهذا، فإن الأمة تحزن لفراق أئمتها، وتجدُّ على موت علمائها، وتظلم الدنيا على أفراد كانوا يعيشون على مائدة علمٍ ثم فقدوها، وليس هذا الأمر جديداً ولا عجباً؛ بل هو قديم ومعقول. لما مات زيد بن ثابت رضي الله عنه قال أبو هريرة رضي الله عنه: «مات حبر الأمة ولعل الله أن يجعل في ابن عباس منه خلفاً»^(٨)، فكان ابن عباس رضي الله عنهما نعم الخلف لمن سلف، ثم لما مات ابن عباس رضي الله عنهما قال جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: «مات أعلم الناس، وأحلم الناس، ولقد أصيبت به هذه الأمة مصيبة لا ترتق»^(٩). نعم والله، إن وجد الأمة على علمائها عظيم، وأسأها على فراق أئمتها كبير، وإذا كانت أسرة العالم تفقد وليها فإن أسرته العلمية من إخوانه العلماء وطلابه أشدَّ فَرْقاً على فقده؛ لأنهم فقدوا من يستشيرونه ويسألونه ويستفتونه.

لما حضرت معاذ بن جبل الوفاة رأى رجلاً يبكي فقال رضي الله عنه: «ما يبكيك؟ قال: ما أبكي على دنيا كنت أصبتها منك؛ ولكن أبكي على العلم الذي كنت أصيبه منك، فقال رضي الله عنه: ولا

(٨) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٣٦٢/٢) والطبراني في الكبير (٤٧٥٠)، والحاكم (٤٢٧/٣).

(٩) الطبقات الكبرى لابن سعد (٣٧٢/٢)، وصفة الصفوة (١/٧٥٨).

تبكه فإن إبراهيم صلوات الله عليه كان في الأرض وليس بها علم فأتاه الله علماً»^(١٠).

نعم والله، إن طلاب العلم أكثر تأثراً لفراقه وفقده، وكذلك يفقده إخوانه العلماء ويحزنون لذلك، قال هشام بن حسان: «كنا عند محمد ابن سيرين عشية يوم الخميس فدخل عليه رجل بعد العصر فقال: مات الحسن البصري، فترحم عليه محمد، وتغير لونه، وأمسك عن الكلام، فما تكلم حتى غربت الشمس، وأمسك القوم عنه مما رأوا من وجده عليه»^(١١)، وما عاش محمد بن سيرين بعد الحسن البصري إلا مئة يوم حتى لحقه رحمهما الله ورضي عنهما^(١٢).

إن احتفاء الناس بالشيخ عظيم، ووجلهم من مرضه كان كبيراً، وفجيعتهم بموته كانت شديدة؛ فازدحموا على تشييع جنازته، وقدموا من أقاصي البلاد وخارجها إلى حيث يشيّع، حتى لم تعد الطائرات تحتمل المزيد من المشيعين. فمن لم يجد له مقعداً انضم إلى قوافل المسافرين براً والذين اتصل أقصاهم بأدناهم من مكة إلى الرياض، وصليت عليه صلاة الغائب في مشارق الأرض ومغاربها، وأخذت وسائل الإعلام من مقروءٍ ومسموعٍ ومشاهد تحكي سيرته وخلال له ومناقبه.

(١٠) انظر: مصنف عبد الرزاق (٢٠١٦٤)، والتاريخ الصغير للبخاري (٧٣/١)،

ومجمع الزوائد (٣١١/٢)، وسير أعلام النبلاء (٤٥٩/١).

(١١) سير أعلام النبلاء (٥٨٧/٤).

(١٢) المصدر السابق.

إن ذلك كله ليس بمستغرب ولا كثير في حق الشيخ رحمه الله تعالى، فحقه أكبر من ذلك بكثير؛ إذ هو أمة كاملة في رجل واحد، فهل فقدان أمة يستغرب فيه مثل هذا الاحتفاء والاهتمام من قبل المسلمين؟!

إن شيخنا أبا عبدالله بن باز كان إمام أهل السنة في عصره كما كان أبو عبدالله بن حنبل إمام أهل السنة في وقته، ومرض ابن باز فكثر عواده والسائلون عنه والداعون له، ومن قبل مرض ابن حنبل فكان الناس يدخلون عليه أفواجا من بعد أفواج، وأغلق باب الزقاق من كثرة الناس الذين ملؤوا الشوارع والمساجد، وتعطل بعض الباعة من شدة الزحام^(١٣). وقُبِض الإمام أحمد فارتجت الدنيا بأسرها حتى كان مشيعوه بين ألف ألف وألفي ألف على اختلاف روايات المؤرخين^(١٤)، قال عبد الوهاب الوراق: «ما بلغنا أن جمعا في الجاهلية ولا الإسلام مثله»^(١٥)، وصُلِّي عليه عقب صلاة الجمعة، وكذلك قبض الإمام ابن باز فشيعة ألف ألف على الأقل، وصلى عليه صلاة الغائب جموع لا يعلم عددها إلا الله تعالى عقب صلاة الجمعة أيضاً، غفر الله له، ورحمه وعفا عنه.

اللهم إنا نسألك أن تسكنه الفردوس الأعلى من الجنة، اللهم إنه كان شديد التأسي بسنة نبيك محمد صلى الله عليه وسلم فاجمعه به،

(١٣) انظر: سير أعلام النبلاء (١١/ ٣٣٥ - ٣٣٧).

(١٤) المصدر السابق.

(١٥) المصدر السابق (١١/ ٣٣٩).

واجمعنا بهما في جنات النعيم برحمتك يا أرحم الراحمين . . وأقول
قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم .

الخطبة الثانية

الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى ، أحمده
وأشكره وأتوب إليه وأستغفره ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا
شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، صلى الله وسلم وبارك
عليه وعلى آله وأصحابه ومن سار على نهجهم إلى يوم الدين .
أما بعد: فإن موت العلماء وإن كان مصيبة ، وفقد الأئمة وإن كان
محزناً إلا أن جنازتهم المشهودة عزٌّ لأهل السنة والخير والصلاح . نعم
إنهم يدعون إلى الله تعالى طوال حياتهم ؛ فإذا ما ماتوا أعزَّ الله بمشهد
جنازتهم أهل الخير والصلاح . فلم تتوقف دعوتهم بمجرد موتهم ؛ بل
اتصلت إلى ما بعد دفنهم . قال عبد الوهاب الوارق : « أظهر الناس في
جنازة أحمد بن حنبل السنة ، والطعن على أهل البدع فسرَّ الله المسلمين
بذلك على ما عندهم من المصيبة لما رأوا من العز وعلو الإسلام وكبت
أهل الزيغ »^(١٦) .

وظهر مثل ذلك في جنازة أبي عبد الله بن باز ، لقد اندحر المنافقون ،
وتوارى المفسدون ؛ لما رأوا من عظيم مشهد جنازته ، وإطباق الناس
على محبته ؛ مما أكد على أنه لا مكان لأهل النفاق والزيغ في هذه
البلاد المباركة ، وكم سرنا والله كثرة الكتابات عنه ، والاحتفاء به مما

أظهر عزَّ الإسلام، وظهور أهل الخير والصلاح.

إن هذا الشيخ المودع تمكن بفضلته وعمله وتقواه من قلوب العباد حتى دخلها. أصلح ما بينه وبين الله تعالى فأصلح الله له الخلق، وبث له القبول في الأرض، فحملته قلوب الخلق قبل أن تحمله أعناق الرجال. إن هذا الإمام المبجل لم يكن صنعة إعلام زائف ضلل الناس بشخصية لا تستحق التبجيل، ولم تلج محبته قلوب الناس بسبب دعاية كاذبة، كلا؛ بل عرفه كل من أتاه، وعلم صدقه وإخلاصه كل من سمعه، هكذا نحسبه والله حسيبه.

إنه ما بلغ منزلته تلك بنسب كان يتصل بأوسط القبائل، ولا اشترى محبة الناس بمال كان يملكه، ولا بجاه ورثه كابراً عن كابر، ولا بمنصب كان يسعى إليه؛ بل كان المال يأتيه فيزهد فيه، ويفرقه على مستحقه، وظل الجاه يلاحقه فأمسكه بيديه ولم يلج قلبه فسخره في خدمة الإسلام، ومعونة الضعفاء، ونصرة المستضعفين.

إن جنازته رحمه الله تعالى، وتأثر الناس بوفاة أعطت دورساً عدة لسائر الناس: أعطت دروساً لأهل الجاه والمناصب أن يتواضعوا، ويسخروا ما رزقوا في خدمة الناس، وقضاء حوائجهم؛ حتى يستحذوا على قلوبهم، وينالوا محبتهم. وأعطت جنازته دروساً لأهل العلم وطلابه أن يجِدُّوا في الطلب، ويخلصوا النية، ويتبعوا العلم العمل، وأعطت دروساً للعامة أن يُقبلوا على العلم ويعوا منزلة العلم وأهله. وأعطت جنازته رحمه الله تعالى درساً مهماً لجميع الناس هو: أن

يصلحوا ما بينهم وبين الله تعالى؛ حتى يصلح الله لهم الخلق، ويذل لمحبته قلوب العباد؛ فالقلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء^(١٧)، وإذا أحب الله عبداً أحبه أهل السماء، وبسط له القبول في الأرض^(١٨)، وهكذا نحسب الشيخ رحمه الله تعالى، والله حسيبه. طاب حياً وميتاً، وتواصلت دروسه ومآثره قبل وفاته وبعدها، وما خلف من علم سيقى إلى ما شاء الله تعالى، وإذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث، ومنها: علم ينتفع به، كما صح ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم^(١٩). فله دره، وما أحسن عاقبته،

(١٧) كما في حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عند مسلم في القدر باب تصريف الله تعالى القلوب كيف يشاء (٢٦٥٤)، وحديث أنس بن مالك رضي الله عنه عند الترمذي في القدر باب ما جاء أن القلوب بين أصبعي الرحمن وقال الترمذي: حسن صحيح، وحديث عائشة عند أحمد (٢٥١/٦) والنسائي في عمل اليوم والليلة (٣٠٤) وحديث أنس عند ابن ماجه (٣٨٣٤) وعبد بن حميد (١٥١٨) وحديث النواس بن سمعان وحديث أبي هريرة كلاهما عند ابن أبي عاصم في السنة (٢٢٩ - ٢٣٠).

(١٨) كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند البخاري في التوحيد باب كلام الرب مع جبريل ونداء الله للملائكة (٧٤٨٥) ومسلم في البر والصلة باب إذا أحب الله عبداً حبه إلى عباده (٢٦٣٧) والترمذي في التفسير باب ومن سورة مريم (٣١٦٠).

(١٩) كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند مسلم في الوصية باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته (١٦٣١)، وأبي داود في الوصايا باب ما جاء في الصدقة عن الميت (٢٨٨٠) والترمذي في الأحكام باب في الوقف (١٣٧٦)، والنسائي في الوصايا باب فضل الصدقة عن الميت (٢٥١/٦).

وجبر الله مصاب المسلمين فيه ، وعوضهم خيراً .

﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (١٨٠) وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (١٨١)

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿[الصفات: ١٨٠ - ١٨٢].

وصلّى الله على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .

١٦٦- وفيات الأعلام (٢)

الشيخ محمد ناصر الدين الألباني رحمه الله تعالى

الجمعة ٢٨/٦/١٤٢٠ هـ

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠]، [٧١].

أما بعد: فإن أصدق الحديث كلام الله تعالى، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها المؤمنون: من عدل الله سبحانه وتعالى ورحمته بعباده أن جعل ميزان التفاضل عنده ليس بقدر ما يملك العبد من مال أو جاه، أو ما يتصل به من حسب ونسب؛ فقارون ما أغنى عنه ماله، وفرعون ما نفعه سلطانه، وهارون ما سرته وزارته، وقريش كانت أوسط القبائل

وأعزها، وكثير من سادتها وكبرائها كان خيراً منهم بلال الحبشي، وصهيب الرومي، وسلمان الفارسي؛ لأن الميزان ميزان التقوى، وهؤلاء الموالي شرفوا بالإيمان بينما تقاعس السادة والأعيان من قريش عن الإسلام.

وكثير من الموالي وأبناء الموالي صاروا سادة بالعلم في الوقت الذي أصبح كثير من السادة لا يذكرون، قال ابن أبي الزناد رحمه الله تعالى: «كان أهل المدينة يكرهون اتخاذ أمهات الأولاد حتى نشأ فيهم الغرُّ السادة: علي بن الحسين، والقاسم بن محمد، وسالم بن عبدالله؛ ففاقوا أهل المدينة علماً وتقوى وعبادة وورعاً، فرغب الناس حينئذ في السراري»^(١). إن العلم والتقوى يصبح بهما الوضع رفيعاً، والخامل مشهوراً، والضعيف قوياً؛ لحاجة الناس إلى أهل العلم؛ ولأن الله تعالى يحب المتقين، ويحب العلماء العاملين، فيرفعهم ويعزهم، ويجعل حاجة الناس إليهم.

رأى رجل الحسن البصري والناس حوله فقال: «من هذا؟ فقيل له: مولى ساد. قال: بم ساد؟ فقيل له: احتاج الناس إلى علمه، ولم يحتج هو إلى دنياهم».

ومن عجيب تدبير الله تعالى وحكمته في هذا الشأن: أن الإمام البخاري الذي جمع كتاباً هو أصح كتاب بعد كتاب الله تعالى، والذي لو لم يكن من مآثر أهل بخارى إلا أن أنجبت هذا الرجل، ولو لم يكن

(١) سير أعلام النبلاء (٤/ ٤٦٠).

من آثاره إلا هذا الكتاب لكفى به شرفاً له ولأسرته ولأهل بخارى كلهم، العجيب أن جد والده كان أعجمياً! ومات على الكفر! ما بلغه الإسلام، ثم يكون من سلالة هذا الأعجمي الكافر إماماً حفظ الله به الدين، وحمى به السنة. وقد عجزت كثير من الأسر العربية؛ بل وأغرق القبائل العربية أن تخرج إماماً كهذا الإمام المولى الأعجمي الذي تدرس كتبه في الجامعات الإسلامية، والذي لا يزال ذكره في المسلمين، وسيستمر ما استمرت سنة النبي صلى الله عليه وسلم محفوظة. وقلّ أن تجد كتاباً في الشريعة استشهد صاحبه بنصوص من السنة إلا واسم هذا الإمام مزيل عقب حديث أو أحاديث منه، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

يُذكر هذا - أيها الإخوة - وأمة الإسلام تحتسب على الله تعالى وفاة الإمام المحدث، صاحب التصانيف النافعة المشهورة: محمد ناصر الدين الألباني رحمه الله تعالى رحمة واسعة، وأسكنه الفردوس الأعلى من جنته.

لقد نشأ كما نشأ كثير من العلماء فقيراً معدماً، وأشبعت حياته حياة الإمام البخاري من جهة الاهتمام بالحديث، ومن جهة الأصل الأعجمي في كلا الاثنين؛ فالبخاري من بخارى، والألباني من ألبانيا، وكلتاهما غير عربيتين.

يقول الشيخ الألباني رحمه الله تعالى: «إن نعم الله علي كثيرة، لا أحصي لها عدداً، ولعل من أهمها اثنتين: هجرة والدي إلى الشام،

ثم تعليمه إياي مهنته في إصلاح الساعات . أما الأولى فقد يسرت لي تعلم العربية، ولو ظللنا في ألبانيا لما توقعت أن أتعلم منها حرفاً، ولا سبيل إلى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم إلا عن طريق العربية، وأما الثانية فقد قيضت لي فراغاً من الوقت أملؤه بطلب العلم، فأتاحت لي فرص التجارة التي لو حاولت التدريب عليها أولاً لالتهمت وقتي كله، وبالتالي لسدت بوجهي سبل العلم الذي لا بد لطالبه من التفرغ»^(٢).

وكان سبب هجرة والده من ألبانيا الأعجمية إلى بلاد الشام العربية هي أن حاكم ألبانيا آنذاك أراد علمنة البلاد بالقوة، وأمر بنزع الحجاب عن النساء، واتباع الغربيين في لبسهم، وجميع شؤونهم. فكانت هذه الهجرة خيراً للشيخ؛ إذ تعلم علوم السنة النبوية، ولم تكن كتبها موجودة في مكتبة والده الممتلئة بكتب فقهاء الحنفية، فما كان منه إلا أن لزم المكتبة الظاهرية في الجامع الأموي، يقضي فيها كل يوم ما بين ست إلى عشر ساعات، ثم زاد اهتمامه وشغفه بالمطالعة والبحث حتى كان يقضي فيها اثني عشرة ساعة، يدخلها قبل دخول الموظفين ويبقى فيها إلى صلاة العشاء، وكم من مرة قضى ليله كله فيها، أغلقوا عليه الباب وأتوه في الصباح!!

وهذه النهمة في الطلب والبحث تذكرنا بفعل السلف الصالح رحمهم الله تعالى ورضي عنهم، ولم يكتف الشيخ رحمه الله بذلك؛ بل أزعجه

(٢) حياة الألباني وآثاره وثناء العلماء عليه لمحمد بن إبراهيم الشيباني (٤٨).

أنه لا يستطيع المطالعة والبحث إلا في أوقات عمل المكتبة، وليس عنده من المال ما يشتري به الكتب؛ فاتفق مع صاحب كبريات المكتبات التجارية في دمشق على أن يستعير منه بعض الكتاب، ويرجعها حال انتهائه منها. وإن جاء من يرغب شراءها أعادها فوراً. وبهذا صار يقضي جلّ وقته مع كتب الحديث وعلومه^(٣).

ما منعه الفقر من طلب العلم، ولا رده عدم امتلاكه للكتب عن مطالعتها؛ بل اخترع الطرق والأساليب التي جعلته لصيقاً بالكتب. ومن عجيب أخباره رحمه الله تعالى: أنه ما كان يجد قيمة الورق الذي يكتب فيه أبحاثه؛ فكان يطوف في الشوارع والأزقة يبحث عن الأوراق الساقطة فيها هنا وهناك؛ ليكتب على ظهرها؛ لأن وجه الورقة عادة يكون مليئاً بالكتابة، وقال رحمه الله تعالى: «كنت أشتري الأوراق بالوزن لرخصه»^(٤).

الله أكبر! همة عالية، وشغفٌ بطلب العلم وتدوينه، ما قعد واعتذر بالفقر، ولا ضيع وقته كما كان يفعل كثير من أقرانه؛ بل جدّ في الطلب، واجتهد وثابر؛ حتى كان حصيلة ذلك عشرات الكتب النافعة في تخريج حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وخدمته، وتيسير وصول الطلاب إليه بصنع الفهارس المتعددة، والذبّ عن السنة النبوية، والوقوف في وجوه المشككين فيها، وتنقية الكتب من الأحاديث

(٣) بتصرف غير يسير من المصدر السابق (٥١ - ٥٢).

(٤) انظر: المصدر السابق (٤٣).

الضعيفة والموضوعة، وبيان المقبول والمردود من الحديث، ومن ذبَّ عن سنة نبيه صلى الله عليه وسلم ذبَّ الله عن وجه النار يوم القيامة. رحم الله الشيخ، وعفا عنه، وجبر مصاب المسلمين فيه، وجمعنا به في دار كرامته، إنه سميع مجيب.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [الرعد: ٤١].
بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم

الخطبة الثانية

الحمد لله، حمداً كثيراً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى، أحمدته وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ومن سار على نهجهم واقتفى أثرهم إلى يوم الدين.

أما بعد: فاتقوا الله تعالى وأطيعوه، فما أحوجنا إلى التزام التقوى في زمن كثرت فيه الفواجع والزلازل، وكثر فيه موت العلماء والكبراء؛ وذلك حقيق بالاعتبار، واليقين بأن وعد الله حق، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور.

أيها الإخوة: ما من إمام من أئمة أهل السنة والجماعة إلا وله شائون ومبغضون من أهل الزيغ والبدع والضلالات، والألباني رحمه الله تعالى ليس بدعاً من ذلك؛ إذ سلقته ألسنٌ حداد، وكتبت فيه

أقلام حراب؛ سلّها ثم سنّها بعض المبتدعة، وبعض المرتزقة، بتهم تشي بما في صدورهم من الحنق والحسد والغيط. وما ضره ذلك، ولا أنقص قدره عند أهل الحق، وعادت سهام الناصلين عليهم، وكان ذمهم له ذماً لهم؛ إذ كشفت حقائقهم، وأظهرت بواطنهم، ومن يجترئ على هذا الإمام المحدث وهو الذي انتهج منهج السلف الصالح عن قناعة وإدراك، وبحثٍ ودراية، ولم يأخذه كابرًا عن كابر.

إنه رحمه الله تعالى نشأ وعاش في بيئة فشت فيها البدعة، وطمست أنوار السنة، وانتشرت الفرق الباطنية، والأحزاب الكفرية؛ فحمل لواء السنة، وحارب البدعة، ولم يكن معه معين ولا نصير سوى الله تعالى؛ حتى أدخل السجن غير مرة في سبيل دعوته إلى التوحيد الصحيح، والتزام السنة.

عاش في بيئة فقهاؤها من متعصبة المذاهب، يقدمون أقوال الرجال على حديث سيد الأنام عليه الصلاة والسلام إلا من رحم الله وقليل ما هم. فأخذ يدعو إلى السنة، وينظر ويجادل من أجل ذلك؛ حتى اتهموه بسبب دعوته إلى التوحيد الصحيح والسنة المطهرة بأنه وهابي وبأنه سلفي جامد، وأخرج من بلاد إلى بلاد أخرى في سبيل ذلك، وما فتّ ذلك في عضده؛ بل بقي قوًّا بالحق غير هباب حتى وفاته رحمه الله تعالى.

وما قيل عن حدته على الخصوم، وبعض اجتهاداته الخاطئة في الفقه والحديث؛ فذلك مغمور في بحر حسناته رحمه الله تعالى، ويكفي

أنه قضى عمره في مشروعه الأكبر: تقريب السنة بين يدي الأمة، مع دعوته إلى التزام الدليل والأخذ به، ونبذ التقليد، ومحاربته للبدعة وأهلها، ونبذه للحزبيات والتعصبات الجاهلية، ورحم الله الذهبي إذ يقول: «ولو أنا كلما أخطأ إمام في اجتهاده في آحاد المسائل خطأً مغفوراً له، قمنا عليه وبدعناه وهجرناه لما سلم معنا لا ابن نصر ولا ابن منده، ولا من هو أكبر منهما، والله هو الهادي الخلق إلى الحق، وهو أرحم الراحمين؛ فنعوذ بالله من الهوى والفظاظة»^(٥).

ويقول ابن القيم رحمه الله تعالى: «ومن له علم بالشرع والواقع يعلم قطعاً أن الرجل الجليل الذي له في الإسلام قدمٌ صالح، وآثار حسنة، وهو من الإسلام وأهله بمكان؛ قد تكون منه الهفوة والزلة هو فيها معذور؛ بل مأجور لاجتهاده، فلا يجوز أن يُتَّبَعَ، ولا يجوز أن تهدر مكانته وإمامته من قلوب المسلمين»^(٦).

إن الله وملائكته يصلون على النبي ، ، ،

(٥) سير أعلام النبلاء (١٤/ ٤٠).

(٦) إعلام الموقعين (٣/ ٤٨٣).

١٦٧- وفيات الأعلام (٣) الشيخ ابن عثيمين رحمه الله تعالى

١٧ / ١٠ / ١٤٢١ هـ

الحمد لله؛ يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما يشركون، أحمده وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٨٨].

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله؛ لما حضرته الوفاة كان بين يديه ركوة أو علبة فيها ماء، فجعل يُدخل يديه في الماء فيمسحُ بهما وجهه ويقول: «لا إله إلا الله إن للموت سكرات»^(١)، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهداهم إلى يوم الدين.

أما بعد: فاتقوا الله تعالى وأطيعوه؛ فقد نزلت النوازل بالمسلمين، وعظمت مصائبهم، وكثرت أحزانهم، وأحاطت بهم الفتن من جميع جوانبهم. تناقص علماءهم، وكثر فساقهم، وتمكن منهم أعداؤهم، وأطلع المنافقون قرونها، وأظهروا شرورهم، ونشروا السوء بينهم.

فتن جعلت الحليم حيران، لا يتصدى لها، ولا يكشف الحق فيها إلا علماء ربانيون، يبيعون الدنيا بالآخرة، ولا يبيعون العلم بالدنيا.

(١) جاء ذلك في حديث عائشة رضي الله عنها عند البخاري في المغازي باب مرض النبي صلى الله عليه وسلم ووفاته (٤٤٤٩).

كم بيّنوا من حقّ التبس بباطل! وكم وقفوا في وجه مفسدٍ ومنافق! كم أحمدهوا من فتنة عمياء! وجمعوا الناس على كلمة سواء! علماء ربانيون، السلطانُ يطيعهم، والمنافقُ يخشاهم، والناس يتبعونهم. هم الثباتُ للدين، والحافظُ للأمن بعد حفظ الله تعالى وتبتيته وتوفيقه.

ولا خير في أمةٍ ليس فيها من يُهاب في الدين، ومصدق ذلك ما قاله الصحابي الجليلُ عبدالله بن بسر رضي الله عنه: «لقد سمعت حديثاً منذ زمان: إذا كنت في قومٍ عشرين رجلاً أو أقل أو أكثر فتصفت وجوّههم فلم تر فيهم رجلاً يُهاب في الله عزّ وجلّ فاعلم أن الأمر قد رُق» رواه الإمام أحمد بسند حسن^(٢).

وقد بدأ الأمر يرقُ في الآونة الأخيرة بموت العلماء الربانيين؛ فقد ودعت الأمة كوكبة من الفقهاء والمحدثين على رأسهم شيخ المجتهدين في عصره أبو عبدالله ابن باز رحمه الله تعالى، ورأسُ المحدثين في زمنه محمد ناصر الدين الألباني رحمه الله تعالى، ثم هي الآن تحتسب على الله تعالى الإمام الفقيه المجتهد أبا عبدالله ابن عثيمين رحمه الله تعالى رحمة واسعة، وأسكنه الفردوس الأعلى من الجنة، وأحسن الله عزاء المسلمين، وجبر مصابهم فيه.

(٢) أخرجه أحمد (١٨٨/٤) وعزاه الهيثمي في مجمع الزوائد للطبراني في الكبير وحسنه (١٨٣/١)، وحسنه المنذري في الترغيب والترهيب (١٥١/١) برقم (١٧٥) والألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١٥٢/١) برقم (١٠٤).

عاش رحمه الله تعالى أربعاً وسبعين سنة، قضى جلّها في العلم والعبادة، والدعوة إلى الله تعالى، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. دَرَسَ ودرّس، وتعلم فعلم، وفقّه في الدين وأفتى وألف... حقق كثيراً من المسائل، وحلّ جمعاً من المعضلات والنوازل.

اشتهر ذكره بين الناس، وعلا صيته في الآفاق، كم من مستفتٍ انتفع بفتاويه! وكم من طالب علم اهتدى إلى الحق باختياراته وترجيحاته وتعليقاته!! وما نال هذا العلم الغزير إلا بجد في الطلب، وجثو في مجالس العلم على الركب، وإدامة للنظر في الكتب.

تأثر بشيخه ابن باز رحمهما الله تعالى في العناية بالسنة، والاهتمام بالحديث، وفتح أبوابه للسائلين، وبسط نفسه للمحتاجين؛ فأخذ عن شيخه العلم والحديث، كما أخذ عنه كريم الخلق وسعة الأفق، فما كان رحمه الله تعالى يضيق بالناس؛ بل اتسع صدره لكل ذي حاجة. لقد تميّز رحمه الله تعالى بعلم واسع، وفقه ثاقب؛ فهو بحر لم تكدره الدلاء. وكان ذا تنسك وعبادة، وورع وزهادة. وورعه رحمه الله مشهور بين الناس. يحاسب نفسه على القليل من المال، ويتحرّى الكسب الحلال، ولو شاء رحمه الله تعالى لملك الكثير من الأموال كما فعل غيره؛ فقد أقبلت الدنيا عليه، وطلبت المناصب العالية؛ لكنه أعرض عنها، وحافظ على نفسه من فتنها. وكل الناس قد أجمعوا على اشتهاره بالورع والتقوى. ويكفي دليلاً على ذلك أنه هرب من القضاء، وخلّص نفسه منه.

بدأ التأليف منذ أربعين سنة، وصنف عشرات الكتب والرسائل، وأملى كثيراً من الدروس والمسائل. وقد اشتهرت مؤلفاته بوضوح العبارة، وحسن الترتيب، وقوة الحجّة. واستفاد من مؤلفاته واختياراته كبار العلماء، كما درسها وتعلمها أصاغر الطلاب. وقد جعل الله تعالى لكتبه وفتاويه قبولاً بين علماء المسلمين وعامتهم. وتلك علامةٌ خير ودليل قبول إن شاء الله تعالى؛ فإن الله تعالى إذا أحبّ عبداً بسط له القبول في الأرض، وسخر قلوب العباد لمحبهته. وهكذا نحسب الشيخ رحمه الله تعالى، ونظن أنه من المقبولين، ولا نزكي على الله أحداً. فكم فُجّع الناس لما تسامعوا بمرضه، ودعوا له بظهر الغيب، وتزاحموا على زيارته، وأكثروا السؤال عنه، وما كانوا يرجون منه مالا ولا جاهاً، ولا يخافون منه سطوة أو انتقاماً؛ ولكنها المحبة التي داخلت قلوبهم من غير اختيار منهم، وإلا لما فجعوا به، وحزنوا عليه وبكوه. وقلوب العباد بيد الرحمن يقلبها كيف يشاء.

إن شيخنا الذي ودعنا إلى الدار الآخرة لم ينل ما نال من منزلة عند الناس بمالٍ اشترى به محبتهم؛ فما كان رحمه الله يملك الكثير من المال، وقد ملك غيره الأموال الطائلة، وفرقوها على الناس، وما نالوا عشرَ معشار محبة الناس له. ولا حصل على تلك الرفعة بمنصب كان الناس يرجون من ورائه نفعاً، وقد تبوأ غيره عالي المناصب، وما حصلوا ما حصل من رفعة.

لم يكن شيخنا الراحل شخصيّةً صنعها لنا إعلامٌ كاذبٌ، أو

أظهرتها لنا صحافةٌ صفراء أو خضراء عودتنا على الكذب والتزوير، ورفع أسافل الناس والمنحطين من ممثلين ومغنين وراقصات. كلا؛ بل إن شيخنا رحمه الله تعالى أكرم وأجلُّ من ذلك، ويستحقُّ ما صرَّفه الناس له من محبة وزيادة، وهو جدير بما قيل فيه، وأُثنيَ به عليه، ولا يفیه المسلمون حقه مهما قالوا فيه؛ إذ هو إمام كانوا يأتمون به في العلم، وفقيةٌ كانوا يلجؤون إليه في السؤال عن أمور دينهم.

وإذا كان للأطباء حقٌّ في أن يُحترموا ويؤقروا؛ لأن الناس يحتاجون إليهم في أبدانهم، ويستشيرونهم في أمراضهم، فمن الأكّد والأولى أن يوقّر شيخنا وإخوانه من العلماء؛ لأنهم أصلحوا قلوبنا بمواعظهم ودروسهم وفتاويهم، وهدونا إلى الصراط المستقيم بالدلالة على طريق الجنة، المذكورة في الكتاب والسنة، وحفظونا - بعد حفظ الله تعالى - من الانحراف عن الإسلام ببيان حقيقته، وبيان ما يناقضه ويخالفه من أقوال وأعمال واعتقادات؛ وهذه هي مهمة الأنبياء عليهم السلام؛ كما قال الله تعالى مخاطباً رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

والعلماء ورثة الأنبياء، ورثوا الهدى الذي أنزل عليهم، وورثوا تبليغ هذا الهدى للناس كما كان الأنبياء يفعلون. فحقُّ على الأمة تبجيلهم وتوقيرهم، ورفع مكانتهم، والدعاء لهم؛ فنسأل الله تعالى بأسمائه الحسنى، وصفاته العلى أن يغفر لشيخنا، وأن يرفع ذكره في الملائكة الأعلى، وأن يسكنه الفردوس الأعلى من الجنة إنه سميع مجيب.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [الرعد: ٤١].
بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم.

الخطبة الثانية

الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى، أحمده وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهداهم إلى يوم الدين...
أما بعد: فاتقوا الله - عباد الله - واحذروا الفتن؛ فإن العلم يُرفع بموت العلماء، وحيثئذ يكثر الجهل، ويترأس الجهال الذين ليس عندهم علم ولا حكمة، ومن ثم تشتعلُ الفتن، نسأل الله العافية.
إن للناس حقاً في أن يحزنوا على موت العلماء الربانيين، وأن يبكون لفراقهم، وهم في هذا الزمن في تناقص، وبتناقصهم يكثرُ الجهال، ويظهر من يعلم ولا ينتفع بعلمه، ولا ينفع به الناس، كما يترأس من لا يعلم؛ فيفسدُ الزمان حيثئذ.

قال ابن مسعود رضي الله عنه: «سيأتي على الناس زمانٌ تُملح فيه عذوبةُ القلوب، فلا ينتفع بالعلم يومئذ عالمه ولا متعلمه؛ فتكون قلوب علمائهم مثل السباخ من ذوات الملح، ينزل عليها قطر السماء فلا يوجد لها عذوبة، وذلك إذا مالت قلوب العلماء إلى حب الدنيا وإيثارها على الآخرة؛ فعند ذلك يسلبها الله تعالى ينابيع الحكمة، ويطفئ

مصاييح الهدى من قلوبهم، فيخبرك عالمهم حين تلقاه أنه يخشى الله تعالى بلسانه، والفجور ظاهر في عمله، فما أخصب الألسن يومئذ! وما أجذب القلوب! فوالله الذي لا إله إلا هو ما ذلك إلا لأن المعلمين علّموا لغير الله تعالى، والمتعلمين تعلّموا لغير الله تعالى». أه^(٣).

فالهلاك إذاً يكون بكثرة الجهل وترؤس الجهال، وبظهور من يريد بعلمه الدنيا، وهذه الظواهر لا تكون إلا إذا ذهب العلماء الربانيون. قال هلال بن خباب: «قلت لسعيد بن جبير: ما علامة هلاك الناس؟ قال: إذا ذهب علماؤهم»^(٤).

ومرّ أبو حنيفة رحمه الله تعالى على جماعة يتفقهون فقال: «ألهم رأس؟» قالوا: لا، قال: «إذن لا يفلحون»^(٥).

وقد فقدت أمة الإسلام في السنوات الأخيرة عدداً من الرؤوس الكبار في العلم والدعوة والعبادة، نسأل الله تعالى أن يجبر مصاب المسلمين بهم، وأن يعوضهم عنهم، وأن يخلف عليهم بخير. ألا وصلوا وسلموا على نبينا محمد، كما أمركم بذلك ربكم..

(٣) إحياء علوم الدين (١/٦٤).

(٤) سير أعلام النبلاء (٤/٣٢٦).

(٥) تنبيه الهاجد إلى ما وقع من النظر في كتب الأماجد لأبي إسحاق الحويني (٢٤).

الفكر والثقافة

- | | |
|------------------------------|-----------------------------|
| ١٦٨- الإنسان بين العبودية | ١٧٤- نقد الديمقراطية |
| والحررية | ١٧٥- سبب ذلة المسلمين |
| ١٦٩- التعليم وترسيخ المبادئ | ١٧٦- لماذا لا نتصرف؟ |
| ١٧٠- ضرورة ارتباط العلم | ١٧٧- الهزيمة النفسية |
| بالإيمان | ١٧٨- المرأة في ظل الإسلام |
| ١٧١- حقوق الإنسان بين | ١٧٩- تاريخ الحركة النسوية |
| الإسلام وقوانين الغرب | ١٨٠- مؤتمر المرأة عام ٢٠٠٠م |
| ١٧٢- بين الرحمة الإسلامية | ١٨١- الفن وفساد المرأة |
| والرحمة الغربية | ١٨٢- فضل اللغة العربية |
| ١٧٣- الإفتاء البشري في الفكر | ١٨٣- قصة تقدم الغرب |
| الرأسمالي | وتخلف الشرق |

١٦٨- الإنسان بين العبودية والحرية

الجمعة ٦/٧/١٤٢٠هـ

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلَّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله... ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أما بعد: فإن أعظم ما يوصف به الإنسان هو كونه عبداً لله تعالى، وإن أشرف مقام يصل إليه مقام العبودية لله رب العالمين؛ ومن أجل ذلك خلق الخلق، وبعث الرسل، وأنزلت الكتب، وابتلي العباد ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٦ - ٥٨].

إن العبودية لله تعالى وصف ارتضاه الله تعالى للكمّل من خلقه، وشرّفهم به، وأنعم به عليهم. وصف جعله الله للملائكة المقربين، وللأنبياء والمرسلين، ولعباده المؤمنين، ﴿لَنْ يَسْتَكْفِرَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَكْفِرْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ

إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿[النساء: ١٧٢].

إن الملائكة الذين شرفوا بقربهم من الرب تبارك وتعالى في ملكوت السموات لم يأنفوا من أن يكونوا عبيدًا له ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ (١٩) يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿[الأنبياء: ١٩، ٢٠].

والأنبياء والمرسلون الذين شرفهم الله بالوحي، واصطفاهم من بين سائر البشر، ما هم إلا عبيدٌ لله تعالى، قائمون بأمره، داعون إلى دينه، دالّون على سبيله ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِيَ الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾ [ص: ٤٥]، ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ [ص: ٤١]، ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ١٧]، وقال عن سليمان عليه الصلاة والسلام: ﴿نَعَمْ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٣٠]، وعن عيسى عليه الصلاة والسلام: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ [الزخرف: ٥٩].

ومحمدٌ صلى الله عليه وسلم خاتمهم وإمامهم أثنى الله تعالى عليه بالعبودية في أشرف المقامات ذكرًا؛ فامتن عليه بنزول أعظم كتاب وأصدقه فقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ﴾ [الفرقان: ١]، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ [الكهف: ١] وأعلى اتصال له صلى الله عليه وسلم بالسماء كان في حادثة الإسراء والمعراج فذكرها الله تعالى مقرونة بذكر عبوديته له ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ [الإسراء: ١]، ولما أثنى الله على من كمل إيمانهم من سائر الناس صدر ذلك بقوله: ﴿وَعِبَادُ

الرَّحْمَنَ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا ﴿٦٣﴾ [الفرقان: ٦٣].

وهذه العبودية، عبودية خاصة بمن أراد الله تعالى به خيراً من عباده؛ وهي عبودية الطاعة والمحبة، والذل والخضوع لله تعالى^(١)، واتباع أوامره واجتناب نواهيه، لا يستكبرون عن ذلك ولا يرفضونه؛ بل يرون أن ذلك أعظم نعمة، وأشرف مقام .

وإلا فالأصل أن كل من خلق الله تعالى عبداً له، المؤمن منهم والكافر، حتى فرعون وهامان وقارون وأبوجهل وسائر الكفار هم عبيد لله تعالى رغم أنوفهم ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣]، لكنهم أنفقوا من ذلك واستكبروا؛ فكانوا عبيداً لعبدٍ مثلهم هو الشيطان الرجيم .

إذا تقرر ذلك فإن كل مخلوق عبدٌ، شاء أم أبى، وليس في الوجود إلا عبدٌ ومعبود، خالقٌ ومخلوق، فالخالق المعبود هو الله تعالى، والعبدُ المخلوق هو من سوى الله تعالى من الموجودات. ومن رفض عبوديته لله تعالى فهو قد أنف من عبادة الخالق المعبود إلى عبادة عبدٍ مخلوق كائنًا من كان، ولا يمكن أن يكون المخلوق بلا عبودية.

ودعاة الحرية الذين رفضوا تعاليم الإسلام بحجة أنها قيود، ويزعمون أنهم ينشدون الحرية المطلقة ما هم في حقيقة الأمر إلا عبيدٌ لأهوائهم ولشياطينهم ولمن لا يستحق العبودية من المخلوقين، فأفٍ لهم يرفضون عبوديتهم للخالق المعبود، ويسارعون في عبودية المخلوق، يقول شيخ

(١) انظر: مدارج السالكين لابن القيم (١/١١٩) .

الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: «إن الإنسان أمام طريقتين لا ثالث لهما: فإما أن يختار العبودية لله تعالى، وإما أن يرفض هذه العبودية فيقع لا محالة في عبودية لغير الله تعالى»^(٢).

وهذا المعنى الذي قرره شيخ الاسلام واضح كل الوضوح في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (٦٠) وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿[يس: ٦٠، ٦١]، فليس ثمَّ إلا عبوديتان: إما عبودية لله تعالى، وإما عبودية للشيطان، وليس هناك ما يسمى حرية مطلقة عند من خلقوا من العدم. ولو كانت لهم الحرية المطلقة لتصرفوا في الكون، ولدفعوا عن أنفسهم الضر، إنهم ليسوا أحراراً حتى في أنفسهم، فهم يمرضون ويتألمون، ثم يموتون ويدفنون، ولا يقدرّون على دفع المكاره، ولا ردّ الابتلاء، فأين هي الحرية المطلقة إذا كانوا لا يستطيعون نفع أنفسهم ولا دفع الضر عنهم؟! وهل يملك الحرية في نفسه مَنْ موته وحياته، وفقره وغناه بيد غيره لا بيده، ثم هل يليق أن يدعو إلى الحرية مَنْ عجز عن إيجادها في نفسه؟!!

إن مفهوم الحرية هذا مفهومٌ علماني إلحاديّ نشأ كردة فعل على التسلط الكنسي الذي بنى تسلطه على نظرية الثبات المطلق عند أرسطو ومفاهيم أفلاطون، التي كانت سائدة في العصور الوسطى، والتي تقضي بأن الأوصياء وحدّهم هم الذين يجب أن يفكروا، أما العبيد فعليهم اتباع قادتهم مثل قطيع الغنم، وهذه المفاهيم والنظريات أدت إلى الاستعلاء

(٢) انظر: العبودية لشيخ الإسلام (٥).

الكنسي، والاستبداد الملكي حتى قالوا: روما سادة وما حولها عبيد. فجاءت نظرية هيجل في التحول المطلق لتحطم كل الضوابط والقيود لكل ماهو ثابت ومطلق من عقائد وأخلاق^(٣)، وبسبب هذه النظرية وغيرها من النظريات المشابهة انتشر مفهوم الحرية هذا في البلاد الغربية حتى ثاروا على القيم والضوابط الدينية والأخلاقية، ثم نقل هذا المفهوم المغتربون العرب إلى بلاد المسلمين، وأدخلوه في ثقافتهم، وأوجدوا له المسوغات؛ ليصلوا به إلى مآرب شخصية، ومنافع ذاتية؛ فتراهم يجعلون الحرية شعارهم عندما يثورون على ما يسمونه الاستبداد السياسي تحت مسوغ مقاومة كبت الحريات، ويعتدون بها على كل المقدسات والحرمات، ويحطمون بها الثوابت، ويشككون في المسلّمات تحت شعار حرية الرأي والفكر والثقافة، ويدمرون بها البنية الاجتماعية، والضوابط الأخلاقية باسم الحرية الشخصية.

وما أظهر الزنادقة زندقاتهم، ولا استهزأ المنافقون بالله وآياته ورسوله، ولا استخفوا بتعاليم الدين الإسلامي إلا باسم حرية الرأي التي تخول للإنسان أن يعتقد ما يشاء، ويقول ما يشاء. وما تعرت البغايا، وانتشرت الفواحش، وارتكبت الخيانات الزوجية، وتمردت الزوجة على زوجها والأولاد على والديهم إلا تحت شعار الحرية الشخصية التي تخول للمرء أن يفعل ما يشاء متى شاء، وقس على ذلك غيرها في مجال الحريات. ثم بعد هذا الاستكبار عن العبودية للرحمن، والرضى بعبادة الهوى

(٣) انظر: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة (٢/١٠٥٨).

والشيطان هل حققوا الحرية المطلقة؟

اليقين أنهم لم ولن يحققوها؛ لأن من الناس من كبت حريته، فالقاتل يرى حريته في قتل الناس، والسارق يرى حريته في سلب أموالهم، والمشاكس يرى حريته في الاعتداء عليهم وعلى حرمانهم؟ لكنهم قالوا: لا حرية لهؤلاء؛ لأن الحرية لا بد أن تضبط بالقوانين؟ فاستنكفوا من عبادة الله تعالى؛ والتزام شريعته، ولم يروا مانعاً من عبادة الشيطان، والتزام قوانين أهوائهم الوضعية. فما عاد هناك حريه؛ ولكنه وهم حرية فأولى لهم ضبط حرياتهم بشرع الله تعالى، لكنهم استكبروا عن ذلك ليضبطوها بتعاليم إبليس، وقوانين أهوائهم، وأخزى الله اليهود حيث قالوا: «كلمة الحرية تجرُّ الجماعات إلى مقاتلة كل قوة وسلطة حتى إنها لتقاتل الله وتقاوم سننه في الطبيعة»^(٤).

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبَهُ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (٢٣) [الجاثية: ٢٣]، ، ،

الخطبة الثانية

الحمد لله حمداً يليق بجلال ربنا وعظيم سلطانه، هو خالقنا ومعبودنا، لا نعبد إلا إياه مخلصين له الدين ولو كره الكافرون، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه، ومن اهتدى بهداهم إلى يوم الدين.

(٤) المصدر السابق نقلاً عن برتوكلات حكماء صهيون .

أما بعد: فأوصيكم - أيها الناس - ونفسي بتقوى الله عزَّ وجلَّ؛ فاتقوه واشكروه على نعمة الإسلام التي لا تدانيها نعمة مهما عظمت.

أيها المؤمنون: ظهر مما سبق أن الحرية المطلقة سفسطة كلامية، ونظرة مثالية لا يمكن تطبيقها، ولو طبقت بحذافيرها من دون قيد ولا شرط ولا ضابط ولا قانون لسادت الهمجية والوحشية في البشر. وأما الحرية المقيدة بالقوانين الوضعية فهي حرية انتقائية ظالمة، تحقق مصلحة شرذمة من المتنفذين وصانعي القرار في سبيل سحق باقي البشر. ومثالها الواضح في البلاد الغربية، سواء على المستوى الفردي أو الدولي؛ فعلى المستوى الفردي أعطوا المرأة حرية الزنى ثم سمحوا لها بحرية الإجهاض؛ لتكون بين خيارين أحلاهما مرًّا: إما أن تقتل وليدها بيدها، وإما أن تكون مسؤولة عن رعايته والإنفاق عليه؛ لأنه من دون أب.

وفي مجال الأموال تطبق حرية الربا والاحتكار وسائر المعاملات المحرمة؛ لتسحق الطبقة الغنية الطبقة الفقيرة، وهكذا باقي الحريات. وأما على المستوى الدولي فإن حرية التدين تذبح صباحاً ومساءً حين يريد الناس الإسلام، وينادى بها على رؤوس الأشهاد حينما يرتدُّ المرتدون عن الإسلام، ويستهزئون بشعائره.

وفي مفهوم الحرية الغربية، وابنتها العلمانية العربية، أضحى الإسلام تخلفاً، وشعائره إرهاباً، وحدوده وحشية. ولما أرادت شعوبٌ غربية التزام الإسلام عاقبتها حريتهم بالقتل والحرق والتقطيع والتعذيب والاغتصاب والدفن في ربوع البوسنة، وأودية كوسوفا. ولماذا الحديث عن الماضي

والشيشان الآن محاصر وتذك بالصواريخ، وتحرق بالنار، ويقتل أبناءها، ويهجر شعبها تحت سمع وبصر العالم الحر، وربما بإيعاز منه، فأين هي حرية التدين التي تكفلها قوانينهم؟ وأين هي حرية تقرير المصير؟ الآن الشيشان وداغستان اختارتا الإسلام، كان هذا هو العقاب؟!

فما بال هذه الحرية توارت عن الأنظار؟ ولماذا لا تظهر إلا حينما يصيح زنديق بآياته الشيطانية؟!^(٥)، فأين هم الداعون إلى الحريات المطلقة، وأين المدافعون عنها؟ ليفسروا لنا ما يجري الآن في الشيشان من انتهاك لحرية التدين، وسيادة الشعوب. كان الله في عون إخواننا في الشيشان وداغستان، ونسأله تعالى أن يفك الحصار عنهم، وأن ينصرهم، وأن يدحر أعداءهم، إنه سميع مجيب، وهبوا إلى نجدة إخوانكم بالدعاء والمال فهم في أمس الحاجة إلى ذلك .

أيها الإخوة: يجب أن تمحص هذه المصطلحات الوافدة البراقة الخادعة، التي ظاهرها حسن، وباطنها قبيح، والتي ينادي بها أقوامٌ عن جهل بمعناها، أو عن خبث في مرادهم. فترك استعمالها حتم واجب، لا هي من ديننا، ولا من ثقافتنا، ولا نبتت في أرضنا؛ بل حملها الآخرون إلينا بكفرها وإلحادها، ومعارضتها الصريحة لأحكام الشريعة، وغلفوها

(٥) المقصود بهذا الزنديق سلمان رشدي وكتابه الآيات الشيطانية الذي اعتدى فيه على رب العالمين والأنبياء وأحكام الإسلام، وما أكثر الزنادقة الذين أصبحوا يتوقون إلى الشهرة الإعلامية وإرضاء الأعداء عن طريق التعدي على الله تعالى وعلى رسله وشريعته، وإظهار ردتهم بكل أمن وصفاقة أخزاهم الله، وعاملهم بما يستحقون .

بأغلفة جميلة؛ خداعاً وتزويراً، فأثرت في بعض الجهلة حتى إذا ما دعي أحدهم إلى الصلاة، أو أُمرَ بمعروف، أو نهى عن منكر قال : أنا حرٌّ أفعلُ ما أشاء، وما علم قائلها المسكين أن قوله هذا فيه من الخطر على دينه ما فيه؛ فيه استكبار عن عبادة الله تعالى، ورفض لشريعته، واستنكاف عن أمره ونهيه، وإن كان قائلها ربما لا يقصد ذلك؛ لكن الكلمة تؤدي إلى هذا المعنى الكفري. إنه سمعها من غيره فحفظها ورددها من دون فهم لمعناها، ولا إدراك لما يترتب عليها، فالحذر من الألفاظ الكفرية الوافدة، وما أكثرها في هذا الزمان !!

أسأل الله تعالى أن يهدي ضال المسلمين، وأن يصلح قلوبنا وأعمالنا، وأن يرزقنا الفقه في الدين، والاخلاص لرب العالمين، اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد.

١٦٩- التعليم وترسيخ المبادئ أو قتلها

١٤٢٢/١١/٢٥ هـ

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أما بعد: فإن أصدق الحديث كلام الله تعالى، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها الناس: لكل أمة من الأمم دينها ومبادئها، تنطلق منها أخلاقها وأعرافها ونظمها، التي تتقيد بها، وتتحاكم عند الاختلاف إليها، وتعلمها لأبنائها، ويتوارثها أجيالها. فأهل القوانين الوضعية يستقون أخلاقهم ومبادئهم من دستورهم الذي تواضعوا عليه، وعند الاختلاف يتحاكمون إليه. وأهل الشرائع المنزلة من لدن آدم عليه السلام إلى آخر رجل مسلم من هذه الأمة يحتكمون إلى شريعة ربهم، ويستقون

أخلاقهم من مقررات دينهم . وعبادُ الأوثان ، والجهلةُ الذين لم تصلهم الرسائل يضبطهم ما يصدر من كبرائهم أو من شيوخ قبائلهم من أوامر وتعليمات ، ولا يعرف التاريخُ بشراً عاشوا بلا قانون تواضعوا عليه ، ونظام عرفوه فيما بينهم بغض النظر عن كونه حقاً أم باطلاً . ومهمة الأنبياء عليهم السلام هي تعييدُ الناس لربهم ، وضبطُ قوانينهم وأخلاقهم وأعرافهم على وفق المنهج الذي ارتضاه لعباده ؛ لأنه تبارك وتعالى أعلمُ بما يصلحُ للبشر وما يُصلحهم . كما أن مهمة الشياطين من جنٍ وإنس هي صرف الناس عن المنهج الرباني إلى مناهج شتى يستقونها من غيرهم ، أو تقدحُ بها أفكارهم ؛ ليكون الناسُ عباداً لأنفسهم ، أو لبشرٍ مثلهم ، بدلاً عن عبادتهم لربهم ، يستوي في ذلك قانونُ قصي بن كلاب وأبي جهل وأبي لهب وأرسطو وأفلاطون في الجاهلية الأولى ، وقانونُ ماركس ولينين وريكارد ومالتوس وميل وغيرهم من الماركسيين والليبراليين في الجاهلية الحديثة ، والجامعُ بينها : أنها نتاج عقولٍ قاصرةٍ جاهلةٍ عاجزةٍ .

وغزو الفكرة أعظمُ من غزو الأرض ، وقتلُ المبدأ أبلغُ أثراً من قتل البشر ؛ لأن البشر يخلفهم آخرون يدافعون عن المبدأ ، لكن المبدأ إذا ضاع من أمة فلا قيمة لأفرادها مهما كانت كثرتهم .

ومن قرأ التاريخ ، وطالع سير الأمم تجلت له هذه الحقيقة ؛ فالأنبياء عليهم السلام قبل أن يقاتلوا المشركين قاتلوا أفكارهم ، ودحضوا حججهم ، حتى تبعهم أناس أخلصوا لهم ، كانوا من قبل أعدى أعدائهم .

وفي مقابل ذلك فإن الغزو العسكري على مر التاريخ ضد المسلمين لم ينجح نجاحاً نهائياً، رغم كثرة القتلى، وجسامة الخسائر المادية والمعنوية؛ كما حصل أيام الغزو المغولي الذي راح ضحيته ملايين المسلمين، أو أيام الحروب الصليبية التي هلك فيها من المسلمين ما لا يعلم عددهم إلا الله تعالى خلال قرنين من الزمن، أو أيام الاستعمار العسكري الذي أهلك الحرث والنسل. كل ذلك لم ينجح؛ لأن القتلى يخلفهم رجال يدافعون عن الدين، ويحافظون على المبدأ، وإذا ما قتلوا خلفهم آخرون وهكذا. ولما عجز نابليون عن إخضاع مصر لحكمه سحب جيوشه وقال قوله المشهورة: «ستهزمهم جيوش النساء وقوارير الخمر» ومن يومها بدأت مشاريع التغريب الفكرية بالمطبعة، والمسرح، وخروج المرأة، وإفساد الناس بالشهوات؛ حتى تغيرت المبادئ، وأصاب الديانة غربة شديدة، وصار أصحاب المبدأ يحاربونه، وأهل الديانة لا يريدونها إلا من رحم الله تعالى وقليل ما هم.

إن الأمة القوية ليست هي الأمة التي تكتفي ببناء جيوشها، أو تقوية اقتصادها، أو عمران مدنها، أو ثراء أفرادها؛ ولكنها الأمة التي يرضع أبنائها مبادئها وأفكارها منذ فطامهم؛ لأنهم إذا تربوا على المبدأ منذ صغرهم قاتلوا في سبيله إذا شبوا، ولم يتخلوا عنه مهما كانت التضحية.

وعقلاء الأمم يدركون ذلك تمام الإدراك، والتاريخ مليء بما يدل على ذلك؛ فالأمة الفرنسية لما انحصر مدها أمام النفوذ الإنجليزي،

واضطرت للرضوخ أمام أطماع الإنجليز فيما عرف باسم: اتفاقية تقسيم المستعمرات، عقد البرلمان الفرنسي عدة جلسات مشهورة لا ليحاكم وزير الدفاع وقادة الجيش المهزومين، ولكن ليحاكم وزير التربية والتعليم بحجة مقنعة هي: أن نظام التعليم لو استطاع تخريج شباب مؤمن بفرنسا وقضاياها لما سلّم أسلحته، ولا انسحب من أية معركة، ولا استبسل جنوده دفاعاً عن أمتهم التي أحبوها، وآمنوا بها، وتغذوا على الدفاع عنها.

وقد سجل خلاصة هذه المناقشات فيلسوف منهم في كتاب فحواه: أن الأمة إذا أرادت أن يكون لها مكان بين الأمم القوية فعليها أن تتخذ لنفسها نظاماً تعليمياً قوياً مؤثراً مستقلاً واضح الأهداف^(١).

إن أمة الإسلام كانت قوية لما كانت الديانة قوية في قلوب أتباعها، يتربى أبنائها على الكتاب والسنة، ويدرسون التوحيد وتعاليم الإسلام منذ صغرهم في الكتاتيب والأربطة والمساجد والمدارس؛ فيتخرج شباب يؤمنون بقضاياها، ويدافعون عن ديانتها، ويردون العدوان عنها باللسان والقلم والسنان.

والعدو ما أصاب الأمة المسلمة في مقتل إلا لما غزاها في تعليمها، وسعى في تغيير مدارسها ومناهجها في كثير من بلاد المسلمين فيما سمي بعملية تحديث التعليم. وكان الإعلام الذي أنشئ على أسس

(١) انظر: التعليم العربي والتعليم الصهيوني هل هما سواء؟! للأستاذ الدكتور مصطفى رجب، مجلة الجندي المسلم عدد (١٠٦) ص (٤٤).

تغريبية يُلحُّ بقوة ليقنع الناس بضرورة تغريب التعليم، فيصورُ معلمي المواد الدينية والعربية والأدبية في صور الدراويش الذين لا يفقهون شيئاً، وأن على الأمة إن أرادت التقدم أن تنبذهم وما يُدرِّسون، والإنتاج الإعلامي الذي يكرس لدى الناشئة تلك الصورة السيئة عن المواد الدينية أكثرُ من أن يحصر سواء كان في مقالات أم روايات أم مسلسلات أم أفلام أم رسوم ساخرة أم غيرها.

وانظروا إلى كثير من البلاد المسلمة التي مُسخ التعليم فيها، وتم تغريبه بالكامل مع تغريب الإعلام؛ تجد أفرادها لا يعرفون أكثر ضروريات دينهم، ولا يفقهون من أحكامه شيئاً، وقد أضاعوا المبدأ الذي كان سبب قوتهم وعزتهم، ومع ذلك لم يتقدموا في أمور الدنيا؛ لأن الأعداء لما غربوا تعليمهم جردوهم من أسباب القوة، ولم يريدوا لهم التقدم؛ وذلك من أجل السيطرة عليهم، وضمان تبعيتهم لهم.

إن تغيير عملية التربية والتعليم سواء كانت إلى الإفساد أم إلى الإصلاح تحتاج نفساً طويلاً، وصبراً جميلاً، وسنواتٍ عدة لتؤتي ثمارها المرجوة، ولكن نتيجتها مضمونة؛ ولذا كانت خطط الأعداء في هذا الغزو تتدرج عبر عشرات السنوات من الأضعف إلى الأقوى، ومن الأقل إلى الأكثر حتى وصلوا إلى ما يريدون في كثير من البقاع الإسلامية. إن الأسرة هي المحضن الأول لكل فرد من أفراد الأمة، فإن كانت أسرةً صالحةً غرست في نفوس أبنائها مبادئ الإسلام، وقواعد التوحيد، ثم تأتي المدرسة بعد سن التمييز لترسخ المبادئ التي نشأ عليها الطفل

في طفولته؛ ليكون البناء العقائدي لديه قوياً متيناً، وبالعكس ذلك يكون العكس، والنبى صلى الله عليه وسلم أخبر أن: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه»^(٢)، فإذا كانت الأسرة لا تراعى شرع الله تعالى فيما يسمعه أبناؤها وما يشاهدونه وما يتلقونه فلا ترتجي الأسرة حينئذ أن تبقى فطرةً أبنائها على ما هي عليه، ولا تستغرب إن رأت أحد أبنائها يتنكر لدين آباءه وأجداده ومبادئهم وثقافتهم وأعرافهم. وكثير من الأسر المسلمة في العالم الإسلامي أنتجت أولاداً ملاحدة ليس لهم دين ولا مبدأ، يفكرون بعقول غيرهم، ويتنكرون لأمتهم، ويخدمون أعداءهم.

فإذا ما تم إفساد التعليم مع إفساد الأسرة فقل سلاماً على الأمة. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿فَأَقْمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٣٠) مُبِينٌ إِلَيْهِ وَآثْقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٣١) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿[الروم: ٣٠ - ٣٢].

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم، ، ،

(٢) أخرج هذا الحديث البخاري في الجناز باب ما قيل في أولاد المشركين (١٣٨٥)، ومسلم في القدر باب معنى كل مولود يولد على الفطرة (٢٦٥٩)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الخطبة الثانية

الحمد لله، حمداً طيباً كثيراً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى،
أحمده وأشكره وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده
لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله وسلم وبارك
عليه وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهداهم إلى يوم الدين.

أما بعد: فاتقوا الله تعالى وأطيعوه، وراقبوه فلا تعصوه؛ فإن الأعمال
مكتوبة، والأعمار محدودة، والأنفاس محسوبة، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا
اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (١٨)
وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿[الحشر:
١٨، ١٩].

أيها المسلمون: في صراع المسلمين مع اليهود الذي زاد على نصف
قرن يظهر بجلاء ما للتعليم والتربية من دور كبير في الصراع؛ فاليهود
كذبوا كذبة ملخصها: أن الله تعالى أعطاهم أرض فلسطين، ونسجوا
حول هذه الكذبة كما كبيراً من الأساطير والخرافات، ثم حولوا ذلك إلى
مبدأ يموتون في سبيله، ويولد أطفالهم على تلقينه؛ حتى صارت الكذبة
واقعة ملموساً هو دولة إسرائيل. وفي مقابل ذلك فإن المسلمين تنازلوا
عن المبدأ الشرعي الذي يجعل لهم الحق الكامل في كل الأرض، وحولوه
إلى مفاهيم ضيقة كالأرض والوطن والتراب، وإرث كنعان، ثم جعلوا
السلام خياراً استراتيجياً؛ فطمع اليهود في تنازلات أخرى، وسيظل طمعهم
إلى أن يملكوا الأرض كلها، أو يتم إخراجهم من فلسطين المحتلة.

والسؤال هنا: ما الذي جعل اليهود بمؤسساتهم وجنودهم ومتدنيهم وعلمانيهم يصدقون الكذبة التي كذبها المؤسسون لدولتهم؟! وما الذي يجعل الجندي اليهودي يُقدم على قتل طفل أعزل، ويهدم منزلاً وسط صراخ العجائز والأرامل، ولا يتورع عن قصف المنازل وهدمها على رؤوس أهلها؟! هل اليهود ليسوا بشراً يحسون ويرحمون؟! ولماذا لا يكتفون بقتل المقاتلة من أعدائهم؟

إن السبب الرئيس في ذلك هو التربية والتعليم، فالطفل اليهودي يرضع كراهية المسلمين مع رضاعته للحليب، ويربى على المبادئ اليهودية العنصرية منذ نعومة أظفاره، ويشبع بتلك الروح العدائية ضد المسلمين؛ حتى صار يرى أن قتل الأطفال والنساء، وهدم الدور والمنازل على أهلها واجباً مقدساً، يمليه عليه المبدأ الذي يدين به.

وفي الوقت الذي يُلح فيه الإعلام العربي على المتلقين عنه أن السلام خيار استراتيجي فإن طلاب المدارس الابتدائية اليهودية يدرسون سفر يشوع الذي يحدثهم عن سقوط أريحا قائلاً: «فاندفع الشعب نحو المدينة إلى وجهته، واستولوا عليها، ودمروا المدينة، وقضوا بحد السيف على كل من فيها من رجال ونساء وأطفال وشيوخ حتى البقر والغنم والحمير». بعد دراسة الطلاب اليهود لهذا المقطع قام أحد أساتذتهم باستفتاء بين طلابه فسألهم سؤالين: هل ما فعله يشوع بالقرى التي فتحها كان صواباً؟ وهل يجب أن يفعل جيش إسرائيل اليوم بالقرى العربية مثل ما فعل يشوع؟ فكانت الإجابة بالإجماع من كل الطلاب:

«نعم»!!

وفي كتب الحساب المقررة على المدارس الابتدائية يتعلم طلاب اليهود الجمع والطرح والقسمة بأمثلة تُرسخ المبدأ السياسي والعسكري الذي تنتهجه دولتهم؛ فتقول بعض مسائل الحساب:

نشبت معركة بين أطفال فلسطينيين يقذفون جنود جيش الدفاع بالحجارة فاضطر جنودنا للدفاع عن أنفسهم، فإذا كان عدد هؤلاء الأطفال خمسين، وألقيت عليهم قنبلة قتلت منهم سبعة، وأصابت ثمانية فكم عدد الذين هربوا؟! (٣).

وكل التمارين على هذا النحو، فهم يصورون لدى الطالب المتلقي أن المسلمين دائماً هم المعتدون! وأن جنودهم مهما فعلوا من أعمال وحشية فهم يدافعون عن أنفسهم! ولو قتلوا الأطفال والنساء، وهدموا البيوت...!!

فإذا كان هذا في مادة الحساب فما عساهم أن يدرسوا في مواد الدين ومواد التاريخ والجغرافيا التي تجعل دولتهم من النيل إلى الفرات؟! وفي الوقت الذي ثبت فيه اليهود على مبدئهم العدائي ضد المسلمين ودرّسوه لأطفالهم نرى من المحللين العرب من يدعون إلى التطبيع معهم، وإلى عدم كراهية الآخر؛ بل صرنا نسمع أن ثوابت الدين، ومسلمات الشريعة، وما قرره الكتاب والسنة من عداوة أهل الكتاب للذين آمنوا صارت محل نظر وبحث وجدل ومناقشة.

(٣) انظر: مجلة الجندي المسلم عدد ١٠٦ ص ٤٥.

وفي كل يوم يتشبت فيه اليهود بمبدئهم المكذوب، ويحولون خرافاتهم إلى واقع محسوس، نرى أصحاب المبدأ الحق يتنازلون شيئاً فشيئاً عن مبادئهم التي هي مصدر قوتهم لإرضاء أهل الكتاب الذين لن يرضوا عنهم حتى يتبعوا ملتهم كما في محكم التنزيل.

فهذا هو القول الفصل في المعركة الطويلة، وليست العلة فيها سياسية أو عسكرية أو اقتصادية؛ ولكنها علة مبادئ وقيم تخلى المسلمون عنها فوكلهم الله تعالى إلى أنفسهم؛ فعجزوا عن مقاومة أعدائهم، ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠]، ﴿أَوْ لَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٦٥]، فاتقوا الله ربكم، وأصلحوا أسركم وبيوتكم، وسرائركم وعلائيتكم، وتوبوا إلى ربكم إن أردتم عزاً في الدنيا وفلاحاً في الآخرة.

أسأل الله تعالى أن يرفع البلاء عن المسلمين، وأن يردهم إليه رداً جميلاً، وأن يتولى أمورهم، ويزيل همومهم، وينصرهم على أعدائهم، إنه سميع مجيب.

ألا وصلوا وسلموا على نبيكم محمد بن عبد الله كما أمركم بذلك

ربكم،،،،

١٧٠- ضرورة ارتباط العلم بالإيمان

الجمعة ٣٠ / ٥ / ١٤٢٠ هـ

الحمد لله ، ﴿ عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴾ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿ [العلق: ٤ ، ٥] أحمده وأشكره ، وأتوب إليه وأستغفره ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ؛ شهد بها لنفسه ، وشهد بها ملائكته وأولو العلم والإيمان من خلقه ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران: ١٨] ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ؛ من الله تعالى ببعثته على الأُميين ﴿ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ [الجمعة: ٢] ، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ؛ كانوا أغزر هذه الأمة علماً ، وأزكاهم عملاً ، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد : فأوصيكم - أيها الناس - ونفسي بتقوى الله عز وجل ؛ فاتقوه حق التقوى ، واشكروه على نعمه التي لا تحصى . فحقيق أن يُتقى من عذابه أليم ، وأخذه شديد . وحقيق أن يشكر من خلقنا من العدم ، وربانا بالنعم ، وعلمنا ما لم نكن نعلم ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل: ٧٨] .

أيها المؤمنون: لا يستطيع المرء أن يعرف أثر العلم في حياة البشر على اختلاف المستويات وتنوع المجالات إلا إذا قارن بين عالم متبحر ، وبين أميٍّ نشأ في إحدى الأدغال بعيداً عن أيٍّ منفذٍ معرفيٍّ . لا شك

أنه سيجد أن ما يُفرِّق بينهما أكثر مما يجمع، كما أنه سيجد أن عيش هذين الرجلين في مكانٍ واحد يكاد أن يكون مستحيلاً^(١).

ومن رحمة الله تعالى بعباده أن علَّمهم ورزقهم وسائل تحصيل العلوم والمعارف؛ فأعطاهم الأسماع ليسمعوا العلم فيستفيدوا، وأعطاهم الأبصار ليبحثوا ويقرؤوا، وأعطاهم الأفئدة حتى يتفكروا ويتدبروا ويستنبطوا. لقد علَّمهم الله تعالى ما يوصلهم إليه وإلى رضوانه وجنته؛ فأرسل لهم الرسل، وأنزل عليهم الكتب، وأراهم من آيات عظمته، وعجائب قدرته ما يدل على ربوبيته وإلهيته.

وسخر لهم الأرض وما عليها، ورزقهم وسائل الانتفاع بها، وجعل إفادتهم منها على قدر بحوثهم وتجاربهم، وعملهم وجدهم. وحكمة هذا التسخير: جعله وسيلة إلى الغاية العظمى الموصلة إلى رضوانه وجنته. والعلم بحرٌ لا ساحل له، سواءً منه ما ينفع في الدنيا أو ما ينفع في الآخرة، ولا يستطيع أحد الاستحواذ على كل العلم، فهناك دائماً من هو أكثر إحاطة به ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦].

إن القرآن يقرر وجوب أخذ العلم عن أهله، ورجوع من لا يعلم إلى من يعلم لكي يتعلم، فحين أنكر مشركو مكة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وقالوا: الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً، فهلاً بعث ملكاً؟! أنزل الله تعالى قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ

(١) انظر: حول التربية والتعليم للدكتور عبد الكريم بكار (١٢٥).

فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٤٣) بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ (٤٤) ﴿[النحل]

أي: اسألوا يامعشر قريش العلماء بالتوراة والإنجيل يخبروكم أن جميع الأنبياء كانوا بشراً إن كنتم لا تعلمون ذلك^(٢).

وحقيقة كبرى يقررها كتابُ الله تعالى تتمثلُ في أن أكثر الكفار إنما أعرضوا عن اتباع الحق بسبب عدم توافر العلم الصحيح لديهم ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٤] وهذا يلقي مسؤولية عظيمة على أمة الإسلام؛ إذ إن عليها إيصال الحق إلى الناس، وبيانه لهم، ودعوتهم إليه.

إن كثيراً من عبّاد الأوثان، وعبّاد البقر، وعبّاد الصليب، وعبّاد العجل ظنوا جهلاً أن عبادتهم تقربهم إلى الله زلفى؛ فعبدوا ما عبدوا من دون الله تعالى.

وإن كثيراً من عبّاد المادة وعبّاد العقل البشري ظنوا أن لا إله، وأن الحياة مادة؛ فعملوا للدنيا وأهملوا الآخرة؛ لأن ما ينقصهم من حقيقة العلم جعلهم يجهلون حتمية الآخرة.

فكيف السبيل إلى إخراج هذه الجموع من شركها، وتحويلها من عبادة غير الله إلى عبادة الله وحده إلا أن يُعلّموا حقيقة الدنيا ومالها، وحقيقة الآخرة وما يجب لها، وأن يبصروا بالحق المبين، والصراط المستقيم.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٢/٨٨٤) ومحاسن التأويل للقاسمي: حيث ذكر أن في الآية دليلاً على وجوب الرجوع إلى العلماء فيما لا يعلم (٤/٥٢٢) عند تفسير الآيتين (٤٣-٤٤) من سورة النحل.

وفي جانب آخر فإن العلم إذا لم يضبط بالإيمان عاد نفعه ضراً، وخيره شراً؛ إذ يقود إلى الاستكبار عن الحق على علم وبكل إصرار وجحود، منكرأً صاحبه نعم الله تعالى عليه. وقد قص الله علينا أخبار أقوام أوتوا من العلم ما أوتوا؛ لكنهم أوتوا علماً بلا إيمان فجحداً نعم الله تعالى واستكبروا عن الحق المبين ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ [غافر: ٨٣] وقارون جحد نعمة الله عليه، ونسب ما أوتي من مال إلى علمه ﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي ﴾ [القصص: ٧٨].

وحضارة اليوم توصف بأنها حضارة علمية لكنها علمانية، أي: لا دينية، لا إيمانية، ليس للإيمان بالآخرة فيها مكان، ولا للتصديق بالغيب فيها مجال. هي حضارة سعت في عمارة الأرض مادياً، وحصرت اهتمامها بالحياة الدنيا في انفصال تام عن الموت وما بعده، وأصحابها كما أخبر الله تعالى: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾ [الروم: ٧].

وها هنا سؤال يرد: هذا النوع من الحضارة المبني على علوم الدنيا بانفصال تام عن علوم الآخرة هل أسعد الإنسان وحقق له ما يريد؟! كلا، فالجميع لاحظوا أنه كلما خطا الإنسان خطوات في التقدم الدنيوي زاد عدد زائري العيادات النفسية، وكل الناس يتفقون على أن الحياة البسيطة أكثر سعادة من الحياة المادية المعقدة.

إن العلوم الدنيوية التي حازها البشر في القرون المتأخرة قد أسهمت

وبشكل مباشر في رفاية الإنسان وراحته؛ تنوعت مآكله ومشاربه، وتعددت ملابسه ومراكبه، وصار من في طرف الأرض الشمالي يستطيع محادثة من في طرفها الجنوبي، والحدث الذي يحصل في أقاصي البلدان، ووراء الجبال والبحار يعلمه من هو في أدناها، والمنتجات التي كان الإنسان ينتج القليل منها في عام كامل؛ أصبحت الآلات تنتج الكثير منها في ثوانٍ معدودة. كل هذا حصل ولا زال يحصل؛ ولكن ماذا حدث حينما انفصل العلم عن الإيمان، وأصبح علمانياً دنيوياً مادياً، لا يؤمن بالغيب ولا يعرف للآخرة سبيلاً؟!

إنه صارَ علماً يسعى في تدمير الأرض ومن عليها، في سبيل الهيمنة والسيطرة على العالم. لقد فقد الإنسان السيطرة على العلوم التي تعلمها؛ فصارت بعد فقد الإيمان أهم سبب لتدمير العالم!! فبواسطة العلوم الفيزيائية صنع الإنسان القنابل الذرية والنووية والبيولوجية والجرثومية التي يعلم مكتشفو نظرياتها، وصانعو صواريخها أنها لو أطلقت لأهلكت ملايين البشر بمن فيهم صانعوها ومطلقوها! ومع ذلك صنعها الإنسان؛ لأنه لا إيمان يضبطه، ولا خوف من الآخرة يردعه عن الإسهام في دمار البشرية، وكم من الوزر يحمله صانعو هذه المدمرات التي أُطلق بعضها في الحرب الكونية الثانية فأهلكت ملايين البشر؟!

وفي مجال الهندسة الوراثية صاروا بالعلم يلعبون بالأجنة يريدون أن يخلقوا كخلق الله تعالى!!

إنهم وبالعلم لوثوا البحار والأنهار، وأفسدوا الزروع والأشجار،

حتى ماعاد لأثمارها طعم بسبب الكيمائيات التي تنضجها قبل وقتها، وتجعلها أكبر من حجمها، وتزيد في المحصول، والضحية من يأكلها! وأعظم من ذلك أنهم صاروا يأكلون ما يخرجون من بطونهم بعد تحليله ومعالجته كما تفعل الجلالة من الحيوان.

إنهم وبالعلم أطلقوا الأقمار الاصطناعية التجسسية فهل سعدوا؟! إن التجسس يدلُّ على الخوف، والخوف دليلُ شقاءٍ لا دليلُ سعادة. إنهم وبالعلم سهلوا ارتكاب الفواحش، وعرضوها عبر فضائياتهم، وتفننوا في مداعبة الغرائز، والهبوط بالإنسان إلى الحيوانية وإلى ماهو أقلُّ منها فهل شبعوا؟! كلا، إنهم يريدون فناً أكثر إثارة، وأكثر غريزية وبهيمية، ولستُ أعلم في مجال الشهوات شيئاً يعرض أقل وضاعة من الزنا واللواط والسحاق وسائر الشذوذ، فماذا يريدون؟ وإلى أي مدى سيصلون؟

إنهم وبالعلم نوعوا التجارات، وعددوا سبل الحصول على المال، وصار البيعُ والشراء عن طريق شبكات الاتصال العالمية، فهل شبع أهلُ المال من المال؟ كلا، إنهم يريدون المزيد والمزيد، وإلى متى؟ وكلُّ ما يجري على الأرض يجري إلى متى؟! إن له أجلاً وإن له نهاية فهل يعقلون؟ وهل يضبطون ما أوتوا من علوم الدنيا بالإيمان بالغيب والإيمان بالدار الآخرة؟!

إنهم لن يتعظوا ولن يعقلوا حتى تقع الواقعة فانظروا رحمكم الله إلى أي مدى وصل العلم، إنه لما انفصل عن الإيمان أشقاهم في الدنيا،

ويوشك أن يدمرهم .

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم : ﴿ فَأَعْرَضَ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ (٢٩) ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ اهْتَدَى ﴾ (٣٠) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴿ [النجم : ٢٩ - ٣١] .

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم ، ، ،

الخطبة الثانية

الحمد لله ، حمداً طيباً كثيراً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى ،
أحمده وأشكره وأتوب إليه وأستغفره ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده
لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم وبارك
عليه وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداهم إلى يوم الدين .

أما بعد: فإن من الأخطاء التي يرتكبها أكثر المسلمين في حق العلم
أن حوّلوه إلى ما يشبه التجارة ، ولم يقتصر ذلك على علوم الدنيا ، بل
حتى علوم الدين صار تعامل المتعلمين معها أشبه ما يكون بتعاملهم مع
صفقة تجارية ؛ فالطالب المتعلم لا يوجه إلى ما يحسن من العلوم ، ويناسب
مداركه وقدراته ، أو ما تحتاجه أمته ؛ بل يوجه إلى ما هو أضمن وظيفه ،
وأعلى أرباحاً ؛ حتى كان هذا الأسلوب من التوجيه سبباً لإخفاق كثير
من المتعلمين !!

وبناء على هذه الفكرة الخاطئة فإن للتعليم عند طالبه أجلاً ونهاية

حيث ينتهي أجلُ تحصيل العلوم بمجرد الحصول على الشهادة التي يضمن بها المتعلم كرسي الوظيفة؛ ليقضي بقية عمره عليه إلى أن يُقَاعَد أو يموت. وهكذا أصبحت أمة الإسلام تعاني من جملة ما تعاني من أمية المثقفين الذين درسوا وتعلموا وحازوا شهادات عليا، وتخصصات جيدة؛ لكنهم توقفوا عن البحث والدراسة بمجرد جلوسهم على كرسي الوظيفة حتى نسوا ماتعلموا فأصبحوا في عداد الأميين!!

ولو كان العلم يُطلب لحظ الآخرة، ومن أجل نفع الأمة لما حصل هذا، قال صالح ابن الإمام أحمد بن حنبل: «رأى رجل مع أبي محبرة فقال له: يا أبا عبدالله، أنت قد بلغت هذا المبلغ وأنت إمام المسلمين - يعني ومعك المحبرة تحملها -؟ فقال: مع المحبرة إلى المقبرة». وقال رحمه الله: «أنا أطلب العلم إلى أن أدخل القبر»^(٣).

وبهذه الروح العلمية الجادة سادوا الدنيا وعمروها، وعمرُوا الآخرة، ولم يحصل من علومهم ضرر على البشرية؛ بل كانت علومهم نافعة لحظ الدنيا وحق الآخرة، فاتقوا الله ربكم وأعطوا العلم منزلته، واقدروه حق قدره، واضبطوه بالإيمان والتقوى، وأخلصوا فيه لله تعالى، ونشئوا أولادكم على ذلك؛ ليسعدوا في الدنيا والآخرة. ثم صلوا على نبيكم كما أمركم بذلك ربكم.

(٣) مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي (٣١).

١٧١- حقوق الإنسان بين الإسلام وقوانين الغرب

الجمعة ١٤٢١/٢/١ هـ

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أيها المؤمنون: أرسل الله تعالى محمداً صلى الله عليه وسلم بشيراً ونذيراً بين يدي الساعة إلى الناس كافة، عربهم وعجمهم، قريتهم وبعيدهم ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨]، ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وأخبر الله تعالى أن إرساله كان رحمة للبشرية ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] وأنزل عليه القرآن مصدر هداية لجميع المكلفين ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٧].

فبعثة محمد صلى الله عليه وسلم رحمة للبشر كلهم، وهي رحمة

في الدنيا والآخرة . ففي الدنيا : رحمةٌ لمن آمن به بحصولِ سعادة قلبه ، وطمأنينة نفسه ، وفي الآخرة بالفوز بالسعادة الأبدية في الجنة . وهي كذلك رحمةٌ لمن لم يدخل في الإسلام ما دام منضوياً تحت حكمه ، خاضعاً لسلطانه ؛ وذلك بتمتعه بعدل الإسلام ؛ ولذا جاءت النصوص تحت على الجهاد في سبيل الله تعالى لإخضاع الناس كلهم ، المؤمن منهم والكافر لدين الإسلام ؛ لأنه لا عدل ولا رحمة في غيره ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾ [البقرة : ١٩٣] .

فمن آمن بالإسلام فاز في الدنيا والآخرة ، ومن لم يؤمن به وكان تحت سلطانه نَعِمَ بالعدل الذي لن يجده في غيره ؛ مما يجعل الإسلام رحمةً حتى على من بقي على كفره . وشواهدُ التاريخ تثبت هذه الحقيقة التي لا مرية فيها ؛ فإن سائر الكفار من يهودٍ ونصارى ومجوسٍ وغيرهم ما نعموا بالعدل إلا تحت حكم الإسلام حتى إنهم فضلوه على حكم دينهم ، واختاروا سلطان المسلمين على سلطان بني دينهم وجنسهم . لقد انطلقت جيوش الإسلام تجاهد في سبيل الله تعالى ؛ ففتحت البلدان ، ومصرت الأُمصار ، ونشرت الإسلام ، لم يغدروا ولم ينكثوا عهداً عاهدوه ، ولا أخلفوا وعداً وعدوه ؛ بل كانوا أوفياء للعهود ، أصحاب حقٍ وعدل ، ينطلقون في جهادهم من وصايا النبي صلى الله عليه وسلم الذي كان إذا أمّر أميراً على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله عزوجل ومن معه من المسلمين خيراً ثم قال : «اغزوا باسم الله في سبيل الله ، قاتلوا من كفر بالله ، اغزوا فلا تغلوا ولا تغدروا

ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليداً...» أخرجه مسلم^(١).

لقد وضع قادة المسلمين هذه الوصية وغيرها من وصايا النبي صلى الله عليه وسلم نصب أعينهم في كل معركة يخوضونها؛ مما كان سبباً في نشر الحق، وبسط العدل، ورفع الظلم. وكان من أثر ذلك أن أبا عبيدة ابن الجراح رضي الله عنه لما انسحب من حمص إلى اليرموك بعد أن فرض على أهلها الجزية بكى النصارى فيها وقالوا: «يا معشر المسلمين، أنتم أحب إلينا من الروم وإن كانوا على ديننا، أنتم أوفى لنا، وأرأف بنا، وأكف عن ظلمنا، وأحسن ولاية علينا؛ ولكنهم - أي الروم - غلبونا على أمرنا وعلى منازلنا»^(٢).

ولما فُتح بيت المقدس في عهد عمر رضي الله عنه وتسلم مفاتيحه من النصارى فرح بذلك اليهود؛ لأن النصارى ظلموهم وأبادوا أكثرهم^(٣).
يا ترى ماذا فعل النصارى ببيت المقدس لما انتزعوه في حملاتهم الصليبية؟! إنهم أنزلوا المؤذنين في أنطاكية من أعلى المنائر فذبحوهم، وأبادوا المسلمين فيها، وقتلوا في بيت المقدس زهاء سبعين ألف مسلم

(١) أخرجه مسلم في الجهاد والسير باب تأمير الإمام الأمراء على البعوث ووصيته إياهم بآداب الغزو وغيرها (٧٣١) وأبوداود في الجهاد باب دعاء المشركين (٢٦١٢) (٢٦١٣) والترمذي في السير باب ماجاء في وصيته صلى الله عليه وسلم في القتال (١٦١٧) وفي الدييات باب ماجاء في النهي عن المثلة (١٤٠٨).
(٢) انظر: الخراج لأبي يوسف عن تاريخ الحضارة العربية لمحمد كرد علي (٣٩/١)، وفتوح البلدان للبلاذري (١٣٧).

(٣) انظر: تاريخ الطبري (٤٤٨/٢) وفيه أن يهودياً تلقى عمر رضي الله عنه في دمشق وبشره بفتح بيت المقدس.

لجؤوا إلى المسجد الأقصى^(٤)، ولما استردها صلاح الدين لم يعاملهم بما عاملوا به المسلمين رغم أن الفقهاء أفتوه بجواز أن يفعل بهم مثل ما فعلوه بالمسلمين من قبل لكنه أثر العفو والصفح عنهم^(٥).

ولقد شهد المنصفون من أبناء النصارى بهذه الحقيقة للإسلام وأهله المتمسكين به، يقول أحدهم: «وإذا كان فريقٌ من ذوي الأغراض الملتوية يزعمُ أن الإسلام يبعثُ على التدمير والفوضى والتعصب؛ فإنني بصفتي رجلاً قضيت بين المسلمين مدةً من الزمن في الشرق والغرب، ولم أكتف بما قرأته عن الإسلام في الكتب أقول: إن جميع تلك المزاعم لا نصيب لها من الصحة» اهـ^(٦).

إن البشر ما افتقدوا العدل إلا لما تحولت القوة والسيطرة إلى غير المسلمين ليتشر الظلم والبغي، في ظل إدارة القوى الغربية الرأسمالية الظالمة التي كانت لها نظراتها الخاطئة لحقوق الإنسان، ثم مارست

(٤) انظر وصف ذلك في: المنتظم لابن الجوزي (٤٧/١٧) والكامل (١٨٩/٨) البداية والنهاية (١٣٨/١٢) وتاريخ الإسلام للذهبي (١٥/٣٤) وتاريخ ابن خلدون (٢٥/٥).

(٥) انظر استرجاع بيت المقدس في: النوادر السلطانية للقاضي ابن شداد (٨٠) والكامل (٥٤١/١١) والبداية والنهاية (٣٢٢/١٢) وتاريخ الإسلام (٢٤/٤١) وتاريخ ابن خلدون (٣٦٨/٥).

(٦) القائل هو الكاتب الفرنسي (ليوتي) في مقالة في مجلة لامارش دي فرانس، تعريب جريدة الأهرام، عن الإسلام والحضارة العربية لمحمد كردعلي (١/٣٨).

أبشع الأساليب المزدوجة في تطبيق تلك المفاهيم الخاطئة؛ ليتراكم الظلم على الظلم، وأضحى أكثرُ البشر ضحايا لثلةٍ من العنصريين البيض يملكون القرار في مصير الشعوب.

إن حقوق الإنسان التي يحفظها الغرب هي حقوقُ ذلك الماديِّ الرأسمالي الذي يمتص دماء الناس، ويزيد في معاناة الفقراء والجوعى، عن طريق تجارته الحرة، وشركاته العملاقة. وإلا فما معنى أن ترمى الملايينُ من أطنان الطعام حفاظاً على ثبات الأسعار في الوقت الذي يموت فيه الملايين من الجوع!! فأين هي حقوقهم في العيش؟! إنها حقوقٌ تُحفظُ للمجرم الذي ينتهك الأعراض، وينتهبُ الأموال، ويسفكُ الدماء؛ وإلا فما معنى المطالبةِ بإلغاءِ القتل على من يستحقه من المجرمين؛ لئسَّ المجرم في سجنه فيخرج أشدَّ ضراوةً وفتكاً، وربما أدار شبكاته الإجرامية من وراء القضبان، هلاً رأوا إلى الضحية الذي قتل بلا ذنب على يد ذلك المجرم الذي يريدون استحياءه واستبقاءه!! وأما الازدواجية في التطبيق؛ بل وفي تشريع القوانين فهي أوضحُ من الشمس في رابعة النهار، فهم يحفظون حقوق من يريد الحرام الخبيث. أما من أراد الحلال الطيب فلا حقوق له، وهذا يتسق مع النظرة الإلحادية المادية للكون والإنسان وللشرائع. فالمرهقُ إن أراد إشباع غريزته بالطريق الحلال - الزواج - فالقوانين الغربية تمنع الزواج المبكر، والعمل المبكر؛ لكنها تبيح حرية ممارسة الجنس للمراهقين؛ بل تطالب بها وتريد فرضها على بقية الشعوب!! وإذا ما أراد الرجل إعفاف نفسه

وإحصان فرجه عن طريق الزواج بأخرى؛ فإن قوانينهم تمنع ذلك وتعتبره انتهاكاً لمؤسسة الأسرة وحق الزوجة؛ لكنه إن اختار الطريق الحرام فاتخذ من الصديقات مئة أو مئتين؛ فإن القانون الغربي يسمح بذلك مادام الصديقان متراضيين مما جعل أكثر من أربعين في المئة من طفولة الغرب طفولة نتجت من سفاح.

إن قوانينهم تحفظ حقوق العاهرة التي تريد أن تتعري، وتفتن الناس تحت اسم الحرية الشخصية، وفي الوقت ذاته تمنع العفيفة من حجابها، وتُحوّل للمدرسة والجامعة والشركة طرد كل محجبة! والأمثلة كثيرة، والظلم عظيم، وهو مؤذن بنهاية امبراطورية الرأسماليين الماديين، عجل الله ذلك بمنه وكرمه .

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝ (١٥) وَأَكِيدُ كَيْدًا ۝ (١٦) فَمَهْلُ الْكَافِرِينَ أَمَهُلُهُمْ رُويْدًا﴾ . بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم .

الخطبة الثانية

الحمد لله حمداً طيباً كثيراً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى، أحمدده وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهداهم إلى يوم الدين .

أما بعد: فاتقوا الله واعملوا صالحاً؛ فإن النجاة في التقوى ﴿فَمَنْ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأعراف: ٣٥] .

أيها المؤمنون: إن دين الإسلام حفظ حقوق المسلمين وغير المسلمين؛ بل حفظ حقوق الحيوان والجماد! إن ديناً حرّم قطع شجرة بلا حق، وحرّق زرع بلا سبب، وقتل عصفور بلا حاجة^(٧)؛ لحري أن يحفظ حقوق البشر.

إن ديننا أخبرنا أن امرأة دخلت النار في هرة حبستها، لا هي أطعمتها ولا تركتها تأكل من خشاش الأرض^(٨)، وأخبرنا أن بغياً - زانية - دخلت الجنة؛ لأنها سقت كلباً فشكر الله لها وغفر لها^(٩)، فهل يرتاب عاقل بعد ذلك في حفظ الإسلام لحقوق الإنسان والحيوان والنبات

(٧) جاء ذلك في حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ما من إنسان يقتل عصفوراً فما فوقها بغير حق إلا سأله الله عز وجل عنها يوم القيامة، قيل: يا رسول الله، وما حقها؟ قال: حقها أن يذبحها فيأكلها ولا يقطع رأسها فيرمي بها» أخرجه أحمد (٢/٢٢٥) والنسائي في الضحايا باب من قتل عصفوراً بغير حق (٧/٢١١) والبغوي في شرح السنة (٢٧٨٧) والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (٤/٢٣٣).

(٨) كما في حديث ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «دخلت امرأة النار في هرة ربطتها فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض» أخرجه البخاري في بدء الخلق باب إذا وقع الذباب في شراب أحدكم (٣٣١٨) ومسلم في البر باب تحريم تعذيب الهرة (٢٢٤٢).

(٩) كما في حديث أبي هريرة عند مسلم في الألفاظ من الأدب وغيرها باب فضل سقي البهائم المحترمة وإطعامها (٢٢٤٥) وجاء في روايات أخرى أن الذي سقى الكلب رجل كما عند البخاري في الأدب باب رحمة الناس بالبهائم (٩/٦٠٠) ومسلم (٢٢٤٤) وأبي داود في الجهاد باب ما يؤمر به من القيام على الدواب والبهائم (٢٥٥٠).

والجماد؛ وذلك بتحريم الإفساد في الأرض.

وأما دعاوى الغرب ضد شريعة الإسلام وأحكامه وحدوده؛ فما هي إلا حلقة في سلسلة متصلة من التآمر والكيد، والحرب المعلنة وغير المعلنة على الإسلام، تضرب في عمق التاريخ منذ غزوة مؤتة، وستظل إلى أن يلتقي المسلمون مع عبدة الصليب في الملاحم الكبرى التي ينزل فيها المسيح ابن مريم عليه الصلاة والسلام فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويحكم بشريعة محمد صلى الله عليه وسلم؛ كما صحت بذلك الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ولا شك في أن الغرب لما استفرد بالقوة بعد سقوط المعسكر الشرقي سوف يسعى بكل ما أوتي من قوة ومكر لعملة العالم على وفق هديه وشريعته الرأسمالية المادية الإلحادية؛ ليثبت أن نهاية التاريخ كانت عندها، وأن السيادة المطلقة باتت لها؛ ولذا فإن العالم سيعاني من تدخلات الغرب في مصالحه وشؤونه - خاصة المسلمين - لأن لديهم منهجاً متكاملًا في جميع شؤون الحياة؛ وهذا ما يزعج الرجل الأبيض.

إن الضغوط من الغرب ستزداد على المسلمين بقصد صرفهم عن شريعتهم تحت مسميات: الإصلاح الاقتصادي، والتجارة الحرة، وتحرير المرأة، وحقوق المراهقين، وغير ذلك من المقررات التي يجعلونها مسوغات للتدخل في عقائد الناس وأخلاقهم، وستجد أن المنافقين العرب يسوقون لذلك عبر الإعلام تحت مسميات: مشاركة العالم، والدخول في عوالم العولمة، ونوادي الكبار، وغير ذلك؛ مما يضحكون به على أنفسهم

وعلى المسلمين .

وإذا كان الأمر كذلك فلا بد من مواجهة ذلك بالكلمة الصادقة،
والتدابير الواقية، وفضح مخططات الأعداء والمروجين لها من المنافقين
العرب من يساريين وليبراليين .

وإذا كان المسلمون في الوقت الحاضر لا يستطيعون مواجهة قوة
الصهاينة والصليبيين؛ فإنهم قادرون على استدعاء أسباب النصر بإصلاح
أنفسهم وبيوتهم، ونشر الصلاح بين الناس، والأمر بالمعروف، والنهي
عن المنكر، وعدم الانسياق خلف دعايات الأعداء، ومن يروج لها من
صحفيين وإخباريين وإعلاميين وغيرهم . ولن يخذل الله عباده متى ما
لجؤوا إليه، وامتثلوا أمره، واجتنبوا نهيه، وحكموا بشريعته ﴿يَا أَيُّهَا
الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧] . فانصروا
الله تعالى بإقامة دينه في أنفسكم وأهليكم، ومن هم تحت أيديكم،
والدعوة إليه، والدفاع عنه، ينصركم الله على أعدائكم ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا
مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ١٢٦] .

أَلَا وَصَلُّوا عَلَى نَبِيِّكُمْ كَمَا أَمَرَكُمْ بِذَلِكَ رَبُّكُمْ، ، ،

١٧٢- بين الرحمة الإسلامية والرحمة الغربية

الجمعة ٢١/٦/١٤٢٣هـ

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أما بعد: فإن أصدق الحديث كلام الله تعالى، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها الناس: إذا حاد شخصٌ ما عن شريعة الله تعالى، وكان يمتلك قوةً يعتز بها؛ فإن الظلم والطغيان سيكون سمةً من سماته ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ﴾ [العلق: ٦-٧]، وسيدخله الكبر الذي بسببه يرى أن ليس لأحدٍ حق عليه؛ لأنه يرى أن الحق لا يجري إلا على لسانه، ولا يكون إلا في أفعاله، ولذا فسر النبي صلى الله

عليه وسلم الكبر بأنه «بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمَطُ النَّاسِ»^(١)، ولهذه النفس المنتفخة بالكبر والخطيئة، المتخلقة بالظلم والطغيان عقوبة في الآخرة تناسب حالها؛ وهي ما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم عنه بقوله: «يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر في صور الرجال، يغشاهم الذل من كل مكان...» رواه أحمد والترمذي وحسنه^(٢).

فكما تكبروا على الناس في الدنيا صغرهم الله تعالى حتى كانوا أمثال الذر، وكما عزوا بقوتهم فتكبروا غشاهم الذل من كل مكان. وما يجري على الأفراد يجري على الأمم؛ فالأمة الكافرة الظالمة تبطر الحق، وتغمط الناس، وتأكل الحقوق، وتدمر العمران، وهي في نفسها ترى أنها لا تفعل إلا الخير، ولا تقوم إلا بالعدل، ولا تعين إلا المظلوم، وهي في واقع الأمر رأس الشر وخطيئته، لا تقوم إلا على الظلم، ولا تعين إلا الظالم.

وعالمنا المعاصر قد ابتلي بقوة من هذا النوع؛ تبطش، وتظلم، وتعتدي، وتقتل الأبرياء، وتجوع الشعوب باسم العدالة والحق، ونشر الحرية والمساواة.

(١) أخرجه مسلم في الإيمان باب تحريم الكبر وبيانه (٩١)، والترمذي في البر والصلة باب ما جاء في الكبر (١٩٩٩).

(٢) أخرجه أحمد (١٧٩/٢)، والترمذي في صفة القيامة باب ما جاء في الكبر (٢٤٩٤) وحسنه الحافظ ابن رجب في التخويف من النار (٧٠)، والمنذري في الترغيب والترهيب (١٨/٤ - ١٩)، وصححه الشيخ أحمد شاكر في شرحه على المسند (٦٦٧٧) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

وويل للبشرية من أيام عصية حينما يتربع على سدة الأمر والنهي فيها أقوام جاوزت غطرستهم غطرسة عاد حينما قالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مَنَا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥]، وفاق اعتدادهم بأنفسهم وآرائهم علو فرعون حينما قال: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩] .

لقد استباحوا حمى المسلمين؛ فصاروا يصطادونهم دولة من بعد دولة، ويبيدونهم شعباً من وراء شعب، وأطلقوا العنان لحليفهم اليهودي يفسد في الأرض المباركة، ويقتل شيوخها وأطفالها، ويغتصب نساءها، ويدمر عمرانها، وكل ذلك يحدث باسم العدالة، ومحاربة الإرهاب. لقد اجترءوا على شريعة الإسلام، ووصفوها بالظلم والبغي والعدوان، ومن أنزل الشريعة إلا من أمر بالعدل والإحسان، ونهى عن الفحشاء والمنكر والبغي وقال: «يا عبادي، إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا»^(٣) .

لقد اتهموا المسلمين بالظلم والبغي، وزعموا أن القرآن يدعو إلى الإرهاب والعدوان، ووالله الذي لا إله غيره ما نعمت البشرية بالعدل والأمن إلا يوم أن كان الخليفة المسلم يأمر في مشرق الأرض فيستجيب لأمره من كان في مغربها، وما فقدت البشرية العدل والأمن، وحق بها الظلم والخوف إلا لما أصبح الأمر الناهي فيها من يعبد الصليب،

(٣) أخرجه مسلم في البر والصلة باب تحريم الظلم (٢٥٧٧)، والترمذي في صفة القيامة باب (٤٩) (٢٤٩٧) من حديث أبي ذر رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يروي عن ربه تبارك وتعالى .

ويعبد المادة، ويبذل في سبيلها دماء الأبرياء، ويسحق من أجلها عظام الضعفاء، لا تُلين قلبه دمة أرملة، ولا صرخة يتيم، ولا جموع من البشر تموت جوعاً بسبب حصاره وحروبه التي يقيمها من أجل مصالحه، ومصالحه فقط!!

ويلهم ماذا يقولون؟ أيوصف الإسلام بالظلم، ويُتهم المسلمون بالعدوان وما عرف اليهود الأمن والعدل إلا في ظلال المسلمين يوم أن كان النصارى يلاحقونهم، ويُحرقونهم ويبيدونهم، كما أحرقوهم في كنيسهم لما دخلوا بيت المقدس في الحملة الصليبية الأولى^(٤)، وكما عذبوهم وقتلوهم في محاكم التفتيش الأندلسية الكاثوليكية حتى اضطر من بقي من اليهود للهرب منهم، والاحتفاء بالدولة العثمانية أيام عزّها وقوتها^(٥).

(٤) انظر: ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي (١٣٧)، وتاريخ العظمي (٣٧٣)، وقصة الحضارة لديورانت (٢٥/١٥).

(٥) وهم الذين سموا بيهود الدوغة، ثم حاكوا المؤامرات للدولة العثمانية بإنشاء الجمعيات السرية التي كانت سبباً من أسباب سقوط الدولة العثمانية، عن طريق الانقلاب الذي حدث عام ١٩٠٩م وتزعمه جماعة الاتحاد والترقي التي أنشؤوها. وكلمة الدوغة تعني في اللغة التركية: طائفة من اليهود أظهروا الإسلام وأبطنوا ولاءهم ليهوديتهم. ومؤسس طريقتهم الحاخام اليهودي: (شباتاي صني) الذي ادعى أنه المسيح؛ فأحضر إلى مجلس الخليفة العثماني محمد الرابع، واستتب وعرض عليه الإسلام، فأظهر إسلامه حفاظاً على حياته، وتسمى بمحمد عزيز أفندي، وتم تعيينه رئيساً للأذنين في الدخول على الخليفة، وصار يرأس أتباعه سرّاً حتى قويت حركته، وصارت سبباً في سقوط العثمانيين بعد ذلك.

أيوصفُ المسلمون بالعدوان والإرهاب وما أمنت طوائف النصارى بعضها من بعض إلاَّ تحت حكم المسلمين، ولما ردَّ أبو عبيدة عامرُ بن الجراح رضي الله عنه الخراج على نصارى حمص، واعتذر منهم عن حمايتهم وقال: «قد شغلنا عن نصرتكم والدفع عنكم، فأنتم على أمركم» وذلك لأن كتاب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ورد عليه يأمره بالتوجه إلى اليرموك، فبكى نصارى حمص، وطالبوا بحكم المسلمين عليهم، وقالوا: «لولايتكم وعدلكم أحب إلينا مما كنا فيه من الظلم والغشم، ولندفعن جند هرقل عن المدينة مع عاملكم» ونهض اليهودُ فقالوا: «والتوراة لا يدخل عاملُ هرقل مدينة حمص إلا أن نغلب ونجهد» فأغلقوا الأبواب وحرسوها، وهكذا فعلت كل البلدان التي صولحت من اليهود والنصارى، وقالوا: «إن ظهر الروم وأتباعهم على المسلمين صرنا إلى ما كنا عليه، وإلا فإننا على أمرنا ما بقي للمسلمين عدد» فلما هزم الله الروم، وأظهر المسلمين فتحوا مدنهم للمسلمين، وقبلوا بحكمهم، وأدوا الخراج لهم^(٦).

ولما دخل الكاثوليك القسطنطينية في الحملة الصليبية الرابعة، وكانت عاصمة النصارى الأرثوذكس أبادوهم ونهبوا أموالهم، وسبوا نساءهم، وأذلوا دينهم، حتى عمدوا إلى كنيسة القديسة أيا صوفيا أكبر كنيسة للأرثوذكس فشربوا فيها الخمر، وفعلوا الفواحش والمنكرات، وأقاموا

(٦) فتوح البلدان للبلاذري (١/١٤٣).

امراً عارية في أقدس بقعة في الكنيسة عند الأرثوذكس؛ امتهاناً لهم ولدينهم^(٧).

في مقابل ذلك لما منَّ الله تعالى على السلطان محمد بن مراد بفتح القسطنطينية قال النصاري: إن كان بنو ديننا قد فعلوا بنا ما فعلوا لاختلاف مذهبنا عن مذهبهم، فماذا سيفعل بنا المسلمون، وديننا يختلف عن دينهم؟! وأيقنوا بالقتل والسبي والنهب، وإهانة دينهم، فدخل عليهم الفاتح وهم يصلون في كنيستهم، ويجأرون إلى الله تعالى بالدعاء خوفاً من المسلمين فقطعوا صلاتهم، فأمنهم السلطان الفاتح على أنفسهم وأموالهم، وأمرهم أن يخبروا من هرب من المدينة بأنهم آمنون فليرجعوا إلى بيوتهم وأعمالهم، وعلى إثر هذا التأمين أسلم كثير من النصاري منهم جمع من الرهبان والقسس^(٨).

لقد امتلأ تاريخ المسلمين بالعدل والعفو والسماحة مع غير المسلمين، كما طفق تاريخ أهل الكتاب بالظلم والطغيان على غيرهم، وعدوان بعضهم على بعض.

حتى الجزية المفروضة على أهل الكتاب ما كان المسلمون يأخذونها إلا من قادر على الكسب؛ كما روى أبو رجاء الخراساني عن جسرٍ قال: «شهدتُ كتاب عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى إلى عدي بن

(٧) انظر خبر هذه الحملة في: البداية والنهاية (١٣/٣٧) والكامل لابن الأثير (٩/

(٨) انظر: محمد الفاتح، لحسن الرشيد (١٤٠-١٤٢).

أرطاة، قرئ علينا بالبصرة: أما بعد: فإن الله سبحانه إنما أمر أن تؤخذ الجزية ممن رغب عن الإسلام، واختار الكفر عتياً وخسراناً ميبناً، فضع الجزية على من أطاق حملها... ثم انظر من قبلك من أهل الذمة ممن قد كبرت سنه، وضعفت قوته، وولت عنه المكاسب، فأجر عليه من بيت مال المسلمين ما يصلحه، فلو أن رجلاً من المسلمين كان له مملوك كبرت سنه، وضعفت قوته، وولت عنه المكاسب كان من الحق عليه أن يقوته حتى يفرق بينهما موتاً أو عتق؛ وذلك أنه بلغني أن أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه مرّ بشيخ من أهل الذمة يسأل على أبواب الناس فقال: ما أنصفناك، إن كنا أخذنا منك الجزية في شببتك ثم ضيعناك في كبرك، قال: ثم أجرى عليه من بيت المال ما يصلحه»^(٩).

قارنوا هذا الفعل المسدد الذي يدل على الرأفة والرحمة من الأميرين العادلين العمرين رضي الله عنهما بما يحصل للشعوب المسلمة في هذا العصر من التجويع والحصار والظلم والبغي والعدوان، على أيدي الحاقدين من أهل الكتاب؛ لتعرف البشرية معنى العدل والرحمة إذا حكمها أهل القرآن، ومعنى الظلم والقهر إذا حكمها أهل الكتاب.

ومن عجيب ما نُقل في التاريخ من عدل المسلمين مع أعدائهم - ولن تجدوا له مثيلاً عند أية أمة من الأمم - ما حدث في فتح سمرقند؛ إذ فتحها القائد المغوار قتيبة بن مسلم الباهلي رحمه الله تعالى، واستقر

(٩) الأموال لأبي عبيد (١١٩)، والاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى (٣)

فيها المسلمون، وتقلدوا أمرها، ونظموا شؤونها، وأقاموا فيها حكم الشريعة؛ فقدم وفد من أهلها على الخليفة عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى، وادعوا على المسلمين بأنهم فتحوها دون إنذار أو دعوة أو تخيير بين الإسلام والجزية والقتال؛ فأمر عمر رحمه الله عامله على تلك الديار بأن يُنصب لهم قاضياً ينظر في دعواهم، فجلس قادة جيش المسلمين مع كبار أهل سمرقند في مجلس القاضي جُميع بن حاضر الذي حكم بخروج الجيش المسلم من سمرقند، ومن ثم دعوة أهلها أو منابذتهم على سواء، فلما همَّ المسلمون بالخروج تنفيذاً لحكم القاضي احتج أهل سمرقند، وطالبوا بحكم المسلمين؛ لأنهم ذاقوا عدلهم ورحمتهم^(١٠).

والحوادث التاريخية التي تدل على عدل المسلمين مع خصومهم، ووفائهم بعهودهم ومواثيقهم رغم غدر أعدائهم معهم أكثر من أن تحصر. كانوا إذا فتحوا بلداً، واستمكنوا من أهله عاملوهم بالرفقة والرحمة، خلافاً لغيرهم من الغزاة ممن تستهويهم رغبة الانتقام، ويستخفهم فرحهم بالتمكن من عدوهم؛ فتكون النتيجة هوساً في سفك الدماء، واغتصاب النساء، وقتل الشيوخ والأطفال، وتعذيب الناس، وتدمير العمران.

فلله الحمد على نعمة الإسلام، ونسأله تبارك وتعالى الثبات عليه

(١٠) انظر: تاريخ الطبري (٦٩/٤)، وفتوح البلدان للبلاذري (٤١١/١)، والكامل لابن الأثير (١٢٦/٤).

إلى الممات، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥].

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم.

الخطبة الثانية

الحمد لله حمداً طيباً كثيراً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى، أحمدته وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أرسله الله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون. صلى الله وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهديهم إلى يوم الدين.

أما بعد: فاتقوا الله - عباد الله - واعلموا أن ما يجري على أمة الإسلام في هذا الزمن من الذل والهوان، واستئساد إخوان القردة والخنازير، وعباد الصليب عليهم ما هو إلا ابتلاء لعباد الله الصالحين، وفتنة لأهل النفاق والعصيان المفسدين، وهو من نتائج الذنوب والمعاصي التي انتشرت بين المسلمين انتشار الوباء المهلك؛ حتى ما عاد للمعروف من يأمر به، ولا للمنكر من ينهى عنه إلا من رحم الله تعالى وقليل ما هم. ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠].

والمؤمن القوي في إيمانه من ينظر إلى المصيبة، فيستخرج من رحمها الخير الكثير، ويتوب إلى الله تعالى من تقصيره وذنوبه، ومن خير مصائب الحملات الكتابية العسكرية والإعلامية على المسلمين أنها

أظهرت الحقائق، وكشفت ما كان المنافقون يحاولون ستره من عداوة الذين كفروا للذين آمنوا.

سقطت شعارات لطالما كان المستغربون من أبناء الأمة يرددونها، وأدعياء الفكر والثقافة يكتبون عنها من: عالمية الحضارة، والهموم الإنسانية المشتركة، وزوال عصر الحروب الإيديولوجية، واضمحلال التفكير الديني الهمجي، وحلول عصر السلام والأمان، وبلوغ البشرية سن الرشد، ومرحلة النضج. لقد كانوا يطالبون الأمة بالانفتاح على الحضارات، وعدم الانغلاق على الذات، والبحث عن القواسم المشتركة بيننا وبين الآخرين، وتقليص فرص الاختلاف معهم ولو استدعى ذلك أن نلغي ديننا وثقافتنا وأعرافنا وتراثنا، وكل شيء من خصوصياتنا؛ حتى لا نزعج الآخر.

كنا إذا تلونا قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٠١]، أو قوله تعالى: ﴿وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مَلَّتُهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠] حذرنا المستغربون من التصادم الحضاري، وطالبوا المسلمين بتأجيل تلاوة هذ الآيات إلى حين، ومن لم يستح منهم طالب بحذفها على اعتبار أنها تحريضية، ولا تتماشى مع عصر الانفتاح والعولمة، فإذا من يدافعون عنهم، ويزينون وجوههم القبيحة في أعيننا، يريدونها صراعاً حضارياً، ويعلنونها حرباً أبدية على المسلمين باسم مكافحة الإرهاب.

لقد استمات المستغربون في دعوتنا إلى قبول الآخر أياً كان دينه

ومذهبه، ومهما بلغ تعصبه ضدنا، وكراهيته لنا؛ فإذا هذا الآخر يركلهم ويرفضهم ولا يقبل بهم ولو تخلو عن إسلامهم! وكيف يقبلُ بهم وهو لم يقبل أحفاد أتاتورك في مجموعته الأوروبية رغم ذبحهم للإسلام في نفوس أبنائهم، وتقديمهم القرابين للآلهة الإلحادية الغربية، والتزامهم بكل ما جاء في قواميس الذل والخضوع والطاعة العمياء. أتدرون لماذا لم يقبلوهم؟! لأنهم في يوم من الأيام كان لهم أجدادٌ مسلمون، يتوضأون ويصلون، فيا ليت بني قومنا من المستغربين يعقلون!!

ثم ماذا قدمت حضارتهم الإلحادية المادية للبشرية غير البؤس والشقاء، وافتعال الحروب، وإلهاب الصراعات الدينية والعرقية بين الجيران؛ لتشغيل مصانع الأسلحة، وتحقيق مصالح خاصة، بقتل الناس بعضهم لبعض. لقد كان العالمُ ينفق أيام الحرب الباردة على صناعة السلاح ما يعادلُ مليوني دولار في الدقيقة الواحدة، مع وجود ملياري نفس يعانون الفقر والجوع والمرض، وكانت النفقات العسكرية لنصف يوم واحد فقط تكفي لعلاجهم وإشباعهم^(١١).

بل بلغ من توحشهم وماديتهم أنهم حولوا الغذاء إلى سلاح سياسي يستخدمونه في تذويب مقاومة الشعوب الفقيرة، وإخضاعها لسياسة الدول التي تمسك بمفاتيح مخازن الغلال في العالم^(١٢)، وثمرن غواصة

(١١) انظر: أزمة الحضارة لجوزيف كاميليري (٢١٢) عن النظام الدولي الجديد لياسرائيل شبانة (١٨).

(١٢) انظر: صناعة الجوع وخرافة الندرة لفرانسيس مورلايه وجوزيف كولنيز، =

نووية واحدة يساوي ماتطلبه الدول الفقيرة من أجل تعليم مئة وعشرين مليون طفل لا يحصلون على فرص التعليم، وسيظلون أميين طوال حياتهم^(١٣).

تلك أجزاء من أخبار حضارتهم، وحقائقها المتوحشة، إنها جدُّ مرعبة، وإن كانت تتزيا بالحرية والديمقراطية، وتنادي بحفظ حقوق الإنسان، ولا إنسان يحفظ حقه إلا إنسانهم، أما بقية البشر فلا حقوق لهم، عليهم من الله ما يستحقون.

اللهم احفظ بلادنا وبلاد المسلمين من كيدهم ومكرهم، وردهم على أعقابهم خاسرين، إنك على كل شيء قدير.

اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد.

= ترجمة أحمد حسن، سلسلة عالم المعرفة رقم: (٦٤) ص ٦، وأمريكا وصناعة الجوع للمؤلفين السابقين مع ديفد كينلي ترجمة د. حسن أبو بكر (٢٣) عن المصدر السابق (١٩).

(١٣) انظر: أزمة الحضارة (٢١٢)، والنظام الدولي الجديد (١٨).

١٧٣- الإفناء البشري في الفكر الرأسمالي

١١/١/١٤٢٤هـ

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله..

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١] .

أما بعد: فإن أحسن الحديث كلام الله تعالى، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها الناس: من سنن الله تعالى في البشر أن جعلهم متفاضلين في الدين والدنيا، ورفع بعضهم فوق بعض درجات؛ ففيهم المسلم والكافر، والمؤمن والمنافق، والبر والفاجر، كما فيهم الغني والفقير، والجليل والحقير؛ وذلك ليتحقق ابتلاؤهم، وليكون بعضهم سخرة لبعض ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾

[الأنعام: ١٦٥]، ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ [الزخرف: ٣٢]. وميدان التنافس في الشرف والمجد والغنى، وفي الدين والدنيا مفتوح أمامهم.

ولما كانت النفس البشرية شهوانية الطبع، شديدة الحرص، طويلة الأمل؛ كان كل واحد من الناس يسعى في مصالحه قبل مصالح الآخرين، ويقدم حظوظ نفسه على حظوظ غيره، فكان من نتائج ذلك: الظلم والبغي والأثرة، وعلو النفس، واستصغار الغير. ويستثنى من ذلك من التزام شريعة الله تعالى؛ لأن الشرائع تهذب النفوس، وتصلح أحوال الأمم والدول.

وما يكون في الأفراد من أخلاق يُسحب على الأمم؛ إذ الأمم جمع من الأفراد الذين يشكلونها، وأخلاقها وصفاتها هي أخلاقهم وصفاتهم، فكما في الأفراد من يتصف بالظلم والجبروت، في الأمم كذلك أمم جبارة غاشمة، وكما في الأفراد أذلة مستضعفون، في الأمم كذلك أمم مستضامة مستباحة.

والظلم هو الظلم، والاستكبار هو الاستكبار، والاستضعاف هو الاستضعاف، في الأفراد أو في الأمم، في القديم أو في الحديث، لا تتبدل تلك المفردات القبيحة، وما لها من آثار سيئة بتبدل المكان أو الزمان، ولا تتغير بتغير الوسائل والأساليب.

وسنة الله تعالى ماضية في الظالم بالقصم والهلاك، وفي المظلوم

بِالنَّصَفِ وَالْإِنْتِصَارِ، وَمَهْمَا عَمِلَ الظَّالِمُ مِنَ الْإِحْتِيَاظِ وَالتَّوْقِي فَلَنْ يَدْفَعَ
 اللَّهُ تَعَالَى أَمْرًا، وَلَنْ يَرُدَّ لَهُ قَدْرًا؛ كَمَا كَانَ حَالُ فِرْعَوْنَ فِي ظُلْمِهِ وَجَبْرَوْتِهِ،
 وَاحْتِيَاظِهِ وَتَوْقِيهِ، وَاسْتِزْعَافِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ
 وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضَعِفُ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ
 كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٤] .

ولكل زمان فراغتته ومفسدوه، يتمثلون في أفراد أو في أمم، يُقْصُونَ
 الحق والعدل، وينشرون الظلم والباطل، ويسعون في الأرض بالفساد،
 والله تعالى يقول: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف:
 ٥٦]، وأخبر سبحانه أن من البشر من دأبه الفساد، وعمله إهلاك الحرث
 والنسل، ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَىٰ مَا
 فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ (٢٠٤) وَإِذَا تَوَلَّى سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ
 الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ (٢٠٥) وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ
 بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [البقرة: ٢٠٤-٢٠٦] وهاتان الآيتان
 وإن نزلتا في شأن المنافقين فإنهما لا تزالان غضيتين طريتين كما نزلتا،
 وتكشfan وجهاً من أوجه النفاق السياسي المعاصر؛ فالدولة الأولى في
 العالم الحاضر، وحاضنة المبادئ الرأسمالية الليبرالية، وقائدة المجتمع
 الدولي؛ قد أعجب كثير من الناس وخلال سنوات عدة بقيمها وشعاراتها
 عن الحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان، والله أعلم بما كانت تحمله من
 ضغينة على البشر، وما تكنه من عداوة لغيرها.

لقد كانت تجادل وتخاصم عن مبادئها وقيمها وثقافتها التي أرتأى

شياطينها أن نهاية التاريخ كانت عندها؛ ولذلك أرادت فرضها على الناس بقوة النظام العالمي الجديد، وسلطان العولمة القاهر، ولم يتوان كثير من المخدوعين بشعارتها الجوفاء عن الدعاية الفجة لها ولقيمها خلال عقود مضت، حتى بشرونا بالعولمة القادمة، وأوصوا أمتنا بركوب قطارها السريع تحت القيادة الليبرالية دون تفكير أو دراسة أو تردد وإلا فاتنا القطار، وأسقطنا التاريخ من حسابه.

لقد ظنوا - كما ظن الجاهلون - ظنوا بأعدائهم خيراً، وحسبوا أن شعاراته المرفوعة، ومبادئه الموضوعية هي لكل البشر، وما علموا أنها لفئة مخصوصة يجب في نظرهم أن يُسحق العالم كله من أجل ضمان استمرار رفاهيتها، ورفاهية قططها وكلابها. إنهم يريدون إفناء البشر، وإهلاك الحرث والنسل، ونشر ثقافة الإجهاض والتعقيم والزواج المثلي، وإشعال الحروب التي يجب أن تكون مواقعها في الجنوب، وتلتهم بنيرانها أكبر قدر ممكن من بشر العالم الثالث، ونشر الأوبئة والأمراض في الأرض المضروبة بالأسلحة المشعة؛ لضمان استمرار عملية الإفناء والإهلاك حتى بعد انتهاء الحروب والنزاعات.

إن هذا القرن الميلادي الجديد هو قرن الإفناء البشري في العرف الليبرالي، وتقديراتهم تفيد بأن سكان الأرض بعد عشرين سنة سيبلغون ثمانية مليارات، ولا بد من تخفيض هذا العدد إلى أربعة مليارات؛ وذلك بإهلاك مليارين، ومنع مليارين من القدوم إلى الدنيا، وهذا ما يفيدته تقرير لوجانو القائل: «إننا لا نستطيع أن نبقي على نظام السوق الحرة

الليبرالي، ونستمر في الوقت نفسه في السماح بوجود هذه المليارات الزائدة من البشر، ولن تتحمل الحضارة الغربية التضحية بقوتها وثرواتها وسلطتها ورفاهيتها وهيبته؛ ذلك أن الزيادة السكانية الحالية في العالم غير لائقة وغير مستعدة للمشاركة في النظام، بل هي عاجزة عن استيعاب ثقافته الغربية... والطريقة الوحيدة لضمان سعادة ورفاهية الأغلبية العظمى أن يكون إجمالي سكان الأرض أقل نسبياً، وقد يبدو هذا الخيار قاسياً؛ لكنه خيار يمليه العقل والعاطفة معاً، وليس هناك بديل إذا ما أردنا أن نحافظ على النظام الليبرالي، وأي أمر آخر فهو وهم وتعلل بالأمني»^(١).

ويواصل التقرير توضيح الفكرة الليبرالية للإفناء البشري قائلاً: «إنه كما أن القاذورات والنفائات الفيزيائية تلوث المشهد الطبيعي، وتهدد باجتياح كثير من المدن ومرافقها؛ فإن القاذورات والنفائات الاجتماعية - أي البشر الزائد - تعرض للخطر المثل والقيم الليبرالية والسوق، وإذا كان قليلون هم الذين يجرؤون على قول ذلك علناً فحسن الرقابة

(١) انظر: العولمة من الليبرالية إلى النازية، مقدمة صلاح الدين حافظ على تقرير لوجانو، تأليف: سوسان جورج، ترجمة محمد مستجير مصطفى. وكتابة التقرير خبيرة أمريكية توصلت لهذه الحقائق والمؤامرات التي تحاك ضد دول العالم الثالث من أجل الحفاظ على الرأسمالية، والرفاهية الغربية وخاصة الأمريكية، وتقريرها هذا يتضمن خلاصة المعلومات التي جمعتها من مجموعة دراسات وتقارير لجان اقتصادية وسياسية، إضافة إلى الأبحاث والمؤتمرات التي شاركت فيها فكتبت هذا التقرير.

الاجتماعية والإدارة السليمة أصبح مستحيلاً حينما يؤدي تكاثر السكان إلى إحباط كل جهود تحسين الأوضاع، وعلى القرن الحادي والعشرين أن يختار بين التحكم والانضباط، أو الجلبة والفوضى؛ إذ إن السبيل الوحيد لضمان أكبر رفاه ممكن لأكثر عدد مع الحفاظ على الرأسمالية هو أن يكون عدد سكان العالم أقل.

ولكي نصل إلى ذلك ينبغي تخفيض عدد السكان بمعدل مئة مليون نسمة كل سنة لمدة عقدين، وينبغي أن يحدث تسعة أعشار هذا التخفيض أو أكثر في البلدان الأقل تطوراً، كما ينبغي بذل الجهود في مجال زيادة الوفيات، وتخفيض الخصوبة الإنجابية^(٢).

ويرون أن الوسيلة الأنجع لتحقيق هذه الاستراتيجية هي إيجاد جهاز من المفكرين والكتاب والمطبلين للعولمة، ولما ينتج عن دهاقتها من قرارات وتوصيات وإجراءات، وأغلب الظن أن هذه الاستراتيجية يجري تنفيذها في دول العالم الثالث؛ «إذ انطلقت كتائب المتعولمين تصرخ في كل اتجاه، وتصمم الأذان داعية إلى مبادئ العولمة ومقرراته، بما في ذلك إيقاف الزيادة السكانية في الجنوب مع تقديم المسوغات اللامعة، والإغراءات البراقة، مقابل التحذير والنذير بأن من لا يفعل ويستجيب فستسحقه أقدام التطور في ظل العولمة»^(٣)؛ بل راح كثير منهم وفي تسارع يشبه الجنون إلى تسويق شعارات حروب يُذبح فيها إخوانهم، وتستنزف فيها

(٢) المصدر السابق (ك).

(٣) المصدر السابق (ل).

ثرواتهم، وتستعمر أراضيهم، وربما أقيم المذبح الليبرالي غداً في بلادهم، علموا ذلك أم لم يعلموا!!

إن الأمة الرأسمالية ماضية في تحقيق مشاريعها الليبرالية الجنونية، وتطالب أذنانها في دول العالم الثالث من سياسيين وكتاب ومفكرين بأن يرضوا بواقعهم المهين، وينتظروا درهم في مشروع الإفناء البشري؛ بل وطالبوا بتركيز الخطاب العام على الموت وليس على الحياة، على التعقيم وليس على الإنجاب، على العمر القصير وليس على العمر الطويل، على إشعال الحروب في مناطق النمو السكاني في دول الجنوب بعدما أصبحت الحروب في الشمال مستبعدة؛ لأن الهدف أن يتولى أهل الجنوب قتل أهل الجنوب بالنيابة عن أهل الشمال؛ حتى تتخلص البشرية من نفاياتها السكانية الزائدة، وليأكل البرابرة بعضهم بعضاً عبر الاستراتيجيات الليبرالية؛ لإذكاء الحروب، وتصدير الأسلحة للمتحاربين، وإشعال الصراعات الدموية، وتطوير المجاعات، ونشر الأوبئة الفتاكة، بشرط أن يدير الرأسماليون الصراع من بعيد، وينتظروا قطف ثمار ذلك كله؛ حتى تزدهر الرأسمالية وتنتعش الشعوب الليبرالية، وتنجح العولمة، وتستقر الحضارة لهم وحدهم^(٤)، ولو كان ذلك على حساب ملايين الأراامل واليتامى والمشردين من البشر، فضلاً عما يتم إفناؤهم في حروبهم الظالمة.

كفى الله البشرية شرهم، وحفظ المسلمين من مكرهم، ورد كيدهم

(٤) انظر: المصدر السابق (ع).

إلى نحورهم، اللهم احفظ بلاد المسلمين ودماءهم وأعراضهم، ورد الكافرين على أعقابهم، اللهم نكس راياتهم، وأبطل مخططاتهم، واقدف الرعب في قلوبهم، وزلزل الأرض من تحت أقدامهم، واجعلهم غنيمة للمسلمين.

اللهم أجر عليهم ستتك التي تجريها على القوم الظالمين، واجعل عاقبتهم كعاقبة قوم نوح وعاد وثمود، وقوم إبراهيم وقوم لوط، وفرعون وهامان وقارون، إنك على كل شيء قدير، وبالإجابة جدير، أنت مولانا فنعم المولى ونعم النصير، اللهم ارحم أمة قلّت حيلتها، وطمع فيها عدوها، وأحاط بها من جميع جوانبها، اللهم ارحم فيها عجائز ركعاً، وأطفالاً رضعاً، وعباداً لا حول لهم ولا قوة إلا بك، إنك أنت العزيز الحكيم.

اللهم رد عن المسلمين ظلم الظالمين، واعتداء المعتدين، وسلط الظالمين على الظالمين، وأخرج المسلمين من بينهم سالمين، إنك أنت القوي العزيز، وأقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم، ،

الخطبة الثانية

الحمد لله حمداً طيباً كثيراً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى، أحمده وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهداهم إلى يوم الدين.

أما بعد: فاتقوا الله - عباد الله - وأخلصوا له العبادة، واهرعوا إليه في الشدائد؛ فإن ربكم قريب مجيب، عليم قدير، يجيب دعاء الملحين، ويرد كيد الظالمين، ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ إِلَهُ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذْكُرُونَ﴾ [النمل: ٦٢].

أيها الناس: من سوء حظ البشرية في هذا العصر أن مكانم القوة فيها، وأسلحة الدمار الشامل في أيدي أقوام لا يخافون الله تعالى في البشر، ولا يرجون الآخرة، ومستعدون لإهلاك نصف أهل الأرض لإشباع قسطهم وكلابهم، فضلاً عن إرواء شهواتهم ونزواتهم. قد بلغ بهم الاستكبار مبلغه، وأخذ منهم الغرور كل مأخذ، فلو أبادوا كل البشر سواهم ما استكثروا ذلك!!

وهذه العنصرية البغيضة قد ورثوها عن أجدادهم، وجاءت بها كتبهم المحرفة، ثم زادها الغنى والتقدم رسوخاً في أفهامهم، وقناعة عند أفرادهم ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ [المائدة: ١٨]، ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ [البقرة: ١١١].

لقد استعمروا شعوباً ضعيفة، وعبدوا أفرادها لخدمتهم بعد أن سبوا نساءها، وحرقوا أطفالها، ورأوا أنهم باستعمارهم هذا قد متوا على هذه الشعوب، وأنعموا عليها؛ كما قال سيسل رودوس أحد كبار بناء الإمبراطورية البريطانية التي لا تغيب عنها الشمس، قال: «إنني أعتقد أننا الجنس الأول في العالم، وأنه كلما انتشرنا في العالم بسكانه كان ذلك أفضل للجنس البشري، إنني أعتقد - وهذا ينبع من إيماني

بالله - أن ما يجب أن أفعله هو أن أصنع أكبر مساحة ممكنة في خريطة أفريقيا باللون الأحمر»^(٥)، وقد فعلوا ذلك فأبادوا كثيراً من الأفارقة، وسخروا البقية في خدمتهم وخدمة أهدافهم الاستعمارية، لقد نظروا إلى غيرهم بعنصرية بغیضة، وشعروا في بداية قوتهم وسيطرتهم بالحاجة إلى أن يسوغوا لأنفسهم سيظرتهم على الشعوب المستعمرة، وكان عليهم أن يبرروا نظام العبودية، لقد كانوا يقولون عن الشعوب الأصلية المستضامة: إنها شعوب بليدة جاهلة، لا تكاد تكون آدمية.

يقول أحد مؤرخي حقبة الاستعمار الأوربية في كتابه: «سادة الجنس البشري»: «وما أن حل القرن التاسع عشر حتى كان الرجل الأبيض قد خلق لنفسه حالة عالية من الغرور بالنفس، أصبح الرجل الأبيض على استعداد لتبرير أي شيء لنفسه؛ لنشر المدنية بين السكان الأصليين»^(٦). ووصل استعلاؤهم على غيرهم إلى حد أنهم أشعلوا حرباً كبيرة من أجل بيع المخدرات سميت (حرب الأفيون) وقام فلاسفتهم يسوغون هذه الحرب قائلين: «يعتمد الالتزام الأخلاقي بالتبادل التجاري بين الأمم اعتماداً تاماً على المفهوم المسيحي بأن تحب لجارك ما تحب لنفسك، ولأن الصين ليست أمة مسيحية، فهي لا تعترف بالالتزام في التجارة مع الآخرين، وقد حان الوقت لإيقاف هذا الافتتات الضخم على

(٥) صناعة الفقر العالمي تأليف تيريزا هايتز - وهي كاتبة بريطانية متخصصة في

شؤون العالم الثالث - ترجمة مجدي نصيف (٤٧).

(٦) المصدر السابق (٤٦).

الطبيعة الإنسانية»^(٧)، وما كان هذا الافتئات سوى أن الصين رفضت فتح أسواقها لشراء الأفيون الإنجليزي فاستحقت الحرب آنذاك. ومستعمرو اليوم هم امتداد لمستعمري الأمس، فالكل إنجليون متعصبون، ينطلقون من اعتقادات باطلة، وظنون خاطئة، كرسها رهبانهم ومفكروهم، يخدمون بها أتباع التوراة المحرفة الذين تتجاوز عنصريتهم عنصرية خدامهم الإنجليين.

وإنها لمحنة عظيمة على البشرية بعامّة، وعلى المسلمين خاصة، ولا مخرج منها إلا باللجوء إلى الله تعالى، والتوكل عليه، وصدق التعلق به، وكثرة التوبة والاستغفار، والدعاء آناء الليل وآناء النهار، ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكْفِ بِأْسِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾ [النساء: ٨٤].

ألا وصلوا وسلموا على خير خلق الله كما أمركم بذلك ربكم...

(٧) قائل ذلك هو جون كونيس أدفر في محاضرة له ألقاها عام ١٨٤٢م مسوغاً حرب الأفيون التي أجبرت فيها بريطانيا السلطات الصينية على السماح باستيراد الأفيون، انظر: صناعة الفقر العالمي (٤٦).

١٧٤- نقد الديمقراطية

١٤٢٤ / ٨ / ٢١ هـ

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أما بعد: فإن أحسن الحديث كلام الله تعالى، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها الناس: من نعمة الله تعالى على هذه الأمة أن اختصها بالخيرية، فهي خير أمة أخرجت للناس، واختار لها خاتم الرسل، وأفضل الكتب، وجعلها شاهدة على غيرها من الأمم، وقضى ببقاء الإسلام إلى آخر الزمان ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ

شُرْعَةً وَمَنْهَاجًا ﴿ [المائدة: ٨٤].

فالإسلامُ اليومَ هو الإسلام الذي بلغه النبي صلى الله عليه وسلم، والقرآنُ اليوم هو القرآن الذي أنزل عليه، والتغييرُ والتبديلُ إنما يكون من الناس قريباً من الإسلام أو بعداً عنه؛ حتى ترى أناساً ليس لهم من الإسلام إلا اسمه، ولا يعرفون من القرآن إلا رسمه.

وكلما بعد الناس عن هدي الكتاب والسنة، وعن فقه السلف الصالح وسيرتهم؛ تشعبت بهم الأهواء، وتقاذفتهم الضلالات؛ حتى يكون الشر أكثر من الخير، والضلال أوسع انتشاراً من الهدى، على حدِّ قول ابن مسعود رضي الله عنه: «لا يأتي عليكم يوم إلا وهو شرٌّ من اليوم الذي كان قبله، حتى تقوم الساعة، لست أعني رخاءً من العيش يصيبه، ولا مالا يفيده، ولكن لا يأتي عليكم يوم إلا وهو أقل علماً من اليوم الذي مضى قبله، فإذا ذهب العلماء استوى الناس، فلا يأمرهم بالمعروف، ولا ينهون عن المنكر، فعند ذلك يهلكون»^(١).

وفي هذا العصر، ومع الانفتاح الإعلامي الذي يقذف بأفكار الشرق والغرب، وينقل عادات الأمم وأعرافهم، ويكثر فيه الكلام والجدل والخصومات؛ كثر الشر وقلَّ الخير، وتقاذف الناس أمواج من الفتن، ضاع في لججها كثير من الحق، ولا يثبت على الجادة إلا من ثبته الله تعالى.

(١) عزاه الحافظ في الفتح ليعقوب بن شيبه (٢٥/١٣)، وانظر: تحفة الأحوذى

لقد غدت كثير من القضايا المعاصرة التي لا تمت إلى الإسلام بصلة يدعى إليها، ويروج لسلعها، وكأنها من مسلّمات الدين، ومقررات الشريعة؛ حتى عجز كثير من الناس عن نقدها والتشكيك فيها، فضلاً عن إنكارها ورفضها.

فالحرية والديمقراطية، والنزعة الفردية، وما يتفرع عنها من ضلالات وانحراف مبين، ومعارضة للدين القويم؛ قد ألحّ الإعلام عليها، وكرّس كل ممكن لإقناع الناس بها، حتى علا صوت المنادين بها، وخفت صوت ناقدتها، بل ما عاد أحد يتجاسر على المناقشة فيها، وكأنها حق مزبور في كتاب مسطور، جاء به وحي منزل من رب العالمين جلّ جلاله. ولم تعد الدعاية لهذا الإفك المبين محصورة في العلمانيين ومن لف لفهم، واغتر بمنهجهم، فكم رأينا وقرأنا لأناس يتسبون للعلم والدعوة، والفقهاء في الدين يتبنون عرض الديمقراطية على الأمة، على أنها المخرج للمسلمين من واقعهم الأليم.

إن هذه القضايا الإلحادية من الديمقراطية والحرية، وما تفرع عنها من إثم وفساد ظلت الأمم المتحدة تنادي بها كنظام حاكم في جميع دول العالم، وتُطرح في المزاد الدولي على أنها الحل لمشاكل العالم، والمفتاح للرفاهية والتقدم، واستمرت الأبواق العلمانية، ومن سايرها في إفكها خداع الجماهير المقهورة اليائسة بالتلويح بها!!

ولقد زين الشيطان لكثير من المسلمين زخرف الديمقراطية، وأوهمهم أن الدعوة إليها لا تتعارض مع الإسلام، فانبرى كثير ممن يُظن بهم

الخير والصالح في كثير من البلاد الإسلامية يشاركون في اللعبة الديمقراطية، ويدعون الناس إليها، مدعين أنها الطريق الأمثل والأفضل لخدمة الإسلام؛ حتى قال قائلهم: «لا وصول للإسلام إلا عن طريق الديمقراطية»^(٢)، وصار كثير منهم يتآخى مع الزنادقة والمرتدين في تحزبات ضيقة، وتحالفات مخزية، ضد إخوانهم المسلمين. وانقلب كثير منهم من العمل للإسلام، وخدمة دين الله تعالى إلى العمل لنفسه، وخدمة حزبه، ولو كان حزبه يتبنى أطروحات تعارض شريعة الله تعالى!!

إن الحرية والديمقراطية، وما يستتبعهما من برلمانات وانتخابات، ومظاهرات واعتصامات، للمطالبة بحقوق، أو الاعتراض على سياسة من السياسات؛ ليست من الإسلام في شيء، ولا عرفها العرب في جاهليتهم ولا إسلامهم؛ وإنما هي نتاج فكر مادي غربي، يقصي الشرائع، ويلغي عالم الغيب، ويجعل الإنسان مركز الكون، ومصدر التشريع، فعندهم أن المجالس التشريعية البشرية هي التي تُشرع للناس من دون الله تعالى، وتنظم سير حياتهم، في بعد تام عن الشرائع الربانية، ويقولون في تعريفها: «حكم الشعب بالشعب»، وفي حقيقة الأمر فإن الشعب لا يحكم نفسه حتى في البلاد الغربية، بل هناك أفراد مقتدرون مالياً، ولهم وجاهات اجتماعية، ودعايات إعلامية، يبحرون بها على متن سفن الديمقراطية، التي تُلقِي مراسيها

(٢) انظر: إشكالية نتائج وإفرازات الديمقراطية للدكتور سامي محمد الدلال، مجلة البيان عدد (١١٩) ص (١٠٢).

عبر الاقتراع تحت قبة المجالس النيابية، فيمارسون التشريع، وفق ما يرونه هم وليس وفق ما يراه الشعب، فهم أقلية يحكمون أغلبية، لكنهم لا يعبرون عنها تعبيراً حقيقياً وشاملاً، فهي حكم الأغلبية بالأقلية، والمصالح في الغالب تتناقض بين الأقلية والأغلبية، وذلك يعني أن الأقلية تستثمر طاقات الأغلبية أي طاقات الشعب لتحقيق مصالحها قبل كل شيء^(٣).

إن المرشح في النظام الديمقراطي لابد أن يكون غنياً رأسمالياً قادراً على تمويل حملته الانتخابية، أو يكون مدعوماً مالياً من جهات حزبية أو تجارية أو غيرها، لها مصلحة في إيصاله إلى كرسي المجلس النيابي، وهنا يتضح دور اليهود في استفادتهم من هذا اللون الديمقراطي؛ إذ يُسقطون من لا يخدمهم، ويوصلون إلى الحكم من يحقق مآربهم. وقد رأينا كيف أن كثيراً من الدول الصناعية الكبرى تُضحي بمصالحها الاستراتيجية، وبحقوق شعوبها؛ لأجل حفنة من الصهانية، يُوجهون البوصلة الديمقراطية إلى الوجهة التي تغذي أطماعهم، وتحقق مصالحهم، ولو على حساب ملايين البشر من قطعان الدول، الذين يتوجهون إلى صناديق الاقتراع في كل انتخابات، مساقين بالحملات الدعائية الضخمة، ومخدرين بالإعلام المخادع الكاذب، وموعودين بالرفاهية والرخاء والسلام، وخفض الضرائب، وزيادة الانتاج، فإذا ما فاز مرشحهم تنصل من وعوده لجماهير الناس، ووفى لمن دعموا حملته الانتخابية، وقدم

(٣) انظر: المصدر السابق.

مصالحهم على المصلحة العامة؛ طمعاً في ترشيح جديد.
ولا يُشترط في مرشحهم أن يكون حسن السيرة الذاتية، وكم رشحوا
من خونة ولصوص، ومجرمي حرب، ومن زناة وشاذين جنسياً!!
وكم أقصت الدعاية من أناس عندهم حمية لأوطانهم، ورغبة في نفع
شعوبهم، ويقدمون مصلحة العامة على مصلحة الخاصة؛ لكنهم أبعدوا
لأنهم لا يحققون مصالح الداعمين للحملات الانتخابية.

فتلك هي حقيقة اللعبة الديمقراطية التي فُتت بها كثير من المسلمين
في هذا العصر، وصاروا ينادون بها للخروج من مشاكلهم السياسية
والاقتصادية والاجتماعية، ويستبدلون بها شريعة الله تعالى التي تحقق
المصالح، وتحفظ الحقوق؛ فنعوذ بالله من الضلال بعد الهدى، ومن
السير في ركاب الباطل بعد استبانة الحق، ومن التقليد الأعمى.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿صَبَّغَهُ اللَّهُ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ
صَبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ (١٣٨) قُلْ أَتَحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا
وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾ [البقرة: ١٣٨-١٣٩].

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم.

الخطبة الثانية

الحمد لله حمداً طيباً كثيراً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى،
أحمده وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده
لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله وسلم وبارك
عليه وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهداهم إلى يوم الدين.

أما بعد: فاتقوا الله - عباد الله - وأطيعوه؛ فبالتقوى تستجلب الأرزاق، وتُنفس الكروب ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢ - ٣].

أيها المسلمون: من فضل الله تعالى علينا في هذه المسائل التي تشغل الناس أن شريعة الله تعالى قد فصلت الحكم فيها، وبينت ما للحاكم على المحكوم، وما للمحكوم على الحاكم، وكيفية التعامل في حالة تقصير كل طرف منهما في حق الطرف الآخر؛ فالواجب على الراعي أن يحكم رعيته بشرع الله تعالى، ويقيم فيهم العدل. والواجب على الرعية السمع والطاعة في العسر واليسر والمنشط والمكره وعلى أثره منهم^(٤).

وإذا ما أخل أحدهما بحق الآخر، وجب على الطرف الآخر القيام بما عليه؛ ديانةً لله تعالى، وبراءة لدمته.

والاستئثار بالمال والسلطة، وبالقرار السياسي ليس موجباً شرعياً لشق عصا الطاعة، ولا نكث البيعة، ولا يفعل ذلك إلا طلاب الدنيا؛

(٤) كما في حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: «بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة في العسر واليسر والمنشط والمكره وعلى أثره علينا، وعلى أن لا ننازع الأمر أهله، وعلى أن نقول بالحق أينما كنا لا نخاف في الله لومة لائم» أخرجه مالك في الموطأ (٩٦٠)، وأحمد (٣١٦/٥)، والبخاري في الأحكام باب كيف يبايع الإمام الناس (٧١٩٩ - ٧٢٠٠)، ومسلم في الإمارة باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية وتحريمها في المعصية (١٧٠٩).

فالنبي صلى الله عليه وسلم قد علم بما أوحى الله تعالى إليه أن بعض صحابته رضي الله عنهم سيُستأثر عليهم بالسلطة والمال، ويمنعون من الحقوق التي لهم، ومع ذلك أمرهم عليه الصلاة والسلام بالصبر والطاعة، وأداء ما عليهم من الحقوق تجاه من ولي أمرهم، ولو كان مخلأً بحقوقهم عليه؛ فقد روى ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «ستكون بعدي أثره وأمور تنكرونها، قالوا: يا رسول الله، فما تأمرنا؟ قال: تؤدون الحق الذي عليكم، وتسألون الله الذي لكم» رواه الشيخان، وفي لفظ للإمام أحمد: «أدوا إليهم حقهم وسلوا الله حقكم»^(٥).

قال الطيبي رحمه الله تعالى: «أي: لا تقاتلوهم باستيفاء حقكم، ولا تكافئوا استشارهم باستئثاركم، بل وفروا إليهم حقهم من السمع والطاعة وحقوق الدين، وسلوا الله من فضله أن يوصل إليكم حقكم، وكلوا إلى الله تعالى أمركم»^(٦).

ولما أراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يُقطع البحرين للأنصار، قالت الأنصار رضي الله عنهم: «لا حتى تقطع لإخواننا من المهاجرين مثل الذي تُقطع لنا، فقال عليه الصلاة والسلام: سترون بعدي أثره

(٥) أخرجه البخاري في المناقب باب علامات النبوة في الإسلام (٣٦٠٣)، ومسلم في الإمارة باب وجوب الوفاء ببيعة الخلفاء الأول فالأول (١٨٤٣)، وأحمد (٣٨٦/١).

(٦) شرح الطيبي على المشكاة (٨/٢٥٦٣).

فاصبروا حتى تلقوني» رواه البخاري من حديث أنس رضي الله عنه^(٧).
فهذا هو العلاج الشرعي لكثير من المشكلات السياسية المعاصرة:
السمع والطاعة، والصبر والدعاء، مع بذل النصيحة للراعي وللرعية،
ومن الخذلان أن يُستبدل ذلك بالمظاهرات والاعتصامات التي خرجت
من رحم النظام الديمقراطي المادي الإلحادي، والتي لا تسمن ولا تغني
من جوع، بل تؤدي إلى الاضطرابات والفوضى، فكم من مظاهرة
تحولت إلى عراك، وسُفكت فيها دماء، وقتل فيها بشر، لا يدري القاتل
فيم قتل، ولا المقتول لماذا قُتل، ومع ذلك فهي لا تؤدي إلى النتائج
التي تظاهر من أجلها أصحابها!!

إن النظام الديمقراطي، وما تفرع عنه من سياسات وإجراءات، وما
يكفله من حقوق وواجبات - حسب زعم دعائه - محرم أشد التحريم
على المسلمين عند النخب السياسية الغربية، فالديمقراطية دعاية يدعون
الناس إليها، فإذا كانت في صالح المسلمين حالوا بينهم وبينها؛ كما
حصل في بعض البلاد المسلمة التي وصل فيها الإسلام إلى سدة الحكم
عن طريق صناديق الاقتراع، فحالوا دون ذلك، وألغيت الديمقراطية.
وما هي قضية فلسطين تربو على خمسين سنة، سُيرت خلالها
المظاهرات في الشرق والغرب، وأحرقت الأعلام، وتظاهر مسلمون
وغير مسلمين وما حلت القضية.

(٧) أخرجه البخاري في المساقاة باب القطائع (٢٣٧٧)، والحميدي (١١٩٥)،
وأحمد (١١١/٣)، والطيالسي (١٩٦٩).

واجتياح العراق خير دليل على ذلك، فقد سارت مظاهرات لم يشهد التاريخ المعاصر لها مثيلاً في البلاد الغربية، حشود بالملايين، تندد بالحرب، وتدعو إلى السلام، ولما كانت مصلحة النخب السياسية والعسكرية في إمضاء تلك الحرب فإنهم ركلوا الديمقراطية بأرجلهم، ووطئوا على شعوبهم، وصادورا القوانين الدولية، وحققوا ما يريدون. فمتى يعقل الناس أن هذه الطرق الشيطانية الغربية لن تزيد الأمة إلا بعداً عن المنهج الرباني الذي رضىه الله تعالى لعباده المؤمنين، وأن أي بعد عن منهج الله تعالى لن يزيدهم إلا ذلة وضعفاً، واختلافاً وتفرقاً، واجتماع الكلمة من أوجب الواجبات الشرعية التي أمر الله تعالى بها في قوله سبحانه: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، ومن أعظم أسباب التفرق أن يعمل كل واحد بهواه، ويقوده شيطانه، في بعد عن شريعة الله تعالى ورضوانه. ألا فاتقوا الله تعالى، واحذروا الفتن، وجانبوا أسبابها، واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا.

وصلوا وسلموا على خير خلق الله كما أمركم بذلك ربكم.

١٧٥- سبب ذلة المسلمين

الجمعة ١٤٢١/٧/٩هـ

الحمد لله؛ ينصر أوليائه، ويكبت أعداءه ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُتِبُوا كَمَا كُتِبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [المجادلة: ٥]. أحمده وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له؛ لا راد لأمره، ولا معقب لحكمه، ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعْزِزُ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦]. وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهداهم إلى يوم الدين.

أما بعد: فأوصيكم - أيها الناس - ونفسي بتقوى الله عز وجل؛ فإن تقوى الله تعالى عون في الشدائد، ومخرج في الضوائق، ومسلاة للهموم، وتخفيف للأحزان والغموم ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بِالْغُفْرِ أَمْرُهُ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

أيها المؤمنون: تتوالى على المسلمين مصائب أليمة، ونكبات عظيمة، وتسلب غاشم، من عدو حاقد، يسترخص الدماء، ويقتل الأبرياء، وينتهك الحرمات، ويدنس المقدسات، فمن أي قضايا الأمة نبدأ؟ وعند أيها ننتهي؟ أمن الشيشان التي سويت بالأرض، ودكت دكا؟ أم من كشمير التي تسلط عليها عبدة البقر؟ أم من فلسطين التي تغلي من

استذلال اليهود لها ولأبنائها؟ أم من غيرها؟! وغيرها كثير!!
 لقد وقع ما أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: «يوشك
 الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها، فقال قائل:
 ومن قلة نحن يومئذ؟ قال: بل أنتم يومئذ كثير؛ ولكنكم غثاء
 السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن الله في
 قلوبكم الوهن، فقال قائل: يا رسول الله، وما الوهن؟ قال: حب
 الدنيا وكرهية الموت» أخرجه الإمام أحمد وأبو داود^(١).

قال الطيبي معلقاً على هذا الحديث: «يريد أن حب البقاء في
 الدنيا، وكرهية الموت يدعوهم إلى إعطاء الدنية في الدين، واحتمال
 الذل عن العدو، نسأل الله العافية فقد ابتلينا به وكأنا نحن المعنيون
 بذلك» اهـ^(٢).

فإذا كان الطيبي يقول ذلك، وقد عاش في المئة الثامنة للهجرة،
 فماذا سيقول لو رأى ذلَّ المسلمين، واستئساد أعدائهم في هذا العصر؟!
 لا سيما اليهود الذين كانوا أذلة عبر التاريخ، فما الذي قواهم وأضعف
 المسلمين؟ ولماذا صارت أمم الأرض تعمل لصالح اليهود ضد المسلمين؟

(١) أخرجه الإمام أحمد (٢٧٨/٥)، وأبو داود في الملاحم باب في تداعي الأمم
 على الإسلام (٤٢٩٧)، وأبو نعيم في الحلية (١٨٢/١). وقد جاء من طريقين
 قال الألباني بعد أن ذكر أحدهما: هذا سند جيد ورجاله ثقات، ثم صحح
 الحديث بمجموع الطريقين في السلسلة الصحيحة (٩٥٨).

(٢) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح (٣٣٩٤/١١).

مع أن الله تعالى لم يرتض ذلك للمسلمين، ولا يحبه لهم؛ ولكنه تعالى أراحه كوناً وقدرأً عدلاً منه تعالى بما كسبت أيدي المسلمين ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠]، ﴿أَوْ لَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

إن عقد مقارنة بين ما يجب أن يكون عليه المسلمون من العزة والكرامة التي شرفهم الله بها، وبين واقعهم المهين ليكشف حقيقة الأمر، ويبين المدى الذي وصلت إليه الأمة من انحراف عن الصراط المستقيم.

فمن رحمة الله تعالى بهذه الأمة أن فضلها على سائر الأمم، وجعلها خير الناس، وشرفها بأفضل نبي صلى الله عليه وسلم وحفظ كتابها من التحريف، ودينها من التبديل ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، وجعلها سبحانه شاهدة على سائر الأمم؛ لأنها أفضل الأمم ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، يخبرنا الله تعالى باختيار أمتنا واصطفائها وتفضيلها على غيرها، في الوقت الذي يخبرنا فيه أن أهل الكتاب أهل ضعف وذلة واستكانة، وتفرق واختلاف بسبب كفرهم وقتلهم الأنبياء ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا تَفَقَّهُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ﴾ [آل عمران: ١١٢] هكذا كان حال اليهود والنصارى، ذليلين خائفين إلا بحبل من الله وهو عقد الذمة والجزية

المفروضة عليهم وهم صاغرون، وحبل من الناس وهو عقد الأمان لهم^(٣).

وظلت هذه حالهم طيلة تاريخهم مع المسلمين في الجملة إلى القرون المتأخرة التي صار فيها التحول شيئاً فشيئاً حتى انقلب الوضع رأساً على عقب؛ فصار أهل العزة أذلة، وصار أهل الذلة أعزة، وأضحى من يأخذ الجزية بالأمس يدفعها اليوم بشكل أو آخر، فواعجباً من تبدل الحال، وانقلاب الميزان!! ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

فمن ضيع أمر الله تعالى كان الفصل بينه وبين عدوه كثرة العدَد والعُدَد، هذا ما فهمه أسلافنا، واجتنبوه وحذرونا منه؛ ولكننا لم نحذر،

(٣) قال ابن كثير رحمه الله تعالى في قوله تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ أَيْنَ مَا تُقِفُوا﴾ أي: ألزمهم الله الذلة والصغار أينما كانوا فلا يأمنون ﴿إِلَّا بِحَبْلِ مِنَ اللَّهِ﴾ أي: بذمة من الله وهو عقد الذمة لهم، وضرب الجزية عليهم، وإلزامهم أحكام الملة ﴿وَحَبْلِ مِنَ النَّاسِ﴾ أي: أمان منهم لهم كما في المهادن والمعاهد والأسير إذا أمتّه واحد من المسلمين ولو امرأة... ونقل ابن كثير هذا المعنى عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وعطاء... وغيرهم. انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٥٩٣). عند تفسير الآية (١١٢) من سورة آل عمران. وقال ابن عاشور رحمه الله تعالى: «والتقدير: ضربت عليهم الذلة متلبسين بكل حال إلا متلبسين بعهد من الله وعهد الناس... والمعنى: لا يسلمون من الذلة إلا إذا تلبسوا بعهد من الله، أي: ذمة الإسلام أو إذا استنصروا بقبائل أولي بأس شديد، وأما هم في أنفسهم فلا نصر لهم وهذا من دلائل النبوة فإن اليهود كانوا أعزة يثرب وخيبر والنضير وقريظة فأصبحوا أذلة، وعمتهم المذلة في سائر أقطار الدنيا» هـ. انظر: التحرير والتنوير (٥٦/٤).

عن جبير بن نفير قال: «لما فتحت قبرص مُرَّ بالسبيِّ على أبي الدرداء، فبكى فقليل له: تبكي في مثل هذا اليوم الذي أعزَّ الله فيه الإسلام وأهله؟ قال: يا جبير، بينا هذه الأمة قاهرة ظاهرة؛ إذ عصوا الله فلقوا ما ترى، ما أهون العباد على الله إذا هم عصوه»^(٤).

بل قرر تلك الحقيقة رجل من أهل الكتاب، وعظيم من عظماء النصرارى، خرج إليه عمرو بن العاص رضي الله عنه في إحدى معاركه فسأل عمرأ ممن؟ وماذا يريد؟ فأخبره عمرو ببعثة النبي صلى الله عليه وسلم ودعوته، فقال له النصراني: «إن رسولكم قد صدق، وقد جاءتنا رسل بمثل ذلك، وكنا عليه حتى ظهرت فينا ملوك فعملوا بأهوائهم، وتركوا أمر الأنبياء. فإن أنتم أخذتم بأمر نبيكم لم يقاتلكم أحدٌ إلا غلبتموه، وإذا فعلتم مثل الذي فعلنا فتركتهم أمر نبيكم لم تكونوا أكثر عدداً منا ولا أشدَّ قوة»^(٥).

فمن ضيع أمر الله تعالى، وخالف هدي رسوله صلى الله عليه وسلم وكله الله إلى نفسه فعجز، ومن اعتمد على الخلق ضيعوه وخذلوه، ومن توكل على الله كفاه.

إن واقع المسلمين في هذا العصر أليم مهين؛ فقد ضيع كثير منهم كثيراً من دين الله تعالى فوكلهم الله إلى أنفسهم، وما قوتهم وهم ضعفاء

(٤) سير أعلام النبلاء (٢/ ٣٥١).

(٥) سير أعلام النبلاء (٣/ ٧١).

متفرقون مختلفون أمام قوة اليهود والنصارى؟ ومن أين لهم مثني قبله نووية كما لليهود؟!

لقد ركن كثير من المسلمين إلى هيئات الذين كفروا ومنظمتهم، ولم يركنوا إلى الله تعالى، فوكلهم الله تعالى إلى من ركنوا إليه، فظلموهم، وأذلّوهم، واستأثروا بالقرار دونهم، والله تعالى قال لنا: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ [هود: ١١٣]، والنبي صلى الله عليه وسلم دعا لقوم فقال: «اللهم لا تكلمهم إليّ فأضعف عنهم، ولا تكلمهم إلى أنفسهم فيعجزوا عنها، ولا تكلمهم إلى الناس فيستأثروا عليهم» أخرجه أحمد وأبو داود^(٦).

فلا عجب والحال كما ترون بعداً عن دين الله تعالى، وتضييعاً لأمره، وارتكاباً لنهيهِ أن يُسلط على المسلمين عدوهم الذي يفوقهم عدداً وعدة، وأن يعيث أهل الذلة والمسكنة، وإخوان الخنازير والقردة في قدس المسلمين، وأن ينتهكوا الحرمات، ويقتلوا الأبرياء. ومن ضيع أمر الله تعالى هان على الله، ومن اعتمد على نفسه عجز، ومن اعتمد على الخلق وكله الله إليهم.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرَمٍ إِنَّ اللَّهَ يَقْعُلُ مَا يَشَاءُ﴾ [الحج: ١٨]. بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم، ،

(٦) أخرجه أحمد (٢٨٨/٥)، وأبو داود في الجهاد باب في الرجل يغزو يلتبس الأجر والغنيمة (٢٥٣٥)، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي (٤٢٥/٤)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٢٢١٠).

الخطبة الثانية

الحمد لله حمداً طيباً كثيراً مباركاً كما يحب ويرضى، أحمدته وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهداهم إلى يوم الدين.

أما بعد: فاتقوا الله تعالى واحفظوا أمره تنالوا العزة والكرامة، وتحظوا بالنصر والغلبة، ويكبت الله أعداءكم كما كبتهم من قبل ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ١٢٦]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧]، ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]، ﴿وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصفات: ١٧٣].

أيها المسلمون: بات من الواضح أن المسلمين في هذا العصر قد أسقط في أيديهم، ولم يعودوا يملكون من أمرهم شيئاً، وكلما حدثت لهم مصيبة أو دُئس العدو لهم مقدساً، أو اغتصب لهم أرضاً، أو انتهك حرمة من حرمتهم لم يخرجوا عن دائرة ردود الأفعال التي سرعان ما تخبو ثم تموت.

إنهم في هذه الأيام، وبسبب اعتداءات اليهود سيكون ويتظاهرون، ويحرقون أعلام العدو، ويصفونه بأبشع الأوصاف وأحط الألقاب، ثم ماذا بعد ذلك؟ يتفرون وقد أخذ العدو الغنيمة، وحقق ما يريد. لو كانت المظاهرات والصياح والعويل وإحراق الأعلام، والخطب

الرنانة، والأشعار الحماسية تجدي شيئاً لنفعت في عهد القومية والناصرية والزعيم الملهم، والخطيب المصقع الذي كان صوته يعلو الأصوات، وحماسه ليس بعده حماس، يبكي ويُبكي، ويَعِدُّ بإلقاء إسرائيل في البحر، ويُقسم على تحرير كل شبر من الأرض، وحفظ كل حبة من الرمل، ويعلن رفضه للمفاوضات في الفنادق، ويزعم الجهاد في الخنادق، ثم ماذا حصل؟

لقد ذهب وذهبت خطبه وحشوده ومظاهراته وشعاراته؛ لأنها لم تكن لله تعالى، وإنما لتراب الوطن وحق العروبة، وامتلك العدو الأرض، وفرض ما يريد.

ومن عجيب أمر المسلمين في هذا العصر أن يلوموا عدوهم الديني التاريخي الذي استمرت عداوته لنا طيلة أربعة عشر قرناً وزيادة. وما تجمع اليهود من الشتات، ودفعوا الأموال الطائلة وهم أهل البخل وعبداء المال، وبنو دولتهم في المنطقة المتلهبة ليتخلوا عن القدس للمسلمين؛ بل هي هدفهم وغايتهم لبناء هيكلهم المزعوم على رفات المسجد الأقصى. أُوَيْظَن القوميون العرب أن اليهود سيخافون زمجرتهم وقد جربوها في العصر القومي الناصري!!

أو هل يظن العلمانيون أن اليهود يقبلون بأنصاف الحلول والتعايش السلمي كما يقولون، وقد ضحوا بالغالي والنفيس من أجل تحقيق هدفهم، أفيتخلون عن ذلك وقد اقتربوا من تحقيقه؟! وهل يفِي الذئب إذا وعد بعدم الاعتداء على القطيع؟!

ومع بالغ الأسف فإنه كلما حدثت مصيبة، أو حلت كارثة بالأمة، انشغل المسلمون عن العلاج بالتلاوم؛ فجمهور الأمة يلوم السياسيين والقادة، والقادة يلومون المفكرين والمنظرين والمستشارين، والمفكرون يلومون جمهور الأمة في عدم قبولهم للمشاريع التغريبية العلمانية، أو رفضهم للمشاريع القطرية الوطنية والقومية، وما يخرجون عن دائرة التلاوم إلا وقد ظفر العدو بالغنيمة، واستفرد بالقرار، وحقق ما يريد.

وما دمنا نؤمن بأن النصر من عند الله تعالى، وأن الأمور بيده سبحانه فحق علينا أن نلوذ بحماه، وأن نطلب النصر منه، وذلك لا يكون إلا باستجلاب أسباب النصر من توحيده تعالى، وطاعته، والتزام سنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وذلك واجب على الجميع من القاع إلى القمة. وليعلم كل فرد يعصي الله تعالى، ويخالف أمره سواء كان قائداً أم سياسياً أم مفكراً أم غنياً أم من عامة الناس أنه سبب من أسباب الهزيمة والذلة، وتسلب الأعداء؛ فليعد إلى الله تعالى، وليتب من ذنوبه. ونعوذ بالله تعالى أن نكون سبباً لحجب النصر، وتسلب العدو بما اقترفنا من ذنوب وعصيان، وكيف نلقى الله تعالى ونحن على ذلك؟ وبماذا نجيب يوم القيامة إذا سئلنا؟!

وهذه المراجعة هي الخطوة الأولى التي نخطوها نحو النصر والعزة، وقد تجرنا من الهزيمة والذلة والمهانة ما يكفي، فهل نعي ذلك ونفهمه ونطبقه؟ عسى أن نكون كذلك، ونسأل الله تعالى أن يرفع الذل عن المسلمين، اللهم أعد إلى المسلمين العزة والكرامة باتباع أمرك، واجتناب

نهيك، والتزام سنة نبيك صلى الله عليه وسلم.
اللهم عليك باليهود، اللهم العن اليهود ومن هاودهم، اللهم سلط
عليهم جندك، واجعل بأسهم بينهم، اللهم عذبهم عذاباً أليماً في الدنيا
قبل الآخرة، اللهم ارحم المستضعفين من المسلمين في فلسطين وفي
الشيخان وفي كشمير وفي كل مكان يا رب العالمين، اللهم فرج عنهم،
واشف صدورهم، واكبت عدوهم إنك على كل شيء قدير، اللهم صل
على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم
إنك حميد مجيد.

١٧٦- لماذا لا نتنصر!؟

٣/١٢/١٤٢٢هـ

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠]، [٧١].

أما بعد: فإن أصدق الحديث كلام الله تعالى، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها الناس: في أحوال الفتن والمحن والابتلاءات، وعلو الكافرين وطغيانهم، وظهور المنافقين وافتراءاتهم، وضعف المؤمنين وانزوائهم؛ يحتاج المسلم إلى مراجعة إيمانه، وتشبيته وتقويته؛ لئلا تميد به الفتن، فتخرجه من دينه، أو تجعله يُسيء الظن بربه، فيظن أن الله تعالى لا ينصر أوليائه، ولا يكبت أعداءه، وأن القوة المادية المحسوسة فوق كل

قوة، وأنه لا اعتبار بعالم الغيبات، ولربما أنكر الغيب؛ فأوصله ذلك إلى إنكار الخالق نعوذ بالله من ذلك.

ومن الناس من يتخلى عن دينه لا شكاً فيه وفي وعد ربه تبارك وتعالى؛ ولكنه يستبطئ ذلك، فيتفلت من الأوامر والنواهي شيئاً شيئاً، ويوجد لنفسه الأعذار والمسوغات حتى يخرج من الإسلام وهو لا يشعر، ولا سيما إذا صاحب الفتن موجات من السخرية بالدين وأهله، ووصفهم بالأوصاف التي تنفر الناس منهم، وتجعلهم عرضة للإيذاء والابتلاء، كما هو الحال في هذه الأيام من اتهام الإسلام والمسلمين المتمسكين به، المعظمين لشعائره، المطبقين لسننه وأحكامه؛ إذ يوصفون في الإعلام العالمي بأوصاف تجرمهم، ويتهمون بتهم تخوف الناس منهم؛ بقصد صرف الناس عن الإسلام وتخويفهم منه ومن شريعته.

إن من الناس من صار يتساءل قائلاً: أين رحمة الله تعالى بعباده المؤمنين الذين التزموا دينه، وأقاموا شريعته في أنفسهم وأهليهم ورعاياهم، ها هم يقتلون في فلسطين، وتهدم منازلهم؟! ويسحب أولادهم في الشوارع على وجوههم، أين نقمة الله تعالى على الصهاينة الحاقدين وهم يفعلون بالمؤمنين هذه الأفاعيل؟!!

أين رحمة الله تعالى بالمسلمين المعذبين في بلاد الأفغان الذين يطل الموت على ثلاثة ملايين منهم من شدة الجوع والمرض والبرد، مع نقص المؤونة، وقلة الأمن؟!!

أين هي رحمة الله تعالى بالمسلمين في بلاد الشيشان المنكوبة التي

يعيش نساؤها وأطفالها في مخيمات جليدية، لا يجدون أمناً ولا طعاماً ولا كساء؟

وأين كانت رحمة الله تعالى من قبل بالمسلمين الذين قطعت أجسادهم في سهول البوسنة وكوسوفا، وجبال كشمير، وغابات الفلين وتميور الشرقية وغيرها؟!

إنها أسئلة بدأ المنافقون الماديون الذين لا يؤمنون بالله تعالى ولا بالغيب يرددونها بشكل أو بآخر؛ ليشككوا الناس في رحمة الله تعالى بهم، بل وفي وجوده تبارك وتعالى، داعين إلى تحرير عقول المسلمين مما يسمونه: خرافات دينية، وطروحات عاطفية، وأحلام يقظة وردية. وهذه الأسئلة ومثيلاتها تتردد في قلوب ضعاف الإيمان عند كل نازلة تنزل بالمسلمين، ومع كل مصيبة تحل بهم، لكن ألسنتهم تعجز عن النطق بها؛ لأن ما في قلوبهم من إيمان صان ألسنتهم عن نطقها. إنها أسئلة نعوذ بالله من أن تلفظها أفواهنا، ونعتصم بالله العظيم أن ترد على أذهاننا، أو تُنكتَ في قلوبنا.

إنها أسئلة مكتوبة على بوابة الإلحاد والزندقة، لا تردُّ على قلب عبد، وينطقُ بها لسانه إلا ولج البوابة التي من دخلها لا يُرجى خروجه منها، إلا أن يرحمه الله تعالى بتوبة يرزقه إياها، فتصله قبل أن يصل إلى النار.

كيف ترد هذه الأسئلة ومثيلاتها على قلب مؤمن يوحد الله تعالى، ويوقن بوعدته، ويعرف أسماء وصفاته؟!

والمشاهد أن الرجل كلما اتسع علمه اتسعت رحمته، وربنا جلّ جلاله قد وسع كل شيء رحمة وعلماً؛ فوسعت رحمته كل شيء، وأحاط بكل شيء علماً، فهو أرحم بعباده من الوالدة بولدها، بل هو أرحم بالعبد من نفسه، كما هو أعلم بمصلحة العبد من نفسه.

والرحمة صفة تقتضي إيصال المنافع والمصالح إلى العبد وإن كرهتها نفسه، وشقت عليها؛ فهذه هي الرحمة الحقيقية، فأرحم الناس بك من شقّ عليك في إيصال مصالحك، ودفع المضار عنك^(١).

ولهذا كان من رحمة أرحم الراحمين تسليط أنواع البلاء على عباده المؤمنين من القتل والتعذيب، والأسر والحبس والتهجير، والجوع والخوف، ونحو ذلك من البلايا؛ ليستخرج منهم الدعاء؛ وليأجرهم على ما أصابهم في دين الله تعالى أجراً موفوراً.

وهذا من أعظم ما يحقق المصالح الدائمة لأولياء الله تعالى وأحبابه. وأبين دليل على ذلك أن أكثر من يعذبون في دينهم هم الأنبياء وأتباعهم، وهم أحباب الله تعالى وأوليائه، كما أن أكثر من يؤذى في دينه في هذا العصر هم المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها، وقد جاء في الأثر أن المبتلى إذا دُعي له: «اللهم ارحمه» يقول الله سبحانه: «كيف أرحمه من شيء به أرحمه»^(٢)، وفي الأثر الآخر: «إن الله إذا أحب

(١) إغاثة اللهفان (١٧٤/٢) مع بعض التصرف.

(٢) العقيدة الأصفهانية (١٣٠)، والاستقامة (١/٤٤٠)، ومجموع الفتاوى (١٠/١٤٧).

وإغاثة اللهفان (١٧٥/٢).

عبداً حماء الدنيا وطيباتها وشهواتها كما يحمي أحدكم مريضه»^(٣).
 إن الإنسان قد يسمع ويرى ما يصيب كثيراً من أهل الإيمان في الدنيا من المصائب، وما ينال كثيراً من الفجار والكفار والظلمة في الدنيا من الجاه والتمكين والمال وغير ذلك؛ فيعتقد أن النعيم في الدنيا لا يكون إلا للكفار والفجار، وأن المؤمنين حظهم من النعيم في الدنيا قليل، وكذلك قد يعتقد أن العزة والنصر في الدنيا تستقر للكفار والمنافقين على المؤمنين، فإذا سمع في القرآن قول الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصفات: ١٧٣]، وقوله تعالى: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨]، وكان ممن يصدق بالقرآن، حمل هذه النصوص ومثيلاتها على أن حصوله في الدار الآخرة فقط، وأما الدنيا فيظن أنها دار بلاءٍ وعذاب وفتنة على المؤمنين لا يتنعمون فيها أبداً.

وهذا ظن سيء مخالف لمقتضى حكمة الله تعالى ورحمته، وقد كان أحد كبار المبتدعة ممن فسدت قلوبهم، وساءت بالله تعالى ظنونهم

(٣) عدة الصابرين (١٨٢)، وإغاثة اللهفان (١٧٥/٢)، وثبت نحوه عن النبي صلى الله عليه وسلم من حديث قتادة بن النعمان رضي الله عنه بلفظ: «إذا أحب الله عبداً حماه الدنيا كما يظل أحدكم يحمي سقيم الماء» أخرجه الترمذي في الطب باب ما جاء في الحمية (٢٠٣٦)، والحاكم وصححه وقال: على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي (٢٠٧/٤)، وصححه ابن حبان (٦٦٩)، وذكر الترمذي في جامعه (٣٨١/٤) أنه روي أيضاً مرسلًا عن محمود بن لبيد عن النبي صلى الله عليه وسلم، وله شواهد أخرى.

يخرج بأصحابه إلى الجذامي وأهل البلاء والأمراض والجنون ثم يقول لهم: «انظروا أرحم الراحمين يفعل مثل هذا!!»^(٤) يريد إنكار رحمة الله تعالى كما أنكر حكمته، نعوذ بالله من فساد القلوب، والتعدي على صاحب العظمة والجبروت، جلّ في علاه.

وهذه الظنون الفاسدة التي قد يقع فيها بعض ضعاف الإيمان، وينطق بها المنافقون؛ مبنية على مقدمتين:

إحدهما: حسنُ ظن العبد بنفسه، واغتراره بعمله، واعتقاده أنه قائم بأمر الله تعالى، وهو قد يكون مسيئاً وعاصياً، ولا ينظر إلى عصيانه وإساءته، ولا يبحث عن أسباب تخلف نصر الله تعالى عنه.

والمقدمة الثانية: اعتقاده أن الله سبحانه وتعالى قد لا يؤيدُ صاحب الدين الحق وينصره، وقد لا يجعل له العاقبة في الدنيا بوجه من الوجوه، بل يعيشُ عمره مظلوماً مقهوراً مستضاماً مع قيامه بما أمر الله تعالى ظاهراً وباطناً، وانتهائه عمّاً نهى عنه باطناً وظاهراً.

وهاتان المقدمتان كانتا سبباً في ضلال كثير من الناس، وفساد قلوبهم؛ فأقعدتهم الأولى عن محاسبة أنفسهم، وتوبتهم من ذنوبهم، وأوصلتهم إلى الغرور بأعمالهم، فتخلف عنهم نصر الله تعالى في

(٤) قائل ذلك هو الجهم بن صفوان الذي ينكر أسماء الباري تبارك وتعالى وصفاته، ويؤمن بإله غير موجود على وجه التحقيق، وليس له أسماء ولا صفات، والفرقة المشهورة التي كفرها أهل السنة (الجهمية) تنسب إليه وهو رأسها، وتقول بقوله، عامله الله بما يستحق هو وأتباعه ومن قال بمثل قوله، وانظر مقالته تلك في: منهاج السنة النبوية (٣/٣٢)، وشفاء العليل (١/٢٠٢).

الدنيا، ويخشى عليهم من عذاب الله تعالى في الآخرة.
وأقعدتهم الثانية عن نصرة إخوانهم المسلمين؛ لاعتقادهم أن حظَّ المؤمنين في الدنيا العذابُ والبلاءُ، كما أن حظ الكافرين فيها النصرُ والغلبةُ والنعيمُ^(٥)، وأوقعتهم في سوء الظن برب العالمين.
فالحذر الحذر - أيها المسلمون - من حسن ظننا بأنفسنا، واغترارنا بأعمالنا؛ فكم في أعمالنا من التقصير والمخالفة، والسهو والنقص والغفلة!!
وكم في نفوسنا من أمراض التعلق بالدنيا، والتنافس فيها، والغفلة عن ذكر الله تعالى وشكره وعبادته.

كما يجب علينا الحذر من الاعتقاد بأن حظ المؤمنين في الدنيا محصور في العذاب والابتلاء، ولو قاموا بأمر الله تعالى؛ فإن هذا من سوء الظن بالرب تبارك وتعالى، الذي وعد - ووعدده حق - بالنصر والتمكين لعباده المؤمنين. فلنبحث عن أسباب ذلنا وضعفنا، وتسلب أعدائنا علينا في أنفسنا وأعمالنا؛ فوالله الذي لا يحلف بغيره إننا ما أتينا إلا من قبل نفوسنا وأعمالنا السيئة، ولو أصلحناها لصلحت أحوالنا؛ فنسأل الله تعالى أن يرحمنا ويعفو عنا، ويمنّ علينا بصلاح قلوبنا وأعمالنا، إنه جواد كريم.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يُبْورُ﴾ [فاطر: ١٠].

(٥) إغاثة اللهفان (٢/ ١٧٦ - ١٧٩) مع الاختصار والتصرف غير القليل.

الخطبة الثانية

الحمد لله حمداً طيباً كثيراً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى، أحمده وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهداهم إلى يوم الدين.

أما بعد: فاتقوا الله - عباد الله - واحذروا الفتن ما ظهر منها وما بطن، وإن من أعظم الفتن أن يفتن العبد في دينه، فيظن أن التمسك به سبب لعذابه وابتلاءاته، ويزين له الشيطان التخلي عن أركانه، وترك أحكامه، والتفريط في شيء من شعائره؛ حتى يخرج من الإسلام بالكلية، نعوذ بالله من زيغ القلوب، وفساد النفوس.

وللعلامة ابن القيم رحمه الله تعالى كلام عظيم في هذا الموضوع، يقول فيه:

«والمقصود أن المقدمتين اللتين تثبت عليهما هذه الفتنة أصلهما الجهلُ بأمر الله ودينه، وبوعده ووعيده؛ فإن العبد إذا اعتقد أنه قائم بالدين الحق فقد اعتقد أنه قد قام بفعل المأمور باطناً وظاهراً، وترك المحظور باطناً وظاهراً، وهذا من جهله بالدين الحق وما لله عليه، وما هو المراد منه، فهو جاهل بحق الله عليه، جاهل بما معه من الدين قدراً ونوعاً وصفة، وإذا اعتقد أن صاحب الحق لا ينصره الله تعالى في الدنيا والآخرة... فهذا من جهله بوعده الله تعالى ووعيده.

فأما المقام الأول: فإن العبد كثيراً ما يترك واجبات لا يعلم بها ولا

بوجوبها؛ فيكون مقصراً في العلم، وكثيراً ما يتركها بعد العلم بها وبوجوبها إما كسلاً وتهاوناً، وإما لنوع تأويل باطلٍ أو تقليدٍ أو لظنه أنه مشغولٌ بما هو أوجبٌ منها أو لغير ذلك، فواجبات القلوب أشد وجوباً من واجبات الأبدان، وأكد منها، وكأنها ليست من واجبات الدين عند كثير من الناس... فتراه يتخرج من ترك فرضٍ، أو من ترك واجب من واجبات البدن؛ وقد ترك ما هو أهم من واجبات القلوب وأفرضها. ويتخرج من فعل المحرمات؛ وقد ارتكب من محرمات القلوب ما هو أشد تحريماً وأعظم إثماً.

بل ما أكثر من يتعبد لله عزَّ وجلَّ بترك ما أوجب عليه، فيتخلى وينقطع عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع قدرته عليه، ويزعم أنه متقرب إلى الله تعالى بذلك، مجتمعٌ على ربه، تارك ما لا يعنيه؛ فهذا من أمقت الخلق إلى الله تعالى، وأبغضهم إليه...

وبهذا يزول الإشكال الذي يورده كثيرٌ من الناس على قوله تعالى: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤١]، فانتفاء السبيل عن أهل الإيمان الكامل؛ فإذا ضعف الإيمان صار لعدوهم عليهم من السبيل بحسب ما نقص من إيمانهم، فهم جعلوا لهم عليهم السبيل بما تركوا من طاعة الله تعالى.

فالمؤمن عزيزٌ غالبٌ، منصورٌ مكفي، مدفوع عنه بالذات أين كان ولو اجتمع عليه من بأقطارها إذا قام بحقيقة الإيمان وواجباته ظاهراً وباطناً، وقد قال تعالى للمؤمنين: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ

إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿[آل عمران: ١٣٩]، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتْرُكُمُ أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٥]، فهذا الضمان إنما هو بإيمانهم وأعمالهم التي هي جندٌ من جنود الله تعالى يحفظهم بها...

وأما المقام الثاني الذي وقع فيه الغلط: فكثير من الناس يظن أن أهل الدين الحق في الدنيا يكونون أذلاء مقهورين مغلوبين دائماً، بخلاف من فارقهم إلى سبيلٍ أخرى، وطاعةٍ أخرى، فلا يثق بوعده الله تعالى بنصر دينه وعباده، بل إما أن يجعل ذلك خاصاً بطائفة دون طائفة، أو بزمانٍ دون زمان، أو يجعله معلقاً بالمشيئة وإن لم يصرح بها؛ وهذا من عدم الوثوق بوعده الله تعالى، ومن سوء الفهم في كتابه؛ والله سبحانه قد بين في كتابه أنه ناصر المؤمنين في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [المائدة: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ (٢٠) كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ [المجادلة: ٢٠-٢١].

وهذا كثير في القرآن، وقد بين سبحانه فيه أن ما أصاب العبد من مصيبةٍ أو إدالةٍ عدوٍ أو كسرٍ أو غير ذلك فبذنوبه، فبين سبحانه في كتابه كلا المقدمتين، فإذا جمعت بينهما تبين لك حقيقة الأمر، وزال الإشكال بالكلية»^(٦). اهـ كلامه.

(٦) مختصراً من كلامه رحمه الله تعالى في إغاثة اللفهان (٢/ ١٨٠ - ١٨٣).

أيها المؤمنون: بان لنا أن تخلف نصر الله تعالى عن المؤمنين، وتسلب الكافرين عليهم، إنما كان بما اقترفت نفوسنا من آثام، وبما كسبت أيدينا من عصيان، فحريُّ بنا أن ننصر دين الله تعالى بتجديد العهد معه تبارك وتعالى، ولزوم التوبة، وكثرة الاستغفار، ومحاسبة النفس، والتخلي عن العصيان، والمحافظة على الواجبات. وكل واحد منا فيه من التقصير والعصيان ما فيه.

فلنتب إلى الله تعالى، ولا سيما في هذه العشر المباركة التي خصها الله تعالى بمزيد فضل على سائر الأيام، وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن العمل الصالح فيها أفضل منه في غيرها، حتى فاق العمل فيها الجهاد في سبيل الله تعالى إلا رجلٌ خرج بنفسه وماله ولم يرجع من ذلك بشيء^(٧)، وخصت بكثير من الشعائر العظيمة كالحج والأضحية والصيام، خاصة صوم يوم عرفة لغير الحجاج؛ فإنه يكفر السنة التي قبله والسنة التي بعده^(٨).

كما خصت بتكبير الله تعالى في كل وقت، وعلى كل حال، وبسائر أنواع الذكر؛ وقراءة القرآن، فاجتهدوا فيها رحمكم الله تعالى؛ فما أخرجنا إلى رحمة الله تعالى وتثبته في هذا الزمن الذي تتلاطم فيه

(٧) كما جاء في حديث ابن عباس رضي الله عنهما عند البخاري في العيدين باب فضل العمل أيام التشريق (٩٦٩).

(٨) كما في حديث أبي قتادة رضي الله عنه عند مسلم في الصيام باب استحباب صيام ثلاثة أيام من كل شهر وصوم يوم عرفة وعاشوراء والاثنين والخميس (١١٦٢) (١٩٦).

الفتن ، حتى يوشك الرجل أن يمسي مؤمناً ويصبح كافراً ، ويصبح مؤمناً ويمسي كافراً يبيع دينه بعرض من الدنيا قليل ، نسأل الله العافية والسلامة .
اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد ، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد .

١٧٧- الهزيمة النفسية عند المسلمين الاسباب والمظاهر والعلاج

الجمعة ٣٠/٦/١٤١٨هـ

الحمد لله؛ أكمل لنا الدين، وأتم علينا النعمة، ورضي لنا الإسلام ديناً، أحمده وأشكره وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، يغفر ذنبنا، ويجبر كسرنا، ويغيث ملهوفنا. وأشهد أن محمداً عبده ورسوله؛ تمت به النعمة، وانجلت الغمة. فتح الله به أذاناً صمماً، وأعيناً عمياً، وقلوباً غلفاً، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه، أهل البر والتقوى، والطهر والنقاء، والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فيا أيها الناس، اتقوا الله تعالى واستمسكوا بدينكم، فلا عز ولا تمكين إلا بالإسلام، والذلُّ كلُّ الذلِّ في تركه واطراحه وراءكم ظهرياً.

أيها الإخوة المؤمنون: الإسلام دينُ العزِّ والفخر، فمن حق المسلم أن يفاخر بدينه، فهو الدين الذي سلم من التبديل والتحريف ومن الزيادة والنقصان ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (٣٣) [فصلت]. نعم! من أحسن القول قولُ المسلم: إنني من المسلمين، ومن أحسن الفخر فخره بالإسلام. وكم زهد كثير من المسلمين في دينهم وتعاليمه، وأحكامه ومصادره، واستعاضوا عنه بنظريات وفلسفات انتجتها تخبطاتُ العقل البشري، وأفرزتها زبالاتُ

الفكر في الشرق والغرب، رغم أن المنصفين من الأعداء شهدوا لهذا الدين بالكمال والحفظ والنقاء، وإن كان غنياً عن شهادة أحد.

هذا مفكرٌ من الغرب يخاطب جموعاً من المسلمين التقى بهم فقال لهم: «إنكم أيها المسلمون لن تستطيعوا أن تنافسوا الدول الكبرى علمياً أو اقتصادياً أو عسكرياً في الوقت الحاضر على الأقل؛ ولكنكم تستطيعون أن تجعلوا هذه الدول تحبو على ركبها أمامكم بالإسلام، أفيقوا من غفلتكم لقيمة هذا النور الذي تحملون، والذي يتعطش إليه كلُّ الناس في مختلف جنبات الأرض، تعلموا الإسلام وطبقوه واحملوه لغيركم من البشر تفتح أمامكم الدنيا، ويدين لكم كلُّ ذي سلطان» اهـ^(١)

من يصدق أن هذا الكلام لشخص من غير المسلمين؛ لكنه فهم الإسلام، وكثير من المسلمين لم يفهموا الإسلام فهماً صحيحاً حتى ممن يصنفون من أهل الفكر والثقافة والتعليم العالي. نعم، إن منهم من خسرت عليهم الأمة أموالاً طائلة في ابتعائهم وتعليمهم، فكان جزاؤهم لها كفوراً، رجعوا بأسماء مسلمة، وألسنٍ عربية، لكن بقلوبٍ منكرة، وأفكارٍ منحرفة، ونفاقٍ متغلغل، وإعجابٍ بالكفر والإلحاد بلا حدود، مع كراهيةٍ للدين وأهله منقطعة النظير.

ولقد وصف القرآن العظيم إخوانهم من منافقي عهد الرسالة النبوية، والوصف ينطبق عليهم في كل عصر ومصر إلى أن يرث الله الأرض

(١) انظر: مجلة المجتمع الكويتية العدد ١١١٦ في ٧/٤/١٤١٥ هـ ص ٣٧.

ومن عليها ﴿وَمَنْ النَّاسُ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (٨) يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾﴾ [البقرة].

إذا كانوا في مجتمع المؤمنين تظاهروا بالإيمان، وإذا غادروا ديار أهل الإيمان أظهروا الكفر وأعلنوه ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ (١٤) اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمْدُدُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾﴾ [البقرة]، ما أعظم هذا القرآن؟! إنه غض طري كما نزل. والله الذي لا إله غيره لكأن هذه الآيات تنزل اليوم، وإن هذا الوصف الذي تذكره لينطبق على هؤلاء القوم.

إذا خوطب أحدهم بالدين هز رأسه، وصعر خده؛ سخرية بالدين وأهله، وإذا ذكرت له آية من الكتاب أو حديثاً من السنة قال لك: العالم تقدم، وصعد القمر، ووصل المريخ، واكتشف الذرة، وأنت لاتزال في انغلاقك وتخلفك ورجعيتك. والسؤال المطروح: هل هؤلاء القوم لما نبذوا الدين تقدموا وصعدوا القمر ووصلوا المريخ؟! كلا؛ بل ازدادوا تخلفاً إلى تخلفهم، فجمعوا بين الكفر والتخلف، وخسارة الدنيا والآخرة.

هذا مظهر من مظاهر الضعف والهزيمة على مستوى المثقفين والمفكرين، ومن مظاهرها عندهم وعند كثير من العامة ودهماء الناس: التقليد الأعمى، والتبعية البغيضة في الجليل والحقير، والصغير الكبير، من الأكل بالشمال، والتختم بالذهب، والتقليد في اللباس.

وأزياءُ نسائهم أصبحت مدعاة للمفاخرة عند كثير من نساء المسلمين، وميداناً للتسابق عليها. بل قلدوهم حتى في الحقير والتافه من الأمور، في الحركات والسكنات، وقصات الشعر والرقصات، والعيش من أجل الدنيا، والرضى بالدون من الأشياء. وقد رصد باحث غربي مظاهر هذا الانجراف من المسلمين خلفهم، وأبدى سببه فقال: «إن الشرقيين لشعورهم بعقدة النقص أمام الحضارة الغربية ورغبتهم في أن يصبحوا متحضرين على غرار الغربيين أخذوا عنا كل شيء الفضائل والرذائل، وبذلك طغى عليهم الطابع الغربي وتفككت ذاتيتهم»^(٢).

ولقد أحسن هذا الكاتب الظن؛ لأن الحقيقة المدمية أن المتغربين من المسلمين ما أخذوا من الغرب فضائله؛ بل اكتفوا بالرذائل، تمشياً مع شهواتهم، ولرغبتهم في إراحة عقولهم. وقبله كتب ابن خلدون في مقدمته: «أن المغلوب مولعٌ أبداً بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيه ونحلته، وسائر أحواله وعوائده، والسبب أن النفس تعتقد الكمال فيمن غلبها وانقادت إليه، إما لنظرةً بالكمال بما وقر عندها من تعظيمه، أو لما تغالطُ به من أن انقيادها ليس لغلب طبيعي وإنما لكمال الغالب. فإذا غالطت بذلك واتصل لها حصل اعتقاداً؛ فانتحلت جميع مذاهب

(٢) طرق أحكام الرقابة على وسائل الغزو الفكري، بحث عوامل الانهيار الداخلي في المجتمعات العربية للأستاذ محمد أحمد جمال من بحوث موضوعات الدورة التدريبية السابعة للمركز العربي للدراسات الأمنية بالرياض التابع لوزارة الداخلية (١٧٥/٢).

الغالب، وتشبهت به، وذلك هو الاقتداء... ولذلك ترى المغلوب يتشبه أبدأ بالغالب في ملبسه ومركبه وسلاحه في اتخاذها وأشكالها بل وفي سائر أحواله». اهـ^(٣)

وكان من نتيجة هذه الهزيمة النفسية: الشعور بالإحباط، والقعود عن نصره الدين، وعدم الاهتمام بقضايا المسلمين، وجعل الإسلام في قفص الاتهام، ومحاولة الدفاع عنه، ولو بإخفاء بعض أحكامه وتعاليمه وكتمانها؛ كالتعدد في الزواج، وميراث المرأة، وقوامة الرجل عليها، وإلغاء جهاد الطلب، وأحكام أهل الذمة، والتكلف في تلمس الحكم للأحكام الشرعية من أجل تسويغها للغير.

ومن رأى هؤلاء المنهزمين وهم يتكلفون الحكم للأحكام، ويلتمسون المعاذير للإسلام انقذ في نفسه أن قناعتهم في الإسلام مهزوزة. يفرحون بكلمة مدح قالها كافر يمدح بها حكماً أو تشريعاً في الإسلام، ويطيرون بها، وينشرونها بين الناس، ويصفون قائلها بأنه عاقل ومنصف وحكيم. فإذا كان من الغد وقلب ذلك المادح مدحه إلى ذم، وأخبر أنه كان مخطئاً، وأخذ يسب الإسلام وقع هؤلاء المنهزمون في ورطة لا مخرج منها. بل تبلغ الهزيمة مدى أبعد إذا أعجب أحد مشاهير الكفرة بالإسلام، وأخبر أنه يفكر في الإسلام، أو أسلم ولو بالاسم فقط وضعه هؤلاء المنهزمون في مصاف الدعاة والعلماء يتلقون عنه، ويأخذون منه، ولو لم يطبق أحكام الإسلام. وكثيراً ما تسمع عباراتهم التي تدل على

الانهزامية: فلان أعجبه الإسلام، وفلان يفكر في الإسلام، وفلانة كادت تسلم قبل موتها، وفلان مدح الإسلام. وكأن الإسلام محتاج إلى شهادات هؤلاء وتزكياتهم.

إن هؤلاء المنهزمين ما فهموا النصوص الشرعية، وإنهم ليسيؤون للإسلام أكثر مما يحسنون. إن المسلم يفرح بإسلام الكافر، ويدعوه للإسلام ويحرص على إسلامه؛ لكن ليس معنى ذلك أن يكون الإسلام مبتذلاً لا تتم القناعة به إلا بمدح مشهور، أو قناعة مرموق، ولا أن تفصل أحكامه على مزاج البشر فما أعجبهم منه أخذوه، وما لم يوافق أهواءهم تركوه؛ ميزان الحق فيه إسلام ذلك الكافر، أو إعجابه به، أو مدحه له، فالإسلام هو الإسلام ولو كفر الناس كلهم، إن آمنوا فلا أنفسهم وإن كفروا فعلوها، فالقاعدة القرآنية ﴿فَمَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ [يونس: ١٠٨] فمن آمن فإنما يعتق نفسه من النار، ومن كفر فإنه يوبقها.

وجاء الخطاب القرآني مشدداً على أن الهداية من الله تعالى، وأنه سبحانه لو شاء لهدى البشر كلهم، وأن المؤمن إنما ينفع نفسه بالإيمان ولا ينفع الله شيئاً ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُم جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرَهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٩٩) وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (١٠٠)﴾ [يونس] فلا نندفع خلف كل معجب أو مادم للإسلام قد يذمه غداً، ولا نؤجل من أحكام الإسلام، ونلتمس المعاذير، ونتكلف الحكم والتعليلات. فالمؤمن يكفيه حكمة

وتعليلاً قوله: أفعلُ كذا لأن الله تعالى أمر بفعله، وأجنبُ كذا لأن الله تعالى نهى عنه، هذه هي الحكمة الصحيحة، والتعليل المستقيم لأهل الإيمان القوي، والعقيدة الصحيحة.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (١٣٩) إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (١٤٠) وَلِيَمَّخَصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمَّحَقَ الْكَافِرِينَ (١٤١) ﴿[آل عمران]

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم...

الخطبة الثانية

الحمد لله حمداً طيباً كثيراً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى، أحمدته وأشكره وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فيا عباد الله: اتقوا الله تعالى وأطيعوه، واحذروا غضبه فلا تعصوه؛ فإن اللقاء قريب، والحساب عسير.

أيها الإخوة المؤمنون: لإزالة ركाम هذه الهزائم المتوالية على المسلمين لا بد من إعادة بناء للفرد المسلم والأمة المسلمة. يجب أن تُربى الأجيال على الإيمان العميق، والعقيدة الصحيحة؛ حتى تتأبى هذه الأجيال على أساليب التخويف والتهويل، وحتى تستعلي على الأهواء والشهوات. إن من أقوى أسلحة العدو الحرب النفسية التي تهول قوة العدو

بنوياته وذرياته، وصناعاته ومخابراته، والتي تصورُ للمسلمين بعدَ المسافة بينهم وبين الغرب، واستحالة اللحق بالركب، فضلاً عن النصر والتقدم؛ لكن الإيمان يحطم تلك النظرة اليائسة المتشائمة، ويختصر قوة العدو بترساته وتخطيطه وتقنياته في كلمة واحدة هي: أن الله تعالى أقوى، وأن الله تعالى مع المؤمنين ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١].

إن الله تعالى هو المعز وهو المذل، هو المعطي وهو المانع، هو الذي أعطى البشر ما وصلوا إليه، وهو القادر على نزع ذلك منهم، وهو الذي أدال^(٤) للكافرين على المؤمنين في هذا العصر لحكمة يعلمها وهو القادر على أن ينصر المؤمنين على الكافرين، وما على أهل الإيمان إلا الاعتصام بالله تعالى، والاستعانة به في الأمور كلها مع العمل والجهاد في سبيله باليد واللسان والقلب، وبكل ما يمكن جهاد الكفار والمنافقين به.

لقد كان أسلوبُ الحرب النفسية يمارس من قبل الفرس والروم ضد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضي الله عنهم. هذا ربعي بن عامر رضي الله عنه حينما غزا المسلمون فارس - وما فارس يومئذ قوة وتقدماً، وما العرب آنذاك تَخَلُفًا وضعفًا - أرسله المسلمون مفاوضاً

(٤) أي: جعلهم يغلبون المؤمنين، والإدالة هي الغلبة، وقيل: هي النصر بعد الهزيمة ومنه حديث وفد ثقيف: ندال عليهم ويدالون علينا، يقال: أدبل لنا على أعدائنا أي: نصرنا عليهم، وكانت الدَّوْلَةُ لنا عليهم. ومنه قول أبي سفيان رضي الله عنه لما سأله هرقل عن حربهم مع النبي صلى الله عليه وسلم: نُدَالُ عليه ويُدَال علينا، أي: نغلبه مرةً، ويغلبنا أخرى.

حينما طلب الفرسُ التفاوض، فدخل ربعي إيوان رستم وكان رستم قد أعد له مجلساً عظيماً وجعله مليئاً بالمجوهرات والزينة حتى يبهرَ ربعياً ويضعف نفسيته. ورستم حينما فعل ذلك جهل أن الإيمان إذا وقر في القلب فإن الدنيا كلها بزخرفها وقوتها لا ترحزح ذلك المؤمن عن إيمانه. دخل ربعيُ سلاحه، فقالوا له: انزع سلاحك، فرد ربعي: أنتم دعوتموني ولم آت إليكم، فإما أن أدخل بسلاحٍ وإما أن أرجع. فدخل بسلاحه يطأ بدابته فرشهم وغمارقهم، ويتكئُ برمحه على وسائدهم، حتى ربط دابته عند سرير رستم. فانبهر رستم لما رأى من قوته وعزته وأنفته، قال له رستم: ما الذي جاء بكم؟ فقال ربعي: جئنا لنخرج العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، فإن استجابوا وإلا قاتلناهم. فارتخى رستم في حديثه، وسأل قومه، وكأنه أراد أن يهزم، فقال له قومه: أددع دينك إلى هذا الكلب، انظر إلى ثيابه، فقال رستم: ويلكم لا تنظروا إلى الثياب، وانظروا إلى الرأي والكلام والسيرة، إن العرب يستخفون بالثياب والمأكّل ويصنونون الأحساب^(٥).

هكذا كانت نظرة رستم! يا ترى كيف حالُ المسلمين الآن، وما اهتماماتهم؟! أليست باللباس والمأكّل، والمراكب والدور؟ بلى! تعلقُ بالدنيا أيما تعلق؛ لكن ربعياً وقد جاء من الصحراء فقيراً يدخلُ حضارة فارس فلا يأبه بها، ولم تغره الزخارف والنمارق، والفرش والتكايا،

(٥) البداية والنهاية لابن كثير (٧/ ٣٢-٣٣).

ما الذي جعله كذلك؟! إنه الإيمان والعقيدة، الذي إذا ضعف في المسلمين سهل غزوهم بكل أنواع الغزو، ليس بالقتال فحسب؛ بل يكفي غزوهم بالشهوات.

إن العرب إذا طرحوا الإسلام فهم أحقر من أن يتكلف العدو غزوهم عسكرياً؛ بل يكفي أن يسلط عليهم الشهوات فيتبعونها. يقول قائد من قادة الصليبيين: «لن تهزموا المسلمين بكثرة الجيوش ولا بقوتها ولكن ستهزمهم جيوشُ النساء، وستهزمهم قوارير الخمر».^(٦)

إن المسلمين لما ضعف إيمانهم ضعفت نفسياتهم؛ فانبهروا بحضارة العدو وتقدمه، ولم يأخذوا منها النافع والمفيد وإنما أخذوا الشهوات واللذائذ. فكانت النتيجة شعوراً بالإحباط، وذلةً ومهانةً في التعامل مع العدو، وإعجاباً بالذين كفروا إلى حدٍ مخز ومخيف، وطرحاً للإسلام وتعاليمه وصل عند البعض إلى الشك في دين الله وفي نصره؛ بل اليقين باستحالة هزيمة العدو، وهذا كله من أثر الهزيمة مع النفس، وإلا فإن الناظر للتاريخ يجد أن الأيام دول، ويقضي بأن ضعف المسلمين ليس مسوغاً صحيحاً لتخليهم عن دينهم وعقيدتهم.

استحل الصليبيون بيت المقدس ومكثوا فيه أكثر من تسعين عاماً، ثم لما أصلح المسلمون أحوالهم، وجدّدوا عهدهم مع ربهم استردوه وأخرجوا النصارى منه فكسروا الصليبان، ورفعوا الأذان. ثم دارت الدوائر على المسلمين فضعفوا وذلوا، وسلبوا الأقصى مع سلب كرامتهم

(٦) الهزيمة النفسية، د. عبدالله خاطر (٤٥).

وعزتهم. ولا مخرج لهم من هذا الضعف والذلة إلا بالرجوع إلى دينهم وتربية الأجيال عليه، وإذا لم يفعلوا ذلك فلسوف يعيشون أذلاء، ويموتون أذلاء، ثم يحاسبون على تقصيرهم وتفريطهم وذلتهم ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ [محمد].

ألا وصلوا وسلموا على محمد بن عبد الله كما أمركم بذلك رب العزة والجلال.

* * *

١٧٨- المرأة في ظل الإسلام

الجمعة ١٨/٢/١٤١٩هـ

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فيا أيها الناس اتقوا الله تعالى بفعل الأوامر، واجتناب الزواجر، واستمسكوا بدينكم، ولو انحرف المنحرفون، واستهزأ المستهزئون، ومروا بالمعروف وانهاؤا عن المنكر، وخذوا على أيدي السفهاء، وأطروهم على الحق أطراً ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال].

أيها الإخوة المؤمنون: الإسلام دين الشمولية والكمال، والحق والعدل. أعطى كل ذي حق حقه، ورتب الواجبات على المكلفين كل بحسبه. حفظ حق الإنسان وليداً رضيعاً، وشاباً وكهلاً، وشيخاً هرمًا، امرأة كان أم رجلاً.

كلّف الرجلَ بواجبات تتناسب وطبيعته الرجولية من الضرب في الأرض، والسعي على حاجات الأهل والعيال؛ لما يملك من قوة وبأس. وكلّف المرأة بصيانة البيت وحفظ الأولاد، والقيام عليهم بالعطف والحنان؛ لما اختصت به المرأة من قوة العاطفة، وشفافية الإحساس،

فهي بالولد أرحم، فوجب أن تكون به ألصق. والرجل والمرأة في الإسلام يكمل أحدهما الآخر، ولا تنفك حاجة أحدهما عن الآخر؛ لأن لكل منهما اختصاصه، وتكون السعادة والهناء إذا التزم كل طرف منهما بأداء واجباته وحفظ حقوق الآخر، ويحصل الخلل وربما الشقاء بإخلال أحدهما أو كليهما بواجباته. وما فسدت البيوت، وتحطمت الأسر، وضاعت العيال إلا لما استرجلت النساء، وتأثت الرجال.

أيها الإخوة: وفي نظرة سريعة، ومقارنة مختصرة لوضع المرأة قبل الإسلام، وعند أهل الديانات المحرفة، أو الفلسفات الوضعية وبين مكانتها في الإسلام تتجلى حقيقة إكرام الإسلام للمرأة، ذلك الإكرام الذي لا يجادل فيه إلا مبطل، ولا يماري فيه إلا مكابر.

كانت المرأة في حضارة اليونان الفلسفية محتقرة مهانة تباع وتشتري، يسمونها رجساً من عمل الشيطان. ومن أقوال فيلسوفهم سقراط: «إن وجود المرأة هو أكبر منشأ ومصدر للأزمة والانهيار في العالم، إن المرأة تشبه شجرة مسمومة حيث يكون ظاهرها جميلاً؛ ولكن عندما تأكل منها العصافير تموت حلاً». ويحدثنا التاريخ عن اليونان الفلاسفة في إدبار دولتهم وكيف فشت فيهم الفواحش والفجور، بعد أن احتقروا المرأة وقدسوا الفاحشة والبغاء^(١).

(١) بتصرف من: عودة الحجاب للدكتور محمد إسماعيل المقدم (٢/٤٧).

وأما في حضارة الرومان البائدة فكانت المرأة معذبة مهانة، شعارهم في المرأة: أن قيدها لا ينزع، ونيرها لا يخلع^(١)، وكان دينهم أنه لا روح للمرأة، وبسبب ذلك كانت تلاقي أبشع صور التعذيب التي سجلها تاريخ الرومان^(٢).

وأما في شريعة الهندوس الوثنية، فتكفي مادتهم التي تقول: «ليس الصبر المقدر، والريح والموت والجحيم، والسم والأفاعي والنار أسوأ من المرأة»^(٣).

وأما الفرس فكانوا يرون زواج المحارم، وكانت المرأة الفارسية تحت سلطة الرجل المطلقة، يحق له أن يحكم عليها بالموت أو ينعم عليها بالحياة^(٤).

وكانت بعض طوائف اليهود تعتبر المرأة لعنة لأنها أغوت آدم، وهي في حال حيضها لا تجالس ولا تواكل ولا تلمس وعاء حتى لا يتنجس، وكانت في مرتبة الخادم، وللأب الحق في بيع بنته القاصرة^(٥). أما الأمم النصرانية ففي أناجيلهم المحرفة أن المرأة أصل الشر، ومنبع الخطيئة، يقول أحد قديسيهم عن المرأة: «إنها مدخل الشيطان

(٢) المرأة في القرآن للعقاد (٥٤).

(٣) المرأة في الإسلام لسكينة زيتوني (١١) وانظر: عودة الحجاب (٤٨/٢).

(٤) عودة الحجاب (٤٩/٢).

(٥) انظر: حقوق المرأة في الإسلام لمحمد رشيد رضا (٢٨).

(٦) عودة الحجاب (٥١/٢).

إلى نفس الإنسان، ناقضة لنواميس الله، مشوهة للرجل»^(٧). ويكفيك علماً - أيها المسلم - أن القانون الإنجليزي حتى القرن الماضي كان يسمح للرجل أن يبيع زوجته وقد حُدد ثمن الزوجة بستة بنسات^(٨). وبعد دخولهم في عصر الحضارة الجديدة ألغوا تلك القوانين، واستبدلوها بالحرية المطلقة التي جعلت المرأة تعتمد على نفسها في كل شؤونها حيث يجب عليها الانخلاع من والديها، وخروجها من المنزل بعد سن الثامنة عشرة لكي تبدأ في الكدح لنيل لقمة العيش، وبقاؤها في المنزل يوجب عليها دفع إيجار غرفتها لوالديها، وثمان طعامها وغير ذلك^(٩).

وحدث ولا حرج في بلادهم المتحضرة عن ندرة الزواج، وشيوع البغاء، وتفشي الزنا والشذوذ، وانتشار الأمراض والأوبئة الجنسية والتناسلية، مما أوصل المرأة الغربية إلى حضيض سحق من المهانة والذلة، والتفسخ والانحلال^(١٠).

هذا وضع المرأة في أشهر الحضارات غير العربية، أما العرب في الجاهلية فيلخص وضع المرأة فيها عمر بن الخطاب رضي الله عنه في كلمته الموجزة: «والله إن كنا في الجاهلية مانعد للنساء أمراً، حتى

(٧) المصدر السابق (٥١/٢).

(٨) كان هذا القانون المعمول به إلى عام ١٨٠٥م، وانظر: عودة الحجاب (٥٤/٢).

(٩) بتصرف من المرأة بين الفقه والقانون للدكتور مصطفى السباعي (٥٦/٢).

(١٠) بتصرف من عودة الحجاب (٥٦/٢).

أنزل الله فيهن ما أنزل، وقسم لهن ما قسم»^(١١). كان بعض العرب يئدها كما أخبر الله تعالى ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ (٨) بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ (٩)﴾ [التكوير] قال قتادة: «كانت مضر وخزاعة يدفنون البنات أحياء، وأشدُّهم في هذا تميم، زعموا خوف الفقر عليهم، وطمع غير الأكفاء فيهن»^(١٢). وقال: «كان أحدهم يغذو كلبه ويئد ابنته»^(١٣). وليس لها حق الإرث؛ بل كانت هي تورث، ويقولون: «لا يرثنا إلا من يحمل السيف ويحمي البيضة»^(١٤).

لقد كانت المرأة في جاهليتهم تعاني الظلم والقهر، والتسلط والاستبداد، إلى أن أشرق الإسلام بنوره؛ فشرع للمرأة من الحقوق ما لم يُشرع لأمة من الأمم في عصر من العصور، ووضعها في مكانها المناسب اللائق بها، ووكل إليها المهمات الجسام التي لا يقدر عليها غيرها، ونأى بها أن تكون ألعوبة في أيدي سفلة الرجال، أو مستنقعاً آسناً لشهواتهم. فلم تشبهها امرأة من نساء العالمين في جلال حياتها، وسناء منزلتها، تلك هي المرأة التي وثب بها الإسلام ووثبت به، وكان أثرها في تكوين رجاله، وتصريف حوادثه أشبه ما يكون بأثر الغدير الهادئ الفياض في زهر الرياض^(١٥).

(١١) فتح الباري لابن حجر (٣٠١/١٠).

(١٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٧٨/١٠).

(١٣) جامع البيان للطبري (٧٦//١٤).

(١٤) انظر: عودة الحجاب (٥٧/٢).

(١٥) بتصرف من المصدر السابق (٧٥/٢).

حفظ الإسلام حقوقها منذ ولادتها حتى تُوارى التراب، أحاطها الإسلام بالرحمة والرعاية طفلة صغيرة، وبالتكريم والمحبة زوجة صالحة، وبالبر والإجلال عجوزاً مسنة، والجنة تحت أقدام الأمهات^(١٦).

هي مثل الرجل في تكاليف الإسلام وواجباته إلا ما كان خاصاً بها من باب الرحمة والتكريم «إنما النساء شقائق الرجال»^(١٧).

والذرية خلقت من الرجل والمرأة على حدٍ سواء ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى﴾ [الحجرات: ١٣] وإيمان النساء كإيمان الرجال ﴿وَاسْتَغْفِرْ لَذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [محمد: ١٩].

لها حقوقها المحفوظة، وأموالها الموروثة، تتصرف فيها كيف تشاء متى تشاء، تهب من تشاء وتمنع من تشاء ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ﴾ [النساء: ٣٢] ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا

(١٦) جاء هذا اللفظ في حديث ضعيف أخرجه ابن عدي والقضاعي والدولابي كما في السلسلة الضعيفة للألباني (٥٩٣) ولكن معناه صحيح حيث جاء في حديث معاوية بن جاهمة: «الزمها فإن الجنة تحت رجلها» أخرجه أحمد (٤٢٩/٣) والنسائي في الجهاد باب الرخصة في التخلف لمن له والدة (١١/٦) وابن ماجه في الجهاد باب الرجل يغزو وله أبوان (٢٧٨١) والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (١٥١/٤).

(١٧) أخرجه أحمد (٢٥٦/٦) والترمذي في الطهارة باب ماجاء فيمن يستيقظ فيرى بللاً ولا يذكر احتلاماً (١١٣) وأبوداود في الطهارة باب في الرجل يجد البلة في منامه (٢٣٦) من حديث عائشة رضي الله عنها وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٨١/٢).

تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ ﴿النساء:

[٧].

والمرأة مثلُ الرجل في الجزاء على الأعمال يوم القيامة ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا (١٢٤)﴾ [النساء] ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنْكُمْ مِّمَّنْ ذَكَرَ أَوْ أُنْثَىٰ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ﴾ [آل عمران: ١٩٥] ويقول الرسول عليه الصلاة والسلام «إذا صلت المرأة خمسها، وصامت شهرها، وحصنت فرجها، وأطاعت بعلها، دخلت من أي أبواب الجنة شاءت»^(١٨).
كان عليه الصلاة والسلام ينكر في حروبه قتل النساء والصبيان، وينهى عن ذلك أشد النهي^(١٩). وكثرت وصاياه في النساء التي كان

(١٨) أخرجه الطبراني في الأوسط (٤٥٩٨) وصححه ابن حبان من حديث أبي هريرة رضي الله عنه (٤١٦٣) وله شاهد قريب من لفظه عند أحمد (١٩١/١) والطبراني في الأوسط (٨٨٠٥) من حديث عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه. قال الهيثمي في المجمع: وفيه ابن لهيعة وحديثه حسن وبقيه رجاله رجال الصحيح (٣٠٦/٤) وإسناد حديث أبي هريرة صحيح.

(١٩) ثبت ذلك في حديث ابن عمر رضي الله عنهما عند البخاري في الجهاد باب قتل النساء في الحرب (٣٠١٥) ومسلم في الجهاد باب تحريم قتل النساء والصبيان في الحرب (١٧٤٤) وكذلك حديث أنس عند أبي داود في الجهاد باب في دعاء المشركين (٢٦١٤) وحديث رباح بن الربيع عند أحمد (٣/٤٨٨) وأبي داود في الجهاد باب في قتل النساء (٢٦٦٩) والحاكم (١٢٢/٢) وغير ذلك من الأحاديث.

منها «اتقوا الله في النساء»^(٢٠)، «واستوصوا بالنساء خيراً»^(٢١). ومن أقواله عليه الصلاة والسلام: «اللهم إني أخرج حق الضعيفين: حق اليتيم وحق المرأة»^(٢٢)، واستنكر عليه الصلاة والسلام شدة ضرب النساء ونهى عن ذلك فقال: «لا يجلد أحدكم امرأته جلد العبد ثم يجامعها في آخر اليوم»^(٢٣).

هذا هو الإسلام؛ حفظ للمرأة حقها، ورعاها حق رعايتها. يحفظها أبوها بنتاً، ويرعاها بعلها زوجة، ويبرها ابنها أمّاً. كُرِّمت في الإسلام بعد أن كانت محتقرة مهانة، حائرة ضائعة، عند العرب والعجم في دياناتهم المحرفة، وفلسفاتهم الضالة، وتقاليدهم البائدة. انتشلها الإسلام من ظلمهم وتسلطهم ووضعها في المكان اللائق بها، مكرمة

(٢٠) أخرجه مسلم في الحج باب حجة النبي صلى الله عليه وسلم من حديث جابر رضي الله عنه (٢٣١٦).

(٢١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء باب خلق آدم وذريته (٣٣٣١) ومسلم في الرضاع باب الوصية بالنساء (١٤٦٨) والترمذي في الطلاق باب ما جاء في مداراة النساء (١١٨٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢٢) أخرجه النسائي في الكبرى عن أبي شريح الخزاعي (٢٠٩/٣) وأحمد (٢/٤٣٩) وابن ماجه في الأدب باب حق اليتيم (٣٦٧٨) والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (١٢٨/٤) وابن حبان (٥٥٦٥) والبيهقي في الكبرى (١٣٤/١٠) وصححه البوصيري في مصباح الزجاجة (١٦٤/٣).

(٢٣) أخرجه البخاري في النكاح باب ما يكره من ضرب النساء (٥٢٠٤) ومسلم في الجنة وصفة نعيمها باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء (٢٨٥٥).

مصونة. فهل تعي ذلك نساء المسلمين ورجالهم، ولا يخذعون بترهات المنحليين، وزعم المنافقين والكافرين، أقول ما تسمعون وأستغفر الله لي ولكم فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم...

الخطبة الثانية

الحمد لله حمداً طيباً كثيراً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى، أحمده وأشكره وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فلقد علم أعداء الإسلام ما للمرأة المسلمة من دور كبير في بلاد المسلمين، وعزَّ عليهم أن تجود المرأة المسلمة على أمتها كما جادت من قبل بالعلماء العاملين، والدعاة المخلصين، والمجاهدين الصادقين، الذين تربوا على أيدي أمهات مسلمات عظيمات. يُظهر ذلك بوضوح أحد كبراء الماسونية فيقول: «يجب علينا أن نكسب المرأة، بأيُّ يوم مدت إلينا يدها فزنا بالحرام، وتبدد جيش المنتصرين للدين»^(٢٤). فأشاع الأعداء في صفوف نساء المسلمين بدعة المساواة المطلقة بين الرجال والنساء، وقادوا معركة تحرير المرأة من الدين والقيم والأخلاق في أكثر البلاد الإسلامية، تحت رعاية وحماية المستعمرين، وبأيدي يهودية وصليبية، إلى أن تم لهم ما أرادوا في أكثر البلاد الإسلامية.

(٢٤) تربية الأولاد في الإسلام لعبدالله ناصح علوان (١/٢٨٧).

ثم أنشأوا منظمات وجمعيات لإفساد المرأة تحت مصطلحات حقوق المرأة وحريتها، وزرعوا فيها عملاءهم من النساء المشبوهات، اللاتي يتلقين أموالاً ودعماً من جمعيات ومنظماتٍ ماسونية، ويهودية وصليبية باعتراف بعض تلك الرموز تصريحاً أو تلميحاً أنهم كن أجيرات عند تلك المنظمات لإفساد نساء المسلمين وبناتهم، ودعوتهم إلى التمرد على الدين والأخلاق باسم المطالبة بالحرية والمساواة، ولا زلن على تلك الحال إلا من هدى الله منهن.

وكتاب الله تعالى يقول ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى﴾ [آل عمران: ٣٦] وهن وهم يكذبون صريح القرآن فيقولون: بل الذكر كالأنثى ولا فرق. والفطرة والعقل يثبتان الاختلاف بين المرأة والرجل في التركيب البدني والنفسي، ودعاة المساواة يلغون العقل، ويرفضون الفطرة ويقولون بتمائلهما، ويطالبون بحتمية المساواة.

والواقع يريهم ماوصلت إليه المرأة المتحررة من فساد، وماتعيشه من ذلٍ ومهانةٍ وظلم في البلاد الغربية والبلاد الإسلامية المتحررة. ودعاة التحرير يكابرون الواقع، ويغالطون المصادقية، ويقلبون الحقيقة ليقولوا كذباً وخداعاً برفاهية المرأة المتحررة. فأَيُّ قوم هؤلاء؟! وأيُّ مبادئ يملكونها إن لم تكن المبادئ الغربية، وأيُّ دينٍ يدينون به سوى العلمانية والديمقراطية الكفرية.

قبلتهم بلاد الغرب، وتعاليمهم يأخذونها من المنظمات الماسونية، وثقافتهم من فلاسفة اليونان وكتاب الغرب. فأَيُّ نبت يريدون زرعه

في أرض الإسلام سوى النبت الأجنبي الخبيث المسموم الذي ينشر الفساد، ويهلك الحرث والنسل. فلا تغتروا بدعاويهم - معشر المسلمين - وإن أجلبوا بخيلهم ورجلهم، واستمسكوا بدينكم، وربوا عليه أهليكم وأولادكم فهو الهناء والسعادة في الدنيا والفوز الأكبر يوم القيامة ثم صلوا وسلموا على نبيكم كما أمركم بذلك ربكم...

* * *

١٧٩- تاريخ الحركة النسوية وحقيقتها وأهدافها

الجمعة ١٥/١١/١٤١٨هـ

الحمد لله؛ أكمل لنا الدين، وأتم علينا النعمة، ورضي لنا الإسلام ديناً، أحمد ربي وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له؛ لا رب لنا سواه، ولا نعبد إلا إياه، مخلصين له الدين ولو كره الكافرون. وأشهد أن محمداً عبده ورسوله؛ كشف الله به الغمة، وأنار به الظلمة، فأزال الشرك والجاهلية، وأقام التوحيد والشرعة، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه؛ رفعوا راية الجهاد، وقمعوا أهل الزيغ والفساد، ونشر الله بهم رحمته على العباد، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم المعاد.

أما بعد: فيا أيها الناس: اتقوا الله تعالى، فتقوا فرقان بين الحق والباطل، ونور يعصم من الزيغ في المتشابه ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ (٢٩) [الأنفال].

أيها الإخوة المؤمنون: دين الإسلام هو الدين الذي ارتضاه الله تعالى لعباده منذ أن بعث محمداً صلى الله عليه وسلم نبياً ورسولاً إلى قيام الساعة؛ حتى إن نبي الله عيسى عليه الصلاة والسلام إذا نزل في آخر الزمان فإنه يحكم بشرية محمد صلى الله عليه وسلم، والإسلام

هو الدين الذي لن يقبل الله تعالى من أحد ديناً سواه، وهو الدين المحفوظُ بأمر الله إلى يوم القيامة، لا تصل إليه أيدي المحرفين، ولا تضره ألسن الشائنين.

عادت سهام الحاقدين إلى صدورهم، وارتد مكر الماكرين عليهم، والإسلام هو الإسلام في توحيده وشريعته، ونصوعه وتأثيره وبيانه، رغم الضعف والذلة، والقتل والتشريد الذي فُعل بالمسلمين على مر العصور بدءاً بالحروب الصليبية ومروراً بالاجتياح المغولي، ثم الاستعمار الحديث؛ حتى ظن المنظرّون من الأعداء في كل إبادة ضد المسلمين أنهم لن تقوم لهم قائمةٌ أبد الدهر. ولكن يأبى الله إلا أن يعود على الأعداء مكرهم، وينقلبَ ضدّهم كيدهم، ويبقى الإسلام عزيزاً قوياً.

ثم جاء الغزو الحديث الذي كانت أرضيته المعلومة والثقافة، والفكر والحضارة، بقصد نزع الدين من قلوب المسلمين بكل لينٍ ورفق تحت تخدير التأثير بالحضارة والتقدم، والانبهار بالعلوم التجريبية التي ألبست عباءة القداسة، وقُدِّمت على الوحي والعقل، وجُعِلت في مصافِّ البدهيات والمسلمات التي لا تقبل التفكير والنظر فضلاً عن الجدل والمناقشة بحجة أن ذلك يُعيقُ التقدم في السباق، ويؤخرُ اللحاق بركب الحضارة، ومن أراد التقدم فليس عليه إلا أن يُغمض عينيه، ويُقفل عقله، ويتلقفَ بكلتا يديه كلَّ ما يَفِدُّ إليه من الغرب المتحضر، من خير وشر وحلو ومر، ويعضَّ عليه بالنواجذ، مهما كان مصادماً للدين والأخلاق، والقيم والمبادئ.

هكذا قدروا وخططوا، ويريدون من جماهير المسلمين أن تقتنع بهذه الفكرة، وارتأوا أن أمضى وسيلة لزرع القناعة بتلك الفكرة غير المعقولة في أذهان المسلمين هي المرأة المسلمة؛ لأنها إذا اقتنعت بذلك أقنعت رب البيت، وإذا لم يقتنع أقنعت أولادها من بنين وبنات، وبهذا يعم الغزو جميع البيوت والطبقات. فسلطوا أكثر غزوهم على المرأة بإقناعها أن المرأة الأوربية بحالها ووضعها، وقيمها وسلوكها هي الأنموذج الحضاري، والمثال الذي يجب أن تحتذي به كل امرأة متحضرة. ثم عمدوا إلى اختلاق صراعٍ مرير بينها وبين الرجل؛ مما مهد لتكوين جمعيات نسائية في البلاد العلمانية لقيادة هذا الصراع التاريخي للمرأة ضد الرجل، ثم الإلحاح الإعلامي على ضرورة أن تنتزع المرأة حقوقها، ولا تنتظر من يهبها تلك الحقوق، والمطالبة بتشريعات تحقق لها مكاسب اجتماعية، وغير ذلك من أوهام التقليد والتبعية لأنموذج المرأة الغربية^(١).

بدأ تنفيذ هذا الغزو الهادئ في أوائل هذا القرن الميلادي على أيدي عربيات مغتربات، بعد عودتهن من أوروبا نزعن الحجاب وألقينه على الأرض، ثم أحرقنه بالنار^(٢) إعلاناً ببدء معركة التحرير من الدين

(١) بتصرف من جذور الانحراف في الفكر الإسلامي الحديث لجمال سلطان (١٢٤).

(٢) كان ذلك في عام ١٩١٩م وعلى رأس هؤلاء النسوة صفية زغول وكان ذلك في ميدان الإسماعيلية في القاهرة وهو المسمى الآن ميدان التحرير، انظر: واقعنا المعاصر للشيخ محمد قطب (٢٥٠).

والقيم، وإيذاناً بعهد جديد من التبعية الكاملة للأنموذج الغربي. ولقد بلغ هوس هؤلاء المتحررين رجالاً ونساءً بحضارة الغرب حداً مخيفاً مخزياً، أرادوا تطويع الإسلام للحضارة، وتمييع أحكامه حتى لا تزعج المزاج الغربي. فحرصاً على سلامة دينهم من النقد الغربي، وحتى لا يتهم الإسلام بالرجعية والظلامية لابد من المطابقة بينه وبين الأنموذج الغربي. وكلما كان التطابق كاملاً - ولو بنسف الثوابت، وتحريف النصوص أو إلغائها - رأوا أنهم أسدوا للإسلام معروفاً؛ لأنهم قربوه من النور ومن الحضارة^(٣). ولعل هذا يفسر نقدهم لشريعة الإسلام وأحكامه وآدابه.

هذا رمزٌ من رموزهم الكبار ومن قادة معركة تحرير المرأة ينقد حجاب المرأة المسلمة فيقول معبراً عن انهزاميته المقيتة: «إن المرأة الأمريكية هي أكثر حرصاً على الشرف واتصافاً بالأخلاق من المرأة المسلمة»^(٤) ما هذه الوقاحة؟! ويقول وهو في خضم هيامه بالغرب والحديث عنهم: «هل يُظَنُّ أن تلك العقول وتلك النفوس التي تُعجبُ بآثارها، يمكن أن يغيب عنها معرفة الوسائل لصيانة المرأة وحفظ عفتها؟ هل يظنون أن أولئك القوم يتركون الحجاب بعد تمكنه عندهم، لو رأوا فيه خيراً؟ كلا؟ وإنما الإفراط في الحجاب من الوسائل التي تبادر عقول

(٣) بتصرف من جذور الانحراف في الفكر الإسلامي الحديث لجمال سلطان (١١٠).

(٤) القائل هو قاسم أمين، انظر: كتابه تحرير المرأة (٣٦٤).

السذج، وتركز إليه نفوسهم؛ ولكنها يمجها كل عقل مهذب، وكل شعور رقيق»^(٥).

ولقد كان المشركون أحسنَ حالاً من هذا المنهزم ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف: ١١] ذلك أن المشركين نسبوا الأفضلية لأنفسهم. أما هذا المنهزم فتجرد من الخيرية حتى قلدها عدوه في غاية الذل والصغار لنفسه، والإعجاب والإكبار لعدوه.

ودارت عجلة التغريب والتحرير في كثير من البلاد الإسلامية لتخرج المرأة من بيتها إلى مجتمعات الرجال، ومن حجابها إلى التبرج والسفور، ومن حيائها وعفتها إلى دور الخنا والمواخير؛ حتى اعتلت خشبة المسرح أمام الرجال، وتعرّت في دور السينما والأزياء، وزينت أغلفة الدوريات والمجلات، فكوفئت بالأوسمة والجوائز، وخُلعت عليها ألفاظ التبجيل والإكبار، وأجريت معها المقابلات واللقاءات، لتُسأل كيف كانت بدايتها مع الفن أو الرقص أو الغناء؟ فتحكي أنها لاقت شداًئد عدة، وتغلبت على صعاب كثيرة، وأن أباه كان متحجراً ظلامياً، وأن أمها كانت جاهلة ساذجة، وأنها هربت من بيت أبيها مع صديقها أو منتج أفلامها، وأنها جدّت وثابرت، وتحدّت المجتمع، وأصرت على حريتها حتى بلغت هذه المنزلة العظيمة من الشهرة والثراء واللمعان.

(٥) تحرير المرأة لقاسم أمين (١١٤) ط دار المعارف.

وقد تكون هذه المتحررة دسيصة من الدسائس، ولم يحصل شيء مما ذكرت؛ ولكن بات القصد واضحاً حيث يراد لبنات المسلمين أن يسلكن هذه الطريق المتعفنة حتى يحصلن على التحرر والتقدم، ويبلغن المجد والعلواء حسب نظرتهن^(٦).

أيها الإخوة: ينبغي أن يُعلم أن نظرية المساواة بين الجنسين في العالم الغربي التي يراد لها أن تُصدّر للعالم الإسلامي ليست متوقفة عند حد تحرير المرأة ورفع الظلم عنها كما يقولون - مع العلم أنه لا ظلم عليها في الإسلام - ومساواتها مع الرجل في الميراث والقضاء وضمان حقها في العمل والسياسة والسيادة، وإنما تعدت ذلك لتصبح فكراً أيديولوجياً وعقيدة شاملة، تُطرح لكي تفرض وتسود العالم بأسره^(٧). إذ إن المذاهب والأفكار التي تنودي عليها من قبل بعضها في حالة الاحتضار والموت كالماركسية، وبعضها الآخر في مرحلة الشيخوخة والهرم كالليبرالية. ذلك أن الغرب النصراني واليهودي لما طرح دينه تخبط في أفكار شتى من العوالم والمدن المثالية، إلى عقيدة التنوير وعبادة العقل في القرن الماضي، ودين عبادة المرأة في

(٦) يكثر هذا في المقابلات مع بعضهن أو يصور في قصة سينمائية تعرض كفيلم أو مسلسل أو قصة درامية، وأكثر ذلك مختلق لا صحة له؛ لكن يروج بتلك الصورة لزرع مفهوم مفاده أن التمرد على تعاليم الإسلام وأعراف الأسرة والوالدين سبب التقدم والثراء والشهرة. والعاقل يدرك مغزى ذلك ولا شك.

(٧) بتصرف من مقالة للدكتور محمد يحيى بعنوان: تدشين الأمية النسوية العلمانية مجلة البيان عدد ٩٣ ص ٩٤.

أوائل هذا القرن، وأخيراً فلسفات الغرب الكبرى من الوضعية إلى الليبرالية إلى النزعة العلمية وفلسفة العلوم والنفعية، إلى الوجودية والظواهرية. والمقصودُ عندهم تجديدُ هذه الأديان كلما شاخت، أو اختراعُ بديلٍ كلما سقط دينٌ منها.

فالقضية إذاً ليست مجرد المطالبة بحقوق المرأة؛ ولكنها أشملُ وأبعد حيث هي الدعوةُ إلى تغيير شامل وجذري، وقلبٍ لكل المفاهيم التي ظلت البشرية تنظر بها إلى المرأة، وبخاصة المفاهيم الدينية في أي ديانة.

إنهم يريدون أن يصلوا عبر سلسلة طويلة من الخطط والإجراءات إلى إلغاء الجنس ذاته: جنس الرجال والنساء معاً، وإحلال الجنس بمفهوم النوع الذي يعني: أن يكون المخلوقُ البشريُّ مادةً خاماً محايدةً تخلو من الملامح والقسمات التي درجت البشرية على التمييز من خلالها بين النساء والرجال كجنسين مختلفين لكل منهما أدواره وأوضاعه. ففي مذهب المساواة الجديد للرجل أن يصبح أنثوياً بالتخنث كما أن للمرأة أن تصبح ذكورية بالاسترجال، وتكون الثقافة والفكر ليس على أساس الرجل والمرأة، بل للنوع الذي له أن يختار أن يكون ذكراً أو أنثى.

هذا مختصر الخلفية الفكرية لما يسمى بالمساواة، ومن هذا الإطار نفهم أن ما يحدث الآن مع نظرية المساواة بين الجنسين لنشرها في العالم الإسلامي هو بالضبط ما حدث مع فلسفاتٍ سابقة في إطار عمليات

الإمبريالية الثقافية، والغزو الفكري، واللاحاق والتبعية، وتغريب وعلمنة المسلمين بالكامل، ومحو هويتهم.

والمروجون لهذه الحركات من العملاء والمشبوهين الذين يُوصفون بالمفكرين والكتاب يدّعون أن المساواة بين الجنسين حلٌّ سحري جديد كما سبق وأن روجوا بكل حماس ودعاية للفلسفات الغربية الأخرى كالماركسية والليبرالية.

والانبهارُ بنفسه والاستخذاء الذي حدث مع المذاهب الفكرية السابقة الوافدة من الغرب يظهرُ الآن مع هذه النظرية حيث نسمعُ عن اتجاهاتٍ للتلفيق والمواءمة تستعيرُ من مصطلحاتٍ وشعاراتِ النظرية الجديدة ماتحاول أن تضيفي عليه الطابع والمفهوم الإسلامي^(٨).

وبعد - أيها الإخوة - فهذا كيدهم ومكرهم بالإسلام والمسلمين؛ بل بالبشرية كلها لتتردى في هوةٍ لا قرار لها، ولكن يبقى المؤمن موقناً بقول الله تعالى ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا (١٥) وَأَكِيدُ كَيْدًا (١٦) فَمَهْلُ الْكَافِرِينَ أَمْهَلُهُمْ رُؤُودًا (١٧)﴾ [الطارق]، بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم...

الخطبة الثانية

الحمد لله حمداً طيباً كثيراً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى، أحمده وأشكره وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده

(٨) بتصرف من المقالة السابقة ومقالة أخرى للكاتب نفسه بعنوان: الحركة النسوية

إطار للفهم في مجلة البيان عدد ٨٣ ص ٩٤.

لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد: فيا أيها المؤمنون: اتقوا الله حق التقوى، واستمسكوا بالعروة الوثقى، واحذروا غضب الله فإن أجسامكم على النار لا تقوى. أيها الإخوة: يحتفلُ العالم بغربه وبعض شرقه في هذه الأيام باليوم العالمي للمرأة^(٩)، حيث تعقد الندوات والمؤتمرات في كثير من البلاد، يُنال فيها من الإسلام وأحكامه، لا سيما ما يتعلق بالمرأة وحقوقها، بغية الإحصاء والبحث للنظر في مدى الإفساد الذي حققوه هذا العام في المجتمعات المسلمة، ووضع الخطط اللازمة لدفع عملية الفساد والإفساد الذي يطمحون إليه.

وتصل هذه الأطروحات إلى بيوت المسلمين عبر البث الفضائي، والانتشار الصحفي، تستر خلف شعاراتٍ براقية، من تثقيف المرأة وتعليمها، وضمان حقوقها ومطالبها، وتحريرها من ظلم الرجل كما يزعمون، والسير في ركاب التقدم والحضارة.

ولا يدري كلُّ عاقل منصف ما هي العلاقة بين العري والاختلاط، وبين التقدم والحضارة؟! والجواب يكون بسؤال بدهي حيث إن معركة التحرير يمضي على بدئها ما يقارب الثمانين عاماً^(١٠)، ماذا قدمت للأمة من تقدم وحضارة؟ وماذا جنى المتحررون التقدميون سوى الارتكاسِ

(٩) وهو يوم الأحد ٨/٣/١٩٩٨م الموافق ١٠/١١/١٤١٨هـ.

(١٠) لأنها كانت عام ١٩١٩م كما سبق بيانه.

في حماة الباطل والجهل، والغرق في مستنقع الرذيلة والإلحاد؟! وهذا ما أراده اليهود حينما قالوا: «علينا أن نكسب المرأة ففي أي يوم مدت إلينا يدها ربنا القضية»^(١١)، وللأسف أنها لم تكتف بمد يدها؛ ولكن أريد لها أن تسارع الخطى برجليها نحو حتفها وحتف المجتمع معها!!

ماذا جنت المرأة الغربية المسكينة من تحررها وخروجها من المنزل غير البؤس والشقاء. ها هي بعد قرنٍ من التيه والضياع تصرخ بأعلى صوتها تريد العودة إلى المنزل والاستقرار الأسري بعد أن فقدته، ولم يرحمها المجتمع، نعم! لم يربها طفلة صغيرة، ثم لم يحفظها شابة يانعة، ثم لم يرعها عجوزاً كبيرة. وإن نساءهم ورجالهم ليحصلون المسلمين على الاستقرار الأسري، والترابط الاجتماعي.

تقول كاتبة مشهورة منهم: «لأن يشتغل بنائنا في البيوتِ خوادمَ خيرٌ وأخفُ بلاءً من اشتغالهن في المعامل؛ حيث تصبح البنتُ ملوثة بأدران تذهب برونق حياتها إلى الأبد. ألا ليت بلادنا كبلاد المسلمين فيها الحشمة والعفاف والطهارة، نعم إنه لعار على بلاد الإنجليز أن تجعل بناتها مثلاً للردائل بكثرة مخالطة الرجال. فما بالنا لا نسعى وراء ما يجعلُ البنتَ تعمل بما يوافق فطرتها الطبيعية من القيام في

(١١) فتياتنا بين التغريب والعفاف، د. ناصر سليمان العمر (٤٧) عن برتوكولات حكماء صهيون.

البيت، وترك أعمال الرجال للرجال سلامة لشرفها»^(١٢)، انتهى كلامها،
وشهد شاهد من أهلها.

وبعد - أيها الإخوة -: فلا بد أن تجلّى حقيقة تلك الدعوات التي
تستهدف المرأة المسلمة لإخراجها وإفسادها وإهلاكها، لا بد أن يوجد
الوعي الشرعي بأحكام الدين عند النساء، والوعي بما يراد بهن من
مكر وكيد من قبل الأعداء، كما يجب أن تحفظ البيوت من وسائل
إفساد المرأة، ولا بد أن يُلَفَت انتباه المرأة المسلمة للمهمة الكبرى الملقاة
على عاتقها من تربية أبنائها وبناتها على الدين والأخلاق الفاضلة،
والجدية في العمل والحياة، فذلك سبيل التقدم والنهوض، ولن يكون
ترك الدين وطرحه في يوم من الأيام سبيلاً للتقدم ولكن سيؤدي إلى
مزيد من التخلف والرجعية.

وفي هذه الأجواء القاتمة تلوح في الأفق بشائر العودة إلى الدين
في البلاد الإسلامية؛ حتى في البلاد التي كانت منبعاً للعلمانية، والبلاد
التي تجذرت العلمانية في أوساطها الرسمية والشعبية. نعم! ظهر
الحجاب في تلك البلاد، وعادت المرأة إلى ربها مختارة مطيعة رغم
ما تواجهه من موجات السخرية والاستهزاء، وما يُمارس عليها من
إرهاب فكري وعملي؛ ولكنها صابرة قوية، وما ذاك إلا لأنها ذاقت
حلاوة الحق بعد أن عاشت في مرارة الباطل سنين عدداً.

(١٢) المرأة بين الدين والقانون د. مصطفى السباعي (١٧٨).

أسأل الله تعالى أن يحفظ بلادنا من التغريب والفساد، وأن يمنّ علينا وعلى نساتنا ونساء المسلمين بالتقوى والصلاح، وأن يوفق ولاية الأمر لما فيه صلاح العباد والبلاد، وأن يكفينا شر الحاسدين، وكيد الكائدين، ومكر الماكرين. سبحان ربك رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين...

* * *

١٨٠- مؤتمر المرأة عام ٢٠٠٠م

الجمعة ٧/٣/١٤٢١هـ

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله..

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أما بعد: فإن أصدق الحديث كلام الله تعالى، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها المؤمنون: دين الإسلام هو الدين الوحيد الذي قضى الله تعالى ببقائه إلى آخر الزمان، كما قضى سبحانه بحفظ كتابه من الزيادة والنقصان، وشريعته من التبديل والتحريف ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

وما حفظ الله تعالى القرآن وشرعية الإسلام، وأمر العباد بالأخذ

بها إلا لإمكانية تطبيقها في كل الأزمان والبقاع، وفي جميع الشؤون والمجالات، السياسية والاجتماعية، والاقتصادية والأخلاقية وغيرها، فكان الأمر كذلك؛ إذ توسع المسلمون وانحسروا، وتقدموا ثم تأخروا، وتفرقوا في أرض الله تعالى واجتمعوا، وفي كل أزمانهم وبقاعهم فرادى وجماعات لم يجدوا مشكلة في تطبيق شريعة الإسلام، ولم يحدث عندهم تعارض بين مقررات شريعتهم وبين متطلبات تطورهم العمراني والحضاري، أو اتساعهم المكاني، أو تقدمهم الزماني؛ فكان ذلك لهم وحدهم، ولم يكن لغيرهم من أهل الملل المنحرفة المختلفة.

فالعرب النصراني مثلاً لما بدت عليه بوادر التقدم في الثورتين: الصناعية، والتجارية، وما تلاهما من تطور تقني لم يستطع المواءمة بين متطلبات التقدم والحضارة، وبين مقررات الكنيسة؛ لأنها مقررات كان أكثرها من اختراع العقل البشري القاصر الذي لا يحيط بسنة من زمنه فضلاً عن أن يحيط بالزمن كله.

فكان أمام النصراني طريقان لا ثالث لهما: إما التقدم العمراني الحضاري، وإما الخضوع لسلطان الكهنوت الكنسي؛ فاختار الأول وأزاح الدين الكنسي عن طريقه، وأعلن العلمانية اللادينية، وجعل القوة والمادة سرّ الوجود وأساسه ونهايته؛ ملغياً غذاء القلوب، ودواء النفوس، وقواعد الأخلاق، وضوابط الأعراف، وحوّل الفرد من كائن بشري عاقل له مسؤوليات يقوم بها، وحدود يقف عندها، إلى بهيمي حيواني يعبُّ من شهواته بلا ضوابط، ويأتي كل وسيلة ليصل إلى غايته سواء

كانت الوسيلة مشروعة أم غير مشروعة، أخلاقية أم غير أخلاقية، فالغاية تبرر الوسيلة مهما كانت .

ولما كان العداءُ بين النصارى والمسلمين قديماً ومستمراً إلى آخر الزمان؛ فإن النصارى استخدموا - ولا زالوا يستخدمون - كل وسيلة للقضاء على الإسلام، ومحوه من صدور المسلمين . ورغم هيمنتهم السياسية، وقوتهم العسكرية، وتمكنهم الاقتصادي والصناعي والإعلامي الذي سخروه في تشويه الإسلام بزعم عدم صلاحية لعصر التقدم والعولمة، وبإلصاق تهم التطرف والإرهاب والأصولية بكل ملتزم بالإسلام، رغم ذلك كله فإن مجمل الأمة الإسلامية لا يزالون يريدون الإسلام، ولا يُصدقون فيه تهم الأعداء التي انكشف مقصودُها عند عموم الناس . وظل الإسلامُ ينمو حتى في المجتمعات الوثنية، وبين أهل الكتاب مما كان سبباً في قلقِ أئمة الكفر والضلال، فتنادوا واجتمعوا وبحثوا عن سرِّ قوة الإسلام رغم ضعف المسلمين، وسبب ثباته في قلوب المسلمين رغم فقرهم وتخلفهم وتفرقهم، فرجحوا أن سبب ذلك النظام الاجتماعي في الإسلام، نظام الأسرة والزواج، وحقوق الأولاد، وبر الوالدين، وصلة الأرحام، فعلموا أن هذه القوة لا تزال في أيدي المسلمين، وعملوا على تجريدهم من هذه القوة بعد أن جردوهم من قوتهم السياسية والعسكرية والاقتصادية . وحاولوا ولا زالوا يحاولون اختراق الأسرة، وإخراج المرأة، وإفساد البيت المسلم عن طريق مؤتمرات المرأة والطفل والسكان والإيواء البشري وغيرها .

وفي هذه الأيام يعقد مؤتمر تحت شعار: (المرأة عام الفين)، وتضمنت وثيقته نشر الإباحية، وفرض الحرية الجنسية، والمساواة المطلقة بين الجنسين، ومشروعية الشذوذ، والاعتراف بحقوق الشاذين، وغير ذلك من كفر وإلحاد وفساد، وخلاصة ما يريدون: عولمة الحياة الاجتماعية الغربية الشاذة المفككة، وفرضها على سائر الأمم بالتوصيات والنصائح، وربما بالقوة السياسية، والحصار الاقتصادي، والتدخل العسكري، إذا لم تنفع التوصيات والنصائح.

إن الغرب الإلحادي عانى - ولا زال يعاني - من فساد الأسرة، وتفكك المجتمع، وحرية الجنس التي خلفت أمراضاً وطواعين ومشكلات ينفق الغرب على علاجها جُلَّ ما ينهبه من ثروات دول العالم الثالث، ولم يستطع رغم ضخامة ما أنفق إيقاف فتكها بمجتمعاته فضلاً عن إزالتها؛ مما ينذر بكوارث وأوبئة لا تبقي ولا تذر، يعيش الغربي في رعب منها يفوق رعب الحروب الكونية النووية على حدِّ قول مسؤول غربي يرصد انتشار هذه الأوبئة فيقول: «هناك ما لا يقل عن شخص واحد من بين عشرين شخصاً يهز رأسه في رعب، ولقد كنت من بين أولئك الذين حضروا الحرب العالمية الثانية ومع ذلك فإن المرء آنذاك يشعر بدرجة أمان أكبر من الدرجة التي يشعر بها الآن» اهـ^(١).

(١) قائل ذلك هو الأمريكي جون جاكوب المدير التنفيذي للغرفة التجارية في مدينة سان فرانسيسكو وهي مدينة الشذوذ الجنسي في أمريكا، وتحمل فوق ظهرها ما يزيد على سبعين ألف شاذ جنسياً نصفهم مصابون بمرض الإيدز. انظر: الإيدز الوباء الذي ينهش أمريكا لمختار خليل المسلاتي ص ٢٤.

وبلغ الأمر مداه حينما هدد المصابون بمختلف الأمراض الجنسية المهلكة بنشر تلك الأمراض في المجتمع إذا لم يجد المجتمع لهم علاجاً؛ على اعتبار أن المجتمع هو الذي أوقعهم في تلك الأمراض بما يسود فيه من عري وتفصح وانحلال وممارسات جنسية شاذة، ثم نفذوا تهديداتهم فبدؤوا بنشر أمراضهم عن طريق الجنس؛ انتقاماً من المجتمع؛ ولكي تنفق الحكومات الغريبة أكثر وأكثر على علاج تلك الأمراض . إنها معادلةٌ معقولةٌ مفهومةٌ في ظل مجتمعات غيّرت دينها، وتكسّت فطرتها، وألّهت نفسها، وجعلت غاية الفرد فيها نيل شهوته، وإشباع غريزته؛ فكان من أمرهم ما كان، ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]، ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١١٧]، ويريدون ظلم غيرهم بنشر أدوائهم بينهم؛ بل بفرضها عليهم في زمن يقال: إنه زمن الحرية، وزمن المحبة والسلام، فهل يعقل الناعقون بالشعارات التي ليس لها من اسمها إلا ما يضاؤها ويعارضها؟ وهل يستفيق المسلمون قبل أن يحقق بهم المكر السيئ؟ عسى، وأسأل الله تعالى أن يحفظ لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا، وأن يهبيء لنا من أمرنا رشداً، وأن يرد كيد الكائدين إلى نحورهم إنه سميع مجيب .

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ (٤٦) ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلَفًا وَعَدَهُ رَسُولُهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾ [إبراهيم: ٤٦ ، ٤٧] بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم ، ، ،

الخطبة الثانية

الحمد لله حمداً طيباً كثيراً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى، أحمدته وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهداهم إلى يوم الدين.

أما بعد: فاتقوا الله - أيها المسلمون - واستمسكوا بدينكم؛ فإن الرجل يوشك أن يمر بقبر الرجل فيتمنى أن يكون مكانه ليس به إلا البلاءُ والفتنة في الدين^(٢)، أعاذنا الله من ذلك .

أيها الإخوة: ليس غريباً ولا بمستنكر أن تتواصل الجهود الدولية من صليبية وصهيونية لمحاولة القضاء على الإسلام؛ فتلك سنة كونية مقدرة معلومة، لن تنتهي إلا بنزول المسيح ابن مريم عليه السلام، وكسره للصليب، وقتله للخنزير، وحكمه بشريعة أخيه محمد صلى الله عليه وسلم^(٣)؛ ولكن المستنكر تسويقُ بعض العرب ممن يتسمى بالإسلام لهذه البضاعة الغربية الفاسدة، والاستماتة في إقناع الشعوب الشرقية

(٢) جاء ذلك في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند البخاري في الفتن باب لا تقوم الساعة حتى يغط أهل القبور (٧١١٥) ومسلم في الفتن باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيتمنى أن يكون مكان الميت من البلاء (١٥٧) .

(٣) جاء ذلك في أحاديث عدة منها حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند البخاري في أحاديث الأنبياء باب نزول عيسى بن مريم عليهما السلام (٣٤٤٨) ومسلم في الإيمان باب نزول عيسى بن مريم حاكماً بشريعة محمد ﷺ (١٥٥) .

الإسلامية بأنها بضاعة صالحة ومفيدة، لن تتقدم الأمة إلا إذا أخذتها. إن ذلك غاية الغش، ومنتهى الخيانة من أقوام يزعمون الحمية العربية، ويدعون الوطنية وهم أخونٌ من مرٍّ على الأمة لدينهم وأوطانهم. إنهم يحاولون إقناع المرأة بالتمرد على المجتمع، والخروج من البيت، ورفض ولاية الأب، وقوامة الزوج، ويلقون في روعها أن المرأة الغربية مانالت حريتها ولا تقدمت إلا لما خرجت وتمردت وكسرت المألوف، وكم في هذا الكلام من الظلم للمرأة الغربية المسكينة، وكم فيه من الزور والبهتان!!

إن المرأة الغربية ما خرجت من بيتها بمحض إرادتها؛ وإنما أخرجها الرجل بالقوة حينما دان بالمادية البغيضة التي لا وزن فيها للأسرة والقربة. لقد أكرهت المرأة الغربية المسكينة على الخروج من منزل أسرتها لتلقفها الوحوش المادية الكاسرة تستمتع بها، وتنهش لحمها، ثم تذهب وتدعها بأحزانها وهمومها.

أرغمت على بيع جسدها لمن لا تريد لتشبع بطنها، وكان بيت أسرتها خيراً لها؛ لكن رب الأسرة ليس مستعداً للإنفاق عليها بالمجان. إنها الحقيقة ولو زورها المزورون، وأخفاها دعاة تحرير المرأة، والمسقون للمناهج الغربية في بلاد المسلمين من العملاء الخونة أحفاد ابن سبأ وابن العلقمي.

إنها الحقيقة التي قالتها فتاة نصرانية امتهنت البغاء في الغرب وقالت: «عندما يكون الخيار بين الجوع وممارسة الجنس مع غرباء مقابل المال

فإن حرية الخيار هنا تكون معدومة». وقالتها أخرى تبلغ من العمر ستة عشر عاماً فكان مما قالت: «إنني أبيع جسدي للرجال منذ أن كان عمري أحد عشر عاماً، والكثير منا نحن المراهقين يعرف العواقب الوخيمة للإصابة بمرض الإيدز فنشعر بالفزع عند التفكير فيه ؛ ولكن رغم ذلك القليل منا من يقوم بفعل عملي ما لتجنبه، إنه الصراع من أجل البقاء فليس أمامنا إلا بيع الأجساد أو الموت»^(٤)؛ ولذلك نصحت إحداهن بنات جنسها فقالت: «أبقي في البيت وكوني طفلة لأقصى مدة ممكنة لا تنمي بسرعة وحاولي إيقاف النمو».

ولقد أطلق العاملون في المجالات الاجتماعية على بائعي الجنس من المراهقين والمراهقات مصطلحاً صار مشهوراً في البلاد الغربية وهو: «الجنس من أجل الحياة»^(٥).

فهل يا ترى يرضى عاقل متبصر فضلاً عن مؤمن بالله تعالى أن يكون مصير بناته وأخواته مثل مصير المرأة الغربية؟! هل يرضى له دينه وكرامته ورجولته أن ترمى ابنته أو أخته على قارعة الطريق لتملأ بطنها ببيع جسدها؟! إن الفسقة لا يرضون بذلك؛ بل والله لا يرضاه أئمة الشرك الأقدمون: أبو جهل وأبو لهب وأمّية بن خلف، فما بال المنافقين العرب في هذا الزمن يرضونه لبناتهم وأخواتهم؟! حسبهم الله ولعنهم، وحفظ نساء المسلمين من مكرهم وشرهم .

(٤) انظر: الايدز الوباء الذي ينهش أمريكا (٣٧-٣٩) .

(٥) المصدر السابق (٤٠) .

ألا فاتقوا الله - أيها المؤمنون - واحذروا الفاحشة وأسباب الفساد،
ولا تغتروا بدعواتٍ ظاهرها براق، وشعاراتها خادعة، وقصدها خبيث،
وعاقبتها هلاك ودمار، واستمسكوا بدينكم واستعينوا بالله تعالى على
الثبات عليه إلى الممات.

﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (١٨٠) وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (١٨١)
وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿[الصفات: ١٨٠ - ١٨٢].
وصلَّى الله على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .

١٨١- الفن وإفساد المرأة

الجمعة ٦/١١/١٤٢٠هـ

الحمد لله؛ أنعم علينا بالإسلام، أعظم نعمة وأكبر منّة، من مات عليه سعد أبداً، ومن حاد عنه ﴿خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الحج: ١١]، أحمد ربي وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له؛ خلق الخلق بقدرته، وكلّف الجن والإنس بحكمته، وفرض عليهم عبوديته ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله؛ بلغ رسالة ربه، وأنذر أمته، وجاهد في الله حق جهاده حتى توفاه الله تعالى، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه؛ فتحوا الفتوح، وقطعوا القفار، وعمرُوا البلدان، ونشروا الإسلام، ﴿فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦] والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فأوصيكم - أيها الناس - ونفسي بتقوى الله عز وجل، فاتقوه واعملوا صالحاً، فإن الدنيا مهما ازدانت بزخرفها، وغرت ببهرجها فإن لها نهاية ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: ٧٧].

أيها المؤمنون: الإسلام يعني: الاستسلام لله تعالى بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والخلوص من الشرك، والبراءة منه ومن أهله. إنه يعني: قبول شرع الله تعالى، وامتنال أمره، واجتناب نهيه،

في الأمور كلها، كبيرها وصغيرها. وليس في الإسلام تجزئة ولا انتقائية تُقبل فيها بعضُ الشريعة ويرفض بعضها، ولا يجوز أن يُعملَ بأحكام منها وتعطل أحكام أخرى، ولما عرض المشركون على النبي صلى الله عليه وسلم أن يعبد آلهتهم سنة، ويعبدون الله سنة، أنزل الله تعالى سورة (الكافرون) ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾^(١)، ولما استأذنه شاب في الزنى لم يأذن له^(٢)؛ ولذا فإن من أنكر معلوماً من الدين بالضرورة كفر، ومن رفض العمل بأحكام الإسلام كفر. وهذه الحدودُ والمعامل التي جعلها الله في الإسلام كانت سبباً في حفظه من التغيير والتبديل والزيادة والنقصان، كما تكفل الله تعالى بحفظه من الزوال ليبقى ما بقيت الأيام على رغم كيد الكافرين، ومكر المنافقين، منذ البعثة النبوية إلى يومنا هذا.

لقد تنوعت حملات المعادين للإسلام من مشركين ووثنيين وأهل كتاب ومنافقين، وتعددت أساليبهم، واستعرت حروبهم وستظل مشبوبة الأوار، عظيمة الاضطرام إلى أن يأذن الله تعالى بأن تكون العاقبة لأهل هذا الدين.

ولقد كان من أقوى ميادين معركة العدو ضد المسلمين: المرأة المسلمة؛

-
- (١) انظر: أسباب النزول للواحدي (٤٩٦) والدر المنثور للسيوطي (٤٠٤/٦).
 (٢) جاء ذلك من حديث أبي أمامة رضي الله عنه أن فتى أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، أئذن لي بالزنا... الحديث أخرجه أحمد (٥/٢٥٦-٢٥٧) والطبراني في الكبير (٨/١٩٠-٢١٥) برقم (٧٦٧٩) و(٧٧٥٩)
 قال الهيثمي في الزوائد: ورجاله رجال الصحيح (١/١٢٩).

فهي إذا فسدت أفسدت بيتها، وخرّجت جيلاً فاسداً؛ فرفعوا عقيرتهم قبل أكثر من قرن من الزمان بتحرير المرأة من القيود الدينية، والضوابط الأخلاقية، زاعمين أنهم يريدون رقيها وتقدمها وحريتها، ووالله ما أرادوا حريتها وإنما أرادوا اجترارها من مأمنها إلى مذبحةا كما تُجر الشاة من مرعاها الخصب إلى سكين الجزار .

إنهم أرادوا أن تسفر لهم عن وجهها ومفاتها؛ لتُشبع أعينهم الزائغة، وأن تتثنى على خشبة المسرح، وتتعري أمام عدسات المصور؛ لتُروي شهواتهم الحيوانية الظائمة.

اعتبروها سلعة تُسوق بها المنتجات، وتُزين بها أغلفة المجلات، حتى إذ ما ذهبت نضارتها، وشاب جمالها رميت كما يرمى المتاع القديم. وليس هذا تجنياً أو زعماً بلا دليل فالواقع يشهد لذلك، وزعيمُ إفساد المرأة الأول قاسم أمين - عليه من الله ما يستحق - قد صرح بذلك في ليلة وفاته فقال: «كم أكون سعيداً في اليوم الذي أرى فيه سيداتنا يُرَّيْنَ مجالسنا كما تُرَّيْنَ طاقاتُ الزهور قاعاتِ الجلوس»^(٣) اهـ، والزهرة إذا ذبلت ماذا يفعل بها؟ أليست ترمى في صندوق النفايات؟! وهكذا فعلوا بمن أفسدوا من بنات حواء. كان مصيرُهن المصححات العقلية، وإدمان المخدرات، والانتحار والعياذ بالله تعالى.

إنهم وبطرقٍ شيطانية أقنعوا المرأة المسكينة بأن لها رسالة تؤديها

(٣) مجلة حواء عدد (١٢٤٩) ٣٠ أغسطس ١٩٨٠م ص (١٤-١٥) عن عودة

عبر بوابة الفن والتمثيل؛ فصنعوا لها خشبة المسرح، وأقاموا لها معارض الأزياء، وأنشؤوا لها دور التمثيل، ومدارس الموسيقى، وأقسام تعليم الرقص؛ ليتسلى بها الفسقة من الرجال، وتولى الإعلام العربي بإذاعاته ومرثياته وصحفه ومجلاته الهابطة كبر تزوير الحقائق، وتضليل الأمة بالدعوة إلى الفن والمسرح والرقص والغناء، وإعلاء شأن الممثلين والممثلات، والمغنين والمغنيات والراقصات، والإشادة بهم، والتحدث إليهم، ونشر صورهم وأحاديثهم، وإحياء ذكريات الهالكين منهم، دون أن يحظى بمثل ذلك أكبر الناس قدراً في تاريخ هذه الأمة من أبطالها وأعلامها وقادتها وعلمائها ومفكرها وصناع القرار فيها!!^(٤).

إن الإعلام العربي قدّم السقطة الأراذل من مهرجين ومهرجات، ومغنين ومغنيات وراقصات، إلى الاجيال الصاعدة على أنهم المثل الأعلى والقدوة الحسنة حتى فُتن بهم الشباب والفتيات. تُفرد لهم الصفحات الكاملة، وتجري معهم المقابلات المستمرة في الأوقات الحية، وسهرات الليالي، يسألون المبتذلة الفاسقة: كيف بدأت تبذلها؟ وكيف واجهت أسرتها ومجتمعها؟ وكيف ذاع صيتها، وعلت شهرتها؟ وماذا تلبس؟ وكيف تأكل؟ وكيف تمشي؟ وماذا تحب، وماذا تكره؟ كأنما الدنيا ليس فيها إلا مهرجون ومهرجات!! وكأن حياة الأمم لا تستمر ولا تزدهر إلا بوجودهم، ووجودهم وحدهم!!

(٤) انظر : الصحافة والأقلام المسمومة للأستاذ : أنور الجندي (١١٥) .

وبات واضحاً أنهم يريدون من شباب الأمة وفتياتها أن يتحدثوا دينهم وأخلاقهم وأعرافهم، وأن يتمردوا على أسرهم ليسلكوا هذه الطريق الخاطئة المهلكة، أو على الأقل ليقلدوهم في فسقهم وتهريجهم وحركاتهم وأزيائهم.

ومن حذر الأمة من هذه الهاوية السحيقة، وأبان حقيقة ما يسمونه بالفن فهو عندهم معتدٍ على قداسة الفن وكرامته وعظمة رسالته.

لماذا هذا التضليل والخداع؟ ولماذا يُراد للنساء العفيفات المحصنات أن يكسرن عفتهم، ويلقن حجابهن، ويلجن عالم الفن المهلك؟ أما كان لنا عبرة في بلادٍ سبقت في هذا الميدان الآسن فتجرعت مجتمعاتها غصص المعصية والمجون. هذا كاتب عربي مسلم في بلادٍ سبقت في الفن والتمثيل، وصدرته إلى جيرانها العرب يكتب ويتحسر على نساء بلده فكان مما قال:

«لقد فقدت المرأة سعادتها؛ بل فقدت وجودها كله كامرأة ذات قيمة في المجتمع. لقد قبضت فيما مضى على دينها فقبض الله عنها السوء، وبسط لها الحلال، حتى لم تكد تينع الثمرة في بيت أبيها إلا وتمتد يد الحلال لتقطفها، فلا تفتح عينها إلا على حليلها، ولكنها وقد ابتذلت وأهينت على يد أصدقائها وأنصارها كان أول من زهد فيها أنصارها المخادعون ولم تعد كما كانت تتمتع باحترام الآباء والأزواج. بل أصبحت في نظر الجميع أشبه بمحترفة تطلب العيش، وتقرع كل باب للعمل لعلها تحصل على وظيفة تدر عليها دراهم معدودة تنفق أكثرها

في المساحيق للتجميل وفي الثياب القصيرة للفتنة ولفت الأنظار»^(٥).
 وصدق والله في قوله، فهل نعتبر يا عباد الله بمن سبقونا؟ ونأخذ
 على أيدي السفهاء والمنافقين الذين يريدون إفساد نساءنا وبناتنا؟ ونأطرحهم
 على الحق أطراً، ونقصرهم على الحق قصراً؟ عسى أن نكون كذلك،
 ونسأله تعالى أن يحفظ بلادنا ونساءنا من كيد الفجار، ومكرهم بالليل
 والنهار، إنه سميع مجيب.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ
 وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].
 بَارَكَ اللَّهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ.

الخطبة الثانية

الحمد لله، حمداً طيباً كثيراً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى،
 أحمده وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده
 لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم وبارك
 عليه وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداهم إلى يوم الدين.

أما بعد: فإن من زيادة السوء، والإمعان في الضلالة، أن يجد أهل
 التمثيل والرقص والغناء من يؤيدهم ويفتيهم بجواز أفعالهم من فقهاء
 التنوير والعقلانية، ويُعلن في أوساط المسلمين أن تمثيل المرأة ضرورة^(٦)،

(٥) بتصرف واختصار من عودة الحجاب للدكتور محمد إسماعيل المقدم (١/١٩٦).

(٦) أفتى بذلك الدكتور يوسف القرضاوي أكثر من مرة عبر برنامجيه في قناة
 الجزيرة «الشريعة والحياة» وانظر: مجلة المجتمع في مقابلة أجرتها معه عدد=

وجزءٌ من الدعوة إلى الله تعالى، والجهاد في سبيله!! وباللعب من الضلال والإضلال، والجرأة على الله تعالى. وإذ يقول ذلك مشايخُ التنوير في برامجهم الفضائية فماذا أبقوا لعملاء الصهيونية والماسونية؟! وصدقوا فيما قالوا: إن التمثيلَ والرقصَ والغناء عبادةٌ وجهادٌ ودعوةٌ، ولكنها عبادةٌ للشيطان، وجهادٌ في سبيله، ودعوةٌ إلى دار السعير. وهذا ما أفصحت به راقصة حين سُئلت عن إحساسها وهي تتمايل فقالت: «أحس أنني أعبدُ الله برقصاتي؛ لأن الرقص نوعٌ من أنواع الصلاة، والفن الرفيع نوعٌ من أنواع العبادة كما كان يحدث في معابد الفراعنة، وبعض المعابد الهندية اليوم»^(٧).

وأخرى فاجرة أعلنت أيام مأساة كوسوفا أنها تجاهدُ معهم بأغانيها، وإطراب المسلمين على مذابح إخوانهم!!^(٨).

والمهازلُ في هذا الباب كثيرة، ولعل هذا الشيخ التنويري حينما أفتى بضرورة تمثيل المرأة كان يظن أنه يفتي عبَادَ أصنام، وسدنة أوثان، يتراقصون حول معبوداتهم من دون الله تعالى! فإلى الله المشتكى وهو حسبنا ونعم الوكيل.

وفي الوقت الذي ينقلُ فيه الإعلامُ العربي أدق التفاصيل عن

= (١٣١٩) بتاريخ ١٤١٩/٦/٩ هـ هداه الله إلى الصواب وقبله قال ذلك الدكتور

حسن الترابي وغيرهما من التنويريين.

(٧) انظر: رحلة الضياع للإعلام العربي المعاصر ليوسف العظم (٧٩).

(٨) انظر: مجلة الجندي المسلم عدد (٩٦) ص (٩٤).

هؤلاء التافهين والتافهات في حلهم وترحالهم، وعلاقاتهم وغرامهم، وحياتهم الخاصة، وماذا يأكلون؟ وماذا يشربون؟ وأين يتبضعون؟ وماذا يلبسون؟ فإنه يخل على مشاهديه بأخبار المسلمين، وأحوال المنكوبين، ولا يعرضها إلا لملأ!!

إن فضائياته قد عملت على تخدير المسلمين، وصرفهم عما يجب أن يهتمهم؛ فهي ترقص وتغني وتحيي الليالي بكل محرم في الوقت الذي تدمر فيه بلادُ الشيشان، وتذكُّ بالصواريخ والطائرات، وكأنهم ليسوا مسلمين، وكأن الأمر لا يعني أي مسلم!!

وهذا التخدير كان سبباً في قلة بذل الباذلين، وضعف دعاء الداعين. نعم، انتهى رمضان فتوقف معه بذل كثير من المتصدقين، ودعاء كثير من الداعين، وانصرف كثير المسلمين عن متابعة أحوال إخوانهم إلى البرامج الترفيهية المحرمة، والمهرجانات التسويقية والغنائية التي تسوق لها الفضائيات.

قتل من المسلمين في الشيشان آلاف، وشردت عشرات الآلاف، ودمرت بلادٌ بكاملها. والحرب يشتد سعيها، والروس يريدون إحكام قبضتهم على رقاب إخواننا المسلمين، ودعمنا لهم يقل شيئاً فشيئاً، ودعاؤنا لهم يخبو شيئاً فشيئاً، فمتى تطبق رابطة الأخوة في الإسلام إذا لم تطبق في مثل هذه المآسي؟! وهل يجوز أن يلهو المسلمون بشهواتهم، المباح منها والمحرم عن مآسي إخوانهم؟!

ماذا يضرنا لو اقتصدنا في لهونا، وأخرجنا جزءاً من مالنا، ورفعنا

أيدينا بالدعاء لإخواننا؛ برهاناً على إحساسنا بمصائبهم، فذلك ينفعهم ولا يضرنا، بل ينفعنا. فتصدقوا على إخوانكم فإن الله يجزي المتصدقين، وأكثروا من الدعاء لهم فهم أحوج ما يكونون إليه في هذه الأيام العسيرة عليهم، ألا وصلوا وسلموا على محمد بن عبد الله كما أمركم بذلك رب العزة والجلال.

١٨٢- فضل اللغة العربية

الجمعة ٢٢ / ١٠ / ١٤٢٠ هـ

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أما بعد: فإن أصدق الحديث كلام الله تعالى، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها المؤمنون: من آيات الله البينات على عظيم قدرته، وحسن إبداعه، وإتقان خلقه: اختلاف البشر في أشكالهم وألوانهم ولغاتهم. فرغم أن أصلهم واحد؛ فأبوهم آدم، وأمهم حواء إلا أنهم انقسموا إلى أجناس وقبائل وألسن وألوان مختلفة لا يعلم عددها إلا الله تعالى ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الروم: ٢٢].

إن اختلاف لغات البشر آيةٌ عظيمة، فهم مع اتحادهم في النوع كان اختلافُ لغاتهم آيةً دالة على ما كونه الله تعالى في غريزة البشر من اختلاف التفكير، وتنويع التعرف في وضع اللغات، وتبدلُ كیفياتها باللهجات والتخفيف والحذف والزيادة بحيث تتغيرُ الأصولُ المتحدةُ إلى لغات كثيرة^(١).

وامتن الله تعالى على الإنسان بأن خلقه، ثم اتبع ذلك بذكر نعمة قدرته على التعبير عما في نفسه إما بالنطق وهو أكمل، وإما بالإشارة إذا عجز عن النطق ﴿الرَّحْمَنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ [الرحمن: ١-٤] فقدم جلّ ثناؤه ذكر البيان على جميع ما توخّد بخلقه، وتفرد بإنشائه من شمس وقمر، ونجم وشجر وغير ذلك، ولما خصّ الله جلّ ثناؤه اللسان العربي بالبيان علّم أن سائر اللغات قاصرة وواقعة دونه^(٢).

وما ترك الله المكلفين حتى بيّن لهم السبيل إليه؛ فأرسل لهم الرسل، وأنزل عليهم الكتب، وعلمهم ما يحتاجون العلم به ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

وكلُّ رسول بعثه الله إنما بعثه من نفس قومه لا من غيرهم، يعرفونه ويعرفهم، ويتكلّم بلغتهم، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤]، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «لم يبعث الله

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور (٧٣/٢١).

(٢) الصاحبي لابن فارس (١٩).

نبياً إلا بلغة قومه»^(٣).

ومحمد صلى الله عليه وسلم خاتم الرسل وأفضلهم، أرسل إلى الناس كافة، وخطب بدعوته العرب والعجم. بعثه الله تعالى من قريش أوسط العرب وأفصحهم، وخطب الناس بالعربية؛ لأن أمة العرب أفصح الأمم لساناً، وأسرعهم أفهاماً، وأقدرهم بياناً، وألمعهم ذكاءً، وأحسنهم استعداداً لقبول الهدى والرشاد^(٤).

وأنزل القرآن بلغة العرب؛ لأنها أصلح اللغات جمع معانٍ، وإيجاز عبارة، وسهولة جري على اللسان، وجمال وقع في الأسماع، وسرعة حفظ^(٥)، ﴿وَأَنَّهُ لَنَتَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٣) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٢-١٩٥] فوصفه الله تعالى بأبلغ ما يوصف به الكلام وهو البيان^(٦).

وارتبطت اللغة العربية بهذا الكتاب المنزل المحفوظ؛ فهي محفوظة ما دام محفوظاً. فارتباط اللغة العربية بالقرآن الكريم كان سبباً في بقائها وانتشارها حتى قيل: لولا القرآن ما كانت عربية^(٧).

(٣) أخرجه أحمد في المسند من حديث أبي ذر رضي الله عنه (١٨٥/٥) وصححه السيوطي في الجامع الصغير (٧٣٥٧) ثم الألباني في صحيح الجامع (٥١٩٧).

(٤) التحرير والتنوير (١٨٧/١٣).

(٥) المصدر السابق (١٨٧/١٣).

(٦) الصاحبى (١٩).

(٧) فصول في فقه اللغة العربية لرمضان عبدالنواب (٩٠).

إن اللغة العربية هي أوسع اللغات، وأكثرها بياناً، وأوفاهها بحاجة الإنسان؛ حتى قال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى: «لسان العرب أوسع الألسنة مذهباً، وأكثرهم ألفاظاً، ولا نعلمه يحيط بجميع علمه إنسان غير نبي»^(٨).

إن اللغة العربية غنية بثروة لغوية لا قدرة لأحدٍ على أن يحصيها؛ لأن هذه الثروة من الضخامة والسعة بحيث لا تُسَلِّسُ قِيَادَهَا لمن يريد حصرها أو إحصاءها، وإن أكثر مواد اللغة العربية غير مستعمل، وكثيرٌ منه غير معروف^(٩). قال الكسائي: «قد دَرَسَ من كلام العرب كثير»^(١٠)، وقال أبو عمرو: «ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقله، ولو جاءكم وافرأ لجاءكم علمٌ وشعر كثير»^(١١)، حتى قال ابن فارس:

(٨) الرسالة للإمام الشافعي (٤٢) والمزهر للسيوطي (٣٧/١) وتاج العروس (١٧-١٦/١) والصاحبي (٣٦) وقال بعض الفقهاء: «كلام العرب لا يحيط به إلا نبي، قال ابن فارس: وهذا كلام حري أن يكون صحيحاً وما بلغنا عن أحد ممن مضى أنه ادعى حفظ اللغة كلها».

(٩) انظر: مقدمة عبدالغفور عطار على الصحاح للجوهري (٢٣).

(١٠) لسان العرب (٤٣١/١).

(١١) نزهة الألباء (٣٣) وذكر الزبيدي في مختصر العين أن عدة مستعمل الكلام كله ومهمله ستة آلاف ألف وتسعة وخمسون ألفاً وأربعمئة (٦٠٥٩٤٠٠) والمهمل ستة آلاف ألف وستمئة ألف وستمئة وعشرون (٥٦٢٠٠) والمهمل ستة آلاف ألف وستمئة ألف وثلاثة وتسعون (٦٦٠٠٠٩٣) وذكر عبدالغفور عطار أن المستعمل في العربية في عصرنا الحاضر لا يكاد يزيد على عشرة آلاف مادة مع أن الصحاح للجوهري يضم أربعين ألف مادة، والقاموس ستين ألف مادة، والتكملة ستين ألف مادة، واللسان ثمانين ألفاً وأربعمئة، والتاج عشرين ومئة=

«فأين لسائر الأمم ما للعرب»^(١٢).

ومع أن المستعمل من مواد اللغة العربية ليس إلا أقل القليل منها فإنها لم تضق عن حاجة الإنسان وتجاربه وخواطره وعلومه وفنونه وآدابه؛ بل وسعت روافد الحضارة والعلوم غير المعروفة عند العرب في أزهى العصور الإسلامية^(١٣).

لقد كان المسلمون في القرون الأولى يفتتحون الدول، ويمصرون الأمصار، وينشرون الإسلام. والداخلون في الإسلام من غير العرب يتعلمون العربية حتى يعقلوا كلام الله تعالى وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم، ويتعلموا أحكام الإسلام فعمت اللغة العربية أقطار الأرض، وصارت لسان أكثر البشر، ولغة التخاطب والعلم الرسمية فيما بين الأمم، حتى التي لم تدخل في الإسلام!! ولقد عجب مؤرخو أوربة من انتشار هذه اللغة في الأرض، وغزوها للشعوب الغربية، قال أحد المؤرخين الغربيين: «من أغرب ما وقع في تاريخ البشر، وصعب حلُّ سره: انتشار اللغة العربية؛ فقد كانت هذه اللغة غير معروفة بادية بدء، فبدت فجأة على غاية الكمال، سلسلة أية سلاسة، غنية أي غنى، كاملة بحيث لم يدخل عليها منذ ذلك العهد إلى يومنا هذا أدنى تعديل مهم، فليس لها طفولة ولا شيخوخة، ظهرت لأول أمرها تامة مستحكمة...

= ألف مادة، انظر: الصاحبي (٣٦) ومقدمة الصحاح (٢٣).

(١٢) الصاحبي (٢٢).

(١٣) مقدمة الصحاح (٢٤).

إلى أن قال: فإن العربية ولا جدال قد عمت أجزاءً كبرى من العالم، ولم ينازعها الشرف في كونها لغةً عامةً أو لسان فكر ديني أو سياسي إلا لغتان: اللاتينية واليونانية، وأين مجالُ هاتين اللغتين في السعة من الأقطار التي عمَّ انتشارُ اللغة العربية فيها» اهـ^(١٤)، ويقول نصراني آخر: «وأصبحت العربية في النصف الثاني من القرن الثامن للميلاد لغة العلم عند الخواص في العالم المتمدن، وصارت حاملة علم التقدم الصحيح، وحافظت على تفوقها وتصدرها في المرتبة الأولى بين جميع الألسن الأخرى إلى آخر القرن الحادي عشر على أقل تقدير» اهـ^(١٥).

أيها الإخوة: لقد مضى على العربية زمانٌ كان شبابُ أوربا يفاخرون بتعلمها، وينافسون أقرانهم في إتقانها؛ حتى أصدرت الكنيسة قراراً قالت فيه: «إن هؤلاء الشبان الرقعاء الذين يبدؤون كلامهم بلغات بلادهم، ثم يكملون كلامهم باللغة العربية لنعلم أنهم تعلموا في مدارس المسلمين، هؤلاء إن لم يكفوا عن ذلك فستصدرُ الكنيسة ضدهم قرارات حرمان»^(١٦).

ولم يمض على فتح الأندلس أكثر من خمسين سنة حتى اضطُر رجالُ الكنيسة أن يترجموا صلواتهم بالعربية ليفهمها النصارى؛ لأنهم زهدوا في اللغة اللاتينية، ونشأ لهم غرامٌ بالعربية؛ فأخذوا يتقنون

(١٤) قائل ذلك هو المؤرخ الغربي رنان في كتابه تاريخ اللغات السامية، ونقله عنه محمد كردعلي في كتابه: الإسلام والحضارة العربية (١/١٧٢-١٧٣).

(١٥) قائل ذلك هو جورج سرطون في مقالة له بعنوان: العلوم والعمران في العصور الوسطى، عن المصدر السابق (١/١٧٣).

(١٦) عودة الحجاب للشيخ محمد إسماعيل المقدم (٢/٣٠).

آدابها، ويتغنون بأشعارها، ويكتبون بها كآبائها، ويُعجبون ببلاغتها إعجاب أهلها بها^(١٧).

قارنوا هذا بحال كثير من أبناء المسلمين اليوم الذين زهدوا في لغتهم - لغة القرآن - وولّوا شطرهم إلى الغرب بلغاته المختلفة، يلوون ألسنتهم بلغات أجنبية، يخلطون بها عرييتهم؛ ليبرهنوا على أنهم مثقفون ومتحضرون، في عصر كثر فيه المنهزمون مع أنفسهم، وقلّ الواثقون بتراثهم وحضارتهم، فالإلى الله المشتكى، ونسأله تعالى أن يعصمنا من الزيف ومن التقليد الأعمى.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (٢٧) قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿[الزمر: ٢٧، ٢٨].

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم.

الخطبة الثانية

الحمد لله حمداً طيباً كثيراً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى، أحمده وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهداهم إلى يوم الدين.

(١٧) انظر: غرائب الغرب لمحمد كردعلي (١٣٤/٢) والإسلام والحضارة العربية (١٧٧/١).

أما بعد: فإن اللغة العربية ظلت قوية ثابتة، وستظل كذلك إلى أن يشاء الله تعالى. لقد تآمر عليها أعداءٌ كُثُرٌ من الشعوبيين القدماء، والمستشرقين أيامَ الاستعمار الأجنبي للبلاد الإسلامية، فحاولوا إلغاء اللغة العربية، واستبدالها بلغات أجنبية إلا أن محاولاتهم باءت بالفشل، ثم ظهر أفراس الغرب وعملاؤه في بلاد المسلمين؛ ليقوموا بذات المهمة عن طريق: إحياء اللغات البائدة من الفرعونية والكردية والأمازيغية وغيرها، وتمجيد اللهجات العامية، والشعر العامي، وإفساد الذوق العربي بهدم أوزان الشعر، والولوغ في الطلاسـم والرمزية باسم الحداثة والتجديد، والدعوة إلى إلغاء الإعراب والحركات، وتسكين أواخر الكلمات. وكلُّ محاولة منها تفشل بعد الأخرى، ويقضُ الله تعالى رجالاً ينافحون عن لغة القرآن، ويردون كيد الأعداء.

يقول أحد الغربيين: «إن اللغة العربية لم تتراجع من أرض دخلتها، لتأثيرها الناشئ من كونها لغة دين ولغة مدنيّة. وعلى الرغم من الجهود التي بذلها المبشرون، ولمكانة الحضارة التي جاءت بها الشعوب النصرانية، لم يخرج أحدٌ من الإسلام إلى النصرانية»^(١٨).

أيها الإخوة: إن لغتنا جزءٌ من ديننا؛ بل لا يمكن أن يقوم الإسلام إلا بها، ولا يصح أن يقرأ المسلم القرآن إلا بالعربية، وقراءة القرآن ركنٌ من أركان الصلاة التي هي ركن من أركان الإسلام؛ ولذا فإن

(١٨) القائل هو ميليه في كتابه اللغات في أوروبا الحديثة عن الإسلام والحضارة العربية (١٧٧/١).

العناية بتعلمها وإتقانها مطلوبة ومرغوبٌ فيها من أجل إقامة شعائر الإسلام، وفهم نصوص الكتاب والسنة. يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: «ومعلومٌ أن تعلم العربية، وتعليم العربية فرضٌ على الكفاية، وكان السلفُ يؤدّبون أولادهم على اللحن. فنحن مأمورون أمر إيجاب أو أمر استحباب أن نحفظ القانون العربي، ونصلح الألسن المائلة عنه؛ فيحفظ لنا طريقة فهم الكتاب والسنة، والاقتداء بالعرب في خطابها. فلو تُرك الناسُ على لحنهم كان نقصاً وعيباً، فكيف إذا جاء قومٌ إلى الألسنة العربية المستقيمة، والأوزانِ القويمة فأفسدوها بمثل هذه المفردات والأوزان المفسدة للسان، الناقلة عن العربية العرباء إلى أنواع الهذيان الذي لا يهذي به الأقوام من الأعاجم الطماطم العميان» اهـ^(١٩).

وينبغي لمن دخل في الإسلام من الأعاجم أن يتعلم العربية؛ فقد سمع عمرُ رضي الله عنه رجلاً يتكلم في الطواف بالفارسية فأخذ بعضده وقال: «ابتغ إلى العربية سبيلاً»^(٢٠).

وقال عطاء: «رأى عمر بن الخطاب رجلين وهما يتراطان في الطواف؛ فعلاهما بالدّرّه وقال: لا أم لكما، ابتغيا إلى العربية سبيلاً»^(٢١). وعلي رضي الله عنه ضرب الحسن والحسين على اللحن^(٢٢).

(١٩) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٢٥٢/٣٢).

(٢٠) أخبار النحويين لعبد الواحد بن عمر (٢٥).

(٢١) التمهيد للعطار (١٠) عن مجلة الحكمة (٤١٣/١١).

(٢٢) الجامع لأخلاق الراوي للبغدادي (٨٥/٢).

وكان ابن عمر رضي الله عنهما يضرب أولاده على اللحن، ولا يضربهم على الخطأ^(٢٣).

ألا فاتقوا الله ربكم، وحافظوا على لغتكم؛ فإنها لغة أعظم كتاب أنزل على البشر، ونشئوا أولادكم على اللسان العربي المبين، وصلوا وسلموا على نبيكم كما أمركم بذلك ربكم.

(٢٣) الأضداد للأنباري (٢٤٤) وانظر: مجلة الحكمة (١١/٤١١).

١٨٣- قصة تقدم الغرب وتخلف الشرق

الجمعة ٢٧/٥/١٤١٩هـ

الحمد لله؛ أكمل لنا الدين، وأتم علينا النعمة، ورضي لنا الإسلام ديناً، فله الحمد أولاً وآخراً، ظاهراً وباطناً.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ﴿فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ (٨٤) وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿[الزخرف: ٨٤-٨٥].

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله؛ كشف الله به الغمة، وأنار به الظلمة، فأزال آصار الجاهلية، وحطم أغلال الوثنية، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه؛ فتحوا البلدان، وهدموا عروش الطغيان، ونشروا دين الرحمن، والتابعين ومن تبعهم بإحسان.

أما بعد: فيا أيها الناس اتقوا الله تعالى وأطيعوه، وراقبوه فلا تعصوه ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٩٤] وأنه يحب المتقين.

أيها الإخوة المؤمنون: هاجسُ البناء والتطور، والتقدم والحضارة، هاجسٌ يسيطر على عقول الباحثين والمنظرين، والمفكرين والمثقفين في الأمم البشرية كلها، وعلى اختلاف دياناتها وأعراقها وبلدانها. ولقد تباينت طروحات المنظرين في أسباب التقدم، كما اختلفت دراسات الباحثين في أسباب التخلف، بل واختلفوا في ماهية التقدم والتخلف؛ فقوم يرون التقدم في الهيمنة العسكرية، والقوة المادية، وآخرون يجعلونه

في غلبة الثقافة والفلسفة، وغيرهم يحصرونه في تقدم النظم والصناعة. وأياً كان التقدم، ومهما اختلف الناس في تفسيره فإن الجميع متفقون على أن الأمة المتقدمة ستكون محترمة مصانة، وأن الأمة المتخلفة ستكون محتقرة مستباحة.

ومن سنن الله تعالى في الأمم والحضارات: كثرة التحولات والتقلبات، وعدم الديمومة والثبات؛ فالضعيفة من الأمم قد تقوى، والقوية قد تنتهي، والعزيزة قد تنحدر نحو الذلة، والذليلة قد تصعد سلم العزة ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠] ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُدْلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦].

ولكن الغلبة والعزة في النهاية لأهل الحق على أهل الباطل ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٩] ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

أيها الإخوة: وبالنظر إلى تاريخ الحضارات نجد أن أمة الإسلام شيدت حضارة لا كالحضارات، في شمولها وقوتها واستقرارها، وفي وقت قياسي، وزمن قصير. حضارة ذابت فيها حضارة الفرس الزاهية، وتكسرت على صخرتها حضارة الرومان العتيدة، وكان ذلك على أيدي أقوام ماكانوا يعرفون المجد والحضارة حتى جاء الإسلام فهداهم وهذبهم فانطلقوا في الأرض ينشرون دين الله تعالى، ويؤشيدون صرح الحضارة، ومن كان يظن أن قوماً سكنوا مكة الجرداء، وماعرفوا إلا جبالها السوداء،

وأرضها الجذباء، حتى لما جاءهم أبرهة احتموا بالجبال وقالوا: للبيت رب يحميه، وأين أبرهة من مملكتي كسرى وقيصر؟! من كان يظن أن هؤلاء العالة الجاهلين سيقودون العالم في يوم من الأيام!!

إنها سنة الله تعالى ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٢] وإنها لعظمة الإسلام الذي تبدلت به أحوالهم، وانقلبت أوضاعهم؛ فعلت به غاياتهم من الدون إلى العلياء، وسمت به أهدافهم من الثرى إلى الثريا، فلم تستطع حضارة مهما كانت قوتها وغلبتها وثقافتها أن تقف أمام مدهم، أتدرون لماذا؟!

لأن هدفهم كان واحداً توحيدوا عليه، وكانت غايتهم واحدة اجتمعوا من أجل تحقيقها، كان هدفهم نشر دين الله تعالى، وغايتهم الدار الآخرة.

لقد ظلت أمة الإسلام تلاحق هدفاً واحداً قرابة ثمانية قرون، وكان ذلك الهدف يتمثل في التمكين لدين الله تعالى في الأرض، ونشر تعاليمه، وهي أطول مدة تلاحق فيها أمة من الأمم هدفاً واحداً.^(١)

فتحوا خلالها البلدان، ومصرّوا الأمصار، وحرروا العباد من الأغلال، وشجعوا العلم والابتكار، وكانوا كلما فتحوا بلداً ابقوا فيه منهم من يعلم الناس دينهم، ويهذب أخلاقهم، ويدفعهم نحو العلم والمعرفة، ولما فتحت الأندلس انتقل من المشاركة من يعلم المغاربة، ورحل طلاب من المغاربة إلى المشرق ليتعلموا، فأخذت حضارة الأندلس الإسلامي

(١) انظر: كتاب الدكتور عبدالكريم بكار: من أجل انطلاقة حضارية شاملة (١١٢).

في العلو والارتفاع، وانتشرت فيها أنواع العلوم والمعارف حتى بلغت أوجها، واعتلت القمة في شتى العلوم في القرن الخامس الهجري وما بعده، وكانت أوربة آنذاك تعيش ظلاماً يخيم على أرجائها، وجهلاً يحيق بأبنائها، وكانت الكنيسة تضرب بيد من حديد على أي بادرة للعلم والمعرفة.

وفي القرن الخامس الهجري كانت الكتابات والرسائل تتردد بين حكام أوربة وحكام الأندلس الإسلامي؛ لإرسال بعثات طلابية أوربية لتلقى العلم في بلاد المسلمين، حفظ التاريخ من تلك المراسلات ما حفظ؛ ليكون شاهداً لحضارة الإسلام، وضاع منها ماضع، وكان من بين مانقله التاريخ إلينا تلك الرسالة التي أرسلها حاكم إنجلترا وفرنسا والسويد والنرويج آنذاك إلى خليفة المسلمين في قرطبة، والتي تبين واقع الحال في تلك الحقبة الزمنية، وتدلل على تقدم المسلمين في الوقت الذي كانت أوربة فيه متخلفة في شتى المجالات وإنني سأتلوا عليكم هذه الرسالة المعبرة للعظة والاعتبار!!

ونص الرسالة يقول: «صاحب العظمة هشام الجليل المقام، بعد التعظيم والتوقير، فقد سمعنا عن الرقي العظيم الذي تتمتع بفيضه الصافي معاهد العلم والصناعات في بلادكم العامرة، فأردنا لأبنائنا اقتباس نماذج هذه الفضائل؛ لتكون بداية حسنة في اقتفاء أثركم؛ لنشر أنوار العلم في بلادنا التي يجتاحها الجهل من أركانها الأربعة» إلى آخر رسالته التي تقرب فيها هذا الحاكم الأوربي إلى خليفة المسلمين بهدية

أرسلها مع البعثة الطلابية الأوربية، ثم ختم رسالته بتوقيعه قائلاً: من خادمكم المطيع جورج^(٢).

لقد كان هذا الحاكم الأوربي الذي كان يحكم أربع دول أوربية كبرى يتزلف للحاكم المسلم في الأندلس بجميل العبارات، ويخضع له بالكلام، ويتقرب بالهدايا؛ التماساً لرضاه، وكسباً لوده. بيد أن ذلك لم يدم للمسلمين، بل انقلب الأمر رأساً على عقب، ودالت الأيام، وتبدلت الأحوال، وانقلب الميزان، وعز من كان بالأمس ذليلاً، وذل من كان بالإسلام عزيزاً؛ فسبحان من أدال الأيام، وبدل الأحوال، وسن السنن.

وحينما كانت البعثات الطلابية النصرانية تفد إلى ديار الإسلام وحواضره لتلقي العلم رغماً عن رجال الكنيسة، كان ذوو هؤلاء الطلاب، ورجال الكنائس يبذلون كل جهدهم لوضع حواجز نفسية في نفوس هؤلاء الطلاب وعقولهم تحول دون تأثرهم بالإسلام وحياة المسلمين، ولقد بلغ من حرص الكنيسة على هذا أنها أصدرت قراراً كنسياً تقول فيه: «إن هؤلاء الشبان الرقعاء الذين يبدؤون كلامهم بلغات بلادهم، ثم يكملون كلامهم باللغة العربية لنعلم أنهم تعلموا في مدارس المسلمين، هؤلاء إن لم يكفوا عن ذلك فستصدر الكنيسة ضدهم قرارات حرمان» اهـ^(٣).

(٢) وهذه الرسالة كانت موجهة إلى الخليفة الأندلسي هشام بن الحكم المستنصر (٣٦٦-٣٩٩هـ) انظر: مقدمة الدكتور عبدالمعطي قلعجي على كتاب الاستذكار

لابن عبدالب (١٣/١-١٤) ومجلة الفيصل عدد (٣٢٤) ص (٦١).

(٣) انظر: عودة الحجاب للشيخ محمد أحمد المقدم (٣٠/٢).

واستمر الصراع بين العلم والكنيسة، وصار الانتصار للعلم، وثار الناس على الكنيسة وأغلالها ثورتهم الشهيرة، التي حولت مجتمعاتهم إلى مجتمعات علمانية تفصل بين الدين والدنيا، وتجعل مآله الله، وما لقيصر لقيصر؛ ذلك أن دينهم المحرف لا يمكن أن يواكب التطور والحضارة، واستمر النصارى يعملون ويتعلمون، ويجدون ويثابرون، وطرحوا المنهج السقراطي الفلسفي، القائم على التأمل، وأخذوا من المسلمين المنهج التجريبي الذي يقوم على البحث والتجربة، في الوقت الذي بدأ فيه المسلمون ينحرفون عن هدفهم الذي توحدوا عليه، وسعوا لتحقيقه قرونًا طويلاً، وهو نشر دين الله تعالى في الأرض كلها، وتحول الهدف عند كثير منهم إلى أهداف دنيوية، وبدأت الدنيا تغزو قلوبهم، والخلافات تدب في أوساطهم، والأعداء تتكالب عليهم؛ فتوقف مدهم، وأخذ في الانحسار والتراجع، حتى طمع فيهم العدو، فقاتلهم على أندلسهم فأخذها، ثم ضرب استعمارهم على ديارهم فاستباحها، فمزقهم، وفرق كلمتهم، وزرع الطغائن فيما بينهم.

وهكذا تقدمت أوربة النصرانية، وتأخر المسلمون، وصار الذين سادوا العالم تبعاً لغيرهم، فكان ما أصابهم منذ ذلك الحين وإلى اليوم خليط متمازج، وشارك متشابك معقد من: تأمر العدو، وضعف النفوس، نعم! تأمر الأعداء على المسلمين ولكن ما كان لذلك التأمر أن ينجح، ويؤتى أكله لولا صلاحية الأرض الإسلامية لزراعته، وفساد قلوب المسلمين التي مكنت لنجاحه؛ وذلك بالانحراف عن الهدف الأكبر،

والغاية العظمى، وهي نشر دين الله تعالى في الأرض إلى متاع الدنيا التي تنافسوها، واقتتلوا عليها، فكان للعدو من قبلها مدخلٌ على قلوبهم، ووقع ما خافه النبي صلى الله عليه وسلم على أمته من التنافس على الدنيا.

لقد تقدم الغرب النصراني، ثم تقدم بعد ذلك الشرق الوثني البوذي، وتأخر المسلمون بسبب ذنوبهم، وقلة عملهم وسعيهم، وفساد نظامهم، وتخليهم عن دينهم، وصدق الله تعالى إذ يقول: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠] بارك الله لي ولكم، ، ،

الخطبة الثانية

الحمد لله حمداً طيباً كثيراً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى، أحمده وأشكره وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين .
أما بعد: فاتقوا الله تعالى بفعل ما أمر، واجتناب ما نهى عنه وزجر، واعلموا أن الله مع المتقين.

أيها الناس: لما تنبه المسلمون من غفلتهم، واستيقظوا من رقدتهم، وجدوا أن غيرهم تقدم وهم تأخروا، ووجدوا أن الأعداء تناهبوا أرضهم، وسرقوا ثروتهم، ولعبوا بمقدراتهم؛ فأزعجهم أن يبقوا في ذيل الأمم، ومؤخرة الركب، ولم يرضهم ما يُلقى إليهم من فتات الحضارات الأخرى

وهم الذين كانوا يسودون الدنيا بأسرها، ويحتلون القمة والذرى، وراحوا ينظرون إلى حضارة الغرب التي لولا علوم المسلمين لما قامت لها قائمة باعتراف الغربيين أنفسهم، راحوا ينظرون إليها ويسجلون مواقفهم منها:

ف فريق رأى عدم الاستفادة منها، على اعتبار أنها حضارة مادية شوهاء، فهي أقرب إلى أن تكون ضرراً محضاً، ومن ثم فإن البعد عن أدبياتها وطروحاتها وما فيها من خير وشر، وحسن وقبيح واجب حتم^(٤)، فانكفاً هذا الفريق على ذاته؛ فأخطأ في تصويره وتصرفه، وغفل عن كونه أصبح للغرب بمثابة المستهلك الجامد، الذي يأكل ما يزرعون، ويلبس ما ينسجون، ويركب ما يصنعون، ويستهلك ما ينتجون، وليس عنده بوادٍ للاستقلال والذاتية، والتقليل من التبعية.

قابل هذا الفريقَ فريقاً آخرُ من مدعي الثقافة والتنور؛ انفتح أفرادُه على حضارة الغرب انفتاحاً كلياً، وارتأوا أنه لا يمكن أن يحصل المسلمون على التقدم إلا بالتبعية الكاملة، والتقليد الأعمى في كل شيء، ابتداءً بالفلسفة والثقافة، وانتهاءً بالعرف والعادة، حتى قال قائلهم ومنظرهم: «إن سبيل النهضة واضحةٌ بينةٌ مستقيمة، ليس فيها عوجٌ ولا التواء، وهي أن نسير سيرة الأوروبيين، ونسلكَ طريقهم لنكون لهم أنداداً، ولنكون لهم شركاء في الحضارة خيرها وشرها، حلوها ومرها، وما

(٤) انظر: من أجل انطلاقة حضارية شاملة (٤٤).

يُحِبُّ مِنْهَا وَمَا يُكْرَهُ، وَمَا يُحْمَدُ مِنْهَا وَمَا يِعَابُ»^(٥).

وانحط آخر من أصحاب هذا الاتجاه إلى هوة سحيقة حينما قال: «إنا عزمنا أن نأخذ كلَّ ما عند الغربيين حتى الالتهابات التي في صدورهم، والنجاسات التي في أمعائهم»^(٦).

وكم جرَّ هذا الفريق على الأمة من ويلات التغريب والعلمنة، وياليت أن أصحابه لما أخذوا ثقافة الغرب وفلسفته ضموا إليها آله ومصنعه فتقدموا، إنهم اكتفوا برديء حضارة الغرب، وقنعوا بزبالة فكرها، وتشبعوا من نتنها وقيحها، وكان أكبر ما عظموا من بنود حضارته: فلسفته الكافرة، وثقافته الملحدة، وأخلاقه المنحطة؛ فساموا الأمة المسلمة سوم العذاب؛ لقسرها على الرضى بهذا الضلال المبين، ومارسوا أبشع صور الإرهاب والتسلط لفرض هذا النمط المتعفن، ثم أثبتت الأيام أن كثيراً منهم كانوا يتقاضون أجراً من مؤسسات غربية لتغريب الأمة وعلمنتها، فأخزاهم الله، ورد كيدهم عليهم.

وبين هؤلاء وأولئك وقف موقف الحق والعدل العقلاء من المؤمنين، فرأوا أنه لا مانع من الاستفادة مما عند الآخرين من علوم ومعارف دنيوية في ظل الضوابط الشرعية، والمحافظة على عقيدة الإسلام وأحكامه

(٥) القائل هو طه حسين في كتابه مستقبل الثقافة في مصر (٤٥) وانظر ثقافة الضرار لجمال سلطان (٢٢) والصحوة الإسلامية في عيون مختلفة للدكتور نعمان السامرائي (٢٥).

(٦) الصحوة الإسلامية في عيون مختلفة (٢٥) عن موقف العقل والعلم للشيخ مصطفى صبري (٣٦٩/١).

وآدابه من الذوبان في ظل الاحتكاك بالآخرين . وعلى هذا النهج المستقيم سار كثير من أبناء المسلمين فتعلموا في بلاد الشرق والغرب ، وأفادوا من حضارات الآخرين وعلومهم ، مع محافظتهم على هويتهم ودينهم ، وبرعوا فيما تعلموا حتى فاقوا أساتذتهم في علوم الدنيا ، فنفع الله بهم الأمة ، وكانوا قرة عين لها . تقدموا مع محافظتهم على دينهم ، فحصلوا الخيرين ، وحازوا الحسنيين .

أيها الإخوة: كان هذا ملخص قصة التقدم والتخلف التي مارس كثير من المثقفين والعلمانيين أنواعاً من التزوير في حقائقها؛ لتدمير الأمة وسحقها، وقهرها على مناهجهم المنحرفة، وأفكارهم الضالة؛ ولكن بحمد الله تعالى باءت محاولاتهم بالفشل الذريع، وانكشفت مخططاتهم وتآمرهم، وبان للأمة عوارهم وسوءهم، فلم يعد يسمع لنعقهم إلا القليل من أتباعهم ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ (٣٢) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿[التوبة: ٣٢-٣٣] .

ألا وصلوا وسلموا على خير خلق الله كما أمركم ربكم بذلك .

القضايا الإسلامية

- ١٨٤- بين حضارة عاد وحضارة الغرب
- ١٨٥- الظلم مقوض الحضارات
- ١٨٦- الغرب الرأسمالي والبراجماتية
- ١٨٧- رعاة البقر وإشعال الحروب
- ١٨٨- جرائم شارون (١)
- ١٨٩- جرائم شارون (٢)
- ١٩٠- نهاية طاغية

١٨٤- بين حضارة عاد وحضارة الغرب

الجمعة ١٢/١١/١٤٢٠هـ

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً. أحمده وأشكره وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له؛ دلّ خلقه للكون وما فيه على وحدانيته، وإتقان صنعه على عظيم قدرته، وتديبره فيما خلق على حكمته ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٤٤]، وأشهد أن نبينا محمداً عبده ورسوله؛ اصطفاه الله لهذه الأمة نبياً ورسولاً فكان لها سراجاً منيراً، وبشيراً ونذيراً، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فاتقوا الله - أيها الناس - فإن الدنيا قد ولت حذاء، وأذنت بصرم، ولم يتبق منها إلا صباية كصباية الإناء يتصائبها صاحبها ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (١٨) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿[الحشر: ١٨، ١٩].

أيها المسلمون: في أخبار من مضوا قبلنا عبرة لمن يتذكر منا، عبرة تحثنا على سلوك طريق الصالحين الناجين، ومجانبة سبل المكذبين الهالكين. لقد قص القرآن علينا أنباء أقوام كانوا قبلنا، سكنوا الأرض وعمروها، وحرثوها وزرعوها، كانوا أولي بأس وقوة وشدة؛ فكذبوا

المرسلين غروراً بما لديهم من قوة، وما عندهم من علم؛ فأخذهم الجبار أخذ عزيز مقتدر، فأصبحوا أثراً بعد عين وعبرة للعالمين ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ (٢١)﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿[غافر: ٢١، ٢٢].

كَانَ مِنْهُمْ عَادٌ قَوْمُ هُودٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، سَكَنُوا الْأَحْقَافَ بَيْنَ عَمَانَ وَحَضْرَمَوْتَ^(١)، زَمَنَهُمْ بَعْدَ نُوحٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَهُمْ أَوَّلُ أُمَّةٍ اضْطَلَعَتْ بِالْحَضَارَةِ وَالْعِمْرَانِ بَعْدَ الطُّوفَانِ^(٢) الَّذِي أَغْرَقَ الْمَكْذِبِينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَى عَادٍ بِكُلِّ مَقُومَاتِ الْقُوَّةِ وَالْعِمْرَانِ، كَمَا هُوَ ظَاهِرٌ فِي قَوْلِ هُودٍ لَهُمْ ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً فَادْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٦٩] وَالْبَصْطَةُ: الْوَفْرَةُ وَالسَّعَةُ فِي أَمْرِ مِنَ الْأُمُورِ^(٣). فَاللَّهُ تَعَالَى زَادَهُمْ قُوَّةً فِي عُقُولِهِمْ وَأَجْسَادِهِمْ، وَسَلَّمَهُمْ مِنَ الْآفَاتِ وَالْعَاهَاتِ، وَالْعِمْرَانُ فِي الْأَرْضِ إِنَّمَا يُشِيدُ بِقُوَّةِ أَجْسَادِ الْبَنَائِينَ، وَالصَّنَاعَاتُ لَا تَزْدَهَرُ إِلَّا بِذَلِكَ، وَقَدْ نُسِبَتْ الدُّرُوعُ وَالسِّيُوفُ إِلَى قَوْمِ عَادٍ فَقِيلَ: الدُّرُوعُ الْعَادِيَّةُ، وَالسِّيُوفُ الْعَادِيَّةُ^(٤).

(١) البداية والنهاية (١/١٣٨).

(٢) التحرير والتنوير لابن عاشور (٨/٢٠٥).

(٣) المصدر السابق (٨/٢٠٦).

(٤) المصدر السابق (٨/٢٠٦).

وقوة عادٍ وجبروتهم مشهور حتى لما جاءهم هودٌ عليه الصلاة والسلام بالندارة استكبروا ﴿وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مَنَا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥]، ووصفهم نبينهم بقوله: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٠].

لقد بلغ من قوتهم وشدة بأسهم أنهم بنوا في طرق أسفارهم أعلاماً ومنازل تدل على الطريق كيلا يضل السائرون في تلك الرمال المتنقلة التي تمحو الآثار، واحتفروا وشيدوا مصانع للمياه تجمع ماء المطر في الشتاء؛ ليشرب منها المسافرون، ويتنفع بها الحاضرون في زمن قلة الأمطار، وبنوا حصوناً وقصوراً على أشرف من الأرض^(٥) وفي شأن هذا العمران العظيم قال لهم نبينهم: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ﴾ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩) وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (١٣٠) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ [الشعراء: ١٢٨-١٣١].

ومع ما وصلوا إليه من حضارة وعمران وتقدم مادي بما أعطاهم الله تعالى من بصطة في العقول والأجسام؛ فإنه تعالى أفاض عليهم الخيرات، وفتح لهم أبواب النعم؛ من وفرة المياه، إلى خصوبة الأرض، والبركة في الزرع وفي الحيوان، وتكاثر الذرية. وبهذه النعم العظيمة ذكرهم هود عليه السلام فقال لهم: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ (١٣١) وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ (١٣٢) أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ (١٣٣) وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الشعراء: ١٣١ - ١٣٤]، وبين لهم أنهم إن أطاعوه، وأخلصوا عبادتهم لله تعالى، واستغفروه زادهم قوة وثراء، ونعمة ورخاء فقال لهم ﴿وَيَا

قَوْمَ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ [هود: ٥٢].

لكن القوم غرتهم قوتهم، وبطرت بهم نعمتهم؛ فرانت على قلوبهم الغفلة، واستحكمت فيهم الشهوة؛ فعمت أبصارهم عن رؤية الآيات، وصُمت آذانهم عن سماع المواعظ، كما هي حال كثير ممن يوعظون فلا يستمعون ولا يتعظون؛ بل يستكبرون ويستهزئون، ويجاهرون بعصيانهم، ولا يخافون نقمة الله وعذابه؛ ولذا قالوا لهود عليه السلام ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ﴾ (١٣٦) إِنَّ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ (١٣٧) وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴿[الشعراء: ١٣٦ - ١٣٨].

لقد بلغت جرأتهم على الله تعالى مبلغاً شنيعاً حتى قالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مَنَا قُوَّةً﴾ وغفلوا عن قوة الله تعالى ﴿أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾.

وكان عذرهم في عدم استجابتهم للحق أقبح من ذنبهم؛ إذ تذرعوا باقتفاء آثار السالفين الضالين منهم، وعدم الحيدة عن سبيلهم الذي اختطوه، ودينهم الذي ارتضوه ولو كان ضلالاً وشركاً ﴿قَالُوا أَجِئْنَا لِنُعْبَدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الاعراف: ٧٠] واتهموا هوداً بالجنون كما هي سيرة المكذبين مع أنبيائهم، والمفسدين مع المصلحين: رميهم بكل نقيصة وباطل؛ لصرف الناس عن الحق.

وزعمت عادٌ أن الجنون أصابه بسبب العزوف عن عبادة أصنامهم

﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (٥٣)﴾ إِنَّ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونَ ﴿[هود: ٥٣ - ٥٥].

فما كان عاقبة تكذيبهم إلا العذاب ؛ إذ نحى الله هوداً والمؤمنين معه ، واستأصل المكذبين المعاندين ﴿فَأَنجَيْنَاهُ الَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٧٢].

لقد كانت نهايتهم أليمة ، وعاقبة كفرهم وخيمة . جمع الله تعالى لهم فيها عذاب القلب مع عذاب البدن ؛ فبينما هم ينتظرون الغيث بعد طول انقطاع ، وشدة ترقب ، فما كادوا يفرحون بسحائبه وبسواده وبداياته ؛ حتى كان مطر عذاب ، وليس غيث رحمة ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤) تَدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٤ ، ٢٥].

انتهت حضارتهم ، وذهب عمرانهم ، وما أغنت عنهم قوتهم من عذاب الله شيئاً ، وحقت عليهم لعنة الله في الدنيا وفي الآخرة ﴿وَاتَّبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادِ قَوْمِ هُودٍ﴾ [هود: ٦٠] إنها لآية للمعتبرين ، وعظة للمتعطين ، ينتفع بها من ألقى لها سمعه ، ووعاها قلبه ، فهل من مذكر؟!

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم : ﴿كَذَبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنَذُرِ (١٨)

إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمَرٍّ (١٩) تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ
أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنْقَعَرٍ (٢٠) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٌ (٢١) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ
فَهَلْ مِنْ مُّدَكِّرٍ ﴿[القمر: ١٨ - ٢٢]، بَارِكْ اللَّهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ.

الخطبة الثانية

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على الظالمين،
وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ولي الصالحين، وأشهد أن
محمدًا عبده ورسوله صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه
أجمعين، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فلقد كانت قصة عادٍ من أعجب القصص التي تتكرر في
بني البشر، وقليل منهم من يعتبر!! دلت على أن الإنسان إذا أنعم الله
تعالى عليه، ولم يتترس بالإيمان ضد الشياطين والشهوات كان الهلاك
مصيره، والخسران عاقبته مهما بلغ ماله وجاهه، ومهما كانت قوته
وغلبته ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ
مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ [الفجر: ٦ - ٨].

إن الإنسان المعاصر الذي ينتظم في منظومة هذه الحضارة الزاهية،
وينعم بترفها، قد أنعم الله تعالى عليه بنعم لا تحصى: ذلل له الأرض
حتى مهدها وعبدها، والجبال فألانها وهدها، وأقام عليها بروجاً عظيمة،
وشيد عمراناً كثيراً. ألان الله تعالى له الحديد فابتنى به مصانع كثيرة،
واستخدمه في منافع عديدة، حتى اتخذ المراكب التي تنقله في البر
والبحر والجو، فصار في مقدوره أن يقطع الأرض من شمالها إلى

جنوبها ومن شرقها إلى غربها في ساعات معدودة.
حفر الإنسان الأرض فاستخرج كنوزها، وشغل الحديد بطاقتها،
فدارت الآلات في المزارع والمصانع تنتج للناس ما يأكلون وما يشربون
وما يلبسون، وما به يتنعمون ويترفون.

حضارة عتيقة، وعمران ضخم، وتقدم سريع؛ ولكن هل اعتبر
الإنسان بمن مضوا في القرون السالفة، والحضارات البائدة؟ فسخر ما
أنعم الله تعالى به عليه فيما يرضيه ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَإِطْفَىٰ﴾ (٦) أن رآه
استغنى ﴿[العلق: ٦، ٧].

طغى على ربه فجحد نعمته، وأعلن إحداه وكفره؛ حينما ظن أنه
مركز الكون، والمتصرف فيه كيف يشاء، وأن عصر تدفق المعلومات
سيلغي ما يسمونه بالأيديولوجيات بما فيها دين الإسلام والعباد بالله.
وطغى الإنسان على الإنسان فحاربه وجوعه، حتى قُتلت أمم من
بني الإنسان لا تعلم لم قتلت، ولا فيم قتلت؟! وترمي الدول العظمى
فائض الطعام في البحار، في الوقت الذي يموت فيه في كل لحظة بشر
من الجوع، وتشيد في بلاد الغرب البيوت والملاجئ والمستشفيات للقحط
والكلاب في وقت يموت فيه بشر في العراء.

بل تجاوز طغيان الإنسان غيره؛ حتى طغى على نفسه فارتكب ما
يوبقها، وصنع ما يهلكها من آلات لهو وفساد، وأسلحة دمار شامل
وغير شامل.

كيف ستكون حضارة بني الإنسان إذا كان من يدير دفتها، ويقود

سفيتها قد أعرض عن ذكر الله عز وجل وركب هواه؟! إنها إلى دمار
ماحق، وهلاك عاجل أو آجل!!

أما كان لهم اعتبار في حضارة من سبقوا من عاد وثمود، وقوم
إبراهيم وقوم لوط، وفرعون وهامان وقارون، وحضارة اليونان وحضارة
الرومان؟! أما كان لهم في هؤلاء وغيرهم اعتبار؟!!

إنه لن ينجي البشرية من شقائها، ولن يحافظ على حضارتها
وعمرانها إلا التزام دين الله تعالى الذي ارتضاه لعباده، والاستمسك
به، ولا شيء غير ذلك. وهذا ما أفصح به عالم من علماء الغرب
النصراني بقوله: «إن جميع اكتشافات الغرب العجيبة ليست جديدة
بكفكفة دمعة واحدة، ولا خلق ابتسامة واحدة... وليس أجدر من
أمم الشرق - المحتفظة بالثقافة العربية الإسلامية، والقائمة على إذاعتها
- بوضع حد نهائي لتدهور الغرب المشؤوم الذي يجر الإنسانية إلى
هوة التوحش والتسلط المادي»^(٦).

فهل نعتبر يا عباد الله ولا ننجر إلى طرق الهالكين، وسبل الضالين؟!
عسى أن نكون من المهديين الناجين.

﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٨٠) وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (١٨١)
وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الصفات: ١٨٠ - ١٨٢].

(٦) قائل ذلك هو العالم التجريبي الأسباني (فيلاسبازا)، انظر: الإسلام وأزمة
الحضارة الإنسانية المعاصرة في ضوء الفقه الحضاري لعمر بهاء الدين الأميري
(٢٢) عن النظام الدولي الجديد لياسر أبو شبنه (٣٨٤).

١٨٥- الظلم مقوض الحضارات

الجمعة ٢٦/٦/١٤٢٢هـ

الحمد لله ؛ خلق الخلق بقدرته ، وقضى فيهم بعدله وحكمته ، وأحاطهم بعنايته ورحمته . أحمدته وأشكره ، وأتوب إليه وأستغفره ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ؛ لا يخرج شيء عن أمره ، ولا يستعصي أمرٌ على قدرته ، فما شاء سبحانه كان ، وما لم يشأ لم يكن ، ﴿ بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الملك : ١] ، ﴿ يُمَسِّكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [فاطر : ٤١] .
وأشهد أن نبينا محمداً عبد الله ورسوله ؛ عرف الله تعالى حق المعرفة ، فعظمه وخشيه واتقاه ، فكان أتقى الخلق لله تعالى ، وأكثرهم خضوعاً وإجلالاً لعظمته تبارك وتعالى . كان عليه الصلاة والسلام يطيل الركوع في صلاته ذلاً لله تعالى وتعظيماً ، وكان يقول في ركوعه : « سبحان ذي الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة »^(١) .

(١) أخرجه النسائي في الافتتاح باب نوع آخر من الذكر في الركوع من حديث عوف بن مالك رضي الله عنه (٢/١٩١) ، وله شاهد من حديث حذيفة رضي الله عنه بلفظ : « الله أكبر ذو الملكوت والجبروت والكبرياء والعظمة » وكان يقوله في الافتتاح وليس في الركوع عند أحمد (٦/٢٤) ، والنسائي في الافتتاح باب الدعاء بين السجدين (٢/٢٣) ، والطيالسي (٤١٦) ، والبغوي في مسند ابن الجعد (٨٧) ، وعبد الرزاق في مصنفه (٢٨٩٧) ، وابن أبي شيبه في مصنفه (٢٣٩٨) ، وأصل حديث حذيفة عند مسلم دون ذكر هذا التسبيح ، وله شاهد ثالث من حديث عائشة رضي الله عنها أنها سمعته صلى الله عليه وسلم يقول =

صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد: فأوصيكم - أيها الناس - ونفسي بتقوى الله تعالى ، فاتقوه حق التقوى ، واستمسكوا بالعروة الوثقى .

اتقوا من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه ، ارجوا رحمته ، وخافوا عذابه ، واحذروا نقمته ؛ فإنه عزيز ذو انتقام ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴾ (١٢) إِنَّهُ هُوَ يُدْى وَيُعِيدُ (١٣) وَهُوَ الْغَفُورُ الْودُودُ (١٤) ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ (١٥) فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿ [البروج: ١٢ - ١٦] . ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٦) وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انتِقَامٍ ﴾ [الزمر: ٣٦ - ٣٧] ، بلى وعزة ربنا وقدرته وعظمته .

اتصف بالكبرياء والعظمة ، والملك والجبروت ، قال أبو هريرة رضي الله عنه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يقبضُ اللهُ تبارك وتعالى الأرض يوم القيامة ، ويطوي السماء بيمينه ، ثم يقول : أنا الملك ، أين ملوك الأرض » متفق عليه (٢) .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه

= في سجوده : « سبحان ربي ذي الملكوت والجبروت والكبرياء والعظمة » أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (٢٨٨١) .

(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة الزمر باب قوله تعالى : ﴿ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ﴾ [الزمر: ٦٧] (٤٨١٢) ، ومسلم في صفات المنافقين باب صفة القيامة والجنة والنار (٢٧٨٧) .

وسلم: «يطوي الله عزَّ وجلَّ السموات يوم القيامة، ثم يأخذهنَّ بيده اليمنى، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟ ثم يطوي الأرض بشماله، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟» رواه الشيخان واللفظ لمسلم.

وفي رواية لمسلم قال ابن عمر يحكي صفة النبي صلى الله عليه وسلم وهو يحدث بهذا الحديث على المنبر: «حتى نظرت إلى المنبر يتحرك من أسفل شيء منه حتى إني لأقول: أساقط هو برسول الله صلى الله عليه وسلم»^(٣). وفي لفظ: «رجف المنبر برسول الله صلى

(٣) أخرجه البخاري في التوحيد باب قول الله تعالى: ﴿لَمَّا خَلَّطُ بِيَدَيَّ﴾ [ص ٧٥]، (٧٤١٢) ومسلم واللفظ له في صفات المنافقين باب صفة القيامة والجنة والنار (٢٧٨٨)، ورواية البخاري ليس فيها ذكر الشمال، ولفظها: «إن الله يقبض يوم القيامة الأرض وتكون السموات بيمينه ثم يقول: أنا الملك». وجاء في بعض الروايات بلفظ: «بيده الأخرى» بدل «بشماله» وذكر الشمال جاء في رواية مسلم هذه، وعند عبد بن حميد في المنتخب من مسنده (٧٤٢)، وأبي يعلى في مسنده (٥٥٥٨)، وابن جرير في تفسيره (٢٨/٢٤)، واللالكائي بلفظ: «يقبض الله الأرض بشماله وتكون السماء بيمينه» (٧٠٢)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٧٠٦)، والروايات الأخرى عند البخاري، وأبي داود في السنة باب في الرد على الجهمية (٤٧٣٢)، وأبي الشيخ الأصبهاني في العظمة (١٣٩) بدون ذكر الشمال.

ومدار روايات: «بشماله» على عمر بن حمزة بن عبد الله بن عمر بن الخطاب، وهو ضعيف من الطبقة السادسة، أخرجه له البخاري تعليقاً ومسلم وأصحاب السنن؛ كما في تهذيب التهذيب (٤٣٧/٧).

وهذه الرواية معارضة في الظاهر لأحاديث أخرى منها:

١ - حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

= «إن المقسطين على منابر من نور عن يمين الرحمن عز وجل، وكلتا يديه يمين...» أخرجه مسلم في الإمارة باب فضيلة الإمام العدل... (١٨٢٧)، والحميدي (٥٨٨)، وأحمد (١٦٠٢)، والنسائي في آداب القضاء، باب فضل الحاكم العادل في حكمه (٢٢١/٨).

٢ - حديث أبي هريرة رضي الله عنه في قصة خلق آدم عليه السلام وفيه قال الله عز وجل لأدم وبيده مقبوضتان: «اختر أيهما شئت، فقال: اخترت يمين ربي وكلتا يدي ربي يمين مباركة...» أخرجه ابن خزيمة في التوحيد (١/١٦٠) - (١٦١)، والترمذي في تفسير القرآن، باب ومن سورة المعوذتين، وقال: حديث حسن غريب من هذا الوجه (٣٣٦٨)، وصححه ابن حبان (٦١٦٧)، والحاكم ووافقه الذهبي (١/٦٤).

قال البيهقي في الأسماء والصفات (١٣٩/٢)، بعد أن ساق رواية: «بشماله»: «وذكر الشمال فيه تفرد به عمر بن حمزة عن سالم، وقد روى هذا الحديث نافع، وعبد الله بن مقسم عن ابن عمر لم يذكروا فيه الشمال، ورواه أبو هريرة رضي الله عنه، وغيره عن النبي صلى الله عليه وسلم فلم يذكر أحد منهم الشمال، وروي ذكر الشمال في حديث آخر غير هذه القصة، إلا أنه ضعيف بمرّة تفرد بأحدهما جعفر بن الزبير، وبالأخر يزيد الرقاشي، وهما متروكان، وكيف يصح ذلك؟! وصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه سمى كلتي يديه يميناً، وكان من قال ذلك أرسله من لفظه على ما وقع له، أو على عادة العرب في ذكر الشمال في مقابلة اليمين» اهـ.

قلت: رواية اللالكائي ليس في إسنادها عمر بن حمزة ولا جعفر بن الزبير، ولا يزيد الرقاشي، فإن صحت فهي تدعم رواية عمر بن حمزة. وقال القرطبي في المفهم (٣٩٢/٧ - ٣٩٣): «وقوله في حديث ابن عمر: «ثم يطوي الأرض بشماله» كذا جاء في هذه الرواية بإطلاق لفظ الشمال على يد الله تعالى، ولا يكاد يوجد في غير هذه الرواية، وإنما الذي اشتهر في الأحاديث «وبيده الأخرى» كما جاء في حديث أبي موسى الأشعري المتقدم، وقد تحرز=

الله عليه وسلم حتى قلنا ليخرنَّ به»^(٤) .

ومن نازع الله تعالى في العظمة والكبرياء والجبروت ، فقد استوجب

= النبي صلى الله عليه وسلم من إطلاق لفظ الشمال على الله تعالى فقال: «وكلتا يديه يمين» لثلا يُتوهم نقص في صفة الله تعالى؛ فإن الشمال في حقنا أضعف من اليمين وأنقص كما تقدم، فنفى النبي صلى الله عليه وسلم عن الله ذلك؛ لكنه جاء في هذا الحديث كما ترى على المقابلة المتعارفة في حقوقنا، والله تعالى أعلم» اهـ.

وقد سئل الشيخ ابن عثيمين رحمه الله تعالى عن الجمع بين حديث عبد الله بن عمرو: «وكلتا يديه يمين» وبين هذا الحديث: «ثم يأخذهن بشماله» فأجاب بقوله: «كلمة «بشماله» اختلف فيها الرواة: فمنهم من أثبتها، ومنهم من أنكرها وقال: لا تصح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأصل هذه التخطئة هو ما ثبت في صحيح مسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: «المقسطون على منابر من نور على يمين الرحمن وكلتا يديه يمين». وهذا يقتضي أنه ليس هناك يد يمين ويد شمال. ولكن قد روى مسلم في صحيحه إثبات الشمال لله تعالى، فإذا كانت محفوظة فهي عندي لا تنافي «كلتا يديه يمين»؛ لأن المعنى أن اليد الأخرى ليست كيد الشمال بالنسبة للمخلوق ناقصة عن اليد اليمنى فقال: «كلتا يديه يمين» أي ليس فيهما نقص. فلما كان الوهم ربما يذهب إلى أن إثبات الشمال يعني النقص في هذه اليد دون الأخرى قال: «كلتا يديه يمين» ويؤيده قوله: «المقسطون على منابر من نور على يمين الرحمن» فإن المقصود بيان فضلهم ومرتبته، وأنهم على يمين الرحمن سبحانه. وعلى كل فإن يديه سبحانه اثنتان بلا شك، وكل واحدة غير الأخرى، وإذا وصفنا اليد الأخرى بالشمال فليس المراد أنها أنقص من اليد اليمنى بل كلتا يديه يمين، والواجب علينا أن نقول: إن ثبتت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم تؤمن بها، وإن لم تثبت فنقول: كلتا يديه يمين» اهـ من مجموع فتاواه ورسائله، جمع فهد بن ناصر السليمان (١/١٦٥).

(٤) هذا اللفظ لابن أبي عاصم في السنة (٥٤٦).

عذاب الله تعالى؛ كما قال سبحانه في الحديث القدسي، «الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، فمن نازعني واحداً منها قذفته في النار» رواه أبو داود، وفي رواية لمسلم: «فمن ينازعني عذبتة»^(٥).

وقد دلت شواهد التاريخ، وواقع البشر على هذه السنة الكونية القاضية بأن من نازع الله تعالى في الكبرياء والعظمة والملك والجبروت أهلكه الله عز وجل، وسلط عليه من خلقه من لم يحتسب ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدر: ٣١].

إن البشر ضعفاء؛ إذا اغتوا طغوا ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ﴾ [العلق: ٦-٧]، وإذا طغوا تكبروا، وإذا تكبروا تجبروا، وإذا تجبروا ظلموا؛ وإذا ظلموا أفسدوا ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥]، وقد قال سبحانه: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦]، ومن أعظم الفساد: الظلم الذي ينشأ عن العلو والاستكبار، العلو على الله تعالى وعلى شريعته، والعلو على الخلق، والاستكبار عن قبول الحق.

لقد قامت في الأرض حضارات، وانتشرت أمم، فشيدت عمراناً عظيماً، وخلفت تراثاً كثيراً؛ ولكنها استكبرت وظلمت، فأخذها الله تعالى أخذ عزيز مقتدر، فما بقي من حضارتهم وعمرانهم إلا آثار تدل

(٥) أخرجه مسلم في البر والصلة والأدب باب تحريم الكبر (٢٦٢٠) من حديث أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما، وأبو داود في اللباس باب ما جاء في الكبر من حديث أبي هريرة رضي الله عنه (٤٠٩٠)، والرواية الأولى لأبي داود، والثانية لمسلم.

الأجيال المتعاقبة على شدة بأسهم وقوتهم، وما كانت قوتهم لتدفع عنهم عذاب الله تعالى.. ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ (٧) مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ ﴿[الطور: ٧- ٨] . ﴿أَوْ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر: ٤٤] .

لقد غدا الظلم سنةً من السنن في هلاك الأجيال، وتقرر سبباً من الأسباب الرئيسة في سقوط الحضارات، وإبادة المدينيات، وإزالة الدول والحكومات ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: ١١٧] . ظلمت عاد وثمود، وقوم نوح وقوم لوط، وفرعون وهامان وقارون. فأين هم؟ وأين ممالكهم؟ وأين عمرانهم؟!

أهلكهم الله تعالى بالغرق، والخسف، والريح، والصيحة، وعذبهم بأنواع من العذاب، وأنزل بهم ألواناً من العقوبات ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ آلٍ﴾ [الرعد: ١١] .

وحضاراتٌ أخرى سَلَطَ اللَّهُ عليها جنوداً، لا يخافون الله فيها، ولا يرحمونها؛ فاستباحوا ديارها، وأبادوا خضراءها. هذه حضارة اليونان العتيقة التي ورثت تراثاً ضخماً، طغت وظلمت، وعلت واستكبرت، واستعبدت الخلق حتى قال فيلسوفهم: «إن اليونانيين ينبغي لهم أن يعاملوا الأجانب بما يعاملون به البهائم»^(٦)، فلم تمكث إلا يسيراً حتى

(٦) القائل هو الفيلسوف اليوناني أرسطاطاليس، انظر: النظام الدولي الجديد لياسر أبي شبانة (٣٧٦).

آلت إلى الانقراض، وسلَّط الله عليها الرومان؛ فاستباحوها وورثوها، ولم تقم لها قائمة أبد الدهر، ولم يبق منها إلا ما ينقل من تراثها، وبعض آثارها شاهداً عليها.

ولم يكن الرومان أحسن حالاً من اليونان؛ إذ طغوا وكفروا وظلموا؛ فبادت حضارتهم كما باد غيرها.

إنها سنة كونية، وآية ربانية، جعلها الله تعالى لمن يعتبر من البشر، وذكرها القرآن العظيم؛ ليستفيد المسلمون من ذلك، فقد ذكر الله سبحانه قصص الأنبياء وما جرى لهم من تكذيب أقوامهم، ثم ما حدث لأقوامهم من الهلاك والعذاب، ثم عَقَّب سبحانه وتعالى على ذلك بقوله: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ (١٠٠) وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْسِيبُ (١٠١) وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٠ - ١٠٢]، وما أكثر القرى التي أهلكها الظلم والطغيان!! فهذا هي عروشهم ساقطة، وآبارهم معطلة، وديارهم خراب يباب؛ فكانت عبرة للمعتبرين، ومنظراً موحشاً كثيلاً مؤثراً في الناظرين، داعياً إلى التأمل في الصور الخالية، والمنجزات الذاهبة ﴿فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبُئِرَ مُعَظَلَةٌ وَقَصْرٌ مَشِيدٌ (٤٥) أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٥ - ٤٦].

هذه أمة سبأ أخبر الله تعالى عن بساطينها وخضرتها، وأشجارها وعمرانها، ذكر سبحانه أنها آية جنتان عن يمين وشمال؛ فكفرت بالله تعالى، ولم تشكر نعمته، فأرسل عليها سيل العرم، وجعلها أحاديث للناس يتحدثون بها، ومزقهم شر ممزق؛ فكانوا آية للمعتبرين.

والدولة الشيعوية الكبرى التي ظلمت وطغت، وقررت العقيدة الإلحادية، وقالت: لا إله، والحياة مادة، سلط الله عليها البلاء من داخلها، فتخلخلت وتفككت إلى دويلات، ومزقت شر ممزق، وأضحت تستجدي العالم طعامها وكساءها، وأصبح بناتها يبذلن أعراضهن بملء بطونهن. الله أكبر! إنها آية حضرتها، وشهدناها، ونشهد عليها، فمن كان من البشر يظن أن الدب الشيعوي الجاثم على الصدور سينهار هذا الانهيار المريع، وأن رفاقها، وحملة شعاراتها الذين كانوا يفاخرون بها، ويدعون إليها قد ولّوا الأدبار عنها إلى غيرها، وصاروا يستحون من ماضيهم، ويخجلون مما قالوا وكتبوا.

وهكذا تدور الأيام، وتتعاقب الأعوام، ولا تتبدل سنة الله تعالى القاضية بأن الظلم والطغيان، والعلو والاستكبار سبب لسقوط الحضارات، وهلاك الأمم، وما ورثت أمة أخرى إلا بذلك، ولا يعتبر من البشر إلا من هداه الله تعالى، ووفقه صراطه المستقيم، وقليل ما هم، فاعتبروا - يا عباد الله - واتعظوا، وأحسنوا قراءة القرآن، وتدبروه، واعملوا بما فيه، وإياكم والغرور، فما اغترت أمة إلا هلكت، ولا ظلمت إلا سقطت ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]، ﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ

وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾ [التوبة: ٧٠].

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ [السجدة: ٢٢].
بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم،

الخطبة الثانية

الحمد لله حمداً طيباً كثيراً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى، أحمده وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه، ومن اهتدى بهداهم إلى يوم الدين.
أما بعد: فاتقوا الله - عباد الله - ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١].

أيها المؤمنون: ما حدث قبل أيام للقطب الرأسمالي^(٧)، الذي يتربع على سدة الزعامة في العالم، ويتفرد بالقرار، ويقرر مصير الشعوب والأمم، لا يخرج عن سنة الله تعالى في الأمم والحضارات. وإن فيه

(٧) وذلك في يوم الثلاثاء ٢٣/٦/١٤٢٢ هـ الموافق ١١/سبتمبر ٢٠٠١ م؛ إذا خطفت عدة طائرات مدنية أمريكية، وقامت بهجوم على برج مركز التجارة العالمية في نيويورك - أضخم بناء فيها ومن أكبر المعالم في أمريكا بل هو أكبرها - وكان نصيبه منها طائرتين ثم سقط البرجان سقوطاً هائلاً، وثار منه نار وغبار كأنه قنبلة نووية، وطائرة أخرى سقطت على وزارة الدفاع الأمريكية وأحدثت فيها أضراراً بالغة، ورُعب العالم من ذلك، وأغلقت أجواء أمريكا، وأوقفت حركة الطيران، وأقفلت أسواق المال، ومات آلاف، وانتفض العالم كله من جراء ذلك، نسأل الله العافية والسلامة.

من الدروس والعبر شيء كثير لمن تأمله، وفهم واقع البشر، مع فهمه للسنن الكونية التي سجلها القرآن العظيم. وإنه ينبغي للمسلم في مثل هذه الحوادث العظيمة أن يغلب جانب العبرة والعظة على جوانب الشماتة والتشفي، ونعوذ بالله أن نكون من الشامتين الغافلين، ونسأله تعالى أن يجعلنا من المعتبرين المتذكرين.

إن هذا الحدث لم يخرج عن تدبير الله سبحانه وتعالى وتقديره قيد أملة، فما كان لعملية ضخمة، تتعدد أطرافها، ويكثر مخطوطها ومنفذوها، أن تنجح هذا النجاح الذي بهر العالم كله وأدهشه لولا أن الله تعالى أراد لها النجاح؛ وهذا من الدلائل على قدرة الخالق سبحانه، كما أنه يدل على ضعف البشر مهما كانت قدرتهم وقوتهم، فلعل هذا نذير من الله تعالى للقبط الرأسمالي كي يرعوي ويقلع عن ظلمه وعلوه وجبروته؛ إذ إن من المتقرر أن من نازع الله تعالى في كبريائه وعظمته وجبروته عذبه الله تعالى. والكل يعلم الغطرسه والكبرياء والجبروت الذي يمارسه القبط الرأسمالي على البشر منذ سقوط الإمبراطورية الشيعية.

لقد برزت منازعتهم للخالق سبحانه في كثير من المجالات، وقادوا العالم بالظلم والعسف، ولم يقوموا فيهم بالعدل الذي هو السبب في بقاء الحضارات وازدهارها.

إنهم نازعوا الله عز وجل في شرعه وأمره، فقرروا فرض نظامهم الطاغوتي على جميع الأمم، على اعتبار أنه أصلح نظام للبشر!! ولم

يتركوا للناس أديانهم وثقافتهم وقيمهم التي يختارونها؛ بل سعوا بكل غطرسة وكبرياء إلى عوالة البشر على وفق مبادئهم ونظامهم السياسي والاقتصادي والأخلاقي والاجتماعي متوعدين كل من يقف في وجه إلحادهم الصارخ بالويل والثبور، والعقوبات الاقتصادية، والمقاطعة الدولية، وربما بالعمليات العسكرية. وهذا من أعظم الظلم والبغي!! إنهم وهم يحكمون العالم يمارسون الظلم، ويكيلون بمكيالين؛ فمن كان من غير البيض فالويل له، فإن دان بالإسلام ازداد ويله! واليهود القتلة الذين يستبيحون الحرمات، ويقتلون النساء والأطفال يجدون منهم كامل الدعم والتأييد فيما يمارسونه من ظلم وعدوان.

إن هذه الحادثة أظهرت ضعف البشر مهما أوتوا من قوة، وكشفت حقيقة مهمة تتلخص في أن أمر الله تعالى لا يرده حرص حريص، ولا تجدي معه الأقمار الاصطناعية، والأجهزة التجسسية. ولقد صدّق كثير من الناس أن أقمارهم وأجهزتهم تظهر غملة تدب في صحراء مظلمة، وتدل على ورقة سقطت في غابة مورقة؛ فإذا هذه النظرة تتحطم، والأسطورة تزول، ويأتيهم أمر الله تعالى من داخلهم، نسأل الله العافية والسلامة.

إن الرعب الذي أصاب كثيراً من البشر، وإغلاق الأجواء، وتوقف حركة الطيران، والارتباك الذي حصل في أسواق المال؛ لمن أكبر الدلائل على ضعف البشر وعجزهم، في أكبر دولة تُحتذى في البناء والعمران والتطور، وقد رأى الناس هذه المباني العظام التي شيدها البشر تهوي

في لحظة واحدة، ويخرج من نجا من تحت أنقاضها كأنهم الموتى إذا بعثوا من قبورهم، فزعين خائفين. وهذا يذكر بفزع يوم القيامة الذي لا يساوي فزع الدنيا عنده شيئاً. . نسأل الله تعالى أن يؤمننا يوم الفزع والخوف.

أيها الإخوة: إن مكافحة الإرهاب، والقضاء على أعمال العنف لن تنجح إلا بإقامة العدل، ورفع الظلم عن المظلومين، ولن يجدي أي أسلوب آخر مهما كانت قوته وشدته. وفرعون كان يقتل المواليد من بني إسرائيل لدفع أمر الله تعالى؛ ولكن الله تعالى أتاه من حيث لم يحتسب، فتربى عدوه في بيته، وأكل طعامه، وشرب شرابه، ثم كان هلاكه على يده بعد ذلك! والظلم مبيد الأمم، ومقوض الحضارات. أسأل الله تعالى أن يحرس بلادنا وبلاد المسلمين من الفتن ما ظهر منها وما بطن، وأن يكفيننا شر أنفسنا وشر ذنوبنا، وشر أعدائنا، وأن يرينا الحق حقاً ويرزقنا اتباعه، وأن يرينا الباطل باطلاً ويرزقنا اجتنابه، وأن يتوفانا على الإسلام والسنة غير خزايا ولا مفتونين، وأن يصلح ولادة أمرنا، ويدلهم على ما فيه خير البلاد والعباد إنه سميع مجيب. . . سبحان ربك رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين. . .

١٨٦- الغرب الرأسمالي والبراجماتية

٢/٢ / ١٤٢٤هـ

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره؛ ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلَّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أما بعد: فإن أحسن الحديث كلام الله تعالى، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها الناس: من طبيعة البشر أنهم يجتمعون ويتعايشون ويتبادلون المصالح والمنافع، ولا يستغني بعضهم عن بعض، ولكل أمة من الأمم البشرية مبادئ وقيم تفرضها على أفرادها، ولها قانون ونظام يتحكمون إليه. وهذه المبادئ والقيم والنظم والقوانين قد تكون ربانية كما في شرائع المرسلين عليهم السَّلام، وقد تكون بشرية وضعها فلاسفة منظرون، أو هي تعليمات شيوخ قبائل أو كبار القوم وزعمائهم، وتتوارثها الأجيال

عقب الأجيال حتى تصير عرفاً يرضاه الناس .

والأنبياء عليهم السّلام وإن كانت حكمه بعثهم تعبيد الناس لله رب العالمين وحده لا شريك له ؛ كما قال سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل : ٣٦] ، وفي الآية الأخرى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء : ٢٥] ، فإنهم مع هذه المهمة الجليلة العظيمة يأتون بالشرائع من عند الله تعالى ؛ تلك الشرائع التي تصل الإنسان بربه ، وتبين له كيفية عبادته ، وتنظم علاقة الإنسان مع الآخرين ممن هم على دينه ، وممن هم على غير دينه ، وتأتي بالحدود والواجبات التي فيها صلاح الأفراد والدول .

وهذه التفصيلات في الشرائع مع ما فيها من منافع العباد ، وصلاح أحوالهم ، واستقامة أمورهم ، وهناء عيشهم ، وتنظيم العلاقات فيما بينهم ؛ فهي كذلك عبادات يتعبد الناس لربهم بامثالها ، فيؤجرون على ذلك في أخراهم ، مع ما يحصل لهم من صلاح الدنيا ؛ فكان للملتزمين بشريعة الله تعالى صلاح الدنيا وثواب الآخرة ، وذلك فضل من الله تعالى ، والله ذو الفضل العظيم .

والرافضون لشريعة الله تعالى ، المستكبرون عن عبادته ، المستنكفون عن نظامه وقانونه ؛ لا تنتظم لهم أمور الدنيا ، ولا تصلح أحوالهم فيها من كل وجه ، مع ما لهم في الآخرة من الخزي والعذاب .

فصلاح الدين يصلح الدنيا والآخرة ؛ كما كان حال المسلمين في

عهد الصحابة والتابعين لهم بإحسان. وفساد الدين يفسد الآخرة، ولا يصلح الدنيا من كل وجه؛ كما هو حال الأمم الغربية المعاصرة التي لما تبرمت من النظام الإقطاعي، والتسلط الكنسي ثارت ثورتها على الدين والقيم والأخلاق، وأعلنت العلمانية ديناً تدين به، والحرية شريعة تعمل بها، وهتفت بشعارات: (الحرية والمساواة والإخاء)، وركبت كل موجة من موجات الإلحاد والفساد، وانتشرت فيها نظريات وفلسفات، فيما يتعلق بالنفس البشرية، وأصل خلقتها ومكوناتها ومصيرها، ونظريات أخرى في السياسة وعلم الاجتماع والاقتصاد وغير ذلك.

نظريات وفلسفات، لا تهدي ضالاً، ولا تدل حائراً، ولا تعطي علماً نافعاً؛ بل تزيدهم جهالة إلى جهلهم، وحيرة إلى حيرتهم. والتاريخ الأوربي يحكي أنه لما حصل التقدم في المجالات التجريبية، وثار الغرب ثورته الصناعية ظهرت نخبة من التجار والصناع، ومُلاك رؤوس الأموال حوّلوا شعار النهضة الأوروبية (حرية إخاء مساواة) إلى شعار شكلي لا قيمة له في أرض الواقع.

نعم، تحقق قدر من الحرية ممثلاً في المكاسب الديمقراطية السياسية؛ ولكنهم أخفقوا في تحقيق الإخاء والمساواة داخل أوروبا، بينما أخفق الشعار كله فيما يختص بسلوك سلطات الغرب الاستعماري مع المستعمرات؛ إذ كشفت هذه السلطات عن أطماع أنانية انتهكت في سبيلها كل قيم الحرية والإخاء والمساواة^(١).

(١) انظر: العقل الأمريكي يفكر، لشوقي جلال (٤٥).

وفي أخريات القرن التاسع عشر الميلادي تحولت الرأسمالية الصناعية من رأسمالية المنافسة الحرة إلى رأسمالية احتكارية قذرة، وأضحت مقدرات البلدان الرأسمالية تقبض عليها حفنة من كبار رجال الأعمال، أبرز صفاتهم: القسوة والتحجر، والوحشية في المعاملات، والجرأة العدوانية، مسكوا زمام الأمور، وطوعوا الاقتصاد والسياسة والإعلام لمصالحهم، وضاعت الأخلاق التقليدية، وتلاشت فاعلية القوانين، وصيغت قوانين جديدة لصالح رجال الأعمال المسيطرين على زمام الأمور في بلدانهم، وبات كل ما يحقق الكسب موضع تقدير واحترام حتى ولو كان نهباً وسرقة^(٢).

وظهر فلاسفة كبار عند بني قومهم وضعوا النظريات التي تخدم هذا التوجه النخبوي؛ لإعانة القوي على سحق الضعيف، فمن النظريات التسويغية التي تجعل الغاية تبرر الوسيلة إلى الفلسفات البراجماتية^(٣) الذرائعية النفعية، التي تلغي الحقائق واليقينيات، والثوابت والمسلمات، سواء كانت دينية أم أخلاقية أم عرفية، وتخضعها للتجربة، فما كان منها فيه نفع دنيوي مادي ملموس فهو الحقيقة واليقين ولو كان مناقضاً

(٢) المصدر السابق (٦٥).

(٣) أصل الكلمة يونانية من (براجما) أي: العمل، وأبرز منظريها ويليام جيمس وهو فيلسوف أمريكي (١٨٤٢ - ١٩١٠م)، وله كتاب فيها باسمها، وشارلز بيرس وهو أمريكي أيضاً (١٨٣٩ - ١٩١٤)، نظر لهذه الفكرة في كتابه (تثبيت الاعتقاد) وجون ديوي وهو فيلسوف أمريكي أيضاً وهو أحد كبار مفكري ومنظري هذا المذهب.

للتوابت والمسلمات، والأخلاق والديانات.

ونتج عن هذه النظريات والفلسفات أخلاقٌ وضيعة، وقواعد رديئة، ومقولات سيئة كقولهم: النجاح لا يعرف الأخلاق^(٤)، والفضيلة تعني كسب المال ونهب الناس، والمال لا تعنيه أخلاق صاحبه^(٥)، وغيرها من المقولات البشعة.

إن الفكر الذرائعي الذي انتشر في البلاد الرأسمالية ناسبه مفهوم الاقتصاد الحر، وتحرير التجارة من القيود؛ لأنه فكر قائم على الصراع من أجل البقاء، والبقاء لا يكون إلا للأصلح، والأصلح هو الأقوى، دون السؤال عن معايير أخلاقية، أو ضوابط عرفية؛ فضلاً عن أحكام دينية.

ومن هنا يأتي تسويق نهب الثروات، وإشعال الحروب، وإفقار الدول، وتجويع الناس، وسن القوانين الجائرة التي تكافئ الظالم على ظلمه، وتسحق المظلوم لضعفه وعجزه.

لقد دمروا التوابت والمسلمات، وغيروا المفاهيم والأعراف؛ ففي مفهومهم لا وجود لشيء اسمه خيرٌ وشر، أو حقٌ وباطل، أو حسن وقبيح، وإنما الموجود قويٌ وضعيف، فالخير والحق والحسن هو القوة،

(٤) هذه المقولة للأمريكي الكسندر هاملتون قالها عقب حرب الاستقلال كما في الموسوعة الأمريكية (٢٩٣/٥ - ٢٩٦)، عن العقل الأمريكي يفكر (٩٩).

(٥) العقل الأمريكي يفكر (١٠٠).

والقوي هو مالك الحق والخير، ومهما عمل من شر أو ظلم الآخرين أو اعتدى عليهم ففعله حسن؛ لأنه قوي، والمعيار هو القوة. والشر والباطل هو الضعف، والضعيف يجب دحره وسحقه وتدميره بكل وسيلة؛ لأنه غير لائق، وغير اللائق يجب التخلص منه؛ لإيجاد أجناس ومجتمعات أرقى، وهي بالبقاء أحق من غيرها، وهذه الأجناس التي هي أحق بالبقاء من الأجناس الأخرى هي أجناسهم ليس إلا.

يقول المفكر الغربي نيتشه - وهو من مشاهير منظريهم - معبراً عن هذه العنصرية السافرة، وداعياً إلى شريعة الغاب، يقول: «إن الأخلاق ليست إلا اختراع الضعفاء؛ لكي يقيدوا بها سلطان الأقوياء!! فلنكن حرباً على الأخلاق... ولتخط في نظرنا إلى الأشياء ذلك الخير وذلك الشر. يجب أن يكون لنا من الجسارة ما نحيا به حياة حرة سافرة وفي وضوح النهار، وإذا ما اقتضى ذلك أن نسير فوق طريق من الجماجم فعلياً أن نسحقها بأقدامنا دون أن يتحرك ضميرنا بلام. يجب أن تكون لنا قلوبٌ قاسية، يجب أن نرسل صرخة الحرب دون وجل أو ندم في وجه مصطلحات العالم، ومصطلحات أخلاق القطيع، يجب أن نرسلها من النشوة بخمرة النصر، وحمى الكبرياء، وعلى هذه المبادئ لن تكون القوانين الأخلاقية إلا مبتدعات جديرة بالازدراء هي وأصحابها الذين وضعوها... ولن تكون المعاهدات الدولية أكثر من قصاصات أوراق. إن الإرادة الوحيدة الصحيحة إنما هي إرادة القوة، وإن الحق الحقيقي إنما هو الذي يعلو ولا يُعلى عليه... إن القوة هي كل شيء، وهي

وحدها التي تقرر الحق»^(٦) اهـ.

وإذا كان نيتشه قد عجز عن تسويق فلسفته الجائرة، المرتكزة على القوة فحسب؛ فإن مفكر البراجماتية ومؤصلها ومنظرها ويليام جيمس قد قدم المسوغات الفلسفية للأناية والوحشية، والسير فوق الجماجم، وإلغاء مصطلحات الخير والشر، والحق والباطل؛ وذلك بمحاولة إقناع الناس أن السعي من أجل تحقيق المصالح الشخصية هو الحق الوحيد في هذا العالم، وهو الخير الذي لا شرَّ فيه، وما عداه فهو الشر والباطل. وعلى شعوب العالم أن تقتنع بالأحقية الدائمة للقوي بأن يفعل ما يشاء، وبِئزَّع أي حق عن الضعفاء المستضعفين. وإقناعهم يكون بالأكاذيب والغش والتدليس، وتزوير الحقائق عبر وسائل الإعلام، وإذا ما انكشفت اللعبة، وظهرت الحقيقة كان من حق هذا القوي المزور أن يسحق الجماهير بالقوة لتحقيق مصالحه الشخصية.

(٦) انظر: أمريكا والإسلام النفعي لمحمد إبراهيم مبروك (١٠٧ - ١٠٨) ونيتشه فيلسوف ألماني (١٨٤٤ - ١٩٠٠م) كان والده قسيساً بروتستانتيّاً، وتوفي والده وهو صغير فتربى على يد الراهبات، ولما بلغ ثماني عشرة سنة مرَّ بمرحلة الشك والتشتت والإلحاد، ثم صار حرباً على الأخلاق والقيم والديانات، وفي عام ١٨٨٩م فقد عقله وظل مجنوناً إحدى عشرة سنة وهلك سنة ١٩٠٠م عامله الله بما يستحق، وكان يرى أن الإبداع لا يلتقي مع القيم، فمن أراد الإبداع فعليه تحطيم القيم، ولمقولاته أصداء كبيرة عند كثير من المقلدين له، الذين يعتدون على المقدسات والقيم والأخلاق باسم الإبداع. انظر: موسوعة أعلام الفلسفة (٢/ ٥١٢-٥١٥).

وعلى هذا الفكر الذرائعي النفعي شيدت حضارة رعاة البقر، ووصلت إلى ما وصلت إليه من قوة وتطور؛ فهي ما قامت إلا على جماجم الهنود الحمر، ثم تغذت ولعقود طويلة على دماء الآخرين وخيراتهم وثرواتهم بأخذها منهم بالمكر والغش، أو انتزاعها بالقوة والبطش. والحروب التي يسعونها بين حين وآخر لا تخرج عن هذه السياسات النفعية الأنانية.

يقول أحد زعمائهم وهو ويلسون «بما أن التجارة لا تعرف حدوداً قومية، وبما أن المنتج يحتاج إلى العالم ليصبح بأجمعه سوقه التجاري فلا بد إذن من أن يسبقه عَلمُ بلاده؛ حتى يوفر له فرصة اختراق كل الأبواب المغلقة، ولا بد أن يحمي رجال الدولة الامتيازات التي يحصل عليها رجال المال حتى ولو أدى ذلك إلى تدمير سيادة الأمم التي تحاول التصدي لذلك، يجب إقامة المستعمرات أو ضمها حتى لا نترك أي ركن في العالم»^(٧)، ويبين هذا الزعيم الهالك مهمته كأعلى سلطة في بلاده بأنها تتلخص في تلقين كل شعب مُستَعْمَر النظام وضبط النفس، والتدريب على القانون والطاعة. ويعلق أحد الكتاب الغربيين على ذلك فيقول: «ومعنى ذلك من الناحية الواقعية: الخضوعُ لحقنا في استغلالهم ونهبهم»^(٨).

(٧) انظر: أمريكا طليعة الانحطاط لروجيه جارودي، تعريب عمرو زهيري (٥٣).

(٨) المعلق على كلام ويلسون السابق روجيه جارودي في كتابه السابق (٥٣).

وألّف اليهودي ناعوم تشومسكي كتابه «ضبط الرعاع» في هذه المقولة ومثيلاتها.

ويتحسر كاتب غربي آخر على هذا التردي الذي وصلوا إليه فيقول: «الحقيقة المؤلمة أننا أصبحنا أمة من السوق المتفاخرين الجهلة مات فيهم الحس الأخلاقي»^(٩)، ويقول آخر: «أصبح الكم أهم من الكيف، وشاعت روح الابتذال الوقحة في كل مسارب الحياة الأمريكية»^(١٠). كفى الله المسلمين شرهم وكيدهم، وأبطل مؤامرتهم ومخططاتهم، ورددهم على أعقابهم خاسرين، إنه سميع مجيب.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (١٥) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لَنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ [فصلت: ١٥-١٦].

بارك الله لي ولكم في القرآن الكريم، ، ، ،

الخطبة الثانية

الحمد لله حمداً طيباً كثيراً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى، أحمده وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم وبارك عليه

(٩) قائل ذلك هو الأديب الأمريكي (هوامبروزبيرس) كما في الموسوعة الأمريكية (٥٨١/٨).

(١٠) قائل ذلك هو الأديب الأمريكي (مارك توين) كما في الموسوعة الأمريكية (٨٨/٥) عن العقل الأمريكي يفكر (١٠٤).

وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهداهم إلى يوم الدين .

أما بعد: فاتقوا الله تعالى وأطيعوه، واحذروا غضبه فلا تعصوه ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحشر: ١٨] .

أيها الناس: بما أن المغلوب مولعٌ باتباع الغالب وتقليده، ولما كانت الغلبة في القرن الماضي لمن يدينون بالأفكار الذرائعية النفعية فإن هذا الفكر الخبيث انتشر في البشر، وبنيت عليه قواعدهم ومعاملاتهم، ولم يسلم من ذلك إلا من رحم الله تعالى . بل إن العلوم السياسية، وعلاقات الدول والأمم فيما بينها ما خرجت إلا من رحم تلك النظريات النفعية التي تقدس القوة، وتقصي الشرائع والأخلاق والقيم، وتسوغ للقوي أن يفعل بالضعيف ما يشاء!

أليسوا يقولون: ليس في السياسة صداقاتٌ دائمة، ولا عداوات دائمة؛ وإنما مصالح مشتركة!! فعدو الأمس قد يصبح صديق اليوم، وصديق اليوم قد يصبح عدو الغد، وهكذا. وقد رأينا في العقدين الماضيين تحولاتٍ كبرى في الصداقات والعداوات بين الأمم والدول . لقد كان واجباً على أمة الإسلام أن تدرك حقيقة أعدائها، وأن تفهم الفكر الذي يركزون عليه في علاقاتهم مع الآخرين؛ فيكون اعتمادها على أفرادها لا على صداقات أعدائها، وحمائيتهم لها، وما يرمونه معهم من معاهدات واتفاقيات لا تخرج عن دائرة المصالح والمنافع لهم ولو كان فيها ظلم كبير للمسلمين . وقد رأينا كيف تنقلب الصداقات

إلى عداوات في لحظة من اللحظات يجدون فيها أن المصالح قد تغيّرت؛ كما فعلت القوة الرأسمالية التي أصلت للفكر النفعي، ثم صدّرته إلى غيرها، وبنت بموجبه علاقتها مع الآخرين على المصلحة فحسب. لقد زعمت هذه القوة الغاشمة أنها حررت أوربة القديمة من نازية هتلر، وأعادت لها الديمقراطية، في الوقت الذي كانت تدعم فيه فاشية موسوليني الاستبدادية؛ لأنها كانت تأمل في أن يقف في وجه البؤلشفية المتوسعة آنذاك^(١١).

وما يفعلونه الآن من دمار في العراق، وقتل للأبرياء من الأطفال والنساء والشيوخ ليس والله لأجل إزالة نظام مستبد، ولا لنشر الديمقراطية والحرية كما يزعمون؛ وإنما لأجل مصالحهم ومصالح الدولة اليهودية التي تأمل في بناء إسرائيل الكبرى من النيل إلى الفرات. والذين اعترضوا على تلك الحرب من إخوانهم وأبناء دينهم ليس اعتراضهم عليها لأنها خرجت عن إطار النظام الدولي؛ وإنما لأن المصالح ستستأثر بها هذه الدولة الغاشمة دونهم، وربما خنقتهم اقتصادياً إذا تمكنت من الاستيلاء على النفط^(١٢).

(١١) انظر فصلاً مهماً في ذلك في: أمريكا طليعة الانحطاط (٥٤ - ٥٩).

(١٢) هذا إشارة إلى الحرب الأمريكية التي أشعلتها ليلة الخميس ١٧/١/١٤٢٤هـ، ضد العراق ومعها بريطانيا وأستراليا، وعارضتها سائر دول العالم بما في ذلك مجلس الأمن والاتحاد الأوروبي وغيرها من الهيئات والمنظمات، ولكن أمريكا مضت في مشروعها، ولا يزال القصف المدمر مستمراً على العراق إلى ساعة كتابة هذه الخطبة فرج الله عن المسلمين في العراق، ورد كيد الأعداء إلى=

وما دام أن المُسَيَّر لهم في سياساتهم وحروبهم المبدأ النفعي الذي يعطي القوي كل الحق في أن يسحق الضعيف فلا عجب حينئذ أن نسمع العجب من تصريحاتهم، ونرى العُجَابَ من أفعالهم. فهم يعاملون الأسرى معاملة الحيوان بل أقل من ذلك، وفي المقابل يغضبون إذا ظهر أسراهم على الشاشات المرئية، ويزعمون أن ذلك مخالفٌ لاتفاقيات الحروب!! . ويقذفون القنابل العنقودية الضخمة على المدنيين صباحاً ومساءً؛ فيقتلون العشرات، ويجرحون المئات، ويغضبون من قتل أفراد معدودين من جنودهم في عملية استشهادية، ويعتبرون ذلك إرهاباً!!^(١٣).

تلك هي عدالتهم التي يتشدقون بها، وحریتهم التي يريدون نشرها،

= نحورهم بمنه وكرمه . وقد عارضت كل من فرنسا وروسيا والصين وألمانيا هذه الحرب، وهددت الدول الثلاث الأولى باستخدام حق النقض (الفيتو) في مجلس الأمن لو صوت الأعضاء لصالح الحرب، وفشلت أمريكا في استصدار قرار من مجلس الأمن؛ فأعلنت الحرب الضروس بمفردها وبلا قرار دولي. (١٣) هذا إشارة إلى تصريحات وزير الدفاع الأمريكي رامسفيلد الذي اعتبر إظهار العراقيين لبعض الأسرى الأمريكان على شاشات التلفزة انتهاكاً لاتفاقيات جنيف فيما يتعلق بالأسرى بينما الأمريكان يعرضون المئات من الأسرى في أوضاع مُذلة ولا يرون ذلك انتهاكاً؛ بل وضعوا أسرى أفغانستان في جزيرة جواتنامو بكوبا في أقفاص كأنهم حيوانات، ولم يحاكموهم أو يعاملوهم معاملة أسرى الحرب. ولما فجرَ عراقي سيارته أمام نقطة تفتيش أمريكية داخل العراق اعتبر الأمريكان ذلك إرهاباً في الوقت الذي يقذفون فيه بغداد بقنابل عنقودية وقذائف تزن الأطنان، وآلاف الصواريخ والقذائف.

وديمقراطيتهم التي يفرضونها على الناس . فَحَقَّ لكل معجب بهم ،
مدافع عنهم ، داعٍ إلى حريتهم ومبادئهم وقيمهم - وقد رأى تعري قيمتهم ،
وانكشاف سوءاتهم - حَقَّ له أن يُقنَّع رأسه ، ويغطي وجهه ؛ حياةً مما
فعلوا ، وأن يتوب إلى الله تعالى من خطيئته ، ويكون نصيراً للمسلمين ،
فاضحاً للكافرين والمنافقين .

ومن حسناتِ هذه الأحداث السيئة أنها كشفت شيئاً كثيراً من
المستور ، وأظهرت حقيقة القوم ؛ ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيى من
حيى عن بينة .

أسأل الله تعالى أن يفضحهم في الدنيا والآخرة ، وأن يرد كيدهم
إلى نحورهم ، وأن يخرجهم من العراق وأفغانستان وفلسطين أذلة
صاغرين إنه سميع مجيب .

ألا وصلوا وسلموا على نبيكم ، كما أمركم بذلك ربكم ، ، ، ،

١٨٧- رعاة البقر وإشعال الحروب

١٨/١/١٤٢٤هـ

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلّ له، ومن يضللّ فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله . . ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أما بعد: فإن أحسن الحديث كلام الله تعالى، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها الناس: لما خلق الله تعالى البشر، وأهبط آدم عليه السلام إلى الأرض، وجعلها ميداناً للابتلاء والامتحان، ومقراً للعمارة والاستخلاف هياً فيها من أسباب بقاء البشر ما يمكنهم من عمارتها، وتوارث خيراتها جيلاً بعد جيل؛ وذلك بتوافر الأمن والرزق فيها. ولو كان الإنسان لا يأمن على نفسه فيها لما أمكنه عمارتها، ولو لم يسخر الله تعالى لبني آدم ما في الأرض من أرزاق وخيرات لهلكوا ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ

وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿البقرة: ٣٦﴾، والأرض لا تكون مستقرّاً ومتاعاً إلا بتوافر الأمن والرزق.

إنه لا خوف على البشر من طير أو حيوان أو وحش أو جبل أو بحر أو ما سواه، لأنها كلّها مسخرة لهذا البشر، ولكن الخوف كل الخوف على البشر من البشر، فهم يبغون بعضهم على بعض، ويعتدي بعضهم على بعض، ويظلم بعضهم بعضاً؛ ولذا جاءت شرائع الأنبياء عليهم السلام تأمر بالعدل، وتحض عليه، وتدعو إليه، وتنهى عن الظلم، وتحذر منه، وتبين عواقبه الوخيمة ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ﴾ [النحل: ٩٠].

والذين تكلموا عن صلاح الخلق، وعمارة الأرض، وازدهار العمران، ورقي الحضارة؛ جعلوا قانون ذلك إقامة العدل، وعزو كلّ خراب وفساد وهلاك إلى الظلم.

يقول الماوردي رحمه الله تعالى: «إن مما تصلح به حال الدنيا: قاعدة العدل الشامل الذي يدعو إلى الألفة، ويبعث على الطاعة، وتعمّر به البلاد، وتنمو به الأموال، ويكبر معه النسل، ويأمن به السلطان، وليس شيء أسرع في خراب الأرض، ولا أفسد لضمائر الخلق من الجور؛ لأنه ليس يقف على حد، ولا ينتهي إلى غاية، ولكل جزء منه قسط من الفساد حتى يُستكمل».

ثم نقل الماوردي عن بعض البلغاء قوله: «إن العدل ميزان الله الذي وضعه للخلق، ونصبه للحق، فلا تخالفه في ميزانه، ولا تعارضه في

سلطانه . . . فإذا كان العدل من إحدى قواعد الدنيا التي لا انتظام لها إلا به، ولا صلاح فيها إلا معه وجب أن يُبدأ بعدل الإنسان في نفسه، ثم بعدله في غيره»^(١).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: «أمور الناس تستقيم في الدنيا مع العدل أكثر مما تستقيم مع الظلم في الحقوق، ويقال: الدنيا تدوم مع العدل والكفر ولا تدوم مع الظلم والإسلام»^(٢).

ويقول أيضاً: «العدل نظام كل شيء فإذا أقيم أمر الدنيا بعدل قامت وإن لم يكن لصاحبها في الآخرة من خلاق، ومتى لم تقم بعدل لم تقم وإن كان لصاحبها من الإيمان ما يجزى به في الآخرة»^(٣).

ولما كتب بعض عمال أمير المؤمنين عمر بن عبدالعزيز رحمه الله تعالى إليه يقول: «أما بعد فإن مدينتنا قد خربت، فإن رأى أمير المؤمنين أن يقطع لها مالاً يرُمُّها به فعل» ردَّ عليه عمر رحمه الله تعالى بقوله: «أما بعد: فقد فهمت كتابك، وما ذكرت أن مدينتكم قد خربت، فإذا قرأت كتابي هذا، فحَصِّنْها بالعدل، ونقِّ طرقها من الظلم، فإنه مَرَمَّتْها والسلام»^(٤).

على هذا المنهج الحق، والأصل الراسخ بنى المسلمون في عهدهم

(١) نضرة النعيم (٧/٢٧٩٣)، وانظر: أدب الدنيا والدين للماوردي (٢٠٩).

(٢) الحسبة (١٤٧).

(٣) المصدر السابق (١٤٨).

(٤) الحلية لأبي نعيم (٥/٣٠٥).

الزاهر عمرانهم، وفتحوا البلدان، وحرروا العباد من الظلم والظالمين، حتى كان أصحابُ الملل الأخرى من يهود ونصارى وغيرهم يفضلون حكم المسلمين على حكم بني دينهم وجنسهم؛ لما رأوه من عدل الإسلام والمسلمين. وقد أجمع مؤرخو أوربة على أن فتح المسلمين للأندلس كان أرحمَ من فتح الغوط النصارى لها^(٥)؛ لأن المسلمين حكموهم بالعدل، وقاموا فيهم بالقسط، ولا أدل على ذلك من لجوء كثير من نصارى الأندلس في التحاكم إلى المحاكم الإسلامية بدل التحاكم إلى رهبانهم الذين لا ينصفونهم^(٦).

لقد رفع الإسلام ما ثقل من الإتاوات، وردَّ الأموال المسلوقة إلى أربابها، وانتزع الحقوق من مغتصبيها، ووضع المساواة في الحق عند التقاضي بين المسلم وغير المسلم. وبلغ أمر المسلمين في الأندلس أن لا يقبل إسلام داخل فيه إلا بين يدي قاضٍ شرعي بإقرار من المسلم الجديد أنه أسلم بلا إكراه، ولا رغبة في دنيا^(٧).

وما أقام المسلمون العدل في خصومهم، وعاملوا غيرهم بالرحمة إلا لأنهم يرون أن البشر سواسية في الأصل والمنشأ، وفي المال والجزاء، لا فرق بين عرق وآخر؛ فكلهم لآدم وآدم من تراب، وعاشوا في الأرض، ويدفنون فيها، ويبعثون منها، ثم يجزون بأعمالهم، إن خيراً فخير،

(٥) الإسلام والحضارة العربية لمحمد كردعلي (١٧/١).

(٦) انظر: المصدر السابق (١/٢٠٤).

(٧) المصدر السابق (١/٢٠٥).

وإن شراً فشر، لا فرق في شيء من ذلك بينهم، وتفاضلهم عند الله تعالى إنما يكون باتباع أمره، واجتناب نهيه، وإقامة دينه ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

والظلم ينشأ عن الاغترار بالقوة والقهر، فإذا ما انضم إلى الغرور اعتقاداً بالتمييز العرقي على سائر الناس فإن الظلم يتضاعف، وإذا كان منطلق هذا الاعتقاد بالتمييز دينياً أصبح ظلماً لا يطاق بحال من الأحوال. وهذا هو حال صهاينة اليهود والنصارى، الذين يرون أن الله تعالى فضلهم في أصل خلقتهم على غيرهم، وسخر بقية البشر لخدمتهم، فهم يفعلون ما يفعلون من قتل لغيرهم، وعلو على الناس، وفساد في الأرض لأجل ذلك.

وانطلاقاً من هذا الاعتقاد فليس غريباً ما يفعله رعاة البقر الذين كانوا قبل خمسة قرون لصوصاً وقطاع طرق وقراصنة إثر رحيلهم من أوربة إلى العالم الجديد عقب رحلة من يسمونه الرحالة الجغرافي: كريستوفر كولبوس^(٨)، وهو في واقع الأمر لص مستعمر، ذهب غازياً للهند بحثاً

(٨) هو رحالة جنوبي نشأ في (جنوة) - وهي حالياً مدينة في إيطاليا - عرض مشروع رحلته المتضمنة كشف طريق إلى الشرق الأقصى بالملاحة نحو الغرب على ملك البرتغال آنذاك فرفضه؛ لعدم الحاجة إلى كشف طرق بحرية جديدة، ثم عرضه على ملكة أسبانيا آنذاك (إيزبيلا) فوافقت على مشروعه ومولته وأبحر في عام (٨٩٧هـ) الموافق (١٤٩٢م) وحملته الملكة رسائل للملوك دول آسيا، وبدأ رحلته من ميناء (باولوس) الأسباني وبرفقته ثلاث سفن على متنها مئة =

عن الحرير والتوابل؛ ولكن البحر قذفه إلى إحدى جزر الكاريبي فظن أنه في الهند، وأطلق على سكان العالم الذي يزعم أنه اكتشفه «الهنود الحمر» وهم السكان الأصليون لذلك العالم الجديد، فلما لم يجد ما يريد سرق الذهب واسترق البشر^(٩).

كتب هذا اللص المكتشف في يومياته يقول: «كنت على درجة عالية من اليقظة، وأجهدت نفسي لأعرف إن كان لديهم ذهب - يعني السكان الأصليين - فقد رأيت بعضهم يتحلون بقطع صغيرة من الذهب معلقة في ثقب في الأنف... إلى أن قال: هذه الجزيرة كبيرة جداً، وإنني مصمم على الدوران حولها؛ لأنني علمت أن بها أو بقربها يوجد منجم ذهب»^(١٠).

كانت أوربة وقت هذا الاكتشاف تفتقر إلى الأمن والاستقرار بسبب الجوع والأمراض، وما إن انتشرت شائعة العالم الجديد حتى هاجروا

= وعشرون بحاراً، فقذف به البحر إلى جزر (لوكايس) بالقرب من أمريكا الشمالية، وبدأ بالبحث عن مملكة (كاني) التي هي الصين لتسليم رسالة الملكة فلم يجدها؛ لأنه لم يكن في آسيا، ويقال: إنه مات عام (٩١٢هـ) الموافق (١٥٠٦م) وهو يظن أن تلك الجزر التي اكتشفها تابعة لآسيا، انظر: الموجز في تاريخ الكشف الجغرافي لجورج هارب، ترجمة عبد العزيز طريح ص (١٤٣)، وتاريخ الجغرافيا والجغرافيين في الأندلس لحسين مؤنس ص (١٧٢)، وتاريخ أوروبا وأمريكا الحديث لعبد الفتاح حسن أبو عطية ص (١٦).

(٩) انظر: أمريكا وأزمة ضمير لمحمد جلال عناية (٢٢ - ٢٣).

(١٠) المصدر السابق (١٣ - ٢١)

إليه جماعات إثر جماعات، فيهم الكاثوليك وفيهم البروتستانت، وكان البروتستانت يظنون أن تلك البلاد هي البلاد الموعودة في التوراة المحرفة التي أعطاهم إياها الرب تبارك وتعالى؛ ولذلك أطلقوا عليها في بداية أمرهم (أورشاليم)، وسموا مواقعها بأسماء استقوها من التوراة.

ولما كانوا مغترين بقوتهم، ويحسون بتفوقهم العرقي والثقافي على غيرهم، ويعتقدون أن البروتستانتية هي التعبير الحقيقي عن الإيمان بالنصرانية؛ فإنهم رأوا أن غيرهم أقل منهم عرقاً، وأدنى منزلة، فكان الواجب تطهير تلك البلاد الجديدة من أهلها، أو تسخيرهم في خدمتهم، ولا سيما أنهم كانوا يظنونهم الكنعانيين، وهكذا فعلوا بالسكان الأصليين، ويا لفظاعة ما فعلوا.

يقول مايكل هولي وهو من نشطاء الهنود الحمر: «تاريخنا مكتوب بالخبز الأبيض. إن أول ما يفعله المنتصر هو محو تاريخ المهزومين، ويا الله ما أغزر دموعهم فوق دماء ضحاياهم، وما أسهل أن يسرقوا وجودهم من ضمير الأرض، هذه واحدة من الإبادات الكثيرة التي واجهناها وسيواجهها الفلسطينيون، إن جلادنا المقدس واحد»^(١١).

لقد أفنوا ملايين البشر من السكان الأصليين، وعلى مدى أربعة قرون، لا شيء إلا لأنهم يريدون الأرض لهم وحدهم، لا يشاركون فيها أحد يكون نداً لهم؛ وذلك لتفوقهم العرقي على غيرهم حسب نظرتهم.

(١١) يقصد بالخبز الأبيض: أي أن تاريخهم غير مكتوب، فجرائم المستعمرين قد تم طمرها من قبلهم. انظر: حق التضحية بالآخر لمنير العكش (٧).

يقول أحد كتابهم معترفاً بالحرقة التي فعلوها بالسكان الأصليين: «بعد أجيال قليلة من مواجهة الهنود الحمر الأولى للأوروبيين فإن الغالبية العظمى من شعوب نصف الكرة الغربي تمت إبادتهم، وفي المعدل فإنه من بين كل عشرين شخصاً من الهنود الحمر بقي شخص واحد فقط بعد أن اكتظت الأرض الأمريكية بعشرات الملايين من الأوروبيين وانتهى حمامُ الدم»^(١٢).

إن القوم هم القوم، لم يتغيروا مع التقدم العلمي والثقافي والعمراني، ومنطقهم في الحديث عن الغزو والقتل والتدمير هو منطقهم القديم. يعلنون أن أهداف حروبهم إقامة العدل، ونشر الديمقراطية، والقضاء على الدكتاتورية، وتمدين المجتمعات التي يرونها متخلفة. وتمدينهم للناس يعني قهرهم على مناهجهم المنحرفة، وأفكارهم الضالة!! وهكذا كان منطقهم يوم أبادوا الهنود الحمر، كانوا يريدون تمدينهم وتحضرهم حسب زعمهم، فلما استبطؤوا ذلك قتلوه، وعللوا ذلك بقولهم: «لأن طريقة هزيمتهم - يعنون الهنود الحمر - أسهل كثيراً من تحضيرهم بالوسائل المناسبة؛ ولأنهم أناس وقحون، وبرابرة عراة مبعثرون في جماعات صغيرة مما يسهل علينا الانتصار عليهم، إنهم عائق في سبيل التمدن»^(١٣).

هكذا يعللون مذابحهم بكل سماجة وصفاقة.

(١٢) أمريكا أزمة ضمير (٢١).

(١٣) المصدر السابق (٢٦)

وأما نشر الأمراض والأوبئة الفتاكة بين أعدائهم فهو جزء من عقيدتهم؛ ولذا فلا غرابة أنهم في العصر الحديث يستخدمون الأسلحة المشعة التي تلوث الأرض، وتهلك الحرث، وتقطع النسل، وتقتل أكبر عدد من الناس ولفترة طويلة، وهذا ما فعلوه قديماً بالهنود الحمر.

لقد كانوا ينقلون الأوبئة الفتاكة من أوربة وينشرونها بينهم عن عقيدة يعتقدونها. يقول أحد حكامهم المستعمرين آنذاك: «فمما يرضي الله ويفرحه أن تزور هؤلاء الهنود وأنت تحمل إليهم الأمراض والموت، هكذا يموت تسعمئة وخمسين من كل ألف منهم، وينتج بعضهم فوق الأرض دون أن يجد من يدفنه، إن على المؤمنين أن يشكروا الله على فضله هذا ونعمته»^(١٤).

ويقول آخر: «فبعد أن ظن هؤلاء الشياطين - يعنون الهنود الحمر - أن بعدهم عن العالم سينقذهم من الانتقام استطاع الله أن يحدد مكانهم ويكتشفه، وأرسل قديسيه الأبطال من إنجلترا، وأرسل معهم بعض الأوبئة السماوية القاتلة التي طهرت الأرض منهم. إن الله يفسح مكاناً لشعبه في هذه المجاهل؛ إذ هو يقتل الهنود بأوبئة من أنواع مدمرة لا يعرف لها البشر مثيلاً إلا ما تحدثت عنه التوراة»^(١٥).

هكذا يقتلون ويبيدون، ويفترون على الله الكذب، تعالى الله عن

(١٤) القائل هو: وليم برادفور حاكم مستعمرة بليموث، انظر: حق التوضيحية بالآخر (٢١).

(١٥) القائل هو: كوتون ماذر أحد قيسي البروتستانت في مجموعته الكبيرة.. ص ٨٩ عن المصدر السابق (٢١ - ٢٢).

إفكهم وافترائهم علواً كبيراً، وحمى المسلمين من شرهم ومكرهم إنه سميع مجيب.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [المائدة: ١٨].

الخطبة الثانية

الحمد لله حمداً طيباً كثيراً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى، أحمده وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهداهم إلى يوم الدين.

أما بعد: فاتقوا الله - عباد الله - وأطيعوه؛ ففي التقوى مخرجٌ من الضوائق، وطمأنينة في الفتن والأزمات، ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٢-٣].

أيها الناس: من أقسى ما عرفته البشرية من أنواع الاستعمار: الاستعمار الصهيوني بشقيه اليهودي والنصراني؛ لأنه استعمار استحلالي مبنيٌ على التمييز العرقي، ومدفوعٌ باعتقادات دينية باطلة، فصاحبه يزعم أنه يتقرب إلى الله تعالى بكل ما يقوم به من قتل وظلم وفساد، وأصحابُ هذا النوع من الاستعمار لا يكتفون بنهب الخيرات، أو تبعية البلاد المستعمرة لهم، أو خضوع أهلها لسلطانهم وقانونهم؛ بل لابد من القتل

والتدمير، ولا يمكنهم التعايش مع غيرهم؛ لأن دينهم يقوم على إبادة الآخرين، فالأرض ومن عليها ملكٌ لهم بموجب التوراة المحرفة التي يصدرون عنها. وانتشار العلمانية والديمقراطية في بلادهم لم يغير من الأمر شيئاً؛ فهاهو اليمين الإنجيلي المتعصب يمسك بزمام الأمور، ويُسرّع ما يشاء من الحروب؛ لتحقيق الأهداف الصهيونية بالسيطرة الكاملة على الأرض، وإبادة من يحاول الوقوف في وجه هذا المشروع.

لقد كان كثير من المخدوعين يتغنون بالديمقراطية وحقوق الإنسان التي يرونها في بلادهم وهم لم يقرأوا تاريخ القوم، ولا عرفوا حقيقة أهدافهم ومخططاتهم، وإذا هذه المثل تنهار مع انهيار البرجين، وتدفن في سفوح أفغانستان بقنابل اليورانيوم المنضب، وتظهر صورة هي من أبشع صور الظلم والإبادة البشرية تحت مظلة القانون الدولي الذي ظلّ لنصف قرن مؤسساً على الظلم بإعطاء حق النقض (الفيتو)^(١٦) للدول الكبرى التي تريد أن تمارس ظلماً من أي نوع كان. وكم ظلمت القضية الفلسطينية وغيرها من قضايا المسلمين؟ وكم حال حق النقض أكثر من خمسين سنة بين الفلسطينيين وحقوقهم؛ مكافأة للمستعمر اليهودي

(١٦) كلمة (فيتو) غير موجودة أصلاً في ميثاق الأمم المتحدة التي تأسست عام ١٩٤٥م، وينص الميثاق على أنه لا يمكن أن يصدر قرار من مجلس الأمن إلا بعد أن يكون هناك تسعة أصوات من بين الأعضاء الخمسة عشر في المجلس، بينهم خمسة دائمون، وبموجب حق النقض (الفيتو) يتعطل تنفيذ قرارات دولية؛ لأنه يرفع كحالة استثنائية ويؤخذ به، وهذا يكرس الظلم، ويعطي الظالم مسوغات للإمعان في ظلمه كما هو حال إسرائيل؛ إذ بلغ عدد مشاريع القرارات التي تنتقد إسرائيل خمسة وثلاثين قراراً أعاققتها أمريكا باستخدام الفيتو.

الصهيوني، وترسيخاً لاحتلاله، ومباركةً لإبادته التي يمارسها في حق شعب أعزل.

ولأن الظلم الذي أُسس عليه مجلس الأمن لم يعد كافياً للصهاينة الجدد، فهم يريدون ممارسة ظلم أكثر وأكثر؛ لتحقيق أهدافهم الاستعمارية، وبسط هيمنتهم الكاملة فقد وطئوا القانون الدولي - الذي وضعوه مع شركائهم في الظلم والطغيان - بأعقاب أحذيتهم، وهامهم قد بدؤوا بمراسيم دفنه في أرض بابل.

إنهم قد رأوا أن العالم كله يرفض هذه الحرب^(١٧)، بما في ذلك شعوبهم، وإخوانهم الذين شاركوهم في ظلم المسلمين سنوات طويلة؛ لأن مسوغات الظلم في هذه الحرب غير كافية. ومع ذلك ركلوا كل العالم بأقدامهم، ولم يُلْقُوا بالاً لمناشداته، ومظاهراته، وقرارات منظماته وهيئاته المختلفة، وصرحوا بأنها ستكون حرباً لا تبقي ولا تذر،

(١٧) الحرب هنا هي حرب الخليج الثالثة التي شنتها أمريكا على العراق بحجة نزع أسلحة الدمار الشامل وتخليص شعب العراق من حكم حزب البعث الذي يترأسه صدام حسين، حسب زعمهم، ولم تستطع أمريكا إقناع أعضاء مجلس الأمن بهذه الحرب، وعارضتها كل دول العالم عدا بريطانيا وأستراليا، وهددت روسيا وفرنسا باستخدام حق النقض فيما لو صوت العالم لصالح أمريكا، كما عارضت الحرب قمة الاتحاد الأوروبي، وجامعة الدول العربية، ومؤتمر القمة الإسلامية، وقمة منظمة دول عدم الانحياز وغيرها من المنظمات والهيئات، ولكن أمريكا عازمت على الحرب ولو خالف ذلك القوانين الدولية التي وضعتها مع حلفائها عقب الحرب العالمية الثانية، وبدأت بضرب العراق في ليلة الخميس ١٧/١/١٤٢٤هـ.

وسيستخدمون فيها أسلحة الدمار الشامل إذا لزم الأمر؛ لتحقيق نصر كاسح، ولا يهمهم كم سيفنى من البشر في حربهم تلك! ولا ما سيستتبع ذلك من تلوث الهواء والماء، وانتشار الأوبئة والأمراض؛ لأن أهدافهم فوق كل اعتبار؛ ولأن إبادة غيرهم جزء لا يتجزأ من عقيدتهم، ولم يجدوا من يوقفهم عند حدهم.

إنها محنة عظيمة، وبلاء كبير قد حاق بالمسلمين بسبب تفريطهم في أمر الله تعالى الذي أمرهم بالحذر من عدوهم، وإعداد العدة اللازمة لرد الشر والعدوان عن أنفسهم.

ورغم استفحال الأمر، وشدة الكرب، وقلة الحيلة؛ فإن من عقيدة المسلم أن يظن بربه عزَّ وجلَّ خيراً، فما نزل هذا البلاء بالمسلمين إلا بقدر من الله تعالى، والله تعالى لا يقدر شراً محضاً، وعسى أن تكون هذه المحنة سبباً في عودة المسلمين إلى ربهم، والتوبة من ذنوبهم، ومعرفة حقيقة أعدائهم، واجتماع كلمتهم على الكتاب والسنة، وعسى أن تكون سبباً لهلاك الظالمين، واستدراجاً من الله تعالى لهم ليأخذهم بظلمهم.

ووالله الذي لا إله غيره إن هذا الظلم الكبير لهو بداية النهاية بإذن الله تعالى، فسنن الله تعالى في الظالمين لا تبدل ولا تتغير. يمهلهم ويملي لهم حتى إذا ما عظم ظلمهم، واشتد بطشهم أزفت نهايتهم. والمؤمن الحق مَنْ يثق بوعده ربه تبارك وتعالى، ويطلب المنح في المحن، ويستخرج الفرج من رحم العسر بالصبر الجميل، والثبات على الحق المبين، ولا يكون التمكين إلا بعد البلاء والتمحيص ﴿لَيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾

[الأنفال: ٣٧]، ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤١].

وكثرة الدعاء والتضرع بين يدي الله تعالى من أكبر أسباب النجاة في الدنيا والآخرة، وفي الدعاء خلاص من المحن، وثبات في الفتن، ألم تسمعوا دعاء الصالحين مع نبي الله داود عليه السلام وهم يلاقون جبروت جالوت ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٠].

وربكم تبارك وتعالى سميع قريب مجيب، قالت عائشة رضي الله عنها: «تبارك الذي أوعى سمعه كل شيء، إني لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة، ويخفى علي بعضه، وهي تشتكي زوجها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لما ظاهرها - وكان الظهار يحرمها عليه قبل نزول الكفارة - وهي تقول: يا رسول الله، أكل مالي، وأفنى شبابي، ونثرت له بطني، حتى إذا كبرت سني، وانقطع ولدي؛ ظاهر مني. اللهم إني أشكو إليك، قالت: فما برحت حتى نزل جبريل بهذه الآية: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١]»^(١٨).

(١٨) أخرجه البخاري في التوحيد باب قول الله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: ١٣٤] معلقاً، ووصله أحمد (٤٦/٦)، والنسائي في النكاح باب الظهار (١٦٨/٦)، وابن ماجه من حديث عروة عن عائشة في الطلاق باب في الظهار (٢٠٦٣)، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي (٤٨١/٢)، وهذا اللفظ لابن أبي حاتم في تفسيره كما ذكر ابن كثير في تفسير سورة المجادلة (٤٩٦/٤).

لقد ضاقت حيلتها، وعظم كربها، واشتد حزنها؛ فلجأت إلى الله تعالى بدعائها، ثم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لينظر في مشكلتها، فسمع الله تعالى جدالها من فوق سبع سموات، واستجاب دعائها، وفرج كربها، وأنزل كفارة الظهار.

فلا تظنوا - يا عباد الله - بربكم إلا خيراً، وألخوا عليه في الدعاء وأنتم موقنون بالإجابة.

اللهم يا غوث المستغيثين، وناصر المستضعفين، ويا مجيب دعاء الداعين، نسألك اللهم أن ترحم المستضعفين من المسلمين في كل مكان، اللهم احفظ دماء المسلمين في فلسطين، وفي العراق، وفي أفغانستان، وفي كشمير، وفي الشيشان، وفي كل مكان، اللهم احفظ دماءهم وأعراضهم وأموالهم، وارزقهم من حيث لا يحتسبون، وارزقهم الثبات على الإسلام إلى الممات. اللهم يا كاسر الأكاسرة، ويا قاصم القياصرة، ويا مهلك الفراعنة، اللهم اكسر شوكة صهاينة النصارى وصهاينة اليهود. اللهم أفشل مخططاتهم، وأبطل مؤامراتهم، ورد كيدهم عليهم، واجعل تدبيرهم في تدميرهم.

اللهم إنهم قد أفسدوا في الأرض، وقهروا العباد بالظلم، اللهم فخذهم أخذ الظالمين، واجعلهم عبرة للمعتبرين، اللهم إنهم قد علوا وبغوا ونازعوك في كبريائك وعظمتك وجبروتك، اللهم فأرنا فيهم حيلك وقوتك وقهرك، اللهم احفظ بلادنا وبلاد المسلمين من كل سوء ومكروه.

١٨٨- جرائم شارون (١) القتل والحرق

٢٢/١/١٤٢٣هـ

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلَّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله..

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أمَّا بعد: فإن أصدق الحديث كلام الله تعالى، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشرُّ الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها المسلمون: إذا غُذيت نوازع الشر في الإنسان صار شريراً، فإذا ما ملك صاحبها سلطةً على الناس فإنه يتحول إلى جبار عنيد، يسفك الدماء، ويرمل النساء، ويستم الأطفال، لا يرحى حرمة، ولا يرى لأحد حقاً، ولا تعرف الرحمة إلى قلبه سبيلاً.

جبار عنيد، جواظ مستكبر، يرى أن الناس ما خلقوا إلا ليكونوا عبيداً لأهوائه، وسخرة لشهوته، وأنه يمينٌ عليهم بإذلالهم واستعبادهم؛ استبقاءً لحياتهم.

وويلٌ للبشرية من حقبة يظهر فيها هؤلاء الطغاة المتجبرون، الذين يهلكون الحرث والنسل، ويذيقون الناس ألوان الأذى والألم، حتى يتمنى الواحدٌ منهم يومئذ أنه ما خلق، أو أن الأرض قد حوته في بطنها. طغاةٌ وجبارون.. اقتنعوا بفكرةٍ شاذة، أو عقيدة فاسدة، أو مبدأ مغلوط؛ فساموا الناس عليه سوم العذاب، وفتكوا بهم أشد الفتك؛ لإلزامهم بما رأوا لهم، وبما فرضوه عليهم، على قاعدة طاغيتهم الأول فرعون حينما قال: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩].

طغاةٌ سلطهم الله تعالى على العباد بسبب ذنوب أصابوها، أو حقوق ضيعوها، ثم تسلط سبحانه وتعالى على هؤلاء الطغاة فأخذهم أخذ عزيز مقتدر، أو سلط عليهم غيرهم؛ فاستبدوا بهم، وعذبوهم كما عذبوا من قبل ضحاياهم، ومن هلك منهم حتف أنفه فإنه أسرع إلى عذابه في قبره ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ﴾ [فصلت: ١٦].

دُونت في التاريخ أخبار كثير من الطغاة المتجبرين؛ لتكون عظة للمعتبرين. وحُفظ في التاريخ القديم خبر فرعون الطاغية مع موسى وبني إسرائيل، وكيف أن الله تعالى قصمه وأغرقه.

وذكرت السيرة النبوية طاغية هذه الأمة في الصدر الأول من الإسلام

أبا جهل بن هشام القرشي الذي عارض النبي صلى الله عليه وسلم، وعذب أتباعه، وطعن أم عمار بن ياسر بحربة فقتلها، وقتل أباه تحت التعذيب^(١)، وفعل الأفاعيل بالمستضعفين من المسلمين، وشتم النبي صلى الله عليه وسلم، وحاول الاعتداء عليه أكثر من مرة، فلما علا شره، وازداد طغيانه؛ حانت ساعته، فقتل في بدر شر قتله، واحتز رأسه ابن مسعود رضي الله عنه، فلما رآه النبي صلى الله عليه وسلم قال: «هذا فرعون هذه الأمة»^(٢).

وعرف تاريخ المسلمين طغاة اجتاحت البلدان، وخربوا العمران، وهتكوا الأعراض، وسفكوا الدماء، سلطهم الله تعالى على المسلمين بذنوبهم ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]، منهم هولاء اللعين

(١) انظر: الإصابة (١٠/٣٣١ - ٣٣٢) ترجمة ياسر العنسي، والد عمار رضي الله عنهما، رقم الترجمة (٩٢٠٩).

(٢) أخرجه أحمد في المسند (١/٤٠٣ - ٤٤٤)، والبيهقي في الدلائل (٢/٢٦١ - ٢٦٢)، والبزار كما في كشف الأستار (١/٢٨٨)، والطبراني في الكبير (٩/٨١ - ٨٤)، بأرقام (٨٤٦٩ - ٨٤٧١ - ٨٤٧٣ - ٨٤٧٤ - ٨٤٧٥)، وذكره الهيثمي في الزوائد وقال: رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح غير محمد بن وهب بن أبي كريمة وهو ثقة (٦/٧٩)، قلت: وفيه انقطاع؛ لأنه من رواية أبي عبيد عامر بن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، ولم يسمع من أبيه. ولذلك قال الشيخ أحمد شاكر في شرحه على المسند: إسناده ضعيف لانقطاعه (٣٨٢٤ - ٤٢٤٦ - ٤٢٤٧)، ونقل الحافظ في تهذيب التهذيب عن شعبة وأبي حاتم وابن حبان أن أبا عبيدة عامراً لم يسمع من أبيه عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، (٣/٥٣)، رقم الترجمة (٣٤٩٥)، وقد ساق ابن كثير في البداية والنهاية روايات مقتل أبي جهل (٣/٢٨٩)، وما بعدها.

الذي اجتاحت بغداد فقتل فيها ما يزيدُ على ألف ألف من البشر، ومنهم فرناندوا وايزبلاً اللذان قضيا على الإسلام في جزيرة الأندلس، وريتشارد الملقب بقلب الأسد الذي حارب المسلمين تحت اللواء الكاثوليكي في الشام، ونابليون الذي احتل مصر، وكل أولئك عملوا أعمالاً فظيعة في بني الإسلام.

والتاريخ المعاصر، وما أدراك ما التاريخ المعاصر؟! كان من طغاته الزعيم الشيوعي ستالين الذي أفنى في القوقاز ملايين المسلمين، وموسوليني الذي أراد بناء الإمبراطورية الفاشية على جثث المسلمين في شمالي أفريقيا، وميليسوفتش الذي عمل أعماله الشنيعة في مسلمي البلقان. طغاة في كل مكان وفي كل زمان، ومن مختلف المذاهب والأديان، ما وصلت أيديهم إلى مسلمين إلا سحقوهم وأبادوهم بعد تعذيبهم، تحت مشاريع طمحوها في تحقيقها على جثث المسلمين، من فاشية وشيوعية وكاثوليكية وأرثوذكسية.

فلله ما أعظم بلاء المسلمين، وما أشد ما أصابهم على أيدي أعدائهم. ولما تآزرت الصهيونية الإنجيلية مع الصهيونية التلمودية كان ضحية هذا التآزر أبناء بيت المقدس، وكان المنفذ لمشروع المذابح، ومقدم القرابين لدولة الهيكل الثالث: طاغية تلمودي، له باع في الطغيان طويل، وتاريخ في المذابح عجيب، اختاره الصهاينة ابناً باراً، وفارساً منشوداً؛ لتحقيق الحلم المزعوم، فما خاب ظنهم فيه جزراً لرقاب المسلمين!!

طاغية يصبحنا بذبح إخواننا في فلسطين، ويُمسينا بها، ولا يصبر

بين الصباح والمساء عن القتل والحصار، والتعذيب والاعتقال.
وأهل فلسطين أعرفُ به من أية أمة أخرى؛ فقد وترهم في أبنائهم
ونسائهم، وهدم عليهم دورهم، وأفسد مزارعهم.
عرفته أكثر مدن فلسطين وقراها خلال نصف قرن، وما من مذبحةٍ
بشعةٍ إلا وهو طرف فيها، أو مخطط لها، أو منفذ لها.
قبل تسعة وأربعين عاماً، وذات يوم عزم هذا الطاغية على أن يتسلى
بأهل قرية قبية - قرب القدس - في فرقة عسكرية كان يقودها، أطلق
عليها «فرقة الشيطان» فحاصرها حصاراً محكماً، ثم أعدم الرجال
بالرصاص، وأمر بذبح الأطفال والنساء والشيوخ بالسكاكين، وتحدث
من حضر المذبحة بأنهم رأوا أطفالاً تذبح، ونساءً تبقر بطونهن قبل
قتلهن، حتى إن المراقب الدولي آنذاك تأثر جداً مما رأى فكتب كتابه
«الهدنة الشائكة»^(٣)، وكان مما قال فيه وهو نصراني غربي: «لن أنسى
منظر المرأة العربية التي رأيتهنا ساهمة زائغة وهي تنظر إلى أشلاء وأجزاءٍ
من جثث أطفالها الستة، وجثة زوجها وهو ملقى على وجهه وقد تراكم
عليه الرماد... قال: وعندما أدرنا ظهورنا عن هذا المنظر المؤثر لم نجد
سوى رجل يحمل جثة ابنته ويتوسل لكي يُسمح له بدفنها»^(٤).

(٣) قصة حياة سفاح (شارون) لأبي يسر الرحمن ص (٣٦).

(٤) هذا المراقب الدولي الذي حكى هذه الحادثة هو (أ. هـ هستنسون)، وكان رئيس
لجنة الهدنة الأردنية الإسرائيلية المشتركة في أعوام ١٣٧١-١٣٧٤ هـ، وانظر:
المصدر السابق (٣٧).

ثم بعد هذه المذبحة بثلاث سنوات حاصرت فرقته ثلاثمئة وخمسين ضابطاً وجندياً مصرياً، فأسرهم، وخلع ملابسهم، وعصب أعينهم، وبدأ بتعذيبهم في صحراء سيناء بنشوة بالغلة وهو يقول: إن أعداءنا العرب - كل العرب - لابد وأن يملكهم الخزي والعارُ والندم إذا ما فكروا في ملاقات جنودنا في يوم ما، ثم التفت إلى جنوده وقال لهم: إنها مجرد نزهة عسكرية^(٥)، ثم أمرهم بالسير على وجوه أسراهم بأحذيتهم العسكرية لمدة ثلاث ساعات، ثم أمر المدرعات أن تسير عليهم وهم أحياء، فأفناهم عن بكرة أبيهم^(٦).

وفي نفس عامه ذاك، أي: قبل ست وأربعين سنة دخل مخيماً للاجئين الفلسطينيين في خان يونس وجمع النساء والأطفال والشيوخ، وأوثق كل خمسة منهم في حبل، وجمع الرجال في ناحية، ثم أباد في ربع ساعة مائة من الأطفال والنساء وهم يبكون ويصرخون ويستغيثون، وكل من بكى ممن بقي منهم أمر بذبحه، وأمر بذبح عشرات منهم بالسكاكين أمام أهليهم.

فاستيقظ أهل مدينة خان يونس وإذا بالجثث متناثرة في المخيم الذي بجوراهم، فأكمل مذابحه في المدينة.

يصف الدبلوماسي الأمريكي (دينس روز) هذه المذبحة وكان شاهداً عليها فيقول: «لو أن أحداً حكى لي ما حدث ما كنت أستطيع تصديقه؛

(٥) المصدر السابق (٤٠).

(٦) المصدر السابق (٤٨).

ولكنني رأيت بعيني كيف كان شارون يتفنن في جرائم القتل والإبادة للفلسطينيين، ومن المرجح لديّ أن شارون لا يملك قلباً، بل تركه خارج المخيم في هذه الليلة.. لقد اكتسحت قواته المخيم وبعد أقل من خمس دقائق أعطى تعليماته بالانتهاء من العملية في أقل من ساعة، لقد كان ينفذ خطة أطلق عليها اسم «مروحة الموت»، وهي تعني إبادة الفلسطينيين بأعداد ضخمة وبكل وسيلة... فبعد أن قام بتوثيق الأطفال والنساء طلب منهم الانبطاح أرضاً ثم أمر سائقي السيارات بالسير على أجسادهم وهم أحياء، فحصدت السيارات أرواح مئة طفل أو يزيد، ومئة وخمس وسبعين امرأة، ثم قام بجمع بعض الأهالي الذين شك في أنهم يخططون لقتله، وأحرقهم أمام الجميع وهم أحياء»^(٧).

ثم في كفر قاسم، وفي نفس عامه ذاك دخل القرية في ثمانئة من جنده، فأخرجوا الناس من منازلهم، وصفهم صفوفاً متناسقة: الأطفال ثم النساء ثم الرجال، وأمر جمعاً من النساء بجمع الحطب، وأشعل النار، ثم ألقى الأطفال فيها أحياء، طفلاً من وراء طفل، وهم يتصايحون ويبيكون، وجنوده يأخذونهم بالقوة من أحضان أمهاتهم؛ فغضب الرجال لما أصاب أطفالهم من الحرق وهاجوا وماجوا، فأعدموهم عن بكرة أبيهم. وسجل تفاصيل هذه العملية ضابط يهودي شارك فيها وقال: «لقد هدّنا شارونُ بقتل كل من لا يمثل لأوامره، وفي المجزرة كانت الدماء تنزف من أجسادهم بشكل رهيب.. لقد شاهدت ومن معي تلك الجريمة

(٧) المصدر السابق (٥٦ - ٥٧).

الشنعاء، وكان شارون يضحك بصوت مرتفع حتى ظننت أنه أصبح مجنوناً، وكان يقول: إن هتler الكلب كان عليه أن يحرق هؤلاء بدلاً من جريمته ضد الآباء والأجداد»^(٨).

أيها الإخوة: هذا جزء يسير مما نُقل عن مذابح هذا الطاغية المستكبر الذي لا زال يمارس في شيخوخته ما كان يمارس في شبابه قبل نصف قرن، وما لم ينقل أكثر مما نقل، وما تركته مما نقل أكثر مما ذكرته، ولا يكفي لنقل صور طغيانه ساعة كتلك، أخزاه الله ولعنه وأهلكه، وأراح المسلمين من شره.

اللهم يا قاصم الجبابرة، ويا كاسر الأكاسرة، ويا مذل القياصرة، أهلك طاغية اليهود، وأرح المسلمين من شره، اللهم إن بإخواننا المسلمين في فلسطين من الضنك واللواء والبلاء ما لا نشكوه إلا إليك، اللهم اكشف عنهم العذاب، وارفع عنهم البلاء، وارزقهم الصبر والثبات، اللهم إن الكفر قد أطبق عليهم، وعجز المسلمون عن نصرتهم، اللهم فانصرهم بنصر من عندك، ولا تكلمهم إلى أحد من خلقك، اللهم أرنا في طاغية اليهود ميتة بشعة عاجلة تشفي بها صدور عبادك المؤمنين، إنك سميع مجيب، ورُدّ اليهود ومن وراءهم من النصارى على أعقابهم خاسرين خائبين، إنك على كل شيء قدير، وبالإجابة جدير، أنت مولانا، فنعم والمولى ونعم النصير.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤].
بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم، ، ،

الخطبة الثانية

الحمد لله، حمداً يليق بجلال ربنا وعظيم سلطانه، أحمده وأشكره،
وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له،
وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى
آله وأصحابه ومن اهتدى بهداهم إلى يوم الدين.

أما بعد: فاتقوا الله تعالى وأطيعوه، واحذروا نقمته فلا تعصوه؛
فلا مخرج للأمة المسلمة من محنتها وشدتها إلا بتقوى الله عز وجل،
والتزام دينه، وامثال أمره ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٤].

أيها المسلمون: ما الذي يجعل طاغية من مثل فرعون أو أبي جهل
أو ستالين، أو موسوليني، أو شارون يتلذذون بتعذيب ضحاياهم، ويطربون
لسماع صراخ الأطفال المذعورين، واستغاثات الأمهات الموتورات،
واستجداءات الرجال المكلومين؟! ولماذا الإبادات الجماعية، والقتل
بالجملة، وحرق الأحياء، وسحقهم بجنازير المدرعات، وإطارات العربات؟!
لماذا كل هذا؟

ألا يحمل هؤلاء الطغاة قلوباً بشرية؟! بل قلوباً حيوانية؛ فإن الحيوان

يتألم إذا رأى أمامه ذبيحة تذبح، ولماذا لم يحسنوا القتلة إذ قتلوا؟! ولم قتل الأطفال والنساء والشيوخ الذين لا حول لهم ولا قوة؟! ماذا دهمى طغاة البشر؟! وما الذي أوصلهم إلى هذا الحد من القسوة والطغيان، والحقد والغليان؟!!

أتدرون ما الجواب يا عباد الله؟!!

إنها التربية التي ترباها شارون حينما علموه أن القدس أرض الأجداد، وأرض الميعاد، وأن على الأحفاد أن يستردوها، ويقيموا عليها مجداً تليداً، استقر في عقله أن الأرض أرض أجداده، وأن المسلمين اغتصبوها، وفعلوا بأجداده الأفاعيل؛ فأراد أن ينتصر لدينه، ويتنقم لأجداده. فهو يفعل ما تسمعون وما تشاهدون لأجل ذلك.

كان ينظر إلى أجساد الأطفال المتفحمة في كفر قاسم ويقول ساخراً: «لا أعرف لماذا ولد هؤلاء؟ من المؤكد أنهم جاءوا خطأ إلى هذا العالم؛ ولهذا لا بد أن يعودوا من حيث جاءوا»^(٩)، تعالى الله عن طغيانه. ويقول: «إنني أشعر بالألم الشديد عندما أرى عرباً أو أتحدث إليهم»^(١٠).

وفي مذكراته التي كتبها يقول: «أنا أكره العرب؛ لأنهم متخلفون، ولديهم عناد شرس تجاه إسرائيل»^(١١)، ثم يقول: «إن ربنا لا يمكن أن

(٩) المصدر السابق (٦٤).

(١٠) المصدر السابق (٢٩).

(١١) المصدر السابق (٢٩).

يكون رب العرب؛ لأن ربنا لا يمكن أن يجعل لهؤلاء ميزة في الدنيا»^(١٢)، تعالى الله عن قوله علواً كبيراً.

إن المقولات السابقة لهذا الطاغية ترسم لنا ملامح شخصيته، وتحدد لنا نوع فكرته، فهو يرى أنه لا حق للمسلمين في الأرض المباركة، وأنهم مغتصبون لها؛ بل لا حق لهم في الحياة، ووجودهم في الدنيا خطأ، وهو يصحح هذا الخطأ بقتل أطفالهم وحرقتهم، تعالى الله عن إفكه وطغيانه علواً كبيراً.

كيف تم صنع هذه العقلية الطاغية المستكبرة، وأين أنتجت ثم أخرجت لتفتك بالناس؟! لقد كان ذلك في المعامل الأكاديمية اليهودية، في المدارس والمناهج، والإعلام، والأسرة.

لقد قام باحثٌ يهوديٌّ من دعاة السلام بتخصيص أطروحته في الدكتوراه عن معرفة العلاقة بين الطفل اليهودي والطفل الفلسطيني، ومدى الكراهية أو المحبة المتبادلة بينهما.

فاختار مجموعة من الأطفال اليهود، وطلب منهم أن يتخللوا أصدقاء لهم في مثل سنهم من الفلسطينيين، وعلى كل واحد منهم أن يكتب رسالة إلى قرينه الفلسطيني، وكانت النتيجة مخيبة لأمله كداعية للسلام، وقال: «قد وجدتُ في النتيجة ما يدعو إلى البكاء، ليس فقط بسبب حقد أطفالنا العميق على أطفال الفلسطينيين؛ وإنما لأن السلام الذي

نتحدث عنه جميعاً كبالغين فارغ من الجذور الضرورية، والإيجابيات على الصعيد النفسي والاجتماعي منذ الصغر».

ثم أورد جملة من الرسائل المليئة بالشتم والسباب، كان من بينها رسالة كتبها طفلة يهودية عمرها ثماني سنوات، كتبها إلى نظيرتها الفلسطينية قالت لها فيها: «شارون سيقتلكم أنتم وجميع سكان القرية، سيحرق أصابعكم بالنار، اخرجي من قرب بيتنا يا قردة، لماذا لا تعودون من حيث جئتم؟ لماذا تريدون سرقة أرضنا وبيوتنا؟ وها أنا أقدم لك هذا الرسم لتعرفي ماذا سيفعل بكم شارون، وكان الرسم لشارون وهو يحمل بيديه رأس طفلة فلسطينية ينزف دماً»^(١٣)، وإذا ما كبرت هذه الطفلة اليهودية، التي تحمل تلك العقلية التلمودية؛ فإنها ستعيد للأذهان أيام جولد مائير.

وإذا ما زال طاغية اليهود الحالي، فإن المعامل اليهودية قد جهزت مئة بديل له، ومئة أخرى، وألفاً وألوفاً، يحملون عقولاً ضيقة كعقله، ويمتلكون قلوباً قاسية كقلبه، ويا بُعداً لسلام مع أمثال هؤلاء الطغاة الجبابرة.

أيها الإخوة: قد عجزنا عن نصره إخواننا بأنفسنا، ونحن نرى مذابحهم صباحاً ومساءً؛ فلننصرهم بأموالنا وبدعائنا. إنهم في كرب شديد، ومحنة عظيمة، يصبح الواحد منهم في أسرته، ويمسي لا أسرة

(١٣) هذا الباحث اليهودي هو آري شيرابي، ورسالته قدمها إلى معهد لندن للعلوم الاقتصادية. انظر: مجلة الجندي المسلم عدد (١٠٥) ص (٨٧).

له، ويمسي في منزله ومزرعته، ويصبح لا منزل يؤيه، ولا مزرعة يطعم منها، فما أحوجهم لمعونتنا، فأعينوهم أعانكم الله، وثبتوهم على مبدئهم الحق بفضل مال تدفعونه، ودعاء تبذلونه، وستصل معوناتكم إلى المكالمين والمجروحين بإذن الله تعالى.

وإن تخليتم عنهم فيؤشك أن يصيبكم ما أصابهم، وإن أفراداً يتخلون عن إخوانهم في مثل هذه المحنة والشدة لحيون بعقوبة من الله تعالى، ﴿وَأِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨].
 اللهم صل على محمد وآل محمد، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد، وبارك على محمد وآل محمد كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد.

١٨٩- جرائم شارون (٢) إهانة الأعراض

١٤٢٢/١٢/٢٥ هـ

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله..

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أما بعد: فإن أصدق الحديث كلام الله تعالى، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها الناس: كان للعرب في جاهليتهم أخلاقٌ محمودةٌ، وأعرافٌ حسنة، من أبرزها: حفظهم لأعراضهم، وغيرتهم على حرمتهم، ورغم أنهم أهانوا المرأة وظلموها، وجعلوها كالمتاع تُورث ولا تَرث؛ فإنهم

كانوا يرون فيها شرفهم الذي يسبق تدنيته أو المساس به ، سفك دمائهم ،
وذهاب أموالهم ، وفناء قبائلهم .

لم يكن العرب كال يونان أو الرومان أو الفرس ، لا يابهون بالعرض ،
ويقدمون عليه حفظ المال ، وحقن الدم ، وبقاء الملك . وكم من حرب
سُمرت من أجل امرأة ! وكم من قبيلة أفنيت في قضيتها ! وكم من رؤوس
تطايرت بسبب بيت شعر قيل فيها !!

ورغم أن العرب في جاهليتهم كانوا أذلة متفرقين ، وفقراء معوزين ،
يتبعون الكلاء والماء ، ويعيشون على منتجات الإبل والغنم ، ولم يكن
الأكاسرة والقياصرة يطمعون في أرضهم التي لا مطمع فيها لطامع ،
فما ثمَّ إلا الجوعُ والعالةُ والخوفُ . . مع ذلك كله فإنهم كانوا يربؤون
ببناتهم عن إيوان كسرى ، وعرش قيصر ، وعن قصور الملوك والقادة
من غير العرب ، ولا يرون كفناً للعربية إلا عربياً مثلها .

هذا النعمان بن المنذر ملك العرب في الحيرة ، ورث الملك عن
آبائه وأجداده ، ملكه كسرى بعد أبيه على الحيرة ، وأجلسه على عرشها ،
وألبسه التاج بيده ، وخلع عليه ما يُخلع على الملوك ، وصار النعمان
والياً لكسرى ، ومنضوياً تحت مملكته ، يتقرب إليه بما يتقرب الولاة إلى
الملوك من الهدايا والعطايا ، وما رد له طلباً قط ، ولا عصى له أمراً ألبته ،
إلا طلباً واحداً كانت العرب لا تبذله إلا للعرب ؛ إذ سمع كسرى ببنات
للنعمان ، فأراد أن يزوجه ويزوج أولاده ، فشق ذلك على النعمان ،
وكان بين خيارين عسيرين : أن يُغيّر ما تواطأت عليه العرب من عدم

تزويج غير العرب، أو أن يرد طلب كسرى، ويعصى أمره؛ فيخسر ملكه، ويلقي بنفسه إلى الهلكة، فلا طاقة له ولا للعرب بالفرس آنذاك؛ لكنه اختار الثاني فبذل في سبيل عرضه ملكه، ونفسه، وراحة أهله، ودماء العرب. واستودع أهله عند بني شيان، وسار إلى كسرى لعله يقي بنفسه قبائل العرب، ولعل دمه يطفئ غضب كسرى، فوضعه كسرى تحت أقدام الفيلة، ثم جعله طعاماً للسباع، وطلب كسرى من بني شيان تسليم أهل النعمان؛ لكنهم رفضوا، فجيش كسرى جيشاً عظيماً لقتالهم، فاجتمعت العرب لمعونة بني شيان، مع أن أكثر قبائلهم كانت تكره النعمان لظلمه وعسفه وجبروته؛ ولكنها رأت أن طلب كسرى فيه إهانة للعرب كلها؛ لأنه لا يتعلق بالنعمان نفسه؛ ولكنه يتعلق بعرض النعمان، وهم يرون أن عرضه عرض لهم، فتدنيسه تدنيس لأعراضهم، فكانت موقعة ذي قار التي كسر فيها العرب الفرس لأول مرة في تاريخهم^(١).

هكذا كان العرب قبل الإسلام، كانوا رغم شركهم وجاهليتهم يصونون العرض ولا يدنسونه، ويحفظون الشرف ولا يضيعونه.

جاء الإسلام وبعث نبيه عليه الصلاة والسلام، فرفع الظلم عن المرأة، وحرم وأد البنات، وأبقى على خلقهم في حفظ الأعراض والغيرة

(١) انظر: تاريخ الطبري (١/٤٧٦ - ٤٨٢)، والبدء والتاريخ للبلخي (١/٣١٢ -

٣١٣)، والكامل لابن الأثير (١/٢٨٥ - ٢٩١)، وتاريخ يعقوبي (١/٢١٣ -

٢١٥).

على المحارم؛ بل زاده تأكيداً، وشرع بذل النفس فداءً للعرض، وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن من قتل دون عرضه فهو شهيد^(٢). وفي المدينة النبوية أهان يهوديٌ مسلمةً في عرضها، فكشف سوءتها أمام اليهود، فسيرَّ النبي صلى الله عليه وسلم جيشاً حاصر بني قينقاع حتى استسلموا؛ فكان ذلك سبباً من أسباب جلائهم عن المدينة إلى الشام^(٣).

وفي الخلافة العباسية، وبينما كان الخليفة المعتصم جالساً على كرسي الخلافة، يقضي بعض شؤونه؛ إذ جاءه الصريخُ بأن امرأة مسلمة عند الروم في عمورية تستصرخه وتقول: وامعتصماه. فأمسك عن شأنه، وقال: لبيك لبيك، ونهض من ساعته وصاح في قصره: النفير النفير، وما هنا بعدها بطعام ولا شراب ولا بنوم، وجهز جيشاً كبيراً إلى حيث المرأة الأسيرة، قاده بنفسه، ففتح عمورية وهو يقول: لبيك لبيك، وطلب العلجَ فضربَ عنقه، وذهب بنفسه إلى المرأة وحلَّ قيودها بيده

(٢) كما في حديث سعيد بن زيد رضي الله عنه عند أبي داود في السنة باب قتال اللصوص، (٤٧٧٢)، والترمذي في الحدود باب ما جاء فيمن قتل دون ماله فهو شهيد. وقال: حسن صحيح (١٤١٨)، والنسائي في تحريم الدم باب من قاتل دون ماله (١١٥/٧ - ١١٦)، وابن ماجه في الحدود باب من قتل دون ماله فهو شهيد (٢٥٨٠)، ولم يرد ذكر العرض إلا في رواية أبي داود بلفظ: «ومن قتل دون أهله فهو شهيد» وباقي الروايات جاء فيها ذكر المال فقط.

(٣) انظر: الاكتفاء للكلاعي (٢/٦٠)، والسيرة الحلبية (٢/٤٧٥)، والبداية والنهاية (٤/٤)، وسيرة ابن هشام (٣/٧٠).

وهو يقول: لبيك لبيك^(٤).

هكذا كان قدرُ الأعراض عند أسلافنا في جاهليتهم، ثم في إسلامهم. أما حال المسلمين في العصور المتأخرة، فحال يندى له الجبين، كم من عرض انتهك؟ وكم من مسلمة اغتصبت في البوسنة وفي كوسوفا وفي الشيشان وفي الهند وفي بلاد الأفغان، وقبل تلك الديار وبعدها في فلسطين؟!

نساءٌ عفيفاتٌ، طاهرات، غافلات، قانتاتٌ، محصناتٌ، قصد العدو أن يذل المسلمين بهن؛ فأخرجهن من قرارهن، وفعل بهن ما تتمنى الحرة أن تموت سبعين مرة قبل أن تبلى به.. مسلمات مهانات معذبات يصرخن بالمسلمين، ويستغثن وينادين، وما كان لصريخن من سامع، ولا لندائهن من مجيب.

أتدرون ماذا يفعل طاغية اليهود هذه الأيام بأهل فلسطين؟! إنه يفعل بهم ما كان يفعله بهم قبل ثلاثين سنة وأربعين سنة، لم يكتف بقتل الرجال والنساء والشيوخ والأطفال؛ بل دنس أعراضكم في فلسطين، وهتك ستر أخواتكم المسلمات العفيفات أكثر من مرة.

قبل أربع وثلاثين سنة اقتحم مع جنوده قرية الشارونة، وفعل بأهلها الأفاعيل، نقلت بعض أفاعيله صحفية بريطانية حضرت تلك

(٤) كان فتح عمورية عام ٢٢٢هـ، وقيل: عام ٢٢٤هـ، وانظر: المنتظم (١١/ ٢٩) والكمال (٥/ ٢٤٧)، وما بعدها، وشذرات الذهب (١/ ٦٣)، ومآثر الأناقة (١/ ٢٢١).

الكارثة وقالت: «لقد فعل أكثر مما يمكن أن تفعله الحيوانات مع بعضها البعض» جمع أربعين من رجال القرية فأمر بفقئ عيونهم، ثم قتلهم بعد ذلك، ثم أمر بإخراج النساء من بيوتهن وجمعهن في ساحة كبيرة، ثم ماذا فعل بهن؟! يا لشناعة ما فعل، ويا لعار المسلمين مما صنع، لقد أمر هذا الطاغية بتجريدن من ملابسهن، وأمرهن بالجري وهن عاريات، ووعد من تصل منهن قبل الأخرى بالعفو عنها؛ فكن يجرين بسرعة، وهو وجنوده يضحكون عليهن!!

تروي الصحيفة البريطانية بأنها رأت امرأة تحمل رضيعها على كتفها، وهي تجري بكل قوتها عارية كما ولدتها أمها، وتجاهد في قطع المسافة المحددة إبقاءً على حياتها، وحياة رضيعها؛ ولكن ما إن وصلت إليه حتى أفرغ مسدسه فيها وفي طفلها، وهو يقهقه بأعلى صوته. وهكذا فعل ببقية النساء إلا الفتيات اللاتي أمر بهن فأخذن إلى الحي اليهودي ليتسلى بهن شباب اليهود^(٥)، عارٌّ وأيُّ عارٍ يا عباد الله، عارٌّ لم يجد بعد من يمسه بدم هذا الطاغية وجنده ومن وراءهم، فحسبنا الله عليه ونعم الوكيل.

وكان قبل ثنتين وثلاثين سنة يقود فرقة الموت التي دخلت غزة، وقتل فيها من قتل، وعذب فيها من عذب، ثم أمر بتعليق الفتيات

(٥) هذه الصحيفة البريطانية تدعى: «إيزابيل مايدن» ونشرت روايتها لما رأت في صحيفة الأسبوع المصرية عدد (٢١٠) وانظر: قصة حياة سفاح (شارون) (٧٢)

على الجدران وأبواب المنازل بعد أن فعل بهن جنده الأفاعيل^(٦). وفي صبرا وشاتيلا قبل عقدين من الزمن قاد مذبحة في المخيمين على يد جنده مع الكتائب النصرانية الحاقدة استمرت أربعة أيام، وتواصلت أربعين ساعة بلا انقطاع، أفسد فيها جنود الكتائب، وذبحوا، وهتكوا الأعراض، ولا يزال كثير من الناس يتذكرون صور الجثث المكومة التي عرضتها محطات التلفزة آنذاك، وشهد على هذه المجزرة كتاب يهود، وغربيون، ونجى منها شهود مسلمون، سطروا بدموعهم ما رأوا من أهوال وعظائم في أهليهم وذويهم، لقد قُتل أهلهم وذوهم، واغتصبت نساؤهم وبناتهم على أيدي إخوان القردة والخنازير، وحلفائهم من عباد الصليب.

قصصٌ وتقاريرٌ ظهرت عن مذبحة صبرا وشاتيلا، وفي كل يوم يظهر شاهدٌ يحكي ما رأى، أو يقص ما فعل بالمسلمين في المخيمين، وما طوي من أخبارها مع من ماتوا من أهلها أكثر مما يروى، وشأن تلك المذبحة الفظيعة وأخبارها أكثر من أن تعرض في مقام قصير كهذا المقام^(٧).

(٦) المصدر السابق (٨٠).

(٧) انظر في أخبار مذبحة صبرا وشاتيلا: المصدر السابق (٨٢)، وتحقيق حول مجزرة لأمون كابليوك، وصبرا وشاتيلا المذبحة لصفاء زيتون، وأمل والمخيمات الفلسطينية لعبدالله الغريب، ومحاكمة شارون مجرم الحرب أمام المحكمة الجنائية الدولية للدكتور محمد عرفة مقال منشور في مجلة كلية الملك خالد العسكرية عدد (٦٨) ص (٨٢) ومابعدا.

أمة الإسلام: ها هو طاغية اليهود يفعل هذه الأيام في جنين ونابلس ما فعله قبل عشرين سنة في صبرا وشاتيلا. مقابرٌ جماعية بالمئات، واعتقالاتٌ بالآلاف، ومحاصرون تحت البنايات، يبعثون بنداءاتهم إلى المسلمين، والمسلمون لا يستطيعون النجدة، ويستصرخون الضمير العالمي، ولا ضمير علمي يتحرك ما دام الضحايا من المسلمين.

لقد أعادَ لنا طاغية اليهود ذكريات صبرا وشاتيلا، وجعلها واقعاً مشاهداً في جنين ونابلس، وإلى مزيد من الضحايا المسلمين، فحسبنا الله ونعم الوكيل، وستبدي لنا الأيام إن كان لنا عيشٌ ما يخفى علينا هذه الأيام في جنين ونابلس وغيرها من حوادث التعذيب والذبح وسحق الأطفال، وبقر البطون، وبتر الأعضاء، واغتصاب النساء كما بدت لنا بعضُ خفايا صبرا وشاتيلا، فإنَّا لله وإنا إليه راجعون.

اللهم يا غوث المستغيثين، ويا ناصر المظلومين، ويا جابر المنكسرين، أغث إخواننا المحاصرين في فلسطين، اللهم احقن دماءهم، واحفظ أعراضهم، وأمن فزعهم، وثبت أقدامهم، وانصرهم على القوم الظالمين، اللهم تقبل قتلاهم في الشهداء، واخلف على الأحياء منهم يا رب العالمين.

اللهم ضعف الناصر إلا بك، وتقطعت الأسبابُ إلا سبيك، اللهم فأمدهم بجندك، وانصرهم بنصرك.

اللهم إن طاغية اليهود وجنده، ومن وراءهم من عباد الصليب قد طغوا في البلاد، فأكثروا فيها الفساد، اللهم فصب عليهم سوط عذاب،

اللهم اشف صدور المؤمنين منهم يا قوي يا عزيز .
وأقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم ...

الخطبة الثانية

الحمد لله، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، أحمده وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ (١٢) إِنَّهُ هُوَ يُبْدِي وَيُعِيدُ (١٣) وَهُوَ الْغَفُورُ الْودُودُ (١٤) ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ (١٥) فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿[البروج: ١٢ - ١٦].

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهداهم إلى يوم الدين .

أما بعد: فاتقوا الله - عباد الله - وانصروه بإقامة دينه، وامتنال أمره، ونصرة عباده المؤمنين المستضعفين؛ ينصركم على أعدائكم، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧].

أيها المؤمنون: إن ما يجري للمسلمين في العقود المتأخرة على أيدي أعدائهم من قتل منظم لإخوانهم، واستفراجه بهم جماعة جماعة، وطائفة طائفة، وفي أماكن عدة لما يدعو إلى الاهتمام والبحث والتأمل .
مرت بنا في العقدين الأخيرين عشرات المصائب، وشاهدنا مئات المذابح، شرقاً وغرباً لإخواننا في الدين، وعلمنا عن مقابر جماعية للمسلمين في البوسنة وكوسوفا وبلاد الأفغان والشيخان ثم في فلسطين؛ حتى استمرأنا المصائب، وتعودنا على مشاهدة مجازر إخواننا، وقد

عجزنا عن نصرتهم، وقعدنا عن نجاتهم، حتى إن تأثرنا بما نرى لا يعدو أن يكون تأثراً وقتياً يزول سريعاً، فما الذي دهانا يا معشر المسلمين، وماذا أصابنا؟ وما هو المخرج من محتتنا في أنفسنا قبل مصيبتنا بعدونا؟ إن الذي كبلنا عن نصرة إخواننا ونجاتهم ذلك قد ضرب علينا، لا يرفعه الله عنا حتى نرجع إلى ديننا، وهذا الذل قد جلبناه لأنفسنا بذنوبنا وعصياننا، حتى في أزمتنا ومصائبنا لا يتوب أهل العصيان منا عن معاصيهم.

انظروا إلى الإعلام عند العرب والمسلمين بصحفه ومجلاته، وإذاعاته وفضائياته، لم يتغير رغم حدوث الكوارث، ونزول القوارع، إعلامٌ يتباكى في دقائق معدودة حينما ينقل مذبحه من المذابح، ثم ما يلبث أن يكمل مسيرته الشيطانية، وبرامجه الهزلية، من مسلسلات، وأفلام، ورقص، وغناء، وتفسخ وانحلال، وكأن الأمة لا ترزح تحت وطأة الأزمات والنكبات. بل إن مصائب المسلمين في بعض الفضائيات والصحف صارت مادة دسمة للمهاترات السياسية، والمزايدات الكلامية، وأيضاً للبرامج الفكاهية الهزلية، والمشاهد المضحكة المسلية.

يا قومنا: لقد عاصرنا عشرات النكبات، وشهدنا مئات المجازر، ففي كل نكبة وكارثة هل تغيرت أوضاع بيوتنا وأحوالنا؟ فأصلحنا ما فسد منها، وأزلنا ما يفسد أنفسنا وبيوتنا؟! كلا، لم نفعل ذلك، ولن نفعله إلا من رحم الله وقليل ما هم.

يا قومنا: لو تخيل الواحد منا أنه ونسائه وأولاده وكل أفراد أسرته

الله عنه، ويقبل دعاءه، وينصر عباده بدعائه.
عاهدوا الله تعالى على التوبة النصوح، وأقيموا شرع الله تعالى
في بيوتكم، وفي أعمالكم، وفي كل شؤونكم، يكتب لكم العز
والتمكين، ويكتب لإخوانكم المحاصرين النصر والفوز المبين.
ألا وصلوا وسلموا على نبيكم كما أمركم بذلك ربكم..

١٩٠- نهاية طاغية

١٤٢٤/١٠/٢٥ هـ

الحمد لله؛ مالك الملك، يؤتي الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء.
أحمده حمداً يليق بجلاله وعظمته، وأشكره شكراً يوازي فضله ونعمته.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له؛ جعل الدنيا دار عملٍ واعتبار، وجعل الآخرة دار الجزاء والقرار.

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله؛ اصطفاه الله تعالى واجتباها، وأنزل عليه الكتاب، وقص عليه الأخبار، وأمره بالعظة والاعتبار ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١].

صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه، ومن اهتدى بهداهم إلى يوم الدين.

أما بعد: فأوصيكم - أيها الناس - ونفسي بتقوى الله عز وجل؛ فإن الدنيا إلى زوال، ولا يغترُّ بها إلا مغرور؛ إن أضحكت أبكت، وإن سرت أحزنت، وكم من غني ذاق فقرها! وكم من عزيز تجرع ذلها! وكم من آمن لبس خوفها!! ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ [فاطر: ٥].

أيها الإخوة المؤمنون: في معرفة أحوال الأمم، ونهاية الدول، وعاقبة الظلم والظالمين، ومصير الكفر والكافرين؛ عبرة لأولي الألباب، والشقي من شقي في بطن أمه، والسعيد من وعظ بغيره، كما قال ابن مسعود رضي الله عنه^(١)، وقال بعض الحكماء: «من نظر إلى الدنيا بغير العبرة انطمس من بصر قلبه بقدر تلك الغفلة»^(٢).

والتاريخ البشري مليء بالعظات والعبر، زاخرٌ بالحوادث والقصص، التي أضحي الأمر فيها مأموراً، والعزیز ذليلاً، والغني فقيراً، والأمن خائفاً، سواء ما وقع من ذلك في الأمم الغابرة، والقرون الخوالي، أو ما شهدناه فيما عشنا من سنوات قلائل.

أحداثٌ وعبر، وعظات ودروس، تستدعي فهم السنن الربانية، وتدبر الآيات القرآنية، وتستلزم عدم الركون إلى الذين ظلموا، والحذر من الاغترار بالجاه والسلطان، والقوة والمال، والشرف والعزة؛ فإن القوة لله جميعاً، وهو القادرُ سبحانه على تحويل القوي إلى ضعيف، والعزیز إلى ذليل، والغني إلى فقير في لمح البصر، وبأهون الأسباب، ﴿فَأَنآهُمُ اللّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا﴾ [الحشر: ٢].

قال عمرو بن شيبة رحمه الله تعالى: «كنت بمكة بين الصفا والمروة،

(١) أخرجه مسلم في القدر باب كيفية خلق آدمي (٢٦٤٥)، وابن ماجه في

المقدمة باب اجتناب البدع (٤٦)، وأبو نعيم في الحلية (١/١٣٨)، وهناد في

الزهد (٤٩٧)، وابن حبان (٦١٧٧)، والبيهقي في الشعب (٤٧٨٨).

(٢) تفسير ابن كثير (١/٤٣٩)، عند تفسير الآية (١٩٠) من سورة آل عمران.

فرأيت رجلاً راكباً بغلةً وبين يديه غلمان ينفرّون الناس، قال: ثم عدت بعد حين فدخلت بغداد، فكننت على الجسر، فإذا أنا برجل حافٍ حاسر طويل الشعر يسأل الناس، قال: فجعلت أنظر إليه وأنأمله، فقال لي: مالك تنظر إليّ؟ فقلت له: شبّهتكَ برجل رأيته بمكة، ووصفت له الصفة، فقال: أنا ذلك الرجل، فقلت: ما فعل الله بك؟ فقال: ترفعت في موضع يتواضع فيه الناس، فوضعني الله حيث يرفعُ الناس^(٣). وفرعون الطاغية الظالم لما قص الله تعالى خبره في القرآن، وما جرى عليه من العذاب والهلاك بيّن سبحانه وتعالى أنه عبرة لمن يخشى ﴿فَحَشَرَ فَنَادَى (٢٣) فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى (٢٤) فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى (٢٥) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَن يَخْشَى﴾ [النازعات: ٢٣- ٢٦] نعم والله! إن سير المسرفين، وعاقبة الظالمين، ومآلات المجرمين؛ لعبرة لمن عرف الله تعالى حق المعرفة، وآمن بأنه على كل شيء قدير، وأن أخذه أليم شديد.

وما وقع لطاغية العراق في هذه الأيام^(٤)، من النهاية المهينة، والعاقبة

(٣) إحياء علوم الدين (٣/٣٤٣)، وذكر الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (١٠/٢٦٨): «أن هذا الرجل كان من عمّال الخليفة، فنقم عليه الخليفة وسلبه جميع ما هو فيه فصار فقيراً يسأل الناس» ونسبه للقشيري في رسالته.

(٤) هو صدام حسين، وقد أعلن عن عثور القوات الأمريكية عليه يوم الأحد الماضي ٢٠/١٠/١٤٢٤هـ، بعد بحث عنه دام عدة أشهر منذ سقوط بغداد في يد القوات الأمريكية أخرجهم الله تعالى منها ومن سائر بلاد المسلمين أذلة صاغرين.

الأليمة؛ ليستدعي أخذَ العظة والعبرة، والتبرؤ من الحول والقوة،
واللجوء إلى الله تعالى بالتوبة والأوبة، وسؤاله العفو والعافية.

إنها عبرةٌ أيُّ عبرة لكل جبار عنيد، وطاغيةٍ رعديد، وموعظةٌ من
أبلغ المواعظ لكل مستكبر ظالم، وفاجر معاندٍ.. عبرة وموعظة في
رجل جاوز طغيانه الحدود، وفرض سطوته على أهل دولته أكثر من
ثلاثة عقود، وسعّر حربين من أكبر الحروب، وبلغت قوته وقوة جيشه
مبلغاً خافه القريب، وهابه البعيد، ثم سلط الله تعالى عليه من هم
أشدّ منه قوة، وأكثر ظلماً وطغياناً؛ فاستباحوا بلاده، وقوضوا ملكه،
واحتلوا عرشه، وشرّدوا أسرته. وكما سلطهم الله تعالى عليه لظلمه
وبغيه فإن لهم يوماً من أيام الله تعالى بمقتضى سنته، وسيسلط عليهم
غداً من يذيقهم ما أذاقوا غيرهم. ومن مات منهم قبل أن يرى ذلك
أسرع إلى عذابه في قبره إلا أن يمين الله تعالى عليه بالتوبة والإيمان.
لقد كان لهذا الطاغوت أيام خلت؛ عزّ فيها سلطانه، وعظم شأنه،
واشتدت سطوته، وتناهت قوته، ثم انتهى كل ذلك في لمح البصر.
خلال ثلاثة عقودٍ وزيادة كم من صحفٍ سوّدت في مدحه؟ وكم
من قصائد أُلقيت في مجلسه؟ وكم من كتب كتبت في سيرته؟ وكم
من إذاعات أذاعت اسمه، وأسهب في وصفه؟ ثم ماذا كان؟!

كم من سلطان استقبله، وكم من بلاد خرجت تهتف له؟ وكم من
مظاهرات سُيرت لأجله؟ وكم من دول خافته؟ ثم ما هي النهاية؟!
فسبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا

فَإِنَّ (٢٦) وَيَقْنَىٰ وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿[الرحمن: ٢٦- ٢٧]، ﴿لَمَنْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦].

كان في أبهة ملكه يعيش متنقلاً بين قصوره التي قاربت الخمسين، ثم كان مآله إلى حفرة لا تكاد تسع جسده، والله تعالى أعلم كيف تكون نهايته، وما مصيره؟! نسأل الله له الهداية والتوبة قبل موته.

كان يعيش في بحبوحه من الدنيا، قد اجتمع شمل أسرته، وأحاط به قرابته، وقرَّ عيناً برفاقه ما يزيد على ثلاثين سنة، ثم إذا أسرته مشردة، وقتل أبناؤه وأبناؤهم تحت سمعه وبصره، واختفى أزواجه وبناته، وصار كل قريب له يتبرأ منه، ويقسم أن لا صلة له به، وكل سمي له يغير اسمه؛ فمن اجتماع الشمل إلى تشتته، ومن الأُنس بالأهل إلى الغربة في حفرته! فسبحان مُدِيل الدُول، ومُحوِّل الأحوال، ومعزٌّ من يشاء، ومذلٌّ من يشاء، لا راد لأمره، ولا معقب لحكمه.

كان حاكم العراق طاغوتاً من الطواغيت؛ رضي أن يُعظم من دون الله تعالى، وأن يُقدم أمره على أمر خالقه جلَّ وعلا، وأن تنصب له التماثيل، وأن يسبح الناس بحمده بكرة وعشياً.

لقد كان جباراً من الجبابرة، إذا أشار فُهمت إشارته، وإذا قال أنصت لقوله، وكم ارتعدت الفرائصُ من هيئته وسطوته؟ ثم آل أمره أن يُفلى شعره، وتفحص أسنانه في غاية الذل والهوان أمام عدسات التصوير، ويُعامل على يد رعاة القبر كما تُعامل البقر على حدِّ قول غربي بابوبي

سابق يقول: «شعرت بالشفقة وأنا أراه مدمراً وطبيب الجيش يفحص أسنانه كالبقرة، كان من الممكن أن يعفينا من رؤية هذه الصورة»^(٥).

لقد سفك طاغية العراق كثيراً من الدماء، وقتل جمهوراً من الدعاة والعلماء، وأذل خلقاً لا يعلم عددهم إلا الله، وجرّ أعداء الدين والملة من الصهاينة والصليبيين إلى أفخاخهم؛ فبلع طعمهم، ووقع في شركهم، وأدخل الأمة المسلمة في نفقٍ مظلم، ومشكلات معقدة، بحروب سورها، وأخطاء ارتكبها^(٦)، وجد فيها الأعداء فرصة سانحة للتدخل في المنطقة، وإذلال أهلها، وسلب خيراتها، وفرض ما يريدون، ثم كان جزاؤهم له على خدماته العظيمة لهم أن جعلوه أول فدائهم، وبداية أهدافهم، وهكذا يفعل الأعداء بعملائهم!! يذيقونهم ذلّ الدنيا قبل عذاب الآخرة، فهل من معتبر من كل جبار معاند، وظالم غاشم؟! فيتوب من ظلمه وجبروته قبل أن تكون نهايته نهاية هذا الطاغية.

والظلم ليس حكراً على أهل الملك والسلطان، فقد يكون الرجل

(٥) قائل ذلك هو الكاردينال ريناتو مارتينو رئيس إدارة العدل والسلام في الفاتيكان، وتناقلت ذلك بعض الصحف والإذاعات والقنوات الفضائية.

(٦) وذلك أن الغرب وخاصة أمريكا أغروه بالحرب على إيران وزينوا له ذلك، فحاربها حرباً ضروساً أكلت كثيراً من مقدرات العراق ومقدرات الخليج مدة ثماني سنوات، ثم زين له الأمريكان - عن طريق سفيرتهم في بغداد آنذاك - ابتلاع الكويت فاجتاحها، فكان ذلك سبب تواجد القوات الأمريكية في الخليج العربي، ودمّروا العراق شر تدمير، وحاصروه أشد حصار مدة ثلاثة عشر عاماً إلى أن اجتاحتها العراق، واحتلوها بعد أشهر، وأسروا صدام حسين.

جباراً ظلوماً في بيته أو مع جيرانه أو خدمه أو في وظيفته حسب حاله ومقامه ومقداره، والواجب محاسبة النفس على ظلمها، وردّها عن غيها؛ فإن الظلم مرتعه وخيم، وعاقبته أليمة، وإذا ما اجتمع مع ظلم العباد ظلم للنفس بمحادة الله تعالى، ورفض أمره، والتنكر لشريعته؛ كان الهلاك المحقق، والعذاب الخالد، نسأل الله العافية والهداية.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾ (٤٤) وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذَّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿[الشورى: ٤٤-٤٥]،
بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم.

الخطبة الثانية

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على الظالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ولي الصالحين، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله النبي الأمين، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.
أما بعد: فاتقوا الله - عباد الله - وارجوا رحمته، وخافوا عذابه، واحذروا ما يسخطه، ولا تأمنوا مكره؛ فإنه لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون.

أيها الناس: عوذوا بالله تعالى من سوء القضاء، ومن درك الشقاء، ومن جهد البلاء، ومن شماتة الأعداء؛ فقد أمر النبي صلى الله عليه

وسلم بالتعوذ بالله من ذلك، وكان عليه الصلاة والسلام يتعوذ بالله منها، كما روى الشيخان من حديث أبي هريرة رضي الله عنه^(٧).
وقد ذكر العلماء أن درك الشقاء يكون في أمور الدنيا وأمور الآخرة، وكذلك سوء القضاء عام في النفس والمال والأهل والولد والخاتمة والمعاد، وشماتة الأعداء هي: ما ينكأ القلب، ويبلغ من النفس أشد مبلغ، وإنما تعوذ النبي صلى الله عليه وسلم من ذلك تعليماً لأُمَّته ليعوذوا بالله تعالى منها^(٨).

وطاغية العراق قد أصابته هذه الجمل المذكورة في الحديث، ولعله لم يتعوذ بالله عزَّ وجلَّ منها يوماً من الأيام؛ فإن سوء القضاء قد أصابه في ملكه وأهله وولده ونفسه، وأدركه الشقاء بذلك، وأجهده البلاء طيلة الأشهر الماضية، ثم شمت به أعداؤه، وسخروا من نهايته الأليمة، والله تعالى أعلم هل يستمر شقاؤه معه إلى خاتمته ثم معاده

(٧) أخرجه البخاري في القدر باب من تعوذ بالله من درك الشقاء وسوء القضاء (١٦١٦)، ومسلم في الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار باب في التعوذ من سوء القضاء ودرك الشقاء وغيره (٢٧٠٧). وقوله في الحديث: «درك الشقاء» بفتح الدال والراء، ويجوز فيها إسكان الراء «درك» من الإدراك واللاحق، قال النووي: «أما درك الشقاء فالمشهور فيه فتح الراء، وحكى القاضي وغيره أن بعض رواية مسلم رواه ساكنة وهي لغة» اهـ (٣١/١٧)، وانظر: الديباج على مسلم (٦٣/٦)، وشرح السيوطي على النسائي (٢٦٨/٨)، وحاشية السندي (٢٦٩/٨).

(٨) انظر: شرح النووي على مسلم (٤٩/١٧)، وفتح الباري لابن حجر (١١/١٥٣).

وحسابه أم يمن الله تعالى عليه بتوبة يقبلها منه؟!
والمؤمن ليس بالشامت ولكنه المعتبر المتعظ الذي يعتبر بمثل هذه
الأحوال، ويستفيد من تلك الأحداث؛ فيعلمُ حقارة الدنيا، وتقلب
الأحوال، وتعذر الاستقرار.

وفي التاريخ القديم والحديث الكثير من العبر والعظات، فكم من
جبابرة عبّدوا البشر لغير الله تعالى، ونازعوا الله تعالى في كبريائه وعظمته
فقصمهم الله تعالى وأذلهم، وجعلهم عبرةً لخلقه؟!!

وكم من أمم حادت عن الطريق المستقيم، ورفضت شرع الله تعالى،
واستخفت بأمره؛ فسلط الله تعالى عليها عدواً غاشماً، استباح ديارها،
وأباد خضراءها، ومزقها شر ممزق، أو أرسل عليها الرب جل جلاله
عذاباً من السماء أهلكها، فصارت أثراً بعد عين، وخبراً يعتبر به
المعتبرون من البشر!! ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا
حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا تُكْرَرًا﴾ (٨) فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا
خُسْرًا ﴿[الطلاق: ٨-٩].

ولما طغى بنو إسرائيل، وقتلوا أنبياءهم؛ سلط الله تعالى عليهم
أعداءهم فقتلوهم وسبواهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ
فِي الْكِتَابِ لُتْفُسُدُ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلِتَعْلَنَ عُلوًّا كَبِيرًا﴾ (٤) فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ
أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا
مَفْعُولًا ﴿[الإسراء: ٤ - ٥].

ونحلف بالله غير حائثين على أن كل طاغية من البشر له يوم من

أيام الله تعالى يجعله الله تعالى فيه عبرة وموعظة لعباده، ونقسم بالعظيم
 القدير على أن طغيان اليهود في بيت المقدس، ومن ورائهم رعاة البقر،
 وإفسادهم في الأرض، وعلوهم على الناس، واستذلالهم للمسلمين،
 وتسلطهم عليهم وعلى دينهم ونيبهم ومناهجهم وشريعة ربهم لن يكون
 نهاية المطاف؛ بل سيكون ظلمهم وطغيانهم سبباً لتقويض حضارتهم،
 وفساد ممالكهم، واضمحلال أمرهم - سواء أدركنا ذلك أم لم ندركه -
 عجل الله ذلك بمنه وكرمه؛ فسنة الله تعالى ماضية في الطغاة والظالمين
 بالهلاك والعذاب ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ
 أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢]، ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ
 فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١٣٧) هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ
 (١٣٨) وَلَا تَهْنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣٩) إِنْ يَمْسَسْكُمْ
 قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ
 آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (١٤٠) وَلِيَمْحَصَ اللَّهُ الَّذِينَ
 آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٧ - ١٤١].

ألا وصلوا وسلموا على نبيكم محمد بن عبد الله كما أمركم بذلك

ربكم،،،

علامات الساعة وأخبار القيامة

- ١٩١- المهدي المنتظر
- ١٩٢- فتنة المسيح الدجال
- ١٩٣- نزول عيسى عليه السلام
- ١٩٤- ياجوج وماجوج
- ١٩٥- خروج الدابة
- ١٩٦- البعث والنشور
- ١٩٧- بين امتحان الدنيا وحشر الآخرة
- ١٩٨- صحائف الأعمال
- ١٩٩- القضاء في الخصومات
- ٢٠٠- ميزان الآخرة
- ٢٠١- الشهود على العبد يوم القيامة
- ٢٠٢- صراط الآخرة

١٩١- المهدي المنتظر حقيقته، وصفه، وقت خروجه

١٤٢٢/٨/١ هـ.

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢] ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أما بعد: فإن أصدق الحديث كلام الله تعالى، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها المسلمون: من دلائل إيمان العبد بالله سبحانه وتعالى: إيمانه بالغيب الذي جاء به الوحي من عند الله تعالى، ومن عند رسوله صلى الله عليه وسلم، وكلما كان إيمان العبد بالغيب أقوى كان إيمانه بالله تعالى أكمل. وجميع ما جاء في الوحي من المغيبات فهو واقع لا محالة، وإن أنكر ذلك من أنكره من عبّاد العقول، ومنكري الغيب.

ومما جاء به الوحي ما يقع في آخر الزمان من الحوادث العظمى،
وعلامات الساعة الكبرى، من ظهور الدجال، ونزول عيسى عليه
السلام، وخروج يأجوج ومأجوج، وخروج الدابة، وطلوع الشمس
من مغربها.. وقبل ذلك كله: خروج المهدي، ومبايعة المؤمنين له،
وحربه على الكفر وأهله، وصلاته بعيسى بن مريم عليه السلام.
وقد تواترت الأحاديث بخروج المهدي في آخر الزمان؛ كما قال
الحافظ أبو الحسن الأبري: «قد تواترت الأخبار، واستفاضت عن
رسول الله صلى الله عليه وسلم بذكر المهدي، وأنه من أهل بيته، وأنه
يملك سبع سنين، وأنه يملأ الأرض عدلاً، وأن عيسى عليه السلام
يخرج فيساعده على قتل الدجال، وأنه يؤم هذه الأمة ويصلي عيسى
خلفه»^(١).

(١) التذكرة للقرطبي (٧٢٣/٢)، وفتح الباري لابن حجر (٤٩٤/٦)، وفتح
الغيث للسخاوي (٤١/٣)، والإشاعة في أشراف الساعة للبرزنجي (٨٧).
كما جزم بتواتر أحاديث المهدي البرزنجي في: الإشاعة (٨٧)، والسفارينسي
في: لوائح الأنوار البهية (٨٠/٢)، والشوكاني في كتابه: التوضيح في تواتر
ما جاء في المهدي المنتظر والدجال والمسيح، كما نقله عنه القنوجي في كتابه:
الإذاعة لما كان ويكون بين يدي الساعة (١١٤)، وذكر تواترها أيضاً القنوجي
في: الإذاعة (١١٢)، والكتاني في: نظم المتناثر من الحديث المتواتر (٢٢٩)،
فكل هؤلاء الحفاظ وغيرهم جزموا بتواتر الأحاديث الواردة في شأن المهدي
المنتظر حتى قال الشوكاني: «الأحاديث في تواتر ما جاء في المهدي المنتظر التي
أمكن الوقوف عليها منها خمسون حديثاً، فيها الصحيح والحسن والضعيف
المنجبر، وهي متواترة بلا شك ولا شبهة».

وقد بينت السنة النبوية اسمه ووصفه ونسبه، ووصف الحال التي تكون عند خروجه، وماذا يعمل، وكم يبقى في الأرض.

فأما اسمه: فمحمد بن عبدالله، أو أحمد بن عبدالله الهاشمي كما جاء في حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا تذهبُ أو لا تنقضي الدنيا حتى يملك العرب رجل من أهل بيتي يواطئ اسمه اسمي» رواه أحمد وأبو داود والترمذي^(٢).

وهو من نسل فاطمة بنت محمد رضي الله عنها، كما في حديث أم سلمة رضي الله عنها، قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «المهدي من عترتي من ولد فاطمة» رواه أبو داود وابن ماجه^(٣).

وبالتحديد من ولد الحسن بن علي رضي الله عنهما، قال ابن القيم رحمه الله تعالى: «وفي كونه من ولد الحسن سرٌّ لطيف، وهو أن الحسن رضي الله تعالى عنه ترك الخلافة لله؛ فجعل الله من ولده من

(٢) أخرجه أحمد (٤٤٨/١)، وأبو داود في كتاب المهدي من سننه (٤٢٨٢)، والترمذي في الفتن باب ما جاء في المهدي وقال: حسن صحيح (٢٢٣٠)، والطبراني في الكبير (١٠٠/١٦٤ - ١٦٧)، والصغير (١٤٨/٢)، وصححه الشيخ شاكر في شرحه على المسند (٣٥٧٢ - ٣٥٧٣).

(٣) أخرجه أبو داود في كتاب المهدي من سننه (٤٢٨٤)، وابن ماجه في الفتن باب خروج المهدي (٤٠٨٦)، والطبراني في الكبير (٢٣/٢٦٧)، والداني في السنن الواردة في الفتن (٥٦٥)، والحاكم (٤/٥٥٧)، وسكت عنه الذهبي في التلخيص، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٦١٠)، وقال في السلسلة الضعيفة (٩٣/١): «هذا سند جيد رجاله كلهم ثقات، وله شواهد كثيرة».

يقوم بالخلافة الحق . . وهذه سنة الله في عباده أنه من ترك لأجله شيئاً أعطاه الله أو أعطى ذريته أفضل منه»^(٤).

وأما صفته فجاءت في حديث أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «المهدي مني، أجلى الجبهة، أقنى الأنف...» رواه أبو داود والحاكم^(٥).

(٤) المنار المنيف في الصحيح والضعيف (١٣٩). وقد جاء في حديث عند أبي داود في سننه (٤٢٩٠) أن علياً رضي الله عنه نظر إلى ابنه الحسن وذكر أن المهدي سيكون من ولده؛ ولكن الحديث منقطع لأنه من رواية أبي إسحاق السبيعي عن علي رضي الله عنه، ولا تثبت له رواية عنه، فهو رآه ولم يرو عنه. قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى تعليقاً على هذا الحديث بعد أن ذكره: «وقول أمير المؤمنين صريح في أنه حسني لا حسيني؛ لأن الحسن والحسين مشبهان من بعض الوجوه بإسماعيل وإسحاق وإن لم يكونا نبيين؛ ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول لهما: «أعيزكما بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة، ومن كل عين لامة» ويقول: «إن إبراهيم كان يعوذ بهما بإسماعيل وإسحاق» [رواه البخاري: ٣٣٧١]. وكان إسماعيل هو الأكبر والأحلم؛ ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم وهو يخطب على المنبر والحسن معه على المنبر: «إن ابني هذا سيد، وسيصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين» [رواه البخاري: ٢٧٠٤]. فكما أن غالب الأنبياء كانوا من ذرية إسحاق فهكذا كان غالب السادة الأئمة من ذرية الحسين، وكما أن خاتم الأنبياء الذي طبق أمره مشارق الأرض ومغاربها كان من ذرية إسماعيل فكذلك الخليفة الراشد المهدي الذي هو آخر الخلفاء يكون من ذرية الحسن» اهـ. من رسالة إلى المنسوين إلى التشيع وغيرهم في العراق ومشهد المنتظر، ضمن جامع المسائل المجموعة الثالثة (٩٩/٤) من مطبوعات المجمع الفقهي.

(٥) أخرجه أبو داود في كتاب المهدي من سننه (٤٢٨٥)، والحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، وتعقبه الذهبي بضعف عمران ولم يخرج له =

يكون من سائر الناس ، فيصلحه الله تعالى فجأة إذا أذن بخروجه ،
كما جاء في حديث علي رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «المهدي منّا أهل البيت يصلحه الله في ليلة» رواه أحمد وابن ماجه^(٦) .

قال ابن كثير رحمه الله تعالى : «أي : يتوب عليه ويفقهه ويلهمه
رشده بعد أن لم يكن كذلك»^(٧) .

وأما حال الأرض وقت خروجه فمليئة ظلماً وجوراً ، ومهمته إقامة
العدل ، ورفع الظلم ؛ كما جاء في حديث أبي سعيد رضي الله عنه قال :
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «لا تقوم الساعة حتى تمتلئ الأرضُ
ظُلماً وعدواناً» قال - ثم يخرج رجل من عترتي أو من أهل بيتي يملؤها
قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وعدواناً» رواه أحمد وصححه ابن حبان^(٨) .

= مسلم (٥٥٧/٤) ، وعمران هو القطان ، وقد توبع بأسانيد أخرى ، قال ابن
القيم في المنار المنيف (١٣١) : «رواه أبو داود بإسناد جيد» ، وحسنه الألباني
في صحيح الجامع (٦٦١٢) .

(٦) أخرجه أحمد (٨٤/١) ، وابن أبي شيبة في مصنفه (٣٧٦٣٣ - ٣٧٦٣٤) ،
وابن ماجه في الفتن باب خروج المهدي (٤٠٨٥) ، وأبو يعلى في مسنده (١/
٣٥٩) ، وأبو نعيم في الحلية (١٧٧/٣) ، وفي أخبار أصبهان (١/١٧٠) ، وصححه
الشيخ أحمد شاکر في شرحه على المسند (٦٤٥) ، والألباني في صحيح الجامع
(٦٦١١) .

(٧) النهاية في الفتن والملاحم (٣١/١) .

(٨) أخرجه أحمد (٣٦/٣) ، وأبو يعلى (٩٨٧) ، والحاكم وصححه على شرط
الشيخين ووافقه الذهبي (٥٥٧/٤) ، وصححه ابن حبان (٦٨٢٣) .

وجاء في وصفه أنه كريم يحثو المال، ولا يعده عدداً؛ كما في حديث جابر رضي الله عنه قال: «يوشك أهل العراق أن لا يجيء إليهم قفيز ولا درهم، قلنا من أين ذاك؟ قال: من قِبَلِ العجم يمنعون ذاك، ثم قال: يوشك أهل الشام أن لا يجيء إليهم دينار ولا مُدِّيٌّ، قلنا: من أين ذاك؟ قال: من قِبَلِ الروم، ثم سكت هنيئة ثم قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يكون في آخر أمتي خليفة يحثي المال حثياً، ولا يعده عدداً» رواه مسلم^(٩).

يحكم في الناس سبع سنين، تعم الخيرات فيها أرجاء الأرض، وتكثر البركات، ويعز الله الإسلام، كما في حديث أبي سعيد رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «يخرج في آخر أمتي المهدي يسقيه الله الغيث، وتخرج الأرض نباتها، ويعطي المال صحاحاً، وتكثر الماشية، وتعظم الأمة، يعيش سبعاً أو ثمانياً، يعني: حججاً» رواه الحاكم، وفي لفظ لابن أبي شيبه: «وتعيش أمتي في زمانه عيشاً لم تعشه قبل ذلك»^(١٠).

(٩) أخرجه مسلم في الفتن باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيتمنى أن يكون مكان الميت من البلاء (٢٩١٣).

(١٠) أخرجه أحمد (٢٦/٣ - ٢٧)، وابن أبي شيبه (٣٧٦٢٧)، والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (٥٥٨/٤).

وله شواهد منها: حديث مجاهد عن أحد الصحابة كما عند ابن أبي شيبه في مصنفه ولفظه: «إن المهدي لا يخرج حتى يقتل النفس الزكية... وذكر في آخره بركة الأرض، ونزول القطر...».

ويكون ظهور المهدي قبيل خروج الدجال، ونزول عيسى عليه السلام، وإذا نزل عيسى عليه السلام لقتل الدجال صلى خلف المهدي، ثم يقود عيسى المهدي ومن معه من المسلمين لقتل الدجال؛ كما جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كيف أنتم إذا نزل ابنُ مريم فيكم، وإمامكم منكم» متفق عليه^(١١). وفي مسند الإمام أحمد: «إذا هم بعيسى بن مريم صلى الله عليه وسلم فتقام الصلاة فيقال له: تقدم يا روح الله، فيقول: ليتقدم إمامكم فيصل بكم»^(١٢)، وهذا الإمام الذي يصلي بهم هو المهدي؛ كما جاء مصرحاً به في حديث جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ينزلُ عيسى بن مريم فيقول أميرهم المهدي: تعال فصل بنا، فيقول: لا، إن بعضهم أميرُ بعض؛ تكرمة منه لهذه الأمة» رواه الحارث بن أبي أسامة^(١٣).

ويكون خروجه عقب فتنة تمحص الناس، وتميز خبيثهم من طيبهم، وتظهر مؤمنهم من منافقهم؛ كما جاء في حديث علي موقوفاً: «ستكون فتنة يُحصَل الناس منها كما يُحصَل الذهبُ في المعدن، فلا تسبوا أهل

(١١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء باب نزول عيسى بن مريم عليهما السلام (٣٤٤٩)، ومسلم في الإيمان، باب نزول عيسى ابن مريم حاكماً بشريعة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم (١٥٥ - ٢٤٦).

(١٢) هذه الرواية أخرجهما أحمد (٢١٦/٤ - ٢١٧)، والحاكم (٤٧٨/٤).

(١٣) أخرجه الحارث بن أبي أسامة التميمي في مسنده كما في المنار المنيف لابن القيم برقم (٣٣٦)، وقال ابن القيم بعد ذكره: وهذا إسناد جيد.

الشام، وسبوا ظلمتهم؛ فإن فيهم الأبدال، وسيرسل الله عليهم سيئاً - أي عطاءً - من السماء فيفرقهم حتى لو قاتلتهم الثعالب غلبتهم، ثم يبعث الله عند ذلك رجلاً من عترة الرسول صلى الله عليه وسلم في اثني عشر ألفاً إن قلوا، وخمسة عشر ألفاً إن كثروا، أمارتهم أو علامتهم: أمتٌ أمتٌ، على ثلاث رايات، يقاتلهم أهل سبع رايات، ليس من صاحب راية إلا وهو يطمح بالملك، فيقتلون ويهزمون، ثم يظهر الهاشمي فيردّ الله إلى الناس ألفتهم ونعمتهم، فيكونون على ذلك حتى يخرج الدجال» رواه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي^(١٤).

وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما موقوفاً: «لا تمضي الأيام والليالي حتى يلي منا أهل البيت فتى لم تلبسه الفتن ولم يلبسها. قال: قلنا: يا عباس، يعجز عنها مشيختكم وينالها شبانكم؟! قال: هو أمر الله يؤتيه من يشاء».

زاد أبو عمرو الداني والبيهقي: «كما فتح الله هذا الأمر بنا فأرجو أن يختمه الله بنا» رواه ابن أبي شيبة وإسناده جيد^(١٥).

ومن أدرك زمان المهدي فإنه مأمور أن يبايعه ولو لحقه من هذه المبايعة مشقة وعنت وأذى؛ كما جاء ذلك في حديث ثوبان رضي

(١٤) أخرجه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي (٥٥٣/٤).

(١٥) أخرجه ابن أبي شيبة (٣٧٦٣٠)، وأبو عمرو الداني (٥٥٩)، والبيهقي في الدلائل (٥١٧/٦)، وقال ابن كثير في البداية والنهاية (٢٤٥/٦): هذا إسناد

الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يقتل عند كنزكم ثلاثة كلهم ابن خليفة، ثم لا يصير إلى واحد منهم، ثم تطلع الرايات السود من قبل المشرق فيقتلونكم قتلاً لم يقتله قوم» ثم ذكر شيئاً لا أحفظه فقال: «فإذا سمعتم به فأتوه فبايعوه ولو حبواً على الثلج فإنه خليفة الله المهدي» رواه ابن ماجه والحاكم^(١٦).

أيها الإخوة: ما سبق ذكره جملة من الأحاديث الثابتة في شأن المهدي المنتظر، وقد جاءت أحاديث أخرى بأوصاف أخرى لكنها ليست ثابتة، وهو خارج لا محالة حتى ولو لم يبق من الدنيا إلا يوم؛ كما جاء في حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لو لم يبق من الدنيا إلا يومٌ لطوّل الله ذلك اليوم حتى يبعث فيه رجلاً مني أو من أهل بيتي يواطئ اسمه اسمي، واسم أبيه اسم أبي» رواه أبو داود^(١٧).

أسأل الله تعالى أن يعلمنا ما ينفعنا، وأن ينفعنا بما علمنا، وأن يصلح قلوبنا وأعمالنا، وأن يجعلنا من عباده الصالحين.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿اقْتَرَبَ

(١٦) أخرجه ابن ماجه في الفتن، باب خروج المهدي (٤٠٨٤)، والبيهقي في الدلائل (٥١٥/٦)، والذاني (٥٤٨)، والحاكم وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي (٤٦٤/٤)، وقال ابن كثير في النهاية بعد أن ذكر إسناد ابن ماجه: وهذا إسناد قوي صحيح (٣١/١)، وقال البوصيري في مصباح الزجاجة: هذا إسناد صحيح ورجاله ثقات (٢٦٣/٣).

(١٧) انظر تخريجه في هامش (٢).

لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَا هِيَ قُلُوبُهُمْ ﴿[الأنبياء: ١ - ٣].

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم، ، ،

الخطبة الثانية

الحمد لله حمداً طيباً كثيراً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى،
أحمده وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده
لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله وسلم وبارك
عليه وعلى آله وأصحابه، ومن اهتدى بهداهم إلى يوم الدين.

أما بعد: فاتقوا الله - عباد الله - فنعمة الزاد التقوى ليوم المعاد ﴿يَا
أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا
تَعْمَلُونَ﴾ [الحشر: ١٨].

أيها المؤمنون: لقد وقف الناس في قضية المهدي، وما ورد فيه
من أحاديث ثلاثة مواقف:

فقوم قبلوا فيه الضعيف والموضوع من الأحاديث؛ بل ووضعوا
أحاديث من عند أنفسهم، ونزلوها على أشخاص من أشياخهم، فاعتقدوا
فيهم المهدوية؛ فأخطأوا في ذلك، وأضلوا العامة. وما من فرقة من
الفرق التي ضلَّت في هذا الباب إلا وفيها أدياء ادعوا لأنفسهم المهدوية،
ولبسوا على الناس وأضلّوهم. وبعض الفرق الضالة عطلوا الشعائر

العظيمة كالحج والجهاد وغيرها بحجة أنها لا تصح إلا خلف المهدي^(١٨).

(١٨) ممن ادعى المهودية:

١ - المختار ابن أبي عبيد الثقفي، وكان ناصبياً خبيثاً، وادعى المهودية في محمد بن الحنفية الذي تبرأ منه ومن أكاذيبه، وكان المختار يتعاطى الكهانة، ويدعي نزول الوحي عليه، انظر: الملل والنحل للشهرستاني (١/١٢٩)، والفرق بين الفرق للبغدادي (٤٧).

٢ - الجارودية من فرق الزيدية: وهم أتباع أبي الجارود زياد بن أبي زياد الهمداني الكوفي الرافضي، وهم ينتظرون خروج محمد بن عبد الله النفس الزكية الناسك الزاهد؛ إذ إنه اختفى مع أخيه إبراهيم خوفاً من المنصور العباسي، وقد تلقب بالمهدي، وهجم على المدينة فاستولى عليها، وبايعه أهل المدينة، قال ابن كثير: «تلقب بالمهدي طمعاً في أن يكون المذكور في الأحاديث فلم يكن به، ولا تم له ما رجاه ولا ما تمناه فإثماً لله» البداية والنهاية (١٠/٨٤)، فأرسل إليه المنصور جيشاً فهزمه وقتله في رمضان عام ١٤٥هـ، فطائفة من الجارودية ينتظرون خروجه مرة أخرى، كما ينتظره طائفة المحمدية من الإمامية، والمغيرية من الرافضة، ويعتقدون أنه حي مقيم في الجبال، وأنه سيخرج في آخر الزمان.

٣ - الكاملية من الإمامية: وينتظرون رجعة علي رضي الله عنه كما في الفرق بين الفرق (٥٤).

٤ - الباقرية من الإمامية: وينتظرون محمد بن علي بن الحسين المكنى بأبي جعفر الباقر كما في الحاوي للسيوطي (٢/١٥٨).

٥ - الإسماعيلية: فإن طائفة منهم ينتظرون إسماعيل بن جعفر بن محمد كما في مقالات الإسلاميين للأشعري (١/١٠٠)، والفرق بين الفرق (٦٣)، وطائفة أخرى من الإسماعيلية يجعلون المهودية في ابن إسماعيل المذكور سابقاً محمد بن إسماعيل بن جعفر بن محمد كما في الملل والنحل (١/١٣٧)، وكذلك القرامطة أتباع حمدان أو الفرج بن عثمان المعروف بقرمط وهم أيضاً ينتظرون=

وبعض من ادعوا المهدوية تعاطوا السحر والكهانة والعرافة؛ وذلك لإيهام العامة بأن ما يجري على أيديهم من السحر هو من كرامات المهدوية؛ فضلوا وأضلوا، وأكلوا أموال الناس بالباطل، وأفسدوا عقائدهم، واستعبدوهم لأنفسهم.

ومضى في التاريخ رجال كان فيهم صلاح وخير ظنوا في أنفسهم المهدوية، فمنهم من كتمها فلم يضرَّ الناس شيئاً، ومنهم من أظهرها

= محمد بن إسماعيل بن جعفر كما في مقالات الإسلاميين (١/١٠١).
٦ - الإمامية الإثنا عشرية: وهم جمهور الشيعة، ويتظنون محمد بن الحسن العسكري، ويزعمون أنه اختفى في سرداب في سامراء، كما في الفصل لابن حزم (٤/١٨١).

٧ - العبيديون الباطنيون أتباع عبد الله بن ميمون القداح: ادعى أنه هو المهدي المنتظر.. كما في منهاج السنة النبوية لشيخ الإسلام ابن تيمية (٤/٢١١).
وقد ادعى المهدوية أناس كثيرون منهم: الحارث بن سريج عام ١١٦هـ المقتول سنة ١٢٨هـ، ومحمد بن عبد الله بن تومرت المغربي وادعى المهدوية في رمضان ٥١٥هـ في خطبة خطب بها الناس فبايعوه ومات سنة ٥٢٤هـ، والخليفة العباسي المهدي المتوفى سنة ١٦٩هـ.

قال شيخ الإسلام: «لما كان الحديث المعروف عند السلف والخلف أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في المهدي: «يواطئ اسمه اسمي واسم أبيه اسم أبي» صار يطمع كثير من الناس في أن يكون هو المهدي حتى سمي المنصور ابنه محمداً، ولقبه بالمهدي، مواطأة اسمه باسمه، واسم أبيه باسم أبيه، ولم يكن هو الموعود به» منهاج السنة النبوية (٢/١٣٢).

وقبل ثنتين وعشرين سنة، أي: رأس هذا القرن الهجري ادعى المهدوية محمد بن عبد الله القحطاني، واعتصم بالحرم المكي مع جماعة يرأسها جهيمان العتيبي، ولم يكون هو الموعود به.

وَادْعَاهَا إِمَامًا بِمَنَامَاتٍ أَوْ ظُنُونٍ أَوْ أَوْهَامٍ؛ فَجَرُّوا عَلَى الْأَمَةِ وَبَالًا عَظِيمًا^(٢٠).

ولكثرة من ادعوا المهدوية - حتى إنهم فاقوا من ادعوا النبوة في عددهم - فإن فريقاً من المسلمين أنكروا حقيقة المهدي، وردوا أحاديثه الصحيحة؛ لأنهم رأوا أن فكرة المهدوية قد جعلت كثيراً من الناس يدعونها، ويُضِلُّون بها العامة.

ولا شك في أن هؤلاء أخطأوا، وجازفوا برد نصوص صحيحة صريحة عن النبي صلى الله عليه وسلم، وهذا فيه من الخطر على عقيدة المسلم ما فيه، والله تعالى يقول: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣]، فليس من حق أحد أن يرفض شيئاً جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم بسبب فئة من الناس فهموه خطأ، وهل هؤلاء سينكرون النبوات بحجة أن فريقاً من الناس قد ادعوا النبوة!!

ثم إن من هؤلاء المنكرين للمهدوية غلاة يدعون العقلانية، قد أنكروا المهدي والدجال ونزول المسيح ابن مريم عليه السلام؛ إنكاراً

(٢٠) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: «وأعرف في زماننا غير واحد من المشايخ الذين فيهم زهد وعبادة يظن كل منهم أنه المهدي، وربما يُخاطَب أحدهم بذلك مرات، ويكون المخاطب له بذلك شيطان وهو يظن أنه خطاب من الله، ويكون أحدهم اسمه أحمد بن إبراهيم فيقال: محمد وأحمد سواء، وإبراهيم الخليل هو جد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأبوك إبراهيم فقد واطأ اسمك اسمه، واسم أبيك اسم أبيه» منهاج السنة النبوية (٤/٢١١).

للغيب، وعدم إيمان إلا بالمحسوسات والمشاهدات، ومن أنكر الغيب كفر^(٢١).

(٢١) أنكر المهدي المنتظر عدد من المشتغلين بالبحث والكتابة، من أشهرهم: المؤرخ ابن خلدون فقد ضعف أحاديث المهدي كما في تاريخه (١/ ٥٧٤ - ٥٧٥)، وتبعه على ذلك كثير من الكتاب؛ لأنهم يراجعون كتب ابن خلدون فيما يتعلق بالعمران والدول والحضارات والتاريخ، فأخذ كثير منهم فكرة الإنكار عنه. ومن أنكر المهدي: الشيخ محمد رشيد رضا في تفسير المنار (٩/ ١٠٥ - ٥٠٤)، وكذلك الشيخ المحمود قاضي قطر سابقاً؛ مضعفاً لأحاديثه. والملاحظ أن من أنكروه على ثلاثة أقسام:

القسم الأول: ضعفوا أحاديثه كما فعل ابن خلدون وكذا المحمود قاضي قطر، واحتجوا بأن أحاديثه لم تخرج في الصحيحين، وأنها لا تخلو من مقال.

القسم الثاني: ليس لهم أي علم بالحديث وأسانيده؛ لكنهم أنكروا المهدي فراراً من التشبه بالرافضة، وزعموا أن إثباته يؤكد معتقد الرافضة في غيبة مهديهم؛ كما هو صنيع محمد رشيد رضا، وأحمد أمين في كتابه «ضحى الإسلام»، والمؤرخ محمد بن عبد الله عنان في كتابه «تراجم إسلامية» (٢٣٧)، ويذكر هؤلاء أن سبب اختراع المهدوية سياسي، وأنه كان بسبب ذهاب الخلافة من آل البيت إلى الأمويين، فاخترع آل البيت ومن ادعوا مشايعتهم فكرة المهدوية؛ وذلك لاسترجاع الخلافة، أو أن مخترعيها قصدوا جمع الناس على كلمة سواء تتلخص في الولاء لآل البيت.

وهذا المسلك خطير جداً، وفيه اتهام للصالحين من آل البيت ولا سيما الصحابة الذين رووا أحاديث المهدي وهم من آل البيت مثل: علي وابن عباس رضي الله عنهم، على أن كثيراً من أحاديث المهدي رواها من غير آل البيت فبطلت حجبتهم، وخطورة هذا المسلك في كونه يطعن في بعض الصحابة، ولا شك في أن الطعن في الصحابة رضي الله عنهم طعن في الدين؛ لأنهم حملته عن النبي صلى الله عليه وسلم، ونقلته إلينا، ثم إن من طعن فيهم فقد خالف =

= صريح القرآن؛ إذ إن عدالتهم منصوص عليها فيه في أكثر من آية. فإن زعموا أن من وضع أحاديثه من آل البيت كانوا بعد عصر الصحابة. فجواب ذلك: أن من جاءوا بعد عصر الصحابة من آل البيت إما أن يكونوا ثقاتاً صالحين، فاتهامهم بوضع الحديث اتهام باطل لا موجب له، ويلزم منه رد أحاديث صحيحة بمجرد الهوى والظن. وإن كانوا غير صالحين ففيه اتهام لأئمة الحديث الذين نقلوا أحاديثه وصححوها بقبول أحاديث من لا يقبل حديثه؛ وفي ذلك إسقاط للسنة كلها، ويلزم منه رد أحاديث أخرى في غير المهدي أسانيداً مثل أسانيد حديثه أو أقل منها وهذا باطل، على أنه وردت أحاديث في شأن المهدي ليس في أسانيدها أحد من آل البيت فبطلت هذه الحجة.

القسم الثالث: ليس لهم علم بالأحاديث وأسانيدها؛ لكنهم ظنوا أن فكرة المهدي مأخوذة من أهل الكتاب، وبعضهم بالغ فأنكر الدجال ونزول المسيح عيسى ابن مريم بحجة أن هذه العقائد موجودة عند اليهود والنصارى، ويحتمل أن المسلمين أخذوها عنهم؛ كما قال محمد محي الدين عبد الحميد: «يرى بعض الباحثين أن كل ما ورد عن المهدي وعن الدجال من الإسرائيليات» انظر: تعليقه على العرف الوردى في أخبار المهدي للسيوطي ضمن الحاوي للفتاوى (١٦٦/٢)، وقال رشيد رضا بعد أن طعن في كثير من أحاديثه من جهة الإسناد: «وأما التعارض في أحاديث المهدي فهو أقوى وأظهر، والجمع بين الروايات فيه أعسر، والمنكرون له أكثر، والشبهة فيه أظهر؛ ولذلك لم يعتد الشيخان بشيء من رواياتهما في صحيحيهما. وقد كانت أكبر مثرات الفساد والفتن في الشعوب الإسلامية؛ إذ تصدى كثير من محبي الملك والسلطان ومن أدياء الولاية وأولياء الشيطان لدعوى المهدي في الشرق والغرب...» وقال أيضاً: «وإذا تذكرت مع هذا أن أحاديث الفتن والساعة عامة، وأحاديث المهدي خاصة، كانت مهبط رياح الأهواء والبدع، وميدان فرسان الأحزاب والشيوع» وقد استمات في رد هذه الأحاديث ولم يستقص كل ما ورد في المهدي من أحاديث، وإنما نقل بعضاً منها ورده، وقبل ذلك رد حديث تميم الداري في قصة الجساسة=

= الذي خرج مسلم في صحيحه، وقبل ذلك الملح إلى رد كل ما جاء في الفتن فقال: «اعلم أيها المسلم الذي يجب أن يكون على بصيرة من دينه أن في روايات الفتن وأشراف الساعة من المشكلات والتعارض ما ينبغي لك أن تعرفه ولو إجمالاً حتى لا تكون مقلداً لمن يظنون أن كل ما يعتمد أصحاب النقل حق...» انظر: تفسير المنار (٩/٤٨٨-٤٩٩).

وهكذا يردون الأحاديث الصحيحة بأوهام خاطئة، وظنون فاسدة نسأل الله العافية.

وما ذكره الشيخ محمد رشيد رضا - رحمه الله تعالى وعفا عنا وعنه - ينطوي على مغالطات كثيرة لا يتسع هذا المقام للبسط فيها، ومن ذلك:

١- دعوى التعارض التي ذكرها في أحاديث المهدي غير مسلمة، وقد جمع العلماء بينها بما يدفع التعارض والحمد لله كثيراً.

٢- ما ذكره من أن المنكرين للمهدي أكثر من المثبتين غير صحيح؛ فإن جمهور علماء الإسلام يثبتون المهدي، ويذكرونه في عقائدهم التي يكتبونها، وكيف يزعم أحد أن المنكرين للمهدي أكثر من المثبتين له وقد ذكر الشوكاني وقوفه على خمسين حديثاً في شأنه منها الصحيح والحسن والضعيف المنجبر، فيكفي في إثبات بطلان هذه الدعوى أن رواية هذه الخمسين حديثاً سيزيدون على مئة بل مئتين، بالنظر إلى رجالات أسانيدها، وجلهم من علماء الحديث وأئمة؛ فضلاً عن الرواية من الصحابة رضي الله عنهم، والتابعين لهم، ومن أين للمنكرين مئة عالم، بل عشرة ينكرون المهدي وهم ممن يعتد بقولهم.

٣- عدم إخراج الشيخين لأحاديث المهدي لا يسوغ إنكاره؛ لأن الشيخين لم يستوعبا كل ما صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم يدعيا ذلك؛ بل صرحا بخلافه، وتركوا أحاديث كثيرة صحيحة لم تكن على شرطهما في صحيحهما. ولو صحت هذه الحجة لزم رد كثير من أحكام الشريعة، وتفصيلاتها؛ لأن السبيل إلى إثباتها ومعرفتها أحاديث في غير الصحيحين.

ووقف بين مدّعي المهدوية وبين منكريها أهل الحق والإيمان، الذين أثبتوا ما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم من أخبار المهدي، وآمنوا بذلك وصدقوه؛ لوروده عن المعصوم صلى الله عليه وسلم، ولم ينساقوا خلف كل دّعي يدعي المهدوية.

إن الواجب على كل مسلم أن يؤمن بالغيب المثبت في الكتاب وصحيح السنة، ولا يستعجل ظهور هذا الغيب أو وقوعه؛ لأنه ليس له، بل هو أمر كوني خاضع لإرادة الله سبحانه وتعالى، وليس للبشر فيه حيلة لا من حيث وقوعه أو دفعه، ولا من جهة تقديمه أو تأخيرهِ، وكل ذلك ليس إلينا، وما علينا إلا الإيمان والتسليم، مع السعي الجاد لإقامة دين الله تعالى، والدعوة إليه، والاشتغال بالباقيات الصالحات.

=٤- ما ذكره من أن أحاديث المهدي كانت أكبر مثرات الفساد والفتن في الشعوب الإسلامية... إلخ، فلو صح ذلك سبباً فإنه لا يُسوِّغ ردّ الصحيح من الأحاديث، كيف وهو لا يصح سبباً لذلك!! ذلك أن سبب الضلال في هذه القضية هو الجهل والهوى، ولو علم الناس السنة النبوية، وتجردوا من الهوى لما وقع هذا الضلال. ووقوع الفتنة والضلال بسبب فهم خاطيء لأحاديث صحيحة لا يصلح حجة لرد تلك الأحاديث. أوليس الخوارج قد فتنوا بنصوص الوعيد، وفتن المرجئة بنصوص الوعد؟ وفتن المعطلة والمشبّهة بنصوص الصفات بسبب فهمهم الخاطيء لها؟ فهل يعني ذلك رد تلك النصوص؟! ولو جاز ردّ النصوص الصحيحة بسبب فهم بعض الفرق المخطئة لها، وإفراطهم أو تفريطهم فيها لكان ذلك باباً واسعاً لرد الشريعة كلها، فما من نص قرآني أو نبوي إلا وله معارضون ومحرفون، يكونون على طرفي نقيض. وبهذا يعلم أن هذه الحجج لا تنهض لرد ما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم في شأن المهدي. أسأل الله تعالى الهداية والتوفيق، والموافاة على الحق المبين.

ونحمد الله تعالى على أن لم يكلفنا البحث في الغيبات، أو محاولة كشفها وإظهارها، أو معرفة وقتها؛ فذلك لله سبحانه وهو من خصائص ربوبيته عز وجل وليس إلينا، والمطلوب منا قضاء عمرنا فيما ينفعنا في الدنيا والآخرة ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩]*.

ألا وصلوا وسلموا على نبينا محمد، كما أمركم بذلك ربكم...

* للاستزادة في موضوع المهدي راجع ما يلي:

- ١ - المهدي المنتظر للدكتور عبد العليم عبد العظيم البستوي، وهو أجود ما وقفت عليه في هذا الموضوع.
- ٢ - الرد على من كذب الأحاديث الصحيحة الواردة في المهدي للشيخ عبد المحسن ابن حمد العباد.
- ٣ - كتب أشراط الساعة وهي كثيرة.

١٩٢- فتنة المسيح الدجال

الجمعة ٥/٤/١٤١٨هـ

الحمد لله؛ عصم من شاء من عباده، وحفظهم من الفتن، ووقاهم شر المحن. رزقهم الشكر في السراء، والصبر في الضراء. أحمدته وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره؛ المفزع حال الفتن إليه، يفر العباد منه إليه، ويكفي وينصر من توكل عليه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ﴿فِي السَّمَاءِ إِلَهُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ (٨٤) وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿[الزخرف]. (٨٥)

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله؛ رحم أمته فبشر وأنذر، وبلغ البلاغ المبين، ما ترك خيراً إلا دلّ الأمة عليه، ولا شراً إلا حذرهما منه ﴿رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (١٢٨) [التوبة] صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه؛ نجوم يستضاء بسيرتهم في الظلم، وأعلام يهتدى بهديهم حينما تموج الفتن، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فأوصيكم - أيها المسلمون - ونفسي بتقوى الله عز وجل، فتقوى الله تعالى عاصم من الفتن، ومعين على البلاء والمحن. ومهما ابتلي المتقون فإنهم لا يفتنون؛ بل يصبرون إلى أن يأتي الله بالفرج، فيرفع البلاء، وتزول الفتنة.

أيها الإخوة المؤمنون: في آخر الزمان تتسارع الفتن، يتبع بعضها بعضاً، ينفرط عقدها، ويتناثر حبها؛ حتى تصيب أقواماً يسرون في ركابها، ويتبعون شرها.

في آخر الزمان يرفعُ العلم، ويثبت الجهل، ويكثر الهرج والمرج، ويلتبسُ على كثير من الناس الباطل بالحق، ويُقتلُ الرجل لا يدري فيم قتل، وتتعاظم الفتن؛ حتى يمرَّ الرجلُ بقبر الرجل فيتمنى أن يكون مكانه ما به إلا البلاء^(١).

وهذا يقرب إلى أذهاننا حجم تلك الفتن؛ لأن ابن آدم يكره الموت، وما تمنى المتمني الموت إلا لما هو أعظم منه؛ ولكن الفتنة الكبرى: المسيح الدجال؛ بل هي أكبر فتنة في تاريخ البشر حتى قال النبي صلى الله عليه وسلم: «ما بين خلق آدم إلى قيام الساعة أمر أكبر من الدجال» أخرجه مسلم^(٢)، وفي حديث آخر «لا فتنة أعظم من الدجال»^(٣).

من أجل هذا كان حقيقاً على الأنبياء أن ينذروه أقوامهم، ويحذروهم فتنته، قال النبي عليه الصلاة والسلام: «إنه لم يكن نبي بعد نوح إلا

(١) كما في حديث أبي هريرة الذي أخرجه مالك في الموطأ (٢٣٩/١) وأحمد (٢٣٦/٢) والبخاري في الفتن باب لا تقوم الساعة حتى يغبط أهل القبور (٧١١٥) ومسلم في الفتن وأشراف الساعة باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيتمنى أن يكون مكان الميت من البلاء (١٥٧).

(٢) أخرجه مسلم في الفتن وأشراف الساعة باب في بقية من أحاديث الدجال (٢٩٤٦).

(٣) فتح الباري (١١١/١٣).

قد أنذر قومه الدجال» أخرجه أبو داود والترمذي وحسنة^(٤)، وفي مسند أحمد «لقد أنذره نوحٌ أمته والنيون من بعده»^(٥).

خروجُ الدجال من علامات الساعة الكبرى عدّه كذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، وجاء في حديث أن من علامات خروج الدجال فتح القسطنطينية^(٦)، وسبب خروجه غلبةٌ يغضبها^(٧). وأما مكان خروجه فمن المشرق جزماً، في رواية من أصبهان وفي أخرى من خراسان^(٨).

(٤) أخرجه أبو داود في الملاحم باب خروج الدجال بنحوه (٤٣١٦) والترمذي من حديث أبي عبيدة واللفظ له في الفتن باب ما جاء في الدجال وحسنة (٢٢٣٤) ومن حديث ابن عمر وقال: حسن صحيح (٢٢٣٥).

(٥) أخرجه أحمد (١٣٥/٢) قال الهيثمي في مجمع الزوائد: ورجاله رجال الصحيح (٣٣٨/٧) وصححه الشيخ شاکر في شرحه على المسند (٦١٨٥). (٦) كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند مسلم في الفتن وأشراط الساعة باب فتح القسطنطينية وخروج الدجال ونزول عيسى ابن مريم (٢٨٩٧) وانظر: فتح الباري (٩٧/١٣).

(٧) كما في حديث ابن عمر رضي الله عنهما عند مسلم في الفتن وأشراط الساعة باب ذكر ابن صياد (٢٩٣٢).

(٨) أما رواية أصبهان ففي حديث أنس رضي الله عنهم قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يخرج الدجال من يهودية أصبهان معه سبعون ألفاً من اليهود عليهم التيجان» أخرجه أحمد (٢٢٤/٣) وأبو يعلى (٣٦٣٩) والحديث ضعيف ففي سننه محمد بن مصعب القرقيساني، صدوق كثير الغلط كما في التقريب. قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٣٣٨/٧): «رواه أحمد وأبو يعلى وزاد: «معه سبعون ألفاً من اليهود عليهم التيجان» من رواية محمد بن مصعب عن الأوزاعي=

يخرج فأول ما يدعي الإيمان والصلاح، ثم يدعي النبوة، ثم يدعي الألوهية فيبتلى به الناس لما أعطاه الله تعالى من الخوارق^(٩). يُضَلُّ به أقوام فيتبعونه، ويعصمُ الله المؤمنين من بلائه وفتنته بعد شدة شديدة، قال أبو هريرة رضي الله عنه: سمعت أبا القاسم الصادق المصدوق يقول: «يخرج مسيحُ الضلالة فيبلغُ ما شاء الله أن يبلغ من الأرض في أربعين يوماً، فيلقى المؤمنون منه شدة شديدة» أخرجه البزار بسند جيد^(١٠).

أما وصفه ووصف فتنته فقد جاء مفصلاً في حديث النواس بن سمعان رضي الله عنه قال: ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الدجال ذات غداة، فحفّض فيه ورقّع، حتى ظنناه في طائفة النخل، فلما رحنا إليه عرف ذلك فينا، فقال: «ما شأنكم؟» قلنا: يا رسول الله! ذكرت الدجال غداةً، فحفّضت فيه ورقّعت، حتى ظنناه في طائفة النخل. فقال: «غيرُ الدجال أخوفني عليكم، إن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجهُ

= وروايته عنه جيدة وقد وثقه أحمد وغيره وضعفه جماعة، وبقية رجالهما رجال الصحيح» اهـ وله شاهد لا يصح من حديث حذيفة رضي الله عنه أخرجه الحاكم وصححه وتعبه الذهبي فقال: بل منكر... (٥٢٨/٤). أما رواية خراسان فمن حديث أبي بكر رضي الله عنه عند الترمذي في الفتن باب ما جاء من أين يخرج الدجال وحسنه (٢٢٣٨) والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (٥٢٧/٤). (٩) فتح الباري (٩٧-٩٨).

(١٠) عزاه الحافظان ابن حجر والهيتمي للبزار، ولم أعثر عليه فيما طبع من البحر الزخار ولا في مختصر زوائد البزار للحافظ ابن حجر وإنما ذكره في الفتح وقال: إسناده جيد (١٨٠/١٣) وقال الهيتمي: رواه البزار ورجاله رجال الصحيح غير علي بن المنذر وهو ثقة. انظر: مجمع الزوائد (٣٤٩/٧).

دونكم، وإن يخرج ولست فيكم. فامرؤٌ حجيح نفسه والله خليفتي على كل مسلم، إنه [أي الدجال] شاب قَطَطٌ [أي جعد الشعر] عينه طافئة، كأني أشبهه بعبد العزى بن قَطَن، فمن أدركه منكم فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف، إنه خارج خلة بين الشام والعراق، فعاث يميناً وعاث شمالاً، يا عباد الله فاثبتوا، قلنا: يا رسول الله! وما لبثه في الأرض؟ قال: أربعون يوماً، يوم كسنة، ويوم كشهر، ويوم كجمعة، وسائر أيامه كأيامكم، قلنا: يا رسول الله! فذلك اليوم الذي كسنة، أتكفيها فيه صلاة يوم؟ قال: «لا، اقدروا له قدره». [وانظروا رحمكم الله إلى حرص صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم على دينهم، يسألونه عن صلاة ذلك اليوم الذي كسنة أتكفيهم صلاة واحدة مع عظيم أمر هذه الفتنة إلا أنها لم تنسهم صلتهم بربهم] قلنا: يا رسول الله! وما إسرعه في الأرض؟ قال: «كالغيث استدبرته الريح، فيأتي على القوم فيدعوهم، فيؤمنون به ويستجيبون له، فيأمر السماء فتمطر والأرض فتنبت، فتروح عليهم سارحتهم أطول ما كانت ذراً، وأسبغه ضروعاً وأمدّه خواصر» [أي تكثر خيراتهم لما آمنوا به وهذا من عظيم فتنته]، قال عليه الصلاة والسلام: «ثم يأتي القوم فيدعوهم فيردون عليه قوله [أي يكذبونه] فينصرف عنهم فيصبحون مُّحِلِّين ليس بأيديهم شيء من أموالهم» [أي يقل مطرهم وتجذب أرضهم لما كذبوه وهذا أيضاً من عظيم فتنته] قال عليه الصلاة والسلام: ويمر بالخربة فيقول لها: أخرجي كنوزك فتتبعه كنوزها كيحاسب النحل، ثم يدعو رجلاً ممتلاً

شباباً فيضربه بالسيف فيقطعه جزلتين رمية الغرض، ثم يدعوه فيقبل ويتهلل وجهه ويضحك، فبينما هو كذلك إذ بعث الله المسيح ابن مريم، فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق بين مهرودتين، واضعاً كفيه على أجنحة ملكين، إذا طأطأ رأسه قطر، وإذا رفعه تحدر منه جمان كاللؤلؤ، فلا يحل لكافر يجد ريح نفسه إلا مات، ونفسه ينتهي حيث ينتهي طرفه فيطلبه حتى يدركه بباب لد فيقتله، ثم يأتي عيسى ابن مريم قوم قد عصمهم الله منه، فيمسح عن وجوههم، ويحدثهم بدرجاتهم في الجنة...» أخرجه مسلم^(١١).

وجاء في حديث حذيفة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لأنا أعلم بما مع الدجال منه، معه نهران يجريان، أحدهما: رأي العين ماء أبيض، والآخر: رأي العين نار تأجج، فإذا أدركن أحد فليات النهر الذي يراه ناراً وليغمض، ثم ليطأطأ رأسه فيشرب منه، فإنه ماء بارد، وإن الدجال ممسوح العين، عليها ظفرة غليظة [أي جلدة تغشى البصر] مكتوب بين عينيه كافر يقرؤه كل مؤمن كاتب وغير كاتب» أخرجه مسلم^(١٢)، وفي حديث آخر عند أحمد «يقرؤه الأمي»

(١١) أخرجه مسلم في الفتن وأشراط الساعة باب ذكر الدجال وصفته وما معه (٢٩٣٧) وأبو داود في الملاحم باب خروج الدجال (٤٣٢١-٤٣٢٢) والترمذي في الفتن باب ما جاء في فتنة الدجال (٢٢٤١). وما بين الأقواس هكذا [من كلامي شرحاً لبعض جمل الحديث.

(١٢) أخرجه مسلم في الفتن وأشراط الساعة باب ذكر الدجال وصفته وما معه (٢٩٣٤) وما بين قوسين هكذا [من كلامي شرحاً للجملة.

والكاتب»^(١٣)، وفي آخر عند الترمذي «يقرؤه كل من كره عمله»^(١٤).
وقد خاف صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم فتنته، فأكثرُوا
السؤال عنه، يقول المغيرة بن شعبه رضي الله عنه: «ما سأل أحد النبي
صلى الله عليه وسلم عن الدجال أكثر مما سألته، قال: وما سؤالك؟
قال: قلت: إنهم يقولون: معه جبال من خبز ولحم، ونهرٌ من ماء، قال
عليه الصلاة والسلام: هو أهون على الله من ذلك» أخرجه الشيخان^(١٥).
قال القاضي عياض: «معناه: هو أهون على الله من أن يجعل ما
خلقه الله تعالى على يده مضلاً للمؤمنين ومشككاً لقلوبهم؛ بل إنما
جعله ليزداد الذين آمنوا إيماناً، ويثبت الحجة على الكافرين والمنافقين
ونحوهم، وليس معناه أنه ليس معه شيء من ذلك»^(١٦).

وسوف يتحدى الدجال رجلٌ من هذه الأمة، قد امتلأ قلبه إيماناً
ويقيناً، يقف أمامه يعلن للناس أنه الدجال؛ فيؤذى في سبيل ذلك،
روى أبو سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله
عليه وسلم «يخرج الدجال فيتوجه قبله رجلٌ من المؤمنين، فتلقاه
المسالح [أي قوم معهم سلاح] مسالح الدجال، فيقولون له: أين تعمد؟

(١٣) مسند أحمد (١٨/٦) من حديث أبي بكرة نفع بن الحارث رضي الله عنه.
(١٤) كما في حديث ابن عمر وفي آخره رواية الزهري عند الترمذي في الفتن باب
ما جاء في علامة الدجال وقال: هذا حديث حسن صحيح (٢٢٣٥).

(١٥) أخرجه البخاري في الفتن باب ذكر الدجال (٧١٢٢) ومسلم في الفتن وأشراط
الساعة باب في الدجال وهو أهون على الله (٢٩٣٩).

(١٦) شرح النووي على مسلم (٩٨/١٨).

فيقول: أعمدُ إلى هذا الذي خرج، قال: فيقولون له: أو ما تؤمن برَبِّنا؟ [يعنون الدجال] فيقول: ما برَبنا خفاء، فيقولون: اقتلوه، فيقول بعضهم لبعض: أليس قد نهاكم ربكم أن تقتلوا أحداً دونه، قال: فينطلقون به إلى الدجال، فإذا رآه المؤمن قال: يا أيها الناس! هذا الدجال الذي ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: فيأمرُ الدجال به فيُشَبِّح [أي يمدُّ على بطنه] فيقول: أو ما تؤمن بي؟ قال فيقول: أنت المسيح الكذاب، قال: فيؤمرُ به فيؤْشَر بالمُشار من مِفرقه حتى يُفَرِّق بين رجليه، قال: ثم يمشي الدجال بين القطعتين، ثم يقول له: قم، فيستوي قائماً، قال: ثم يقول له: أتؤمن بي، فيقول: ما ازددت فيك إلا بصيرة، قال: ثم يقول: يا أيها الناس، إنه لا يفعل بعدي بأحد من الناس، قال: فيأخذُه الدجال ليدبِّحه، فيُجَعَل ما بين رقبته إلى ترقوته نحاساً، فلا يستطيع إليه سبيلاً، قال: فيأخذُ بيديه ورجليه فيقذف به، فيَحْسِبُ الناسُ أنما قذفه إلى النار، وإنما أُلقي في الجنة»، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «هذا أعظم الناس شهادة عند رب العالمين» أخرجه الشيخان واللفظ لمسلم^(١٧).

اللهم إنا نعوذ بك من عذاب جهنم، ومن عذاب القبر، ومن فتنة

(١٧) أخرجه البخاري في الفتن باب لا يدخل الدجال المدينة (٧١٣٢) ومسلم في الفتن وأشرط الساعة باب في صفة الدجال وتحريم المدينة عليه وقتله المؤمن وإحيائه (٢٩٣٨) وما بين الأقواس هكذا [ليس من الحديث وإنما هو شرح مني لبعض ألفاظه.

المحيا والممات، ومن شر فتنة المسيح الدجال. اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد.

الخطبة الثانية

الحمد لله، حمداً طيباً كثيراً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى، أحمده وأشكره وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ومن سار على نهجهم واقتفى أثرهم إلى يوم الدين.

أما بعد: فإن الدجال يعيث في الأرض كلها إلا مكة والمدينة، تحرسهما الملائكة منه. روى أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ليس من بلد إلا سيطؤه الدجال إلا مكة والمدينة، وليس نقبٌ من أنقابها إلا عليه الملائكة صافين تحرسها، فينزل بالسَّبْخَةِ، فترجف المدينة ثلاث رجفاتٍ يخرج منها كلُّ كافرٍ ومنافقٍ» أخرجه الشيخان^(١٨).

ومن شدة خوف الناس من الدجال يفرون منه، قال النبي عليه الصلاة والسلام: «ليفرنَّ الناسُ من الدجال في الجبال». قالت أم شريك: يا رسول الله! فأين العربُ يومئذ؟ قال: «هم قليل» أخرجه

(١٨) أخرجه البخاري في الفتن باب في ذكر الدجال (٧١٢٤) ومسلم في الفتن وأشرط الساعة باب قصة الجساسة (٢٩٤٣) واللفظ لمسلم.

مسلم^(١٩).

ولكثرة التشابه بين اليهود والدجال في الكذب والتعالي على الله تعالى، وإيذاء المؤمنين؛ فإن كثيراً من أتباعه هم من اليهود، روى أنس ابن مالك رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «يتبع الدجال من يهود أصبهان سبعون ألفاً عليهم الطيالة» أخرجه مسلم^(٢٠).

أيها الإخوة: هذه بعض أخبار الدجال وفتنته، وقد أرشد النبي صلى الله عليه وسلم من أدركه أن يقرأ عليه فواتح سورة الكهف، وثبت عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عصم من فتنة الدجال» أخرجه ومسلم^(٢١).

قال النووي رحمه الله تعالى: «قل: سبب ذلك ما في أولها - أي سورة الكهف - من العجائب والآيات فمن تدبرها لم يفتتن بالدجال» اهـ^(٢٢).

وكان عليه الصلاة والسلام يستعيز بالله من فتنته في صلاته،

(١٩) أخرجه مسلم في الفتن وأشراط الساعة باب في بقية من أحاديث الدجال (٢٩٤٥).

(٢٠) أخرجه مسلم في الفتن وأشراط الساعة باب في بقية من أحاديث الدجال (٢٩٤٤).

(٢١) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين باب فضل سورة الكهف وآية الكرسي

(٨٠٩) وأبو داود في الملاحم باب خروج الدجال (٤٣٢٣) والترمذي في

ثواب القرآن باب ما جاء في فضل سورة الكهف (٢٨٨٨) ورواية الترمذي

«من حفظ ثلاث آيات من أول سورة الكهف...».

(٢٢) شرح النووي على مسلم (١٣٤/٦).

قالت عائشة رضي الله عنها: «سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يستعيز في صلاته من فتنة الدجال» أخرجه البخاري^(٢٣). وقد أمر أمته بذلك فقال عليه الصلاة والسلام: «إذا فرغ أحدكم من التشهد الآخر فليتعوذ بالله من أربع: من عذاب جهنم، ومن عذاب القبر، ومن فتنة المحيا والممات، ومن شر فتنة المسيح الدجال».

وفي حديث آخر قال عليه الصلاة والسلام: «عوذوا بالله من عذاب الله، عوذوا بالله من عذاب القبر، عوذوا بالله من فتنة المسيح الدجال، عوذوا بالله من فتنة المحيا والممات».

وفي حديث آخر عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعلمهم هذا الدعاء كما يعلمهم السورة من القرآن يقول: «قولوا: اللهم إنا نعوذ بك من عذاب جهنم وأعوذ بك من عذاب القبر، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات» أخرج هذه الأحاديث مسلم في صحيحه^(٢٤)، ثم قال رحمه الله: «بلغني أن طاووساً قال لابنه: أدعوت بها في صلاتك؟ فقال: لا، قال: أعد صلاتك»^(٢٥)، قال النووي رحمه الله تعالى: «هذا

(٢٣) أخرجه البخاري في الفتن باب في ذكر الدجال (٧١٢٩).

(٢٤) هذه الأحاديث الثلاثة أخرجهما كلها مسلم في صحيحه كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب ما يستعاذ منه في الصلاة الأول والثاني من حديث أبي هريرة رضي الله عنه والثالث عن ابن عباس رضي الله عنهما (٥٨٨) (٥٩٠).

(٢٥) صحيح مسلم مع شرح النووي (١٢٤/٥) عقب حديث (٥٩٠).

كله يدل على تأكيد هذا الدعاء والتعوذ والحث الشديد عليه . وظاهرُ كلام طاووس رحمه الله تعالى أنه حمل الأمر به على الوجوب فأوجب إعادة الصلاة لفواته وجمهور العلماء على أنه مستحبٌ ليس واجباً، ولعل طاووساً أراد تأديب ابنه وتأكيد هذا الدعاء عنده لا أنه يعتقد وجوبه والله اعلم»^(٢٦).

أيها الإخوة: بادروا بالأعمال سبعا، هل تنتظرون إلا فقراً منسياً، أو غنى مطغياً، أو مرضاً مفسداً، أو هرماً مفنداً، أو موتاً مجهزاً، أو الدجال فشر غائب ينتظر، أو الساعة والساعة أدهى وأمر^(٢٧) وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .

* * *

(٢٦) صحيح مسلم بشرح النووي (١٢٤/٥).

(٢٧) هذا أصله حديث عن أبي هريرة أخرجه الترمذي في الزهد باب ما جاء في المبادرة بالعمل وقال الترمذي: حسن غريب (٢٣٠٦) وهو من رواية محرز بن هارون وهو متروك كما في التقريب فلا يصح حديثاً.

١٩٣- نزول عيسى عليه الصلاة والسلام

الجمعة ٢١ / ١ / ١٤٢٠ هـ

الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران] ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء] ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب] .

أما بعد: فإن أخبار الفتن والملاحم ، وأنباء آخر الزمان وما يجري فيه ، مما ينبغي أن لا يغفل عنها المؤمن أو ينساها ؛ لأن ما ثبتت به الأخبار واقع لا محالة ، وقد يدركه المؤمن كله أو يدرك بعضاً منه .
ومما يلاحظ في هذه الأزمنة المتأخرة أن كثيراً من الناس ألتهتهم الدنيا عن الآخرة ، وشغلهم الضرب في الأرض عن تذكر الموت وما بعده ، وأنستهم تنمية الأموال والعمران ما يقع في آخر الزمان من الأمور العظام التي أخبر عنها كتاب الله تعالى وسنة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم .
ومن ذلكم : حدث نزول المسيح عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام ، الذي تضاربت فيه أقوال أهل الديانات ، ومنذ أن رفعه الله تعالى لا يزال بنو

آدم مختلفين فيه؛ فاليهود يرون أنهم قتلوه، ووافقهم بعض طوائف النصارى. وطوائف أخرى من النصارى يرون أنه مات ثم رفع. والملاحدة والمرتابون من العقلانيين ينكرون أخباره، ويعتبرون نزوله أسطورة من الأساطير. ولا يزال ابن مريم عليه السلام تتجاذبه طوائف شتى، كلهم يزعمون أنه سيكون معهم. ولن يكون عليه السلام إلا مع المؤمنين الصادقين أتباع محمد صلى الله عليه وسلم الذين آمنوا بالله تعالى وصدقوا المرسلين، والذين يؤمنون بأن عيسى عليه السلام حي في السماء مرفوع ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا (١٥٧)﴾ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿[النساء: ١٥٧، ١٥٨] وقد دلَّ على ذلك كتاب الله تعالى، وتواترت به النصوص عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأجمعت الأمة على ذلك قبل ظهور المنحرفين والعقلانيين^(١).

ونزوله من علامات الساعة الكبرى، يقع بين علامتين عظيمتين، بين خروج الدجال وخروج يأجوج ومأجوج^(٢)، فينزل بعد خروج الدجال

(١) انظر: التصريح بما تواتر في نزول المسيح للشيخ محمد أنور شاه الكشميري حيث جمع أحاديث نزول المسيح عليه السلام، وحاشية الشيخ أحمد شاکر على تفسير الطبري (٦/ ٤٦٠) وذكر الإجماع على ذلك السفاريني والشوكاني كما في الإذاعة في أشرطة الساعة للفتنوي (١٦٠).

(٢) كما في حديث النواس بن سمعان الكلابي في صفة الدجال عند مسلم في الفتن وأشرطة الساعة باب ذكر الدجال وصفته وما معه (٢٩٣٧) وأبي داود في الملاحم باب خروج الدجال (٤٣٢١-٤٣٢٢) والترمذي في الفتن باب ما جاء في فتنه الدجال (٢٢٤١).

وإفساده في الأرض، ويكون نزوله في حال إعداد المسلمين لحرب الدجال وأتباعه من اليهود كما جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند مسلم «فبينما هم يعدون للقتال، يسوون الصفوف، إذ أقيمت الصلاة فنزل عيسى بن مريم»^(٣).

وأما مكان نزوله فعند المنارة البيضاء شرقي دمشق، وذكر المؤرخون أنه الجامع الأموي^(٤).

وله عليه السلام صفة، ولنزوله أيضاً وصف ذكر في السنة، فأما وصفه عليه السلام فكما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «إنه نازل» فإذا رأيتموه فاعرفوه، رجلاً مربوعاً، إلى الحمرة والبياض، عليه ثوبان مُمَصَّرَانِ كأن رأسه يقطر، وإن لم يصبه بلل»^(٥).

وجاءت صفة نزوله في حديث النواس بن سمعان رضي الله عنه وفيه قال النبي صلى الله عليه وسلم: «إذ بعث الله المسيح ابن مريم فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق بين مهزودتين، واضعاً كفيه على أجنحة ملكين، إذا طأطأ رأسه قطر، وإذا رفعه تحدّر منه جمان كاللؤلؤ»^(٦).

(٣) أخرجه مسلم في الفتن وأشراط الساعة باب في فتح القسطنطينية وخروج الدجال ونزول عيسى بن مريم (٢٨٩٧).

(٤) انظر: النهاية في الفتن والملاحم لابن كثير (١/١٤٤).

(٥) أخرجه أحمد (٤٠٦/٢) و (٤٣٧/٢) واللفظ له وأبو داود في الملاحم باب

خروج الدجال (٤٣٢٤) وصححه ابن حبان (٦٨٢١) والحاكم ووافقه الذهبي

(٥٩٥/٢) والحافظ في الفتح (٤٩٣/٦). والمصير من الثياب هو: الملون

بالصفرة، وليست صفته بالمشبعة، قاله الخطابي في معالم السنن (٤/٤٩٨).

(٦) حديث النواس مخرج في هامش (٢).

ولعيسى عليه السلام بعد نزوله أعمال كثيرة يقوم بها، أهمها: قيادة الجيش المسلم لقتال الدجال واليهود كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «فيقاتل الناس على الإسلام ويهلك المسيح الدجال»^(٧) وفي حديث النواس أنه يدركه بباب لد فيقتله^(٨) وجاء في صحيح مسلم أن عيسى عليه الصلاة والسلام يُري المسلمين دم الدجال في حربته^(٩) حتى يصدقوا أنه مات، وانتهى دجله وأسطورته؛ وذلك لما أصابهم من البلاء العظيم في وقته. وإذا خرج يأجوج ومأجوج حرّز عيسى عليه السلام المؤمنين في جبل الطور حتى يهلك الله يأجوج ومأجوج^(١٠).

ومن أعمال عيسى عليه السلام: إلغاء شعائر النصارى ورموزهم التي حرفوا بها دين الله تعالى؛ حتى يعلموا أنه جاء ليحكم بالشريعة المحمدية، وأن ما عليه النصارى من الضلال ليس بشيء، قال النبي صلى الله عليه وسلم: «والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً عدلاً فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الحرب»^(١١). وفي حديث آخر قال عليه الصلاة والسلام: «كيف أنتم إذا نزل فيكم

(٧) أخرجه البخاري في الأنبياء باب نزول عيسى بن مريم (٣٤٤٨) ومسلم في الإيمان باب نزول عيسى بن مريم حاكماً بشرية محمد صلى الله عليه وسلم (١٥٥) وأبو داود في الملاحم باب خروج الدجال واللفظ له (٤٣٢٤).

(٨) انظر تخريجه في هامش (٢).

(٩) جاء ذلك في حديث أبي هريرة المخرج في هامش (٣).

(١٠) جاء ذلك في حديث النواس بن سميان المخرج في هامش (٢).

(١١) هو حديث أبي هريرة المخرج في هامش (٧).

ابن مريم فأمكم منكم». قال ابن أبي ذئب للوليد بن مسلم: «تدري ما أمكم منكم؟ قال: تخبرني، قال: فأمكم بكتاب ربكم تبارك وتعالى وسنة نبيكم صلى الله عليه وسلم»^(١٢).

إن عيسى عليه الصلاة والسلام بعد نزوله لا يقبل الجزية من أهل الكتاب؛ فإما السيف وإما الإسلام، عن أبي هريرة رضي الله عنه يرفعه «فيقاتل الناس على الإسلام، فيدق الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويهلك الله في زمانه الملل كلها إلا الإسلام» أخرجه أبو داود بسند صحيح^(١٣).
ولسوف يحج - عليه السلام - كما قال النبي صلى الله عليه وسلم:
«والذي نفسي بيده ليهلن ابن مريم بفج الروحاء حاجاً أو معتمراً أو ليشينهما» أخرجه مسلم^(١٤).

وفي وقته عليه السلام يعم الأمن أرجاء الأرض، وتفيض البركات والخيرات، ويتشتر الصلاح في الناس، قال النبي صلى الله عليه وسلم حاكياً ما يجري في زمان ابن مريم عليه السلام: «وتقع الأمانة على الأرض حتى ترتع الأسود مع الإبل، والنمار مع البقر، والذئب مع الغنم، ويلعب الصبيان بالحيات لا تضرهم...»^(١٥).

وعما يحصل من البركات في وقته، قال النبي صلى الله عليه وسلم:

(١٢) هو حديث أبي هريرة المخرج في هامش (٧) واللفظ لمسلم.

(١٣) هو نفس حديث أبي هريرة المخرج في هامش (٥).

(١٤) أخرجه أحمد (٢/ ٢٤٠) ومسلم في الحج باب جواز التمتع في الحج والقران (١٢٥٢).

(١٥) جاء في نفس حديث أبي هريرة المخرج في هامش (٥).

«ثم يقال للأرض: أنبتي ثمرتك، ودُرِّي بركتك، فيومئذ تأكل العصابة من الرمانة، ويستظلون بِقِحْفِهَا، ويُبارك في الرُّسُل حتى إن اللقحة من الإبل لتكفي الفئام من الناس، واللقحة من الغنم لتكفي الفخذ من الناس»^(١٦).

ولأجل هذه البركة والخير، فإن الذين يدركون ذلك يغبطون على هذا العيش الكريم الهني الذي اجتمع فيه هناء الدنيا والعمل للآخرة كما جاء في الحديث «طوبى لعيش بعد المسيح يؤذن للسماء في القطر، ويؤذن للأرض في النبات؛ حتى لو بذرت حبك على الصفا لنبت»^(١٧).

إنه عيش كريم، وحياة سعيدة رغيدة، وصلاح في الناس؛ تكثر عبادتهم، ويعظم زهدهم في الدنيا، ورغبتهم في الآخرة كما قال عليه الصلاة والسلام في ذكر تلك الحقبة من الزمن: «وَلْتُتْرَكَنَّ الْقِلَاصُ فَلَا يُسْعَى إِلَيْهَا، وَلْتَذْهَبَنَّ الشَّحْنَاءُ وَالتَّبَاغُضُ وَالتَّحَاسُدُ، وَلْيَدْعَوْنَ إِلَى الْمَالِ فَلَا يَقْبَلُهُ أَحَدٌ»^(١٨)، وفي حديث آخر: «ويفيض المال حتى لا يقبله

(١٦) جاء ذلك في حديث النواس المخرج في هامش (٢).

(١٧) أخرجه الديلمي كما في فردوس الأخبار (٢٤/٣) برقم (٣٧٥٦) وعزاه السيوطي في الجامع الصغير لأبي سعيد النقاش في فوائد العراقيين، وعزاه المناوي في فيض القدير لأبي نعيم، انظر: فيض القدير (٢٧٥/٤) وعزاه الألباني لأبي بكر الأنباري في حديثه وللضياء في المتقى من مسموعاته بمرو، ولابن المحب في صفات رب العالمين ونقل عن ابن المحب قوله: هذا على شرط البخاري، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٩٢٦).

(١٨) هو نفس حديث أبي هريرة المخرج في هامش (٧) واللفظ لمسلم. والقلاص جمع قلوص وهي أشرف الإبل وأنفسها، والمعنى: يزهد فيها ولا يرغب في اقتنائها؛ لكثرة الأموال، وقلة الآمال، وعدم الحاجة، والعلم بقرب القيامة. وفي حديث آخر وفي لفظ آخر.

أحد حتى تكون السجدة الواحدة خيراً من الدنيا وما فيها»^(١٩).
 ومن أدرك عيسى بن مريم عليه السلام فقد حمّله النبي صلى الله عليه وسلم رسالة يبلغها لعيسى، قال عليه الصلاة والسلام: «إني لأرجو إن طال بي عمر أن ألقى عيسى بن مريم عليه السلام، فإن عجل بي موت فمن لقيه منكم فليقرئه مني السلام» أخرجه أحمد^(٢٠).
 أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿وَإِنَّهُ لَعَلَّمَ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونَ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ (٦١) وَلَا يَصُدُّكُمْ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾ [الزخرف] بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم...

الخطبة الثانية

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، وأشهد أن لا إله إلا الله ولي الصالحين، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.
 أما بعد: فإن من أدرك عيسى وهو مؤمن فقد حاز خيراً كثيراً كما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: «عصابتان من أمتي أحرزهما الله من النار: عصابة تغزو الهند، وعصابة مع عيسى بن مريم» أخرجه أحمد والنسائي^(٢١).

(١٩) هو نفس حديث أبي هريرة المخرج في هامش (٧).

(٢٠) أخرجه أحمد (٢٩٨/٢) قال الهيثمي في الزوائد: رواه أحمد مرفوعاً وموقوفاً ورجالهما رجال الصحيح (٥/٨) وصححه الشيخ شاكراً في شرح المسند برقم (٧٩٥٧).

(٢١) أخرجه أحمد (٢٧٨/٥) والنسائي في الجهاد باب غزو الهند (٤٣/٦) والبيهقي

يبقى عيسى عليه السلام بعد نزوله سبع سنوات ليس بين اثنين عداوة، ثم يتوفاه الله تعالى، ويصلي عليه المسلمون؛ كما ثبت ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم^(٢٢).

أيها الإخوة: إن نزول عيسى عليه السلام آية من آيات الله عز وجل، تدحض زعم اليهود قتله وصلبه. وإن انضمامه إلى المؤمنين يكذب مزاعم النصارى أنه سوف يكون مخلصهم.

وبيت المقدس سوف يشهد جملة من الأحداث العظام، ذلك البيت المقدس الذي يتنازعه اليهود والنصارى والمسلمون. فاليهود يريدون بناء هيكلهم في الألفية الثالثة من تاريخهم العبري.

ويرى النصارى الإنجيليون أن المخلص الذي سيخلصهم من اليهود والمسلمين لن ينزل إلا بتجمع اليهود واستحواذهم على بيت المقدس

= في السنن الكبرى (١٧٦/٩) من حديث ثوبان رضي الله عنه، وعزاه الألباني للضياء وصححه في صحيح الجامع (٤٠١٢) وذكره في السلسلة الصحيحة (١٩٣٤) وعزاه لابن عدي وابن عساكر والبخاري في التاريخ الكبير.

(٢٢) اختلفت الروايات في مدة بقائه عليه السلام في الأرض؛ فجاء في حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما أنه يمكث سبع سنين ليس بين اثنين عداوة فتأتي ريح باردة من قبل الشام فلا يبقى من المؤمنين أحد بل يبقى شرار الناس، والحديث مخرج في صحيح مسلم كتاب الفتن وأشراف الساعة (٢٩٤٠). وجاء في حديث آخر أنه يمكث أربعين سنة ثم يتوفى ويصلي عليه المسلمون وهذا الحديث أخرجه أحمد وأبو داود وهو الحديث المخرج في هامش (٥)، وجمع بين الحديتين بأن تحمل رواية الأربعين سنة على مدة عمره كلها؛ إذ إنه رفع وعمره ثلاث وثلاثون سنة على الأرجح، وأما رواية السبع سنين فتحمل على أنها مدة مكثه بعد نزوله من السماء. وانظر: النهاية لابن كثير (١/١٤٦).

الذي يرون فيه كنيستهم الكبرى المسماة بالقيامة، فتآخى اليهود والنصارى من أجل أن تتحقق أحلامهم ومسايعهم. ولذا فالتوقع أن يشهد بيت المقدس أحداثاً عظيمة في القرن الميلادي الحادي والعشرين؛ ولكن لا يحق إلا الحق، ولا يصح إلا الصحيح. ومهما زخرف أهل الباطل باطلهم، وتمالؤوا على الحق لإخفائه فلا بد أن يظهر حين يخرج دجال اليهود، فينزل المسيح ابن مريم فيقتله، ويكون مع المؤمنين أتباع محمد صلى الله عليه وسلم. وقد كان النصارى يعتقدون أنه معهم، وكيف يكون معهم وقد غيروا دينهم، وحرفوا إنجيلهم، وكتموا الحق الذي جاء به عيسى عليه الصلاة والسلام مبشراً بمحمد صلى الله عليه وسلم، فلم يؤمنوا به بل ضلوا وعاندوا؟!!

فاعلموا - يا أهل الإيمان - أنكم على الحق فاثبتوا على دينكم، واستمسكوا به، وعضوا عليه بالنواجذ مهما كثر المنحرفون، وقوي الضالون، وانتشر المبطلون. فلا تزال طائفة من أمة محمد صلى الله عليه وسلم على الحق ظاهرين حتى يأتي أمر الله تعالى، الذي هو نزول عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام كيما يقودهم في المعارك الكبرى التي ينصرون فيها على أعداء الله تعالى من عباد العجل وعباد الصليب؛ حتى يكون الدين في الأرض كله لله تبارك وتعالى. ألا وصلوا وسلموا على محمد بن عبد الله كما أمركم بذلك ربكم.

١٩٤- خبر يأجوج ومأجوج

الجمعة ٢١/٧/١٤١٨هـ

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهداهم واستن بستهم إلى يوم الدين.

أما بعد: فإن أحسن الحديث كلام الله تعالى، وخير الهدى هدى محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها الإخوة المؤمنون: يعيش المؤمنُ حياته على نور من الله تعالى، يؤمن بالكتب، ويصدق الرسل، يعلم أن ما جاؤوا به هو الحق من ربهم، وأن خاتمهم محمدٌ بن عبد الله صلى الله عليه وسلم؛ انتهت عنده النبوات، وختمت به الرسالات إلى يوم القيامة.

وهذا يحتم طاعته فيما أمر، وتصديقه فيما أخبر، واجتناب ما نهى عنه وزجر، وأن لا يعبد الله إلا بما شرع. هذا هو التصديق والمتابعة، من حققهما عاش سعيداً، ومات سعيداً، ويبعث يوم يبعث سعيداً؛ لأن عنده علم أصله ومبتداه، ومصير العالم ومنتهاه. بل عنده علم كثير مما بين البداية والنهاية. فلا يكاد يمر به حدث كبير، ولا تكاد الأيام تقذف من بطونها أخباراً عظيمة؛ إلا ويجد نصوص الكتاب والسنة

تدل عليها صراحة أو تلميحاً، أو إشارة أو إيماءً.

فإن مرت به في حياته فتنة؛ نظر أخبار الفتن فوجد لها خبراً في الجملة. وإن عاصر ملحمة كبرى راجع أخبار الملاحم فأبصر لها ذكراً. ولا تكتفي النصوص بذكر أخبار الفتن ووصفها؛ بل تدل المؤمن على كيفية الخلاص منها، والنجاة من شرها، فلا يزال المؤمن بإيمانه في أمن وطمأنينة أبداً في الدنيا والآخرة ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ (٨٢) ﴿[الأنعام: ٨٢].

أيها الإخوة: مما يقع في آخر الزمان من الأخبار العظمى، وعلامات الساعة الكبرى: خروج يأجوج ومأجوج، وهما أمتان عظيمتان من ولد آدم عليه السلام^(١)، جاء ذكرهم في القرآن وما جرى لهم من الحجز وراء السد على يد ذي القرنين، وأفاضت السنة في أخبارهم وصفاتهم، وتلازم ذكرهم مع ذكر الشر والفتنة والهلاك في حديث زينب بنت جحش رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل عليها فزعاً يقول: «لا إله إلا الله، ويل للعرب من شر قد اقترب، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه - وحلق بإصبعه الإبهام والتي تليها - فقالت زينب بنت جحش: فقلت: يا رسول الله! أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: نعم، إذا كثر الخبث» متفق عليه^(٢).

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٣/١٦٨) وفتح الباري لابن حجر (١٣/١١٣).

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق باب قول الله عز وجل ﴿إِن زُلْزِلَتِ السَّاعَةُ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾

[الحج: ١] (٦٥٣٠) ومسلم في الفتن وأشرط الساعة باب اقتراب الفتن وفتح

ردم يأجوج ومأجوج (٢٨٨٠) وأحمد في المسند (٦/٤٢٨).

كان من خبرهم مع ذي القرنين ما قصه الله تعالى أن ذي القرنين بلغ في رحلته السدين، وهما جبلان متناوحيان بينهما ثغرة يخرج منها يأجوج ومأجوج على بلاد الترك فيعيثون فساداً ويهلكون الحرث والنسل^(٣)؛ فبنى ذو القرنين هذه الثغرة بالنحاس والحديد وحجزهم عن الناس. يمكنون خلف السد إلى أن يأذن الله تعالى بخروجهم في آخر الزمان، وقد رأى هذا السدّ رجلٌ على عهد النبي صلى الله عليه وسلم فقال: «يا رسول الله، قد رأيت سد يأجوج ومأجوج قال: كيف رأيته؟ قال: مثلُ البردِ المُحَبَّرِ، طريقةٌ حمراء وطريقةٌ سوداء، قال: قد رأيته» أخرجه البخاري معلقاً ووصله ابن أبي عمر^(٤).

ويذكر التاريخ أن الخليفة العباسي الواثق رأى في منامه كأن ردم يأجوج ومأجوج قد فتح، فأرسل رجالاً ينظرونه ويصفونه له، وأنهم مكثوا في رحلتهم أكثر من سنتين ثم عادوا وذكروا من وصفه أنه من

(٣) تفسير ابن كثير (١٦٨/٣).

(٤) أخرجه البخاري معلقاً مجزوماً به في أحاديث الأنبياء باب قصة يأجوج ومأجوج (فتح ٦/ ٤٤٠) وقال ابن كثير في تفسيره: مرسل (١٦٩/٣) وقال الحافظ ابن حجر: وصله ابن أبي عمر من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن رجل من أهل المدينة، ورواه الطبراني من طريق سعيد بن بشير عن قتادة عن رجلين عن أبي بكر... انظر: فتح الباري (٦/ ٤٤٥). ويحتمل أنها رؤيا منام، والأظهر أنه رآه حقيقة؛ لأنه الأصل ولا يعدل عنه إلى التأويل إلا بقرينة، ثم إن البخاري لم يذكره في كتاب الرؤى. وسد يأجوج ومأجوج ليس غيباً؛ فرؤيته ممكنة، وقد رأى تميم الداري رضي الله عنه الدجال كما في صحيح مسلم، وشأنه أعظم من شأن هذا السد.

حديد مغيب في نحاس تبلغ اللبنة الواحدة ذراعاً ونصف في ذراع ونصف وأن له عضادتين.

يقع هذا السد في مضيق داريال بين سلسلة جبال القوقاز الشاهقة، وقد أشار إلى قريب من ذلك بعض المفسرين، وأثبتته بعض المؤرخين والجغرافيين^(٥).

أما عمل يأجوج ومأجوج: فالفساد في الأرض، وإهلاك الحرث والنسل، وقد جاء في حديث مرفوع «أن لهم نساءً يجامعون ما شاؤوا وشجراً يلقحون ما شاؤوا، ولا يموت منهم رجل إلا ترك من ذريته ألفاً فصاعداً» أخرجه النسائي وصححه الحاكم وابن حبان^(٦).

(٥) أشار ابن كثير إلى الرحلة التي سيرها الواثق في تفسيره (١٦٩/٣) وذكر القرطبي أن السدين جبلان من قبل أرمينية وأذربيجان، انظر: الجامع لأحكام القرآن (٥٥/١١) وذكر ابن خرداذبه تلك الرحلة التي سيرها الواثق وأطال في وصفها ووصف السد وذكر أن السد في مضيق يبلغ عرضه مائة متر تقريباً يسمى مضيق (داريال) وهو يقع الآن في جمهورية جورجيا، وأنه لا يوجد مضيق سواه على جبال القوقاز الممتدة شرقاً من بحر قزوين إلى البحر الأسود غرباً بطول ألف ومائتي كيلومتر، وذكر أنه أرسل في هذه الرحلة خمسين من الشباب الأقوياء، وأنه لم يرجع منهم سوى أربعة عشر رجلاً. انظر: كتاب المسالك والممالك لأبي القاسم عبيدالله بن عبدالله بن خرداذبه (١٤١-١٤٥) ومعجم البلدان لياقوت الحموي وقد أفاض في ذكر هذه الرحلة (١٩٩/٣).

(٦) عزاه ابن كثير في تفسيره للنسائي من حديث أوس ابن أبي أوس مرفوعاً (١٧٢/٣) ونحوه عن ابن مسعود عند ابن حبان كما في الإحسان (٦٨٢٨) وعزاه السيوطي في الدر المنثور لابن أبي حاتم (٤٥٥/٥) وأخرجه الحاكم من حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي (٥٣٦/٤).

ويُظهِر كثرتهم أثر موقوف على عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما
«أن بني آدم عشرة أجزاء، تسعة منها يأجوج ومأجوج، وجزءٌ سائر
الناس» أخرجه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي^(٧).

وأما خروجهم: فكما حكى القرآن ﴿مَنْ كُلِّ حَذَبٍ يَنْسِلُونَ﴾ (٩٦) ﴿[الأنبياء] أي يسرعون في المشي إلى الفساد. عن عبدالله بن أبي يزيد
قال: رأى ابن عباس صبيانا ينزوا بعضهم على بعض يلعبون فقال ابن
عباس: «هكذا يخرج يأجوج ومأجوج»^(٨).

وأخرج الترمذي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول
الله صلى الله عليه وسلم قال: «يحفرونه كل يوم حتى إذا كادوا يخرقونه
قال الذي عليهم: ارجعوا فستخرقونه غداً، فيعيده الله كما مثَّل ما كان؛
حتى إذا بلغ مدتهم وأراد الله أن يبعثهم على الناس قال الذي عليهم:
ارجعوا فستخرقونه غداً إن شاء الله، واستثنى، قال: فيرجعون فيجدونه
كهيبته حين تركوه فيخرقونه فيخرجون على الناس»^(٩).

(٧) أخرجه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي (٥٣٦/٤) وهو مما لا يقال بالرأي؛
لكن يحتمل أنه من أخبار أهل الكتاب.

(٨) أخرجه ابن جرير كما ذكره ابن كثير في تفسيره (٣١٢/٣).

(٩) أخرجه أحمد (٥٢٠/٢) والترمذي في تفسير القرآن باب ومن سورة الكهف
وقال: حسن غريب (٣١٥٣) وابن ماجه في الفتن باب فتنة الدجال وخروج
عيسى بن مريم وخروج يأجوج ومأجوج (٤٠٨٠) وصححه ابن حبان (٦٨٢٩)
والحاكم وقال: على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي (٤٨٨/٤) وقوى إسناده
وجوَّده الحافظ ابن كثير؛ لكنه أنكر متنه بحجة تعارضه مع الآية ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا
أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ وعلل ذلك باحتمال سماع أبي هريرة هذا الحديث =

قال أبو بكر ابن العربي رحمه الله تعالى: «في هذا الحديث ثلاث آيات: الأولى: أن الله منعهم أن يوالوا الحفر ليلاً ونهاراً، والثانية: أنه منعهم أن يحاولوا الرقي على السد بسلم أو آلة فلم يلهمهم ذلك ولا علمهم إياه، والثالثة: أنه صدهم عن أن يقولوا: إن شاء الله، حتى يجيء الوقت المحدد».

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: «وفيه أنهم أهل صناعة، وأهل ولاية وسلطنة ورعية تطيع من فوقها، وأن فيهم من يعرف الله ويقر بقدرته ومشيتته، ويحتمل أن تكون تلك الكلمة تجري على لسان ذلك

= من كعب الأخبار فحدث به فتوهم بعض الرواة عنه أنه مرفوع فرفعه، انظر: تفسير ابن كثير (٣/ ١٧٠) وقد أورده الألباني في السلسلة الصحيحة وتعقب ابن كثير فقال: «ولكن الآية لا تدل من قريب ولا من بعيد أنهم لن يستطيعوا ذلك أبداً، فالآية تتحدث عن الماضي والحديث عن المستقبل الآتي فلا تنافي ولا نكارة بل الحديث يتمشى تماماً مع القرآن في قوله ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْتَ بِأَجُوجَ وَمَأْجُوجَ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٦] ثم قال: وبعد كتابة هذا رجعت إلى القصة في كتابه البداية والنهاية فإذا به أجاب بنحو هذا الذي ذكرته... انظر: البداية والنهاية (٢/ ١١٢) والسلسلة الصحيحة (١٧٣٥)، وقد وهم الشيخ شعيب الأرناؤوط الألباني في تصحيحه الحديث وتَعَقُّبُهُ لابن كثير، وذكر ما ذكره ابن كثير في تفسيره من احتمال أن كعباً حدث به فنقله عنه أبو هريرة، فرفعه بعض الرواة؛ لأن كعباً حدث بمثله كما في تفسير الطبري (١٧/ ٨٩) انظر: تخريجه على الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان (١٥/ ٢٤٤) والذي يظهر لي أن كلام الألباني أقوى، وأنه لاتعارض بين الآية والحديث، ولا يصح توهيم الراوي بلا حجة؛ بل لمجرد الاحتمالات، ولو قيل بذلك لما سلم لنا كثير من الأحاديث، ثم إنه لا مانع أن تتفق بعض أخبار بني إسرائيل مع حديث النبي صلى الله عليه وسلم كما لا يخفى. والله أعلم.

الوالي من غير أن يعرف معناها فيحصل المقصود ببركتها»^(١٠).
وعند الحاكم من حديث حذيفة مرفوعاً «أنهم لا يمرون على شيء
إذا خرجوا إلا أكلوه، وأنهم يأكلون من مات منهم»^(١١).

وأما وقت خروجهم فبعد أن يقتل المسيح ابنُ مريم المسيح الدجال
كما جاء في حديث النواس بن سمعان الكلابي رضي الله عنه الذي
ذكر فيه النبي صلى الله عليه وسلم خبر ابن مريم والدجال . . . قال:
«ثم يأتي عيسى بن مريم قومٌ قد عصمهم الله منه، فيمسح وجوههم
ويحدثهم بدرجاتهم في الجنة، فينما هو كذلك إذ أوحى الله إلى عيسى:
إني قد أخرجت عباداً لي لا يدان^(١٢) لأحد بقتالهم فحرّز عبادي إلى
الطور، ويبعث الله يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون، فيمر
أوائلهم على بُحيرة طبرية فيشربون ما فيها، ويمر آخرهم فيقولون: لقد
كان بهذه مرة ماءً، ويحصر نبي الله عيسى وأصحابه حتى يكون رأس
الثور لأحدهم خيراً من مئة دينار لأحدكم اليوم، فيرغبُ نبي الله عيسى

(١٠) مذكّره ابن العربي من فوائد الحديث لم أجده في عارضه الأحوذى ولا في
تفسيره أحكام القرآن، وهو في فتح الباري للحافظ ابن حجر (١٣/١١٦).

(١١) لم أعر عليه في المستدرک، وذكره الحافظ في فتح الباري (٦/٤٤٤).

(١٢) قال العلماء: لا يدان، معناه: لا قدرة ولا طاقة وهو تشنية (يد) قال: مالي

بهذا الأمر يد ومالي به يدان؛ لأن المباشرة والدفع إنما يكون باليد وكأن يديه

معدومتان بعجزه عن دفعه. انظر: شرح النووي على مسلم (١٨/٩١) والمفهم

للقرطبي (٧/٢٨٥) وشرح الأبي على مسلم (٩/٤٠٠).

وأصحابه، فيرسل الله عليهم النَّغْفَ^(١٣) في رقابهم فيصبحون فرسى كموت نفس واحدة. ثم يهبط نبي الله عيسى وأصحابه إلى الأرض، فلا يجدون في الأرض موضع شبر إلا ملاء زهمهم ونتاجهم، فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه إلى الله، ثم يرسل الله طيراً كأعناق البخت فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله، ثم يرسل الله مطراً لا يَكُنُّ منه بيت مدرٍ ولا وبرٍ، فيغسل الأرض حتى يتركها كالزَّلْفَةِ...» أخرجه مسلم^(١٤).

وفي حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «تفتح يأجوج ومأجوج فيخرجون كما قال الله تعالى ﴿وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾ فَيَعْمُونَ الأرض، وينحاز منهم المسلمون؛ حتى تصير بقية المسلمين في مدائنهم وحصونهم، ويضمون إليهم مواشيهم، حتى إنهم ليمرون بالنهر فيشربونه، حتى ما يذرون فيه شيئاً، فيمر آخرهم على إثرهم فيقول قائلهم: لقد كان بهذا المكان مرة ماء، ويظهرون على الأرض، فيقول قائلهم: هؤلاء أهل الأرض قد فرغنا منهم وَلَسْنَا زَلْنَ أهل السماء، حتى إن أحدهم لَيَهْزُ حربه إلى السماء، فترجع مخضبة بالدم، فيقولون: قد قتلنا أهل السماء. فينما هم كذلك إذ بعث الله دوابَّ كَنَغَفِ الجراد فتأخذ بأعناقهم فيموتون

(١٣) النغف: دود يصيب أنوف الإبل، وانظر في إيضاحه: المصادر السابقة في شروحات مسلم.

(١٤) أخرجه مسلم في الفتن باب ذكر الدجال وصفته ومامعه (٢٩٣٧) وأبوداود في الملاحم باب خروج الدجال (٤٣٢١) و(٤٣٢٢) والترمذي في الفتن باب ماجاء في فتنة الدجال (٢٢٤١).

موت الجراد يركب بعضهم بعضاً، فيصبح المسلمون لا يسمعون لهم حساً فيقولون: من رجل يشري نفسه وينظر ما فعلوا، فينزل منهم رجل قد وطّن نفسه على أن يقتلوه، فيجدُهُم موتى، فيناديهم: ألا أبشروا فقد هلك عدوكم، فيخرج الناس ويُخلّون سبيل مواشيهم فما يكون لهم رعي إلا لحومهم فتشكرُ عليها كأحسن ما شكرت من نبات أصابته قط» أخرجه أحمد وابن ماجه وهو حديث صحيح ^(١٥).

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾ (٩٢) حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا (٩٣) قَالُوا يَا ذَا الْقُرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا (٩٤) قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا (٩٥) آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا (٩٦) فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا (٩٧) قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا (٩٨) ﴿[الكهف] بَارَكَ اللَّهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ.

(١٥) أخرجه أبو يعلى (١٣٥١) وأحمد (٧٧/٣) وابن ماجه في الفتن باب فتنه الدجال وخروج عيسى بن مريم وخروج يأجوج ومأجوج (٤٠٧٩) والحاكم وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي (٤٨٩/٤) وصححه ابن حبان (٦٨٣٠) وقال البوصيري في زوائد ابن ماجه (٢٥٩/٤): هذا إسناد صحيح رجاله ثقات، وجود إسناده ابن كثير في تاريخه (١٨١/١).

الخطبة الثانية

الحمد لله حمداً طيباً كثيراً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى ، أحمده وأشكره وأتوب إليه وأستغفره ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ومن سار على نهجهم واستن بستهم إلى يوم الدين .

أما بعد: فاتقوا الله - عباد الله - وأطيعوه؛ فإن من ورائكم فتناً يشيب منها الوليد، ويذهب لب اللبيب .

أيها المؤمنون: بعد هلاك يأجوج ومأجوج يأمن الناس ، وتكثر الخيرات ، ويبارك الله في الأرزاق كما في الحديث : «ثم يقال للأرض: انبتي ثمرك، ورددي بركتك، فيومئذ تأكل العصابة من الرمانة، ويستظلون بقحفها، ويبارك في الرّسل حتى إن اللقحة من الإبل لتكفي الفئام من الناس، واللقحة من البقر لتكفي القبيلة من الناس، واللقحة من الغنم لتكفي الفخذ من الناس فبينما هم كذلك، إذ بعث الله ريحاً طيبة فتأخذهم تحت آباطهم، فتقبض روح كل مؤمن وكل مسلم، ويبقى شرارُ الناس يتهارجون فيها تهارج الحُمُر فعليهم تقوم الساعة» أخرجه مسلم ^(١٦) . وجاء في حديث صحيح أنه بعد خروجهم سوف يحج الناس ويعتَمرون ويغرسون النخل ^(١٧) .

(١٦) هو حديث النواس بن سميان المخرج في هامش (١٤) .

(١٧) كما في حديث أبي سعيد الخدري عند البخاري في الحج باب قول الله تعالى ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ﴾ [المائدة: ٩٧] (١٥٩٣) وأبي يعلى (١٠٣٠) وأحمد (٢٧/٣) وابن خزيمة (٢٥٠٧) وابن حبان (٦٨٣٢) .

أيها الإخوة: يلاحظ من أخبار يأجوج ومأجوج أن فيهم كثرة لا توصف ولا تحصر؛ إذ يشربون البحيرات، ولا يموت الواحد منهم حتى يخلف ألفاً من نسله؛ بل جاء ما يدل على هذه الكثرة العظيمة في قول النبي صلى الله عليه وسلم: «سيوقد المسلمون من قسي يأجوج ومأجوج ونُشَابِهِمْ وَأَتْرَسَهُمْ سَبْعَ سِنِينَ» أخرجه ابن ماجه بسند صحيح^(١٨).

ومن حكمة الله تعالى ورحمته بعباده المؤمنين أن هذه الكثرة في يأجوج ومأجوج خير وصلاح للمؤمنين فقد جاء في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «يقول الله تعالى: يا آدم فيقول: لبيك وسعديك، والخير في يديك قال: فيقول: أخرج بعث النار، قال: وما بعث النار؟ قال: من كل ألف تسعمئة وتسعة وتسعين، فذاك حين يشيب الصغير، وتضع كل ذات حمل حملها، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد»، فاشتد ذلك عليهم قالوا: يا رسول الله، أين ذلك الرجل؟ قال: «أبشروا فإن من يأجوج ومأجوج ألفاً ومنكم رجل، ثم قال: والذي نفسي بيده إني لأطمع أن تكونوا ثلث أهل الجنة»، قال: فحمدنا الله وكبرنا، ثم قال: «والذي نفسي بيده، إني لأطمع أن تكونوا شطر أهل الجنة، إن مثلكم

(١٨) أخرجه الترمذي في الفتن باب ما جاء في فتنة الدجال وقال: غريب حسن صحيح (٢٢٤٠) وابن ماجه في الفتن باب فتنة الدجال وخروج عيسى بن مريم وخروج يأجوج ومأجوج (٤٠٧٦) وهو حديث النواس بن سمعان رضي الله عنه الذي رواه مسلم والمخرج في هامش (١٤) إلا أنه لم ترد فيه هذه الجملة التي جاءت في رواية ابن ماجه.

في الأمم كمثل الشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود، أو كالرقمة في ذراع الحمار» أخرجه الشيخان^(١٩).

(١٩) أخرجه البخاري في الرقاق باب قوله عز وجل ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج: ١] (٦٥٣٠) ومسلم في الإيمان باب قوله: يقول لآدم: اخرج بعث النار... (٢٢٢).

تنبيهان:

الأول: الثابت أن يأجوج ومأجوج من بني آدم لكنهم كفار جهلة، وما ذكره المؤرخون والإخباريون من أن لهم أشكالاً غريبة منها: مخالب وأنياب مثل الحيوانات المفترسة، وأذانهم كبيرة يفترشها الواحد منهم ويلتحف الأخرى، وأن منهم من طوله شبر أو نصف شبر، ومنهم من هو طويل جداً... إلخ كل ذلك لم أقف على نص ثابت فيه، وأكثره كذب، ومنه ما هو منقول عن أهل الكتاب. إذا تقرر ذلك زال الإشكال الذي استشكله بعض من أنكرهم وكذب صريح القرآن، أو أوله تأويلاً خرج به عن معناه وهو قولهم: أين هاتان الأمتان العظيمتان الكثيرتان، وقد اكتشفت الأرض كلها؟! ولا يمكن خفاؤهم وهم بهذه الأعداد الهائلة!! فجواب ذلك: أنهم بشر مثلنا، إذا أذن الله تعالى بخروجهم تناسلوا وتكاثروا وخرجوا وأفسدوا.

الثاني: ظن بعض من كتبوا في هذا الموضوع أن سد يأجوج ومأجوج هو سد مأرب، ولما عرفت الصين ظن آخرون أنه سور الصين العظيم، لاسيما مع كثرة أهل الصين. وكلا الرأيين خطأ ولا شك؛ لأن القرآن يدل على أن السور من نحاس وحديد. وهو ما لم يتوافر في سد مأرب ولا في سور الصين. ولما سقط الاتحاد السوفيتي ورحل بعض المسلمين إلى المنطقة التي ذكرها القرطبي وابن كثير وغيرهما في الرحلة التي سيرها الخليفة العباسي الواثق؛ وجدوا هذا المضيق (داريال) في سلسلة جبال القوقاز، وفيه سد من حديد ونحاس، وأغلب ظنهم أن هذا هو السد المذكور لاسيما أن بعض الدراسات التاريخية تثبت أن ذي القرنين بنى السد في تلك الجهات الشرقية. وفي بعضها ذكر=

هذا من فضل الله تعالى على أمة محمد صلى الله عليه وسلم؛
ولكن هذا الفضل لا يناله إلا المؤمنون الصادقون، الثابتون على دينهم
على رغم البلاء، المعصومون من الفتن والأهواء.
فاتقوا الله ربكم، واستمسكوا بدينكم، وعضوا عليه بالنواجذ،
ومروا بالمعروف وانهاؤا عن المنكر، واستعينوا بالله من شر الفتن ما
ظهر منها وما بطن. فالمعصوم من عصمه الله تعالى، ولا يهلك على
الله إلا هالك، ألا وصلوا وسلموا على نبيكم محمد بن عبد الله كما
أمركم بذلك ربكم.

* * *

= للقرية التي أقام فيها ذو القرنين وقت بناء السد ويوجد بها آثار من بقايا عملهم
في ذلك السد، وأيدوا ذلك بأن إغارات تلك الشعوب على شعوب الترك
تتوافق تاريخياً مع عصر ذي القرنين، وهو ما أثبتته تواريخ تلك الجهات،
على وفق ما جاء في القرآن. فإن كان ما نقل عن هذا السد صحيحاً فهو
الأقرب لأن يكون سد يأجوج ومأجوج والله أعلم.
ويكون ما خلفه بشر من الشعوب القوقازية أو الترية يكون يأجوج ومأجوج
من نسلهم إذا أذن الله تعالى بخروجهم.

١٩٥- خروج الدابة

الجمعة ٨/١١/١٤١٨ هـ

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهداهم إلى يوم الدين.

أما بعد: فيا أيها الناس: اتقوا الله تعالى؛ فإن الموعد قريب، والحساب عسير، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ (١) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾ [الحج] ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُخَيِّمُ الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٦) وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴿٧﴾ [الحج].

نعم والله! إن الساعة لآتية، وإن إتيانها لقريب، ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ (١) [القمر]، ولكن مع هذا الاقتراب هل تاب المذنبون؟! وتنبه الغافلون، وشمر الصالحون، وتذكر اللاهون؟

إن الناس لفي غفلة عن أمر الساعة والحساب، والقرآن ذكر غفلتهم ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ (١) مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ﴿[الأنبياء: ١-٣]﴾ ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (١) [النحل].

إن الملاحدة والمكذبين، والماديين والكافرين يستبطنونها ويريدون عجلتها؛ تكذيباً بها، واستخفافاً بشأنها. أما المؤمنون الموقنون فيخشونها، ويشفقون منها، ويخافون العرض والحساب ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ (١٧) يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يَمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (١٨) ﴿[الشورى].

لقد كان النبي صلى الله عليه وسلم كثيراً ما يخبر عن قرب وقوعها فيقول: «بعثت أنا والساعة كهاتين، ويشير بأصبعيه فيمدهما» متفق عليه^(١)، وعند أحمد قال عليه الصلاة والسلام: «بعثت أنا والساعة جميعاً، إن كادت لتسبقني»^(٢)، ففي هذا الحديث إشارة إلى شدة قربها من بعثته صلى الله عليه وسلم حتى خشي سبقها له لعظم قربها^(٣). وفي حديث آخر قال عليه الصلاة والسلام: «بعثت في نَسَم الساعة»^(٤)، قال ابن الأثير رحمه الله تعالى: «هو من النسيم، أول هبوب الريح الضعيفة؛

(١) أخرجه البخاري في الرقاق باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: بعثت أنا والساعة كهاتين، (٦٥٠٣) ومسلم في الفتن باب قرب الساعة (٢٩٥٠).
(٢) أخرجه أحمد (٣٤٨/٥) والطبري في تاريخه (٨/١) وحسنه الحافظ في الفتح (٣٤٨/١١) وعزاه الهيثمي للبزار وقال: ورجال أحمد رجال الصحيح (١٠/١).
(٣١١).

(٣) انظر: أشراط الساعة ليوסף الوابل (٦٩).

(٤) أخرجه الدولابي في الكنى (٢٣/١) وابن منده في المعرفة (٢/٢٣٤) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٨٣٣) وفي السلسلة الصحيحة (٨٠٨).

أي: بعثت في أول أشراط الساعة وضعف مجيئها» اهـ^(٥)، وروى أنس ابن مالك رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لست من الدنيا وليست مني، إني بعثت والساعة نستبق» أخرجه الضياء في المختارة بسند صحيح^(٦).

وكما أخبر عليه الصلاة والسلام عن قربها ومسابقتها له، وأن بعثته من علامتها؛ أخبر كذلك عن استبعاد الناس لقربها، وغفلتهم عنها وعن تذاكرها، فقال عليه الصلاة والسلام: «اقتربت الساعة ولا تزاد منهم إلا بعداً»^(٧) أي: حال الناس حال من هي بعيدة عنه، وواقعنا يشهد بذلك فالله المستعان.

وفي حديث آخر يصور النبي صلى الله عليه وسلم الناس حيال الدنيا وانهماكهم فيها، وغفلتهم عن أمور الآخرة والحساب فيقول عليه الصلاة والسلام: «اقتربت الساعة ولا يزداد الناس على الدنيا إلا حرصاً، ولا يزدادون من الله إلا بعداً»^(٨).

(٥) النهاية في غريب الحديث والأثر (٤٩/٥).

(٦) أخرجه الضياء المقدسي في الأحاديث المختارة (١٥٤٢) وصححه السيوطي في الجامع الصغير (٧٢٤٢) والألباني في الصحيحة (١٢٧٥).

(٧) أخرجه الطبراني في الكبير (١٥/١٠) وأبو نعيم في الحلية (٣١٥/٨) وقال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح (٢٥٥/١٠ - ٣١١) وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١١٤٥).

(٨) أخرجه الهيثم بن كليب في مسنده (٧٦٨) وأبو نعيم في الحلية وقال: غريب تفرد به مخلد مرفوعاً موصولاً (٢٤٢/٧) والقضاعي في مسند الشهاب (٥٩٧) =

ولقرب الساعة وكونها تسابق بعثة النبي صلى الله عليه وسلم فإنه عليه الصلاة والسلام أكثر من ذكر أماراتها، وكان يحدث أصحابه دائماً عن الفتن الواقعة بين يديها، يطيل أحياناً ويقتصد أخرى.

أخبر صلى الله عليه وسلم بها بعض الصحابة منفردين، وخطبهم بها مجتمعين. حذر وأنذر، وأعاد وكرر؛ حتى كثرت نصوصه في ذكر الفتن والملاحم وأشراط الساعة، وأخبار البعث والقيامة. قال حذيفة رضي الله عنه: «لقد خطبنا النبي صلى الله عليه وسلم خطبة ما ترك فيها شيئاً إلى قيام الساعة إلا ذكره، علمه من علمه، وجهله من جهله، إن كنت لأرى الشيء قد نسيته، فأعرفه كما يعرف الرجلُ الرجلَ إذا غاب عنه فرآه فعرفه» أخرجه الشيخان^(٩).

ومن شدة حرصه ونصحه عليه الصلاة والسلام أنه مكث يوماً كاملاً من طلوع شمسهِ إلى غروبها يحدثهم عن ما مضى، وعن ما يحضرونه من الفتن والملاحم، وعن ما يكون بعدهم إلى قيام الساعة. عن أبي زيد عمرو بن أخطب رضي الله عنه قال «صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الفجر، وصعد المنبر فخطبنا حتى حضرت الظهر

= وابن أبي عاصم في الزهد (٢٥٠) والدولابي في الكنى (١٥٥/١) وتمام في فوائده كما في الروض البسام (١٧٣٤) وصححه الحاكم (٣٢٤/٤) وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١١٤٦) وذكره في السلسلة الصحيحة (١٥١٠).
(٩) أخرجه البخاري في القدر باب وكان أمر الله قدر مقدوراً واللفظ له (٦٦٠٤) ومسلم في الفتن وأشراط الساعة باب إخبار النبي صلى الله عليه وسلم فيما يكون إلى قيام الساعة (٢٨٩١).

فتزل فصلى، ثم صعد المنبر فخطبنا حتى حضرت العصر، ثم نزل فصلى، ثم صعد فخطبنا حتى غربت الشمس، فأخبرنا بما كان وبما هو كائن، فأعلمنا أحفظنا» أخرجه مسلم^(١٠).

ومن كثرة ذكره صلى الله عليه وسلم للساعة أهم الصحابة أمرها، وكثر تذاكرهم لها، فكشف لهم عن أماراتها الكبرى، وعلاماتها العظمى، قال حذيفة بن أسيد الغفاري رضي الله عنه: اطلع علينا النبي صلى الله عليه وسلم ونحن نتذاكر فقال: «ما تذاكرون؟» قالوا: نذكر الساعة، قال: «إنها لن تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات فذكر الدخان، والدجال، والدابة، وطلوع الشمس من مغربها، ونزول عيسى بن مريم صلى الله عليه وسلم، ويأجوج ومأجوج، وثلاثة خسوف، خسفٌ بالمشرق، وخسفٌ بالمغرب، وخسفٌ بجزيرة العرب، وآخر ذلك نارٌ تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم» أخرجه مسلم^(١١).

والدابة هي المذكورة في قوله تعالى ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ (٨٢) [النمل] قال الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى: «هذه الدابة تخرج في آخر الزمان عند فساد الناس وتركهم أوامر الله، وتبديلهم الدين الحق

(١٠) أخرجه مسلم في الفتن وأشرط الساعة باب إخبار النبي صلى الله عليه وسلم فيما يكون إلى قيام الساعة (٢٨٩٢).

(١١) أخرجه مسلم في الفتن باب ما يكون من فتوحات المسلمين قبل الدجال (٢٩٠١) وأبو داود في الملاحم باب أمارات الساعة (٤٣١١) والترمذي في الفتن باب ماجاء في الخسف (٢١٨٤).

يُخرج الله لهم الدابة من الأرض» اهـ^(١٢).
وقال القرطبي: «﴿وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾ [النمل: ٨٢] قال العلماء:
أي وجب الوعيد عليهم، لتماديتهم في العصيان والفسوق والطغيان،
وإعراضهم عن آيات الله، وتركهم تدبرها والنزول على حكمها، وانتهائهم
في المعاصي إلى ما لا ينجح معه فيهم موعظة، ولا يصرفهم عن غيهم
تذكرة، يقول عز من قائل: فإذا صاروا كذلك، أخرجنا لهم دابة من
الأرض تكلمهم، أي: دابة تعقل وتنطق، والدواب في العادة لا كلام
لها ولا عقل؛ ليعلم الناس أن ذلك آية من عند الله تعالى»^(١٣).
قال ابن مسعود رضي الله عنه: «وقع القول يكون بموت العلماء،
وذهاب العلم، ورفع القرآن ثم قال: أكثروا تلاوة القرآن قبل أن يُرفع،
قالوا: هذه المصاحف تُرفع، فكيف بما في صدور الرجال؟ قال:
يُسرى عليه ليلاً، فيصبحون منه قفراً وينسون (لا إله إلا الله) ويقعون
في قول الجاهلية وأشعارهم وذلك حين يقع القول عليهم»^(١٤).
وإذا خرجت الدابة كان ذلك دليلاً على انتهاء مسألة الإيمان والكفر،
ووقوف الحرب بين جند الشيطان وحزب الرحمن؛ فيبقى المؤمن على
إيمانه، والكافر على كفره، قال النبي عليه الصلاة والسلام: «ثلاث إذا
خرجن لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها

(١٢) تفسير ابن كثير (٣/ ٥٩٨).

(١٣) التذكرة للقرطبي (٦٩٧).

(١٤) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٣/ ٢٣٤).

خيراً: طلوع الشمس من مغربها، والدجال، ودابة الأرض» أخرجه مسلم والترمذي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ^(١٥).

وأما وقت خروجها فلا يُعلم إلا أنه يتزامن خروجها مع طلوع الشمس من مغربها، وتخرج وقت الضحى كما جاء في حديث عبد الله ابن عمرو رضي الله عنهما قال: حفظت من رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثاً لم أنسه بعد، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إن أول الآيات خروجاً طلوعُ الشمس من مغربها، وخروجُ الدابة على الناس ضحى، وأيهما كانت قبل صاحبتهما، فالأخرى على أثرها قريباً» أخرجه مسلم ^(١٦).

ومن عمَل هذه الدابة: أنها تَسِمُ الناس، وتميزُ المسلم عن الكافر، ويمكث الناس عقبها ما شاء الله أن يمكثوا، المؤمنُ على إيمانه، والكافر على كفره، يتبايعون ويتجالسون وهم كذلك. روى أبو أمامة رضي الله عنه يرفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «تخرج الدابة، فتسم الناس على خراطيمهم، ثم يُعمَّرُون فيكم حتى يشتري الرجل الدابة فيقال: ممن اشتريت؟ فيقول: من الرجل المخطَّم» أخرجه

(١٥) أخرجه مسلم في الإيمان باب بيان الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان (١٥٨) والترمذي في التفسير باب ومن سورة الانعام (٣٠٧٤).

(١٦) أخرجه مسلم في الفتن باب خروج الدجال ومكثه في الأرض (٢٩٤١) وأبو داود في الملاحم باب أمارات الساعة (٤٣١٠).

أحمد^(١٧)، وعند الحاكم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «تخرج الدابة ومعها عصى موسى وخاتم سليمان، فتجلو وجه المؤمن بالعصى، وتخطم أنف الكافر بالخاتم حتى إن أهل الخوان يجتمعون فيقولون لهذا: يا مؤمن، ويقولون لهذا: يا كافر»^(١٨).

وأما صفتها ومكان خروجها فلم يصح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهما حديث مرفوع، ولا ينبغي التخطب في الأمور الغيبية بلا دليل من الوحي. والمؤمن مأمور بالإيمان، والعمل الصالح، والاستعداد ليوم المعاد، وعدم الغفلة عن قرب الساعة، ومعرفة علاماتها، وأخبار الفتن والملاحم؛ حتى يكون في ذلك من الراشدين. وليس من شأنه

(١٧) أخرجه أحمد (٢٦٨/٥) والبخاري في التاريخ الكبير (١٧٢/٢/٣) وأبو نعيم في تاريخ أصبهان (١٢٤/٢) والبغوي في مسند ابن الجعد (٢٩١٩) قال الهيثمي في المجمع: ورجاله رجال الصحيح غير عمر بن عبدالرحمن بن عطية وهو ثقة (٦/٨) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٣٢٢) وفي صحيح الجامع (٢٩٢٧).

(١٨) أخرجه أبو داود الطيالسي (٣٣٤) وأحمد (٢٩٥/٢) والترمذي في تفسير القرآن باب ومن سورة النمل وقال: حديث حسن غريب. (٣١٨٧) وابن ماجه في الفتن باب دابة الأرض (٤٠٦٦) وضعفه الألباني لضعف أوس بن خالد وعلي بن زيد بن جدعان كما في السلسلة الضعيفة (٢٣٤/٣) وصححه أحمد شاكر في تعليقه على المسند (٧٩/١٥) برقم (٧٩٢٤) وذلك لأنه رجح توثيق علي بن زيد، انظر كلامه في: تعليقه على المسند (١٢٢/٢) والحديث وإن كان ضعيفاً إلا أن حديث أبي أمامة الذي قبله يشهد لبعض ألفاظه والله أعلم.

أن يعلم وقت وقوعها؛ إذ لو كان ذلك ممكناً لانتفت حكمة الله تعالى في ابتلاء العباد وامتحانهم.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَا ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مِّنْ يَّخْشَاهَا ﴿٤٥﴾ كَانَتْهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴿٤٦﴾﴾ [النازعات] بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم...

الخطبة الثانية

الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى، أحمده وأشكره وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ومن سار على نهجهم واستن بستهم إلى يوم الدين.

أما بعد: فإن خروج الدابة، وطلوع الشمس من مغربها، أي هاتين الآيتين خرجت أولاً كانت الثانية في إثرها وحينئذ يقفل باب التوبة كما قال الله تعالى ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨]. فسر هذه الآية رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله: «لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت فرآها الناس آمنوا أجمعون، فذاك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها

خيراً» متفق عليه ^(١٩)، وجاء في حديث آخر عند مسلم «إن أول الآيات خروجا طلوع الشمس من مغربها» ^(٢٠).

فطلوع الشمس من مغربها أول الآيات السماوية على قيام الساعة، كما أن خروج الدابة أول الآيات الأرضية على قيامها. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: «وإن كان الدجال ونزول عيسى من السماء قبل ذلك، وكذلك خروج يأجوج ومأجوج، فكل ذلك أمورٌ مألوفة؛ لأن أمر مشاهدته ومشاهدة أمثاله مألوف. فأما خروج الدابة على شكل غريب غير مألوف، ومخاطبتها الناس، ووسمها إياهم بالإيمان أو الكفر؛ فأمر خارج عن مجاري العادات، وذلك أول الآيات الأرضية، كما أن طلوع الشمس من مغربها على خلاف عاداتها المألوفة أول الآيات السماوية». اهـ ^(٢١)

أيها الإخوة: كان هذا تذكيراً بمصير الناس والدنيا التي قدّر الله تعالى ألا تكون مستقرّاً دائماً، ولا مكاناً خالداً؛ وإنما جعلها الله تعالى دار بلاء وامتحان للعباد. يعبدون الله فيها، ويأكلون ويتمتعون في حدود شرع الله، وزينتها بالزخارف والشهوات، وحذر عباده وأنذرهم فتنها، وأخبرهم أن المرجع إليه، وأن الآخرة هي دار القرار ﴿وَمَا هَذِهِ

(١٩) أخرجه البخاري في الرقاق باب قول النبي صلى الله عليه وسلم بعثت أنا والساعة كهاتين (٦٥٠٦) ومسلم في الإيمان باب بيان الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان (١٥٧) وأبو داود في الملاحم باب أمارات الساعة (٤٣١٢).

(٢٠) أخرجه مسلم في الفتن باب خروج الدجال ومكثه في الأرض (٢٩٤١) وأبو داود في الملاحم باب أمارات الساعة (٤٣١٠).

(٢١) النهاية في الفتن والملاحم (١٠٩/١).

الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُمْ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ [العنكبوت].

ولكن كثيراً من البشر تنكبوا الطريق، وضلوا الصراط، وتاهوا عن الحقيقة، واعتبروا الدار الفانية باقية، وعمروها. بل إن كثيراً منهم عبدوها؛ فأضاعوا من أجلها الصلوات، واتبعوا الشهوات، وسارعوا إلى المحرمات، ولم يتحروا في بنائها الكسب الحلال، بل عمروها بالحلال والحرام، وتركوا دارهم التي سيخلدون فيها، ولا ينتبه الواحد منهم من غفلته إلا حين تقوم قيامته، أو حينما تقع الساعة الكبرى، وتطلع الشمس من مغربها، فحينئذ أي ندم سينفع المفرطين؟ وأي عتبي ستكون للعاصين؟!

إن الدنيا مزرعة الآخرة، وكل عامل فيها سيجد ما عمل ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمَلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمَلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران].

فحافظوا على الفرائض، وأتبعوها بالنوافل، وانتهوا عن المحارم، وجددوا التوبة، ولازموا الاستغفار، وخذوا من الدنيا ما يعينكم على عمارة الآخرة؛ فإن الخطب عظيم، وهول المطلع شديد، ووالله إن الموعد لقريب، ولو لم يكن قريباً لما سابقت الساعة بعثة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، ولما كانت بعثته من أماراتها الدالة على قربها ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذْهَى وَأَمْرٌ﴾ [القمر] ألا وصلوا وسلموا على محمد ابن عبدالله كما أمركم بذلك ربكم.

١٩٦- البعث والنشور إثباته، وكيفيته، وأحوال المبعوثين

الجمعة ١٨/١١/١٤١٩هـ

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران] ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب ٧٠-٧١].

أما بعد: فإن أصدق الحديث كلام الله تعالى، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها المؤمنون: خلق الله تعالى الأرض، وأسكنها البشر، وكتب عليهم سنناً لا تتغير، وقوانين لا تتخلف. فالموت سنة مكتوبة على كل حي، والرزق مقدر، والأجل محدد، والدنيا بأسرها لها ابتداء ولها انتهاء، والحياة على الأرض مرتبة كما أراد الله تعالى. وذلك

كله من دلائل قدرته وعظمته التي توجب توحيده وعبادته ، وتقطع حجة كل حقيّر من البشر أراد العظمة والكبرياء لنفسه ، وتحول بين الشركاء وشركائهم ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (٤٠) [الروم].

والبشر على الأرض يولدون ، وفيها يمشون ويرزقون ، ومنها يبعثون ويحشرون ، ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ (١٥) [الملك].

إنها حياة مرتبة قبل أن يولد الإنسان وإلى أن يموت بل وإلى أن يبعث ، ونظام دقيق عجيب يسير على وفق ما أراد الخالق سبحانه ، سواء كان في خلق الإنسان أم الحيوان أم النبات ، أم كان في قلب الليل والنهار . لا يحتاج البشرُ بحث ذلك ؛ لأنه ليس إليهم ، ولا بأيديهم ، فكلُّ الخلائق تسير بانتظام حسب إرادة العليم الخبير .

ليلٌ يعقبُ نهاراً ، وزمانٌ يتبعُ زماناً ، وأجيالٌ تراثُ أجيالاً . لم تتأخر شمسٌ يوم عن وقتِ شروقها أو غروبها ، ولا فصلٌ عن زمن حلوله وزواله ، ولا بشرٌ في ولادته ووفاته .

وخلقُ البشر ثم مآلهم جاء على نحوٍ مرتبٍ مفصل لا يحتاج إلى أبحاث ونظريات وتخبطات ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نَظْفَةً فِي قرارٍ مَكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النَّفْثَةَ عِلْقَةً فَخَلَقْنَا الْعِلْقَةَ مَضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمَضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَاهَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ

(١٦) ﴿[المؤمنون].

تفصيلٌ واضح لا لبس فيه ولا غموض، وأطوارٌ لها ابتداء ثم انتهاء لا تحتاج إلى بحث وتفكير، وإنما على العبد أن يسخر فكره وجوارحه في عبادة خالقه وتعظيمه، لا في توقع كيفية البداية، واستكشاف المصير، أو بحث إمكانية البعث؛ لأن ذلك كله كائنٌ لا محالة، لا يجادل فيه إلا جاهلٌ كافر ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٨)﴾ [النحل].

﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٧)﴾ [التغابن: ٧].

فإذا أذن الله تعالى بالبعث جمع الله ما تفرق من أجسادهم ولو كان في بطون السباع، أو حيوانات الماء، أو بطن الأرض، أو ما استحال رماداً بالحرق وذرته الرياح، يجمعه الله تعالى، ولو أكل إنسانٌ إنساناً لجمع الله تعالى الأكل والمأكول^(١)، ولما قتل حمزة رضي الله عنه في أحد قال النبي صلى الله عليه وسلم: «لولا أن تجد صفيئةً في نفسها لتركته حتى يحشره الله من بطون السباع والطيور» أخرجه الترمذي^(٢).

وأما كيفية خروجهم من الأرض فينبتون كما ينبت النبات؛ ذلك أن الإنسان إذا مات وبلى وتحلل بقي منه عَجْبُ الذئب فمنه ينبت

(١) انظر: فتاوى شيخ الإسلام (٢٥٧/١٧) والتذكرة للقرطبي (٢٨٧/١).

(٢) أخرجه الترمذي في الجنايز باب ما جاء في قتل أحد وذكر حمزة وحسنه

(١٠١٦) وأبوداود في الجنايز باب في الشهيد يغسل (٣١٣٣) والبيهقي وحسنه

(١٠/٤) والحاكم وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي (١٩٦/٣).

ويركب، قال النبي صلى الله عليه وسلم: «كل ابن آدم يأكله التراب إلا عجب الذنب منه خلق ومنه يركب»^(٣).

فينبتهم الله تعالى مما بقي منهم كما جاء ذلك موضعاً في كتاب الله تعالى في مواضع كثيرة عند ذكر النبات ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَتِ سَحَابًا ثَقَالاً سَقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (٥٧) ﴿[الأعراف] وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ (٩) وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لِّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ (١٠) رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً مَّيِّتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ (١١)﴾ [ق] ﴿فَانْظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٥٠)﴾ [الروم].

وقد جاء في حديث الصور الطويل قوله عليه الصلاة والسلام: «ثم ينزل الله مطراً كأنه الطل فينبت منه أجساد الناس ﴿ثُمَّ نَفْخُ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ (٦٨)»^(٤)، وفي حديث أبي رزين العقيلي قال: قلت: يا رسول الله، كيف يحيي الله الموتى؟ وما آية ذلك في

(٣) أخرجه مالك في الجنائز (٢٣٩/١) وأحمد (٣٢٢/٢) والبخاري في التفسير

باب ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ (٤٨١٤) ومسلم في الفتن باب ما بين النفختين (٢٩٥٥)

والنسائي في الجنائز باب أرواح المؤمنين (١١١/٤) وأبو داود في السنة باب

ذكر البعث والصور (٤٧٤٣) وابن ماجه في الزهد باب ذكر القبر والبلى (٤٢٦٦).

(٤) أخرجه أحمد (١٦٦/٢) ومسلم في الفتن باب في خروج الدجال ومكثه في

الأرض (٢٩٤٠) والحاكم (٥٥٠/٤) وابن حبان (٧٣٥٣) من حديث عبد الله

ابن عمرو رضي الله عنهما.

خلقه؟ قال: «أما مررت بوادي أهلك مَحَلًّا» قال: بلى! قال: «أما مررت به يهتز خضرًا؟» قال: قلت: بلى! قال: «ثم مررت به مَحَلًّا» قال: بلى! قال: «فكذلك الله يحيي الموتى ذلك آيته في خلقه»^(٥).

فإذا اكتملت أجسادهم ولم يبق إلا أرواحهم؛ جمع الله تعالى أرواحهم في الصور، وأمر إسرافيل بالنفخ، فرجع كلُّ ذي روح إلى جسده بإذن الله تعالى، فيصبحون كما كانوا في الدنيا على أشكالهم وهيئاتهم.

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: «لما وعد الله سبحانه وهو صادق الوعد الذي لا يخلف وعده أنه يعيد الخلق كما بدأهم أول مرة، كان من صدق وعده أن يعيده على الحالة التي بدأ عليها من تمام أعضائه

(٥) أخرجه أحمد واللفظ له (١١/٤) والطيالسي (١٠٨٩) والطبراني في الكبير (٢٠٨/١٩) برقم (٤٧٠) وقال الهيثمي في الزوائد: رجاله موثقون (١/٨٥). وقوله في الحديث «أما مررت بوادي أهلك مَحَلًّا؟» أي: جذبًا، والمَحَلُّ في اللغة: انقطاع المطر، وأمحلت الأرض والقوم، وأرض مَحَلٌّ ومَاحِلٌ. انتهى من النهاية لابن الأثير (٣٠٤/٤). وجاء في الرواية الأخرى لأحمد ورواية الطيالسي: «مُحَلًّا» أي: ليس فيه خضرة، وهو مثل قوله عليه الصلاة والسلام في حديث النواس بن سمعان رضي الله عنه في ذكر الدجال «فينصرف عنهم فيصبحون ممحليين ليس بأيديهم شيء من أموالهم» رواه مسلم (٢٩٣٧). وجاء في رواية الطبراني: «فَحَلًّا» والقحل: يبوسة الجلد على العظم، والمقحل: الرجل اليابس الجلد، السيئ الحال، وقحل الناس: أي يسوا من شدة القحط. انظر: النهاية (١٨/٤) والقاموس (١٣٥٣) مادة: قحل. والمعنى على جميع الروايات متقارب والله أعلم.

وكمالها، ثم ذكر قوله تعالى ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ (١٠٤)﴾ [الأنبياء] وقال تعالى ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ (٢٩)﴾ [الأعراف]، وقال أيضاً: «ولا فوق قيامهم من القبور يكونون على صورتهم التي كانوا عليها في الدنيا، وعلى صفاتهم وهيئاتهم وأحوالهم، فيبعث كل عبد على ما مات عليه، ثم ينشئهم الله سبحانه كما يشاء»^(٦) اهـ.

وأول من يبعث: رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم كما قال عليه الصلاة والسلام: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول من ينشق عنه القبر، وأول شافع وأول مشفع» أخرجه مسلم^(٧).

فيخرجون يمشون حفاة عراة غرلاً^(٨)، كما خلقوا أول مرة، يسرون إلى الموقف أمماً أمماً ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا (١٨)﴾ [النبأ] يتقدم كل أمة رسولها ﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾ [الإسراء: ٧١] يسرعون في مشيهم ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ (٥١)﴾ [يس: أي: يسرعون]^(٩) ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ (٤٣)﴾ [المعارج].

(٦) تحفة المودود (١٦٣).

(٧) أخرجه مسلم في الفضائل باب تفضيل نبينا محمد صلى الله عليه وسلم على جميع الخلائق (٢٢٧٨).

(٨) ثبت ذلك في أحاديث منها حديث ابن عباس رضي الله عنهما عند البخاري في الرقاق (٦٥٢٦) ومسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها (٢٨٦٠) والترمذي في صفة القيامة (٢٤٢٣) والدارمي (٢٨٠٢).

(٩) تفسير ابن كثير (٩١٤/٣) عند تفسير الآية (٥١-٥٢) من سورة يس.

أفواجٌ لا قِبَل للعقل بتصورها، ولا يعلمُ عددها إلا خالقها ﴿يَخْرُجُونَ
مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ (٧) [القمر] من كثرتهم وسرعة سيرهم
إلى موقف الحساب.

أرأيتم لو أن أهل الأرض استطاعوا أن يجمعوا ربع من على الأرض
في صعيدٍ واحد؛ بل سدسهم أو عشرهم، كيف سيكون ذلك؟!
إنه ولا شك سيكون جمعاً عظيماً من البشر، وأعظم منه وأشدُّ:
جمعُ يوم القيامة حين يجمعُ الله الأولين والآخرين في صعيد واحد،
كلُّ البشر بأممهم في ماضيهم وحاضرهم ومستقبلهم، من لدن آدم إلى
آخر نفس من هذه الأمة، يبعثهم الله تعالى ثم يسيرون في جموع هائلة
إلى حيث يدعو الداعي.

الله أكبر، ما أعظم ذلك الجمع!! وما أشد زحامه، وما أفضع
كربه!! فهل من عدة تعتدونها للنجاة من كربه!!

إن الكافر ليصعق من هول المفاجأة حينما يُبعث من قبره؛ لأنه
كان يكذب بذلك ويقول مع القائلين: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ
وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤] فإذا نفخ في الصور، وقام
من موته، وبعث من قبره؛ تذكَّر ما جاءت به الرسل، وأخبرت عنه
الكتب من البعث والجزاء والعذاب فيندمُّ ولات حين مندم، ويقول مع
إخوانه الكافرين والمنافقين: ﴿يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا﴾ [يس: ٥٢]
فيجيئهم أهل الإيمان والحق من الملائكة والنبیین والمؤمنين^(١٠) ﴿هَذَا

(١٠) انظر: تفسير ابن كثير (٣/٩١٤).

مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ [يس].

ومن أقوال الكافرين يومئذ ﴿يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ ﴿٢٠﴾ [الصفات]
إنهم عرفوه، وتذكروا ما أُخبروا به في الدنيا فكفروا، فيقول لهم المؤمنون
﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ ﴿٢١﴾ [الصفات].

إنهم سينكرون أنهم لبثوا طويلاً في الدنيا؛ لثلاث تقوم عليهم الحجة
ولأن الدنيا زالت فكأنها لم تكن^(١١)، ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ
مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُفَكُّونَ﴾ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ
لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ
﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعذَرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾ [الروم]،
﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ﴾ ﴿١١٢﴾ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ
الْعَادِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا
خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ [المؤمنون].

يبعث الكفار يومئذ وهم في غاية الخضوع والانكسار مع ندم لا
يعدله ندم، قد خشعت أبصارهم من الذلة والخوف ﴿فَذَرَهُمْ يَخْضَعُونَ
وَيَلْعَبُونَ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ
سَرَّاعًا كَانَهُمْ إِلَى نَصَبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمُ
الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾ [المعارج]، ما أسوأ حالهم! وما أشدُّ بؤسهم!
أعاذنا الله منهم ومن مآلهم!!

(١١) انظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٧٠٠) عند تفسير الآية (٥٦) من سورة الروم.

وكلُّ العباد يبعثون على أعمالهم التي ختم لهم بها في الدنيا كما قال النبي عليه الصلاة والسلام: «يبعث كل عبد على ما مات عليه» أخرجه مسلم^(١٢).

وإذا أذن الله تعالى بهلاك أمة كثرَ فيها الفساد، وقَلَّ المصلحون، وفيها صالحون ومفسدون؛ أهلكهم الله تعالى جميعاً، ثم يبعثهم على نواياهم. فأهلُ الفساد على نية الفساد، وأهل الصلاح على نية الصلاح؛ ولذلك قالت عائشة رضي الله عنها للنبي صلى الله عليه وسلم لما أخبر عن قوم يخسف بأولهم وآخرهم: كيف يخسف بأولهم وآخرهم وفيهم أسواقهم ومن ليس منهم؟! قال: «يخسف بأولهم وآخرهم ثم يبعثون على نياتهم» متفق عليه^(١٣).

وخرَج البخاري ومسلم من حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا أنزل الله بقوم عذاباً أصاب العذابُ من كان فيهم ثم بعثوا على أعمالهم»^(١٤).

(١٢) أخرجه أحمد (٣/ ٣٣١) ومسلم في صفة الجنة باب الأمر بحسن الظن بالله تعالى عند الموت (٢٨٧٨).

(١٣) أخرجه البخاري في البيوع باب ما ذكر في الأسواق (٢١١٨) ومسلم في الفتن باب الخسف بالجيش الذي يؤم البيت (٢٨٨٤).

(١٤) أخرجه البخاري في الفتن باب إذا أنزل الله بقوم عذاباً (٧١٠٨) ومسلم في صفة الجنة باب الأمر بحسن الظن بالله تعالى عند الموت (٢٨٧٩).

فأحسنوا - عباد الله - أعمالكم فالسعيد من ختم له بعمل صالح،
والشقي من أنكر البعث أو فرط في العمل ليومه.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فُيَبْتَهُم بِمَا
عَمَلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (٦) ﴿[المجادلة]﴾ وَإِذَا
الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾ عَلِمْتَ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾ ﴿[الانفطار] بَارَكَ اللَّهُ
لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ.

الخطبة الثانية

الحمد لله حمداً يليق بجلال ربنا وعظيم سلطانه، أحمدده وأشكره
وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ﴿كُلُّ
شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٨٨) ﴿[القصص].

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، بعثه الله بين يدي الساعة بشيراً
ونذيراً؛ فآمن به من آمن، وكفر من كفر، وكل سيجد ما عمل، صلى
الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى
يوم الدين.

أما بعد: فاتقوا الله ربكم، واعملوا صالحاً؛ فإن العباد يبعثون على
ما عملوا، ويجزون بما قدموا.

أيها الإخوة: أهل الطاعة تزينهم طاعتهم يوم بعثهم، فالمجاهد
في سبيل الله تعالى الذي قُتل لإعلاء كلمة الحق يُبعث وجرحه يشعب

دماً، اللون لون الدم، والريح ريح المسك^(١٥)، ومن مات محرماً بعث ملبياً^(١٦).

فما أعظم الشهادة في سبيل الله تعالى، ثم الموت في حال الإحرام، إن لها مزية على غيرها من الميئات، عن فضالة بن عبيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من مات على مرتبة من هذه المراتب بعث عليها» قال حيوة: يقول: رباط أو حج أو نحو ذلك. أخرجه أحمد^(١٧).

وكذلك أهل العصيان يبعث بعضهم بعقوبات تناسب معاصيهم؛ فأهل الربا يتخبطون حال بعثهم ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ [البقرة: ٢٧٥] قال سعيد بن جبير:

(١٥) كما في حديث أبي هريرة عند البخاري في الجهاد باب من يجرح في سبيل الله عز وجل (٢٨٠٣) ومسلم في الإمارة باب فضل الجهاد والخروج في سبيل الله (١٨٧٦) والنسائي في الجهاد (٢٤١٦).

(١٦) كما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما عند أحمد (٢٨٣/١) والبخاري في الجنائز باب الكفن في ثوبين (١٢٦٥) ومسلم في الحج باب ما يفعل بالمحرم إذا مات (١٢٠٦) وأبي داود في الجنائز (٣٢٣٨) والنسائي في الحج (١١٢/٥) والترمذي في الحج (٩٥١) وابن ماجه في المناسك (٣٠٨٤).

(١٧) أخرجه أحمد (١٩/٦) والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٢٥٢) والطبراني في الكبير (٣٠٥/١٨) والحاكم وصححه على شرطهما (٤٩٠/١) وقال الهيثمي في المجمع عن حديث الطبراني: ورجاله ثقات في أحد السندين (١١٣/١) وهو حديث صحيح.

«آكل الربا يبعث يوم القيامة مجنوناً يخفق»^(١٨)، قال العلماء: «فجعل الله هذه العلامة لأكلة الربا، وذلك أنه أرباه في بطونهم فأثقلهم فهم إذا خرجوا من قبورهم يقومون ويسقطون لعظم بطونهم وثقلها عليهم»^(١٩). والنائحة إذا لم تتب قبل موتها تبعث يوم القيامة عليها سرايل من قطران^(٢٠).

أيها الإخوة: بالموت تنتهي مهلة الإنسان، ويختم على عمله إلا المرابط في سبيل الله تعالى، وبالبعث يبدأ الحساب على الأعمال. إن ذلك اليوم هو يوم الخزي للكافرين، ويوم الفوز للمؤمنين، والمؤمن في الدنيا يخاف الخزي يوم القيامة، ويسأل ربه النجاة كما سألها إبراهيم الخليل عليه والسلام حينما دعا ربه فقال: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ [٨٧] يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ [٨٨] إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ [٨٩] [الشعراء]. عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «يلقى إبراهيم أباه فيقول: يارب إنك وعدتني أن ﴿لَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ [الشعراء: ٨٧] فيقول الله: إني حرمت الجنة على الكافرين» أخرجه البخاري^(٢١). جاء في بعض روايات الصحيح أن الله تعالى

(١٨) جامع البيان للطبري (١٠٣/٣).

(١٩) التذكرة للقرطبي (٢٩٣/١).

(٢٠) كما في حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه عند ابن ماجه في الجنائز باب النهي عن النياحة (١٥٨١) وصححه البوصيري في مصباح الزجاجة (١/٥١٨).

(٢١) أخرجه البخاري في التفسير باب ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ [الشعراء: ٨٧] (٤٧٦٨).

يمسح أباه ضبعاً متلطخاً بالدم؛ لتنفر نفس إبراهيم عليه السلام منه ثم يؤخذ بقوائمه إلى النار^(٢٢)، فما نفع أبا إبراهيم كون ابنه خليل الرحمن، ولا ينفع أحداً إلا عمله بعد رحمة الله تعالى.

أيها المؤمنون: إن تقرير البعث من الوضوح والبيان بما لا يحتاج إلى إثبات أو برهان؛ فمن خلق أولاً قادر على أن يعيد الخلق كرة أخرى، وذلك مفهوم لكل عاقل أعمل عقله كما ينبغي. أما من زاغ قلبه، وفسد عقله، وانحرفت فطرته، فلو رأى بأم عينه بعث الناس لأنكره؛ بل لو مات ثم بعث ألف مرة لما آمن به، وتلك طريقة الذين كفروا كما أخبر الله تعالى عنهم ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نَكَذَّبَ بَايَاتَ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٧)﴾ بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٢٨) وَقَالُوا إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٢٩)﴾ [الأنعام].

فاتقوا الله ربكم، واحذروا سبيل الزائغين واجتهدوا في الطاعة، واجتنبوا المعصية؛ فإن من ورائكم يوماً ثقيلاً، تشيب من هوله الولدان ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ (٢)﴾ [الحج].

يوم ما أعظم كربته، وما أشد زحامه، وما أطول مقامه، وما أدق حسابه، فاعدوا له عدته بالإيمان والعمل الصالح ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا

(٢٢) انظر: صحيح البخاري كتاب أحاديث الأنبياء باب قول الله تعالى ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥] (٣٣٥٠) وانظر أيضاً: فتح الباري (٣٥٩/٨).

فِي الْقُبُورِ (٩) وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ (١٠) إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴿١١﴾
 [العاديات] سبحانه ربك رب العزة عما يصفون . وسلام على المرسلين .
 والحمد لله رب العالمين .

* * *

تنبئيه: ورد في السنة حديث له صلة بالبعث ، ولم أذكره للإشكال الوارد فيه ، وهو
 حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، لما حضره الموت دعا بثياب جدد فلبسها
 ثم قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «إن الميت يبعث في ثيابه
 التي يموت فيها» أخرجه عبدالرزاق في مصنفه (٦٢٠٦) وأبو داود في الجناز باب
 ما يستحب من تطهير ثياب الميت عند الموت (٣١١٤) والبيهقي في الكبرى (٣/
 ٣٨٤) وصححه ابن حبان (٧٣١٦) والحاكم وقال : على شرط الشيخين ، ووافقه
 الذهبي (١/ ٣٤٠) .

ولهذا الحديث ما يؤيده ، كما له ما يعارضه :

أما ما يؤيده فمالي :

- ١- ما رواه ابن أبي شيبة في مصنفه (١١١٣٢) وابن أبي الدنيا في العيال (٥١٥)
 بسند حسن عن عمير بن الأسود السكوني قال : «أوصاني معاذ بامرأته وماتت
 فدفناها ، فجاءها وقد رفعنا أيدينا عن قبرها ، فقال : بأي شيء كفتتموها؟
 فقلنا : في ثيابها ، فأمر بها فنشئت ، وكفناها في ثياب جدد ، وقال : أحسنوا
 أكفان موتاكم فإنهم يحشرون فيها» حسنه الحافظ في الفتح (٣٩١/١١) .
- ٢- ما رواه ابن أبي الدنيا عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : «يحشر الموتى في
 أكفانهم» . ذكره ابن كثير في البداية (١٦٣/١) وهذا القول منقول عن أبي
 العالية وأبي صالح المزني .

أما ما يعارضه فنصوص من الكتاب والسنة منها :

١- آيات تدل على أن الإنسان يبعث كما خلق، وهو خلق بلا لباس، منها قوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف: ٢٩] وقوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فِرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ٩٤].

٢- أحاديث تدل على حشر الناس عراة منها:

أ - حديث عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «تحشرون حفاة عراة غرلاً»، قالت عائشة رضي الله عنها: الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض؟ فقال: «الأمر أشد من أن يهتمهم ذاك» أخرجه البخاري في الرقاق باب الحشر (٦٥٢٧) ومسلم في الجنة وصفة نعيمها باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة (٢٨٥٩).

ب - حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: قام فينا النبي صلى الله عليه وسلم يخطب فقال: «إنكم محشورون حفاة عراة غرلاً» ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] الآية. وإن أول الخلائق يكسى يوم القيامة إبراهيم الخليل...» رواه البخاري (٦٥٢٦) ومسلم (٢٨٦٠).

وللعلماء في الجمع بين هذه النصوص مسالك منها:

المسلك الأول: حمل الثياب في حديث أبي سعيد على العمل، ولهذا الاستعمال

نظير في القرآن في عدد من الآيات منها:

١- قول الله تعالى: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦].

٢- قوله تعالى: ﴿وَتِيَابَكَ فَطَهَّرَ﴾ (٤) [المدثر: ٤] على قول مجاهد رحمه الله

إذ قال: «عملك فأصلح» وهو قول أبي رزين وقتادة، قال ابن كثير: «وكانت

العرب تسمي الرجل إذا نكث ولم يف بعهد الله أنه دنس الثياب؛ وإذا وفى

وأصلح إنه مطهر الثياب» اهـ تفسير ابن كثير (٤/ ٦٩٠-٦٩١) والفتح (١٠/

٣٩١) ويؤيده حديث جابر رضي الله عنه قال: سمعت النبي صلى الله عليه

وسلم يقول: «يبعث كل عبد على ما مات عليه» أخرجه مسلم في الفتن باب

الأمر بحسن الظن بالله تعالى عند الموت (٢٨٧٨).

وكذلك حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إذا أراد الله بقوم عذاباً أصاب العذاب من كان فيهم، ثم بعثوا على أعمالهم» رواه مسلم (٢٨٧٩). وهذا المسلك حسن لولا أنه متعقب بما يلي:

- ١- أنه رد لفهم أبي سعيد رضي الله عنه للحديث وهو راوي الحديث.
- ٢- أن فيه ردّاً لفعل معاذ رضي الله عنه الذي كان بمحضر جماعة دفنوها - ولعل فيهم صحابة ولا سيما أن معاذاً توفي في طاعون عمواس في خلافة عمر فوفاته متقدمة - ومع ذلك لم ينكر عليه أحد ذلك، مع عظيم ما فعل وهو نبش القبر وإعادة التكفين، ونبش القبر لا يجوز إلا لمصلحة راجحة ومعاذ رضي الله عنه من فقهاء الصحابة وقضاتهم.
- ٣- أن قوله: «أحسنوا أكفان موتاكم فإنهم يحشرون فيها» له حكم الرفع؛ لأنه يخبر عن غيب.

- ٤- أن فيه تأويلاً للحديث، وصرفاً له عن ظاهره إلى معنى آخر.
- قال الخطابي رحمه الله: «أما أبو سعيد فقد استعمل الحديث على ظاهره، وقد روي في تحسين الكفن أحاديث وقد تأوله بعض العلماء على خلاف ذلك فقال: معنى الثياب: العمل، كنى به عنه...» معالم السنن بهامش سنن أبي داود (٣/ ٤٨٥) وذكر نحوه ابن القيم في شرحه على السنن بهامش عون المعبود (٨/ ٣٨٤ - ٣٨٥) وأيد ذلك القرطبي بالآيات الدالة على إعادة الخلق كما كان أول مرة وقال: «ولأن الملابس في الدنيا أموال ولا مال في الآخرة» التذكرة (١/ ٢١٠).
- ويجاب عن هذه التعقبات بما يلي:

- ١- أن الحجة في رواية الصحابي لا فيما يرى، لا سيما إذا كان ما يراه مخالفاً للنصوص الثابتة الصريحة كآيات التي ذكرناها في عودة الخلق كما كانوا أول مرة. واجتهاد أبي سعيد ومعاذ رضي الله عنهما مأجوران عليه؛ لكنه اجتهد مقابل لنصوص أخرى، والمنقول عن الصحابة رضي الله عنهم في اجتهادات أخطأوا فيها كثير مثل:

أ - غسل أبي هريرة رضي الله عنه يديه في الوضوء إلى عضديه أو أبطينه مفسراً التحجيل بذلك كما في صحيح مسلم (٢٥٠) والله تعالى يقول: ﴿وَأَيَّدِيكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾ [المائدة: ٦].

ب - أكل أبي طلحة رضي الله عنه البرد وهو صائم ولا يراه مفطراً «لأنه بركة وليس طعاماً أو شرباً» رواه أحمد بسند صحيح (٢٧٩/٣).

ج - منع عمر وعثمان رضي الله عنهما الناس من التمتع في الحج، واعتراض علي وعمران بن الحصين رضي الله عنهما على ذلك كما في صحيح البخاري (١٥٥٩) ومسلم (١٢٢١) وانظر: الفتح (٤٣٣/٣).

والأمثلة في ذلك كثيرة جداً، وكل مخطيء منهم معذور في خطئه؛ لأنه اجتهد في تحري الصواب، ولم يقل أحد منهم رضي الله عنهم: إن قوله حجة على غيره.

فما نقل عن معاذ وأبي سعيد رضي الله عنهما هو من هذا الاجتهاد الذي يعذران فيه، ويؤجران عليه.

٢ - أن حادثة نبش معاذ لقبر امرأته، وإن كان إسنادها حسناً ففي النفس منها شيء من جهة المتن؛ لأن حرمة المؤمن ميتاً كحرمة حي، وفي نبشه انتهاك لحرمة، ولا يجوز ذلك إلا لمصلحة راجحة، وهي هنا غير محققة.

٣ - أن قول معاذ رضي الله عنه: «أحسنوا أكفان موتاكم فإنهم يحشرون فيها» معارض بأحاديث تدل على عدم المغالاة في الأكفان منها:

أ - حديث علي رضي الله عنه قال: «لا تغال في كفن؛ فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: لا تغالوا في الكفن فإنه يسلب سلباً سريعاً» أخرجه أبو داود (٣١٥٤) وفي سننه أبو مالك عمر بن هشام الجنبى وهو لين الحديث كما في التقريب (٨٠/٢).

ب - حديث ابن أبي مليكة أن أبا بكر قال لعائشة رضي الله عنهما: اغسلوا ثوبي هذين - وكانا مشقين - فكفنوني فيهما، وابتاعوا لي ثوباً ولا يغلو عليكم، فقالت عائشة: إنا موسرون، فقال: يا بنية: الحي أحق بالجديد من الميت وإنما

هو للمهل والصديد» رواه مالك في الموطأ (١/٢٢٤) وأحمد (٦/١٣٢) قال ابن عبد البر: «وقد كفن أبو بكر في ثوبين وثوب كان يلبس بالياً» التمهيد (٢٢/١٤٣).

وجمع العلماء بين هذا الحديث وما في معناه وحديث جابر رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إذا كفن أحدكم أخاه فليحسن كفنه» رواه مسلم (٩٤٣) بأن التحسين لا يقتضي المغالاة، قال ابن عبد البر رحمه الله تعالى تعليقاً على قول أبي بكر رضي الله عنه السابق ذكره: «وليس في هذا كله دفع لحديث جابر... ولا ما يعارضه؛ لأنه يحتمل حديث جابر هذا هيئة التكفين... على أن من كفن أخاه في ثوب نقي أبيض أو ثياب بيض فقد أحسن، والبالى والجديد في ذلك سواء والله أعلم» الاستذكار (٢٢/٢١٤-٢١٥).

وقال الحافظ في الفتح (٣/٢٩٨): «فإنه يجمع بينهما بحمل التحسين على الصفة، وحمل المغالاة على الثمن، وقيل: التحسين حق الميت، فإذا أوصى بتركه اتبع كما فعل الصديق...».

٤- أن حمل الثياب على العمل في قوله عليه الصلاة والسلام: «إن الميت يبعث في ثيابه التي يموت فيها» هو الأولى لوجود أدلة كثيرة تصرفه عن معناه الظاهر إلى معنى آخر، ولو قلنا بظاهره لتعارضت الأدلة، والممنوع حمل الكلام على غير ظاهره بلا دليل ولا قرينة تدل على صرفه عن الظاهر، وهذا المعنى غير موجود هنا؛ إذ الأدلة متظافرة على لزوم صرفه عن ظاهره.

المسلك الثاني: حمل حديث أبي سعيد على ظاهره، والأخذ باجتهاده واجتهاد معاذ رضي الله عنهما ومحاولة الجمع بين النصوص المتعارضة في ذلك، ولهم في هذا الجمع أوجه عدة:

الوجه الأول: أنه يبعث في ثيابه التي يموت فيها، ثم تتناثر عنه أو عن بعضهم، ثم يحشر إلى موقف الحساب عارياً ثم يكسى بعد ذلك من ثياب الجنة. ذكره البيهقي في الشعب (١/٣٢٠) ونقله عنه الحافظ في الفتح (١١/٣٩١) والعيني في عمدة القاري (٢٣/١٠٦) والقسطلاني في إرشاد الساري (١٣/٥٢٦).

الوجه الثاني: أن بعضهم يحشر عارياً وبعضهم كاسياً. ذكره الحافظ (١١/٣٩١) والعيني (١٠٦/٣٣) وهذا ضعيف لدلالة الأحاديث على أن أول من يكسى إبراهيم عليه السلام؛ فإذا كان الأنبياء يحشرون عراة فمن دونهم ليسوا أولى بالكسوة منهم، ولفظ «أول من يكسى» يدل على أن الجميع عراة.

الوجه الثالث: حمل حديث أبي سعيد على الشهداء؛ لأنهم الذين أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يزملوا في ثيابهم ويدفنوا فيها؛ فيحتمل أن يكون أبو سعيد سمعه في الشهيد فحملة على العموم، وأن معاذاً حملة على العموم. ذكره الحافظ (١١/٣٩١) وهذا ضعيف كسابقه، فليس الشهداء أولى بالثياب من الأنبياء عليهم السلام.

الوجه الرابع: أنه إذا كسى الأنبياء عليهم السلام والصديقون ثم من بعدهم على مراتبهم؛ فتكون كسوة كل إنسان من جنس ما يموت فيه، ثم إذا أدخلوا الجنة لبسوا من ثياب الجنة. ذكره ابن كثير في النهاية (١٦٣/١) وعزاه للبيهقي.

الوجه الخامس: أن البعث غير الحشر، وهو سابق عليه؛ فيبعثون في ثيابهم التي ماتوا فيها، ومن ثم يحشرون عراة، فيكون أول من يكسى إبراهيم عليه السلام، وهذا مردود بقول معاذ رضي الله عنه «فإنهم يحشرون فيها».

الوجه السادس: قد يقال: إن أحوال الحشر متعددة فتارة يكونون مكسيين، وأخرى يكونون عراة، ونظير ذلك النصوص التي جاء فيها أن الكافر والمنافق يجادل عن نفسه، وفي غيرها أنه يختم على فيه فلا ينطق، وفي غيرها أن الشهود يشهدون عليه...؛ إذ حملت على أحوال عدة في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة.

والوجه الرابع هو أقوى هذه الأوجه إن صح، ولم يتبين لي رجحان أي واحد من هذين المسلكين. والله تعالى أعلم.

ثم بعد كتابة هذا رأيت كلاماً مفيداً لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى في هذه المسألة قال فيه بعد ذكره لحديث أبي سعيد الذي هو أصل المسألة: «فأبو سعيد على هذا حمل الحديث على أن الثياب التي يموت فيها العبد يبعث فيها، ولم

يقول: إنه يبعث في أكفانه، فإن الكفن غير الثياب التي يموت فيها، فإن عامة الموتى لا يُكفَّنون في ثيابهم التي يقبضون فيها، لاسيما والكفن الذي كفن فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس فيه مما يُمسى فيه، فإنها لم يكن فيها قميص ولا عمامة، فإنه إذا عرف أن الحديث المأثور إنما هو أنه يبعث في ثيابه التي قبض فيها، فقل: يبعث في نفس الثوب الطاهر».

ثم ذكر قول من قال بحمل الثياب على الأعمال وأيده بشيئين:

١- ثبوت النصوص ببعث العبد على ما مات عليه من العمل.

٢- النصوص التي تثبت حشر الناس عراة.

ثم قال بعد سياقها: «وأما ثوبه الذي كان عليه وقت الموت فلا مناسبة في بعثه فيه، فقد تموت الأنبياء والصالحون في الثياب الرثة، وقد يموت الكفار والمنافقون في ثياب حسنة، فهل يكون قيام الكفار والمنافقين من قبورهم أجمل وأبهى من قيام الأنبياء والمؤمنين؟ ولو كان صحيحاً لكان تكفينه في ثيابه التي مات فيها ويبعث فيها أولى من تكفينه في غيرها، وليس الأمر كذلك، بل قد يختلف الحكم في ذلك. وقد ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إذا كفن أحدكم أخاه فليحسن كفنه»... ولو كان الميت يبعث في ثياب موته لوردت السنة بتجميلها. وأما الأكفان فلا أصل لكونه يبعث فيها بحال» اهـ من مسائل من الفتاوى المصرية ضمن جامع المسائل، المجموعة الرابعة، تحقيق محمد عزيز شمس (ص ٢٢٥-٢٢٧).

١٩٧- بين امتحان الدنيا وحشر الآخرة

الجمعة ١٣/٢/١٤٢٠ هـ

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (١٠٢) ﴿آل عمران﴾ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ (١) [النساء] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ (٧١) [الأحزاب].

أما بعد: فإن أصدق الحديث كلام الله تعالى، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها الإخوة المؤمنون: للفوز والنجاح حلاوته، وللخسارة والإخفاق مرارته، وكما أن الإنسان يحس حلاوة المطعوم أو المشروب ومرارته، فإن القلب يحس حلاوة النجاح ومرارة الإخفاق، ويتأثر بها أكثر من تأثر اللسان بما يطعم.

أليس الطالب إذا نجح في دراسته، والموظف إذا أبدع في وظيفته،

والتاجر إذا ربح في تجارته، يحسون اللذة في كل شيء؟ ويجدون الحلاوة في كل مطعوم؟ وإذا أخفقوا وجدوا كل شيء مرّاً مهما كان طيباً حلوّاً. وتلك حقيقة يعرفها كل الناس، وأكثرهم ذاق حلوها ومرها حينما كانوا ينجحون تارةً ويخفقون تارةً أخرى.

وفي هذه الأيام ترى الأيدي على القلوب، والقلق بادٍ على الوجوه من نتائج الامتحان، وثمرات السؤال والجواب، بعد تحصيل عامٍ كامل من الدرس والتعب. كان الله في عون الآباء والأمهات، فلربما كان حرصُهم أكثر، ووجلُّهم أشد، واستنفارهم يبلغ أقصى حد؛ إذ يرون ثمرات أفئدتهم يرسمون جزءاً من مستقبلهم، ويقدمون على منافسة أقرانهم. وودّ الآباء لو كان الجد والحرص يشتري بمال إذاً لاشتروه بغالي الأثمان لأولادهم.

وكم من أب مريض يزداد مرضه هذه الأيام من إهمال أولاده، وكم من أم عليلّة تطوف جنبات الدار كأنها مجنونة، تخدم هذا، وتذكر ذاك. وما أكثر الوصايا والنصائح والتوجيهات والإرشادات، وكأن الناس في حرب لا بد فيها من رابح وخاسر، وقاتل ومقتول. ثم بعد ذلك تظهر النتائج للعيان؛ فيفرح من يفرح، ويندم من يندم، ولات حين مندم.

إنها صورة مصغرة لعمل الإنسان في الدنيا، ثم اختباره في الحساب، ثم فوزه وفرحه، أو خسارته وندمه؛ ولكنه فوزٌ وفرح مستمر، أو خسارةٌ وندم غير منقطع، فهل عمل العاملون لذلك؟ وتنافسوا في أسباب

النجاة والنجاح؟! وهل يهتمون له كما يهتمون هذه الأيام؟! إن الحديث عن القيامة، وما يجري فيها من امتحان وحساب، وسؤال وجواب، وثواب وعقاب؛ ليس بالحديث الهين. وإلا فما ظنكم بالحديث عن يوم كان مقداره خمسين ألف سنة! أهواله عظيمة، وأحداثه كثيرة، يشيب من هولها الولدان، وتضع أحمالها ذوات الأحمال. وهذا حديث عن فصل من فصوله، وتصويرٌ لحدث من أحداثه، هو مقدمة ذلك اليوم وفاتحته؛ ذلكم هو الحشرُ بعد النشر.

الحشرُ وما أدراك ما الحشر: إنه جمعٌ لا يمكن للعقل أن يتصور كثرتَه، ولا أن يحدد فزعه. حشرٌ يجمع الخلق جميعاً، الملائكة والإنسَ والجنَ والبهائم.

هل يمكن للعقل أن يتصور في الدنيا حشراً يُحشر فيه الناسُ كلُّهم، ومكاناً يحويهم جميعهم، لا يتخلف منهم أحد؟! هذا غير متصور في الدنيا أبداً. فكيف إذا انضم إليهم من سبقوهم إلى آدم عليه الصلاة والسلام ومن لحقوهم إلى آخر رجل من هذه الأمة؟! ويُحشر معهم من الملائكة والجن أعدادٌ لا يعلمها إلا الله تعالى، ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ (٩٣) لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا (٩٤) وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا (٩٥) ﴿[مريم] وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ (٤٧) ﴿[الكهف] ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ﴾ (١٠٣) ﴿[هود].

ما أعظم تلك الحشود، وما أكثر تلك الجموع! ملائكة وإنسٌ وجنٌ يحشرون في مكان واحد، ومعهم البهائم أيضاً. فكم ستكون

أعدادُ البهائم المحشورة؟! لا أحد يعلم إلا الله تعالى . ولكم أن تتخللوا أو تطلعوا على أرقام ما يستهلكه البشر أكلاً من هذه البهائم في بلد واحد، فكيف بجميع بهائم العالم كله، والزمان كله! من مأكول وغير مأكول، ومعها جميع الطير؛ لتنضم في حشرها مع الملائكة والجن والإنس في مكانٍ واحد.

ولكن لماذا تحشر البهائم وهي غير مكلفة ولا ثواب لها ولا عقاب عليها؟! الجواب: أنها ستحشر كما نحشر؛ ليقص بعضها من بعض، وهذا من عدل الله سبحانه وتعالى ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ (٥) ﴿[التكوير] وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ (٣٨) ﴿[الأنعام] قال أبوهريرة رضي الله عنه: «يُحْشَرُ الْخَلْقُ كُلُّهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، الْبَهَائِمُ وَالِدَوَابُّ وَالطَّيْرُ وَكُلُّ شَيْءٍ، فَيَبْلُغُ مِنْ عَدْلِ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ أَنْ يَأْخُذَ لِلْجَمَاءِ مِنَ الْقِرْنَاءِ، ثُمَّ يَقُولُ: كُونِي تَرَابًا، فَلِذَلِكَ يَقُولُ الْكَافِرُ ﴿يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تَرَابًا﴾ (٤٠) ﴿[النبا] (١) . «يُحْشَرُ النَّاسُ حِفَاةَ عِرَاقٍ غَرَلًا» ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ (١٠٤) ﴿[الأنبياء] قال ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت عائشة رضي الله عنها: يا رسول الله، الرجال والنساء جميعاً ينظر بعضهم إلى بعض؟ قال: «يا عائشة، الأمر أشد من أن

(١) أخرجه الحاكم وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي (٣١٦/٢) وابن جرير في تفسيره واللفظ له (١٨٨/٧) وعزه السيوطي لعبدالرزاق وابن أبي حاتم وابن المنذر، انظر: الدر المنثور (٢٠/٣).

ينظر بعضهم إلى بعض» متفق عليه^(٢).

وأول من يكسى خليل الرحمن إبراهيم عليه الصلاة والسلام كما صح ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم^(٣).

يختلف حشرهم باختلاف عملهم في الدنيا، فأما المؤمنون المتقون فيحشرون معززين مكرمين، وأما أهل الكفر فيساقون ذليلين خائفين ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا (٨٥) وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرِدًا (٨٦)﴾ [مريم] أي: يحشرون عطاشاً^(٤).

ومن شدة فرعهم وخوفهم تصير وجوههم سوداء، وعيونهم زرقاء ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا (١٠٢)﴾ [طه] يحشرون على وجوههم، قد عميت أبصارهم، وصمّت أسماعهم، وأبكمت مناطقهم؛ فهم لا يتكلمون، ولا يؤذن لهم فيعتذرون ﴿وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ يَنْصُرَ لَهُ شَاقِقٌ (١٠٣)﴾ [طه] لا ينصرون.

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق باب الحشر (٦٥٢٧) ومسلم في صفة الجنة وصفة نعيمها وأهلها باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة (٢٨٥٩) وابن ماجه في الزهد باب ذكر البعث (٤٢٧٦) والإمام أحمد (٦٠ / ٦) والبخاري في شرح السنة (١٤١٣).

(٣) كما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما عند البخاري في الرقاق باب الحشر (٦٥٢٦) ومسلم في صفة الجنة باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة (٢٨٦٠) والترمذي في صفة القيامة (٢٤٢٣) والدارمي (٢٨٠٢) وأحمد (٣٠٩ / ١).

(٤) معنى [ورد]: عطاشاً، وهو قول ابن عباس وعطاء ومجاهد وقتادة والحسن وغيرهم. انظر: تفسير ابن كثير (٢٢٠ / ٣) عند تفسير الآية (٨٦) من سورة

تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمِّيًّا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ [الإسراء] يُسْلَبُونَ حَوَاسَهُمْ فِي وَقْتٍ تَكُونُ حَاجَتُهُمْ إِلَيْهَا شَدِيدَةً، فَيَتَخَبْطُونَ فِي مُحْشَرِهِمْ. لَا قَائِدٌ يَهْدِيهِمْ، وَلَا أَحَدٌ يَرْحَمُهُمْ، وَلَا قَرِيبٌ يَرَأْفُ بِهِمْ. إِنَّهُمْ عَمُوا عَنِ الْحَقِّ فِي الدُّنْيَا؛ فَجُوزُوا بِالْعَمَى فِي مُحْشَرِهِمْ ﴿٩٨﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى ﴿١٢٦﴾ ﴿طه﴾.

وتعظم خسارتهم، ويشتد ندمهم، ويعلمون أنهم ليسوا على شيء؛ حينما يرون معبوداتهم قد حشرت معهم، ومن أغواهم من الشياطين محشور أيضاً ﴿٩٨﴾ وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ يَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴿١٢٧﴾ [الفرقان]، ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾﴾ [مريم].

يُحْشَرُ كُلُّ فَاجِرٍ مِنْهُمْ مَعَ أَقْرَانِهِ فِي الدُّنْيَا، فَكَمَا اجْتَمَعُوا فِي الدُّنْيَا عَلَى مَعْصِيَةِ اللَّهِ تَعَالَى جَمْعُهُمْ اللَّهُ فِي حَشْرِهِمْ؛ حَتَّى يَلْعَنَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَيَتَبَرَّأَ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ ﴿٩٨﴾ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾﴾ [الصفات] قَالَ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَمْثَالُهُمُ الَّذِينَ هُمْ مِثْلُهُمْ، يَجِيءُ أَصْحَابُ الرِّبَا مَعَ أَصْحَابِ الرِّبَا، وَأَصْحَابُ الزِّنَا مَعَ أَصْحَابِ الزِّنَا، وَأَصْحَابُ

الخمير مع أصحاب الخمير، أزواج في الجنة وأزواج في النار»^(٥).
ولما كان الكافر يأنف من السجود في الدنيا للرحمن، عاقبه الله تعالى بأن يُسحب على وجهه في القيامة؛ إظهاراً لهوانه بحيث صار وجهه مكان يده ورجله في التوقي عن المؤذيات^(٦) ﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْلُ سَبِيلًا﴾ (٣٤) [الفرقان] قال رجل: يا نبي الله، كيف يحشر الكافر على وجهه؟ قال: «أليس الذي أمشاه على الرجلين في الدنيا قادراً على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة؟ قال قتادة: بلى وعزة ربنا» متفق عليه^(٧).

ومن كان خُلُقُه الكبر والترفع على الناس عوقب في حشره بالمهانة والذلة، قال النبي عليه الصلاة والسلام: «يُحْشَرُ الْمُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْثَالَ الذَّرِّ فِي صُورِ الرِّجَالِ يَغْشَاهُمُ الذَّلُّ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ» أخرجه الترمذي وقال: حسن صحيح^(٨).

(٥) أخرجه الحاكم وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي (٢/ ٤٣٠) وعزاه السيوطي لعبد الرزاق والفريابي وابن أبي شيبة وابن منيع في مسنده وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في البعث من حديث النعمان بن بشير عن عمر رضي الله عنهم، انظر: الدر المنثور (٥/ ٥١٣).

(٦) انظر: فتح الباري للحافظ ابن حجر (١١/ ٣٩٠) كتاب الرقاق.

(٧) أخرجه البخاري في الرقاق باب الحشر (٦٥٢٣) ومسلم في صفات المنافقين وأحكامهم باب يحشر الكافر على وجهه (٦/ ٢٨٠) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٨) أخرجه الترمذي من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده في صفة القيامة وقال: هذا حديث حسن صحيح (٢٤٩٤).

إنها مواقف عظيمة، ومقامات عدة، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، فيا لسعادة من أعدَّ له عدته، ويا لخسارة من ضيَّع نفسه، فخسر الدنيا والآخرة.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (١٥) لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهَ بِهِ عِبَادُهُ يَا عِبَادَ فَأَتَّقُونِ (١٦) وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادَ (١٧) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ (١٨)﴾ [الزمر] بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم.

الخطبة الثانية

الحمد لله حمداً طيباً كثيراً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى، أحمده وأشكره وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فاتقوا الله - أيها المؤمنون - واعلموا أن من ورائكم يوماً ثقيلاً، وحساباً دقيقاً، وكتاباً لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٢٨١)﴾ [البقرة].

أيها الإخوة: تمرُّ هذه الأيامُ على الطلاب بهمومها وأحزانها ومسراتها، ثم يكون عقبها النجاحُ أو الإخفاق. وهكذا الدنيا تمرُّ

سريعاً بآلامها وأحزانها وأفراحها، ثم يكون الحساب والجزاء، والربح والخسارة، والنار والجنة، فهل من معتبر بما يجري هذه الأيام لما سوف يجري يوم النشْرِ والحشرِ؟ وهل من متعظٍ بما يكون لما سوف يكون؟!؟

إن الغفلة أطبقت على قلوب كثير من الناس حتى كأنهم لن يحاسبوا! ترى الواحدَ منهم يعيشُ همومَ أولادهِ همماً همماً، ويكونُ معهم في هذه الأيام لحظةً لحظةً. يُرْعَبُ ويُرهَّبُ، وَيَعِدُ ويتوعد، ويُبين لهم ثمراتِ الجدِّ والحرص، وعواقب الإهمال والتفريط؛ ولكنه لا يأمرهم بمعروف، ولا ينهاهم عن منكر، ولا يذكرهم يوم الحساب الأكبر!!

همّة الأكبر أن يجِدُوا ويَجْتَهِدُوا وينجحوا، وينالوا الشهادات العالية، والمناصب الرفيعة، ولكن ليس في همه أن يحافظوا على الصلوات، ويجتنبوا الموبقات!!

يحب لهم أن يبنوا الدنيا؛ ولكنه لا يهتم لأمر الآخرة. فهذا والله قد أوردهم المهالك، وأوبقهم من حيث أراد أن ينفعهم، ووضعهم وقد ظن أنه رفعهم، فمتى نعتبر ومتى نتذكر؟! ولماذا لا نأخذ من رهبة هذه الأيام ما يخفف عنا الرهبة الكبرى التي لا رهبة في الدنيا تعدلها؟! فاتقوا الله ربكم، واحذروا الغفلة فإنها داءُ القلوب، وجانبوا المعاصي فإنها سبيلُ النار، وصلوا وسلموا على نبيكم كما أمركم بذلك ربكم...

١٩٨- صحائف الأعمال

الجمعة ٢٥/١٢/١٤١٧هـ

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران] ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب ٧٠-٧١].

أما بعد: فإن أصدق الحديث كلام الله تعالى، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها الإخوة المؤمنون: من أعظم أسباب ومقومات السعادة والطمأنينة لدى المؤمن، أنه قد كفي البحث في الغيبات، من مبدأ الخلق إلى القيامة والحساب والجزاء، والجنة والنار. كل ذلك جاء مفصلاً في كتاب الله تعالى، وفي سنة رسوله صلى الله عليه وسلم، والعبد مأمور بالعمل لما يصلح حاله في الدنيا والآخرة، ويكون سبباً في سعادته أبداً.

ولم ينعم بذلك المتخبطون من الملاحدة والكافرين الذين ينكرون أو يشكون في البعث والنشور، ولا يؤمنون بالحساب والجزاء، ولا يزال الشك يحيط بهم حتى في أنفسهم التي استحوذ عليها الشيطان فأنساها ذكر الله والدار الآخرة. يعملون عقولهم فيما لا يدرك بالعقل وحده، في بُعد تام وتهميش للشرع وأخبار المرسلين، فكانت نتيجة ذلك: اضطراب وحيرة وشك وتكذيب أعادنا الله من ذلك.

وأخبار البعث والقيامة استحوذت على كثير من نصوص الكتاب والسنة؛ بل إن القرآن كله والسنة كلها إنما غايتها الوصول بالعبد إلى دار النعيم، عبر الإيمان بالله تعالى، وعمل ما يرضيه.

وهذا تذكير بمشهد من مشاهد القيامة، له ارتباط كبير بعمل العبد في الدنيا، وهو علامة سعادته أو شقائه. أما ارتباطه بعمل العبد في الدنيا فكتابة هذا العمل مهما كبر أو صغر. وأما كونه علامة سعادته أو شقائه فتطابير الصحف في الأيمان والشمائل.

فالأقوال والأعمال كلها محسوبة ومكتوبة، أما الأقوال فدلَّ عليها قول الله تعالى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ۝١٧﴾ مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ [ق] تلا الحسن البصري رحمه الله هذه الآية وقال: «يا ابن آدم! بُسِطَتْ لَكَ صحيفة، ووكل بك ملكان كريمان: أحدهما عن يمينك والآخر عن شمالك؛ فأما الذي عن يمينك فيحفظ حسناتك، وأما الذي عن يسارك فيحفظ سيئاتك، فاعمل ما شئت أَقَلَّ أو أَكْثَرَ، حتى إذا مت طويت صحيفة، وجعلت في

عنقك معك في قبرك، حتى تخرج يوم القيامة فعند ذلك يقول الله: ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا﴾ (١٣) اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً (١٤) ﴿[الإسراء] قال: عدل والله فيك من جعلك حسيب نفسك﴾ اهـ (١).

وذكر عن الإمام أحمد رحمه الله تعالى أنه كان يئن في مرضه فبلغه عن طاووس أنه قال: «يكتب الملك كل شيء حتى الأئين». فلم يئن أحمد حتى مات رحمه الله تعالى (٢) ﴿أَمْ يَحْسِبُونَ أَنَا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ (٨٠) ﴿[الزخرف].

وأما الأعمال فدل عليها قوله تعالى ﴿وَأَن عَلَيْكُمْ لِحَافِظِينَ﴾ (١٠) كراماً كاتبين (١١) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ (١٢) ﴿[الانفطار] ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ (١٢) ﴿[يس] ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ (١٢) ﴿[يس] فالعمل الصالح يكتب ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بَأْتُهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نِيلاً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (١٢٠) وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾ [التوبة].

وثبت في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه

(١) تفسير ابن كثير (٣/٤٧) عند تفسير الآية (١٤) من سورة الإسراء.

(٢) تفسير ابن كثير (٤/٣٤٥-٣٤٦) عند تفسير الآيتين (١٧-١٨) من سورة (ق).

وسلم قال: «إذا كان يوم الجمعة وقفت الملائكة على أبواب المسجد فكتبوا من جاء إلى الجمعة، فإذا خرج الإمام طوت الملائكة الصحف» أخرجه الشيخان والنسائي واللفظ له ^(٣). وروى رفاعه بن رافع الزرقي قال: كنا نصلي يوماً وراء النبي صلى الله عليه وسلم فلما رفع رأسه من الركعة قال: «سمع الله لمن حمده»، قال رجل وراءه: ربنا ولك الحمد حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، فلما انصرف قال: «من المتكلم؟» قال: أنا، قال: «رأيت بضعه وثلاثين ملكاً يبتدرونها أيهم يكتبها أول» أخرجه البخاري ^(٤).

وكما يكتب العمل والقول الصالحان فإن العمل والقول السيئين كذلك يكتبان ﴿وَإِذَا أَدَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَّسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴾ [يونس] ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَانَّ أَشْهَدُوا خَلَقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيَسْأَلُونَ﴾ [الزخرف] ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِينَ مَالًا وَوَلَدًا﴾ (١٩)

(٣) أخرجه البخاري في الجمعة باب فضل الجمعة (٨٨١) ومسلم في الجمعة باب فضل التهجير يوم الجمعة (٨٥٠) وأبو داود في الطهارة باب الغسل يوم الجمعة (٣١٥) والترمذي في الصلاة باب ما جاء في التبكير إلى الجمعة (٤٩٩) والنسائي في الجمعة باب التبكير إلى الجمعة واللفظ له (٩٧/٣).
(٤) أخرجه مالك في القرآن باب ماجاء في ذكر الله تبارك وتعالى (٢١٢/١) والبخاري في صفة الصلاة باب فضل اللهم ربنا لك الحمد (٧٩٩) واللفظ لهما، والترمذي في الصلاة باب ما جاء في الرجل يعطس في الصلاة (٤٠٤) وأبو داود في الصلاة باب ما يستفتح به الصلاة من الدعاء (٧٧٠) والنسائي في الافتتاح (١٩٦/٢).

أَطْلَعَ الْغَيْبَ أَمْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا (٧٨) كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا (٧٩) ﴿[مريم]﴾ لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (١٨١) ﴿[آل عمران]﴾.

ومن فضل الله على عباده أن الحسنة تكتب في الصحيفة عشر حسنات، أما السيئة فلا تكتب إلا سيئة واحدة، روى أبوهريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «قال الله عز وجل: إذا تحدث عبدي بأن يعمل حسنة فأنا أكتبها له حسنة ما لم يعمل، فإذا عملها فأنا أكتبها بعشر أمثالها، وإذا تحدث بأن يعمل سيئة فأنا أغفرها له ما لم يعملها فإذا عملها فأنا أكتبها له بمثلها». وقال صلى الله عليه وسلم: «قالت الملائكة: رب ذاك عبدك يريد أن يعمل سيئة - وهو أبصر به - فقال: ارقبوه فإن عملها فاكتبوها له بمثلها، وإن تركها فاكتبوها له حسنة إنما تركها من جرأتي» أخرجه مسلم^(٥).

وكذلك عمل المريض والمسافر يكتب ولو لم يعملها، كما في حديث أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا مرض العبد أو سافر كتب له مثل ما كان يعمل مقيماً صحيحاً»^(٦).

(٥) أخرجه مسلم في الإيمان باب إذا هم العبد بحسنة كتبت وإذا هم بسيئة لم تكتب (١٢٩).

(٦) أخرجه البخاري في الجهاد والسير باب يكتب للمسافر مثل ما كان يعمل في الإقامة (٢٩٩٦) وأحمد (٤١٠ / ٤).

هذا التدوين يكون في الدنيا، ويوم القيامة يطلع العبد على عمله،
ويقرأ كتابه ﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنْقِهِ وَنُخْرِجُهُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا﴾ (١٣) اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيياً ﴿١٤﴾ [الإسراء]
قال ابن كثير: «وطائره ما طار عنه من عمله»^(٧)، ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ (٤٩) ﴿[الكهف]

كان الفضيل بن عياض إذا قرأ هذه الآية يقول: «يا ويلتنا ضجوا إلى الله من الصغائر قبل الكبائر»^(٨)، وجاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى ﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾ [الإسراء: ٧١] قال: «يدعى أحدهم فيعطى كتابه بيمينه، ويُمدُّ له في جسمه ستون ذراعاً، ويبيض وجهه، ويجعل على رأسه تاجٌ من لؤلؤ يتلأل، وينطلق إلى أصحابه فيروونه من بعيد فيقولون: اللهم ائتنا بهذا، وبارك لنا في هذا، حتى يأتيهم فيقول: أبشروا، لكل رجل منكم مثل هذا، قال: وأما الكافر فيسود وجهه ويُمدُّ له في جسمه ستون ذراعاً، على صورة آدم فيلبس تاجاً فيراه أصحابه فيقولون: نعوذ بالله من شر هذا، اللهم لا تأتنا بهذا، قال: فيأتيهم فيقولون: اللهم أخزه،

(٧) تفسير ابن كثير (٤٦/٣) عند تفسير الآية (١٤) من سورة الإسراء.

(٨) التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة للقرطبي (٢٥٩).

فيقول: أبعدكم الله فإن لكل رجل منكم مثل هذا» أخرجه الترمذي وقال حسن غريب^(٩).

وعمل المرائي يحذف من صحيفته مهما بلغ كثرة، وبدى للناس أنه صالح، قال عليه الصلاة والسلام: «يؤتى يوم القيامة بصحف مختمه، فتنصب بين يدي الله تبارك وتعالى، فيقول تبارك وتعالى: ألقوا هذه واقبلوا هذه، فتقول الملائكة: وعزتك ما رأينا إلا خيراً، فيقول الله عز وجل: إن هذا كان لغير وجهي، وإني لا أقبل اليوم إلا ما ابتغي به وجهي» أخرجه الطبراني ورجاله رجال الصحيح^(١٠).

والمؤمن يأخذ صحيفته بيمينه، والكافر والمنافق يأخذانها بالشمال من وراء الظهر. يفرح المؤمن بصحيفته؛ حتى إنه يعرضها على غيره يقرأها. ويخاف الكافر مما فيها؛ حتى إنه ليتمنى أنه لم يُعطها ولم يأخذها ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ أَقْرَأُوا كِتَابِيَهٗ﴾ (١٩) إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهٗ (٢٠) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (٢١) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (٢٢) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (٢٣) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (٢٤) وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهٗ (٢٥) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهٗ (٢٦) يَا

(٩) أخرجه الترمذي في التفسير باب ومن سورة الإسراء وقال: هذا حديث حسن غريب (٣١٣٦) وأبو نعيم (١٥/٩) وصححه ابن حبان (٧٣٤٩) والحاكم وقال: على شرط مسلم ووافقه الذهبي (٢٤٢/٢).

(١٠) أخرجه البزار كما في كشف الأستار (١٥٧/٤) والطبراني في الأوسط (٢٦٠٣) قال الهيثمي: رواه الطبراني في الأوسط بإسنادين ورجال أحدهما رجال الصحيح، انظر: مجمع الزوائد (٣٥٠/١٠).

لَيْتَهَا كَانَتْ الْقَاضِيَةَ (٢٧) مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهُ (٢٨) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيهِ (٢٩) ﴿[الحاقة].

ومن هول ما في صحيفة الكافر يتمنى الموت فيقول: ﴿يَا لَيْتَهَا كَانَتْ الْقَاضِيَةَ (٢٧)﴾ [الحاقة] قال قتادة: «تمنى الموت ولم يكن في الدنيا شيء أكره عنده من الموت»^(١١).

وهذه الصحف يقرؤها العبد على كل حال، حتى ولو لم يكن يعرف القراءة في الدنيا، قال الحسن رحمه الله تعالى: «يقرأ الإنسان كتابه أمياً كان أو غير أمي»^(١٢)، وبقراءتها يتبين للإنسان نتيجة أعماله، ظاهرة أمامه، حسنة أم قبيحة. فاللهم اجعل أعمالنا حسنة، وأعطنا صحفنا بأيماننا، وتجاوز عن زلاتنا.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ (٧) فَسَوْفَ يُحَاسِبُ حَسَابًا يَسِيرًا (٨) وَيُنْقَلَبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا (٩) وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ (١٠) فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا (١١) وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا (١٢) إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا (١٣) إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّنْ يَحُورَ (١٤) بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا (١٥)﴾ [الانشقاق] بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم.

(١١) جامع البيان للطبري (٢٩/٦٢).

(١٢) التذكرة للقرطبي (٢٥٥) وانظر: الحياة الآخرة للدكتور غالب بن علي عواجي

(٢/٨٧٥).

الخطبة الثانية

الحمد لله حمداً طيباً كثيراً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى ،
أحمده وأشكره وأتوب إليه وأستغفره ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده
لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم وبارك
عليه وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجهم واقتفى أثرهم إلى يوم
الدين .

أما بعد: فاتقوا الله - عباد الله - واكثروا من الاستغفار فقد قال
النبي صلى الله عليه وسلم «طوبى لمن وجد في صحيفته استغفاراً
كثيراً» أخرجه ابن ماجه (١٣) .

أيها الإخوة المؤمنون: إن موقف نشر الصحائف وتوزيعها على
العباد في القيامة لموقفٌ عظيم . هذه الصحائف التي يعلم العبد أنه
لم يفعلْ ولن يفعلَ صغيرة ولا كبيرة إلا وهي مدونة فيها؛ ولذا لما
قال النبي صلى الله عليه وسلم: «يحشر الناس يوم القيامة عراة حفاة» ،
قالت أم سلمة: فقلت: يا رسول الله! واسوأُتاه ينظر بعضهم إلى بعض؟
فقال: «شُغل الناس» ، قلت: ما شغلهم؟ قال: «نشر الصحائف فيها

(١٣) أخرجه ابن ماجه في الأدب باب الاستغفار من حديث عبدالله بن بسر
(٣٨١٨) والنسائي في عمل اليوم والليلة من السنن الكبرى (١١٨/٦) برقم
(١٠٢٨٩) قال البوصيري: هذا إسناد صحيح رجاله ثقات انظر: مصباح
الزجاجة (١٩٦/٣) وعزاه الألباني لأبي نعيم في الحلية عن عائشة ولأحمد
في الزهد عن أبي الدرداء وصححه كما في صحيح الجامع (٣٩٣٠) وفي
المشكاة (٢٣٥٦) .

مَثَاقِيلُ الذَّرِّ وَمَثَاقِيلُ الْخَرْدَلِ» أخرجه الطبراني^(١٤).

إن الإيمان بنشر الصحائف يوم الحساب هو من مستلزمات عقيدة المؤمن لثبوته في الكتاب والسنة، لا يماري في وقوعه إلا ضال منحرف، قال السفاريني رحمه الله تعالى: «والحاصل أن نشر الصحف وأخذها باليمين أو الشمال مما يجبُ الإيمان به، وعقدُ القلب بأنه حق؛ لثبوته بالكتاب والسنة والاجماع» اهـ^(١٥).

أيها الإخوة: إن استحضارَ كتابة الأعمال والحساب عليها هو الذي حفز الصحابة إلى الإكثار من القول الطيب، وإجهاد البدن في الطاعة. هذا أبو هريرة رضي الله عنه يسبح في اليوم واللييلة ثنتي عشرة ألف تسبيحة؛ كي تدون في صحيفته، وعبد الله بن عمر يحيي ليله بالصلاة، وابن عمرو يصوم يوماً ويفطر يوماً، ويختم القرآن كل ثلاثة أيام^(١٦)، وهكذا يطول الحديث في ذلك، مع محاسبة النفس على كل كلمة يقولها الواحد منهم، فيتعدُّ عما لا يفيد من اللغو والفسوق والشتم والسباب.

(١٤) أخرجه الطبراني في الأوسط (٨٣٣) وعزاه الهيثمي للكبير أيضاً وقال: رجاله رجال الصحيح غير محمد بن موسى وهو ثقة، انظر: مجمع الزوائد (٣٣٣/١٠)، وأورده المنذري في الترغيب والترهيب وقال: رواه الطبراني في الأوسط والكبير بإسناد صحيح (٣٨٥/٤).

(١٥) لوامع الأنوار البهية (١٨٠/٢).

(١٦) انظر أخبار ذلك في تراجمهم في سير أعلام النبلاء وغيره.

ماذا لو استحضر كل واحد منا قبل أن يتكلم أو يباشر المعصية أن ذلك مكتوب عليه؟ وكيف ستتغير حالُ العبد حينما يريد أن يكذب، أو يغتاب، أو يقتات، أو يطلق لسانه في الكلام البذيء، كيف ستتغير حاله عندما يتوقف عند قوله تعالى ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق]؟! .

إن العبد ليعمل أعمالاً في الخفاء يستحي أن يعملها أمام الناظرين، فماذا لو استشعر وجود الملكين الكاتبين؟ ألا يدعو ذلك إلى الحياء منهم، ثم ماذا لو صعد بقلبه إلى أعلى فاستشعر مراقبة الله تعالى له؟! يجب علينا حينما نهمُ بقولٍ أو نُقدِّمُ على عملٍ أن نستحضر وجود الحافظين الكرام الكاتبين؛ فذلك أدعى لأن نحاسب أنفسنا، ونزن ألفاظنا وأعمالنا قبل الندم عليها في الدنيا، وندم الآخرة أعظم، وخسارتها أكبر.

أسأل الله تعالى أن يتولانا برحمته وعفوه، وأن يجعلنا من عباده الصالحين، ثم صلوا وسلموا على نبيكم كما أمركم بذلك ربكم...

١٩٩- القضاء في الخصومات

الجمعة ٣/١١/١٤٢٤هـ

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (١٠٢) ﴿آل عمران﴾ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ (١) ﴿النساء﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ (٧١) ﴿الأحزاب ٧٠-٧١﴾.

أما بعد: فإن أحسن الحديث كلام الله تعالى، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها الناس: محاسبة النفس في الدنيا تخفف الحساب في الآخرة، وأداء الحقوق إلى أهلها يقي العبد من خصومة الغرماء، وكل ظلم وقع على عبد من العباد في الدنيا فإنه سيخاصم ظالمه فيه يوم القيامة، إلا إذا عفا عنه. ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ (٣٠) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿[الزمر: ٣٠ - ٣١] لما نزلت هذه الآية على النبي صلى الله

عليه وسلم قال الزبير بن العوام رضي الله عنه: «أي رسول الله، أيكرّر علينا ما كان بيننا في الدنيا مع خواصّ الذنوب؟ قال: نعم، ليكررنّ عليكم حتى يؤدّي إلى كل ذي حقّ حقه، فقال الزبير: والله إن الأمر لشديد» رواه أحمد والترمذي^(١).

يكون التخاصم والجدال، والفصل في الخصومات، وقصاص المظلوم من الظالم في عرصات القيامة بعد الحشر وقبل الميزان والصراط، فتعظم الخصومات، وتظهر المظالم، ويُقذف بالحجج، ويصيح المظلوم بظالمه يريد حقه، وقد دلت النصوص على أن كل شيء يخاصم، وأن كل مظلوم يقتص من ظالمه، حتى الحيوانات والحشرات مهما صغرت؛ فقد روى مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لتؤدّن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء» وفي لفظ لأحمد: «يقتص الخلق بعضهم من بعض حتى للجلحاء من القرناء، وحتى الذرة من الذرة»^(٢).

(١) أخرجه أحمد (١٦٧/١)، والترمذي في تفسير القرآن باب ومن سورة الزمر، وقال: هذا حديث حسن صحيح (٣٢٣٦)، والبزار في البحر الزخار (٩٦٤ - ٩٦٥)، والحميدي في مسنده (٦٠ - ٦٢)، وأبو يعلى (٦٦٨)، والطبري في تفسيره (٢٤/١ - ٢)، وأبو نعيم في الحلية (٩١/١ - ٩٢)، والحاكم وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي (٤٣٥/٢)، وصححه الشيخ أحمد شاكر في شرحه على المسند (١٤٣٤).

(٢) أخرجه أحمد (٢٣٥/٢ - ٣٠١) والبخاري في الأدب المفرد (١٨٣)، ومسلم في البر والصلة والآداب باب تحريم الظلم (٢٥٨٢)، والترمذي في صفة =

ولعظيم أمر الدماء، وحرمتها عند رب العالمين جل جلاله؛ فإن أول الاختصاص يكون فيها، ويُقضى فيها قبل غيرها؛ فقد روى الشيخان من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «أول ما يقضى بين الناس يوم القيامة في الدماء»^(٣).

وقد جاء في الأحاديث ما يدل على كيفية ذلك، ووصف ما يجري من الخصومة بين القاتل والمقتول بما يُخَوِّفُ المؤمن من إصابة الدم الحرام، ويُفضِّلُ معه أن يكون عبد الله المقتول، ولا يكون عبد الله القاتل، ومن ذلك: ما ورد في حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: «أول ما يُقضى بين الناس في الدماء، ويأتي كل قتيل قد حمل رأسه فيقول:

= القيامة باب ما جاء في شأن الحساب والقصاص (٢٤٢٠)، وأبو يعلى (٦٥١٣)، والبيهقي (٩٣/٦)، والرواية الثانية لأحمد (٣٦٣/٢).

(٣) أخرجه البخاري في الرقاق باب القصاص يوم القيامة (٦٥٣٣)، ومسلم في القسامة والمحاربين والقصاص والديات باب المجازاة بالدماء في الآخرة (١٦٧٨)، ولا يشكل على هذا الحديث حديث أبي هريرة مرفوعاً: «أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة صلاته» أخرجه أبو داود (٨٦٤)، والترمذي وقال: حسن غريب (٤١٣)، والنسائي (٢٣٢/١)، وابن ماجه (١٤٢٥)، وأحمد (٢/٤٢٥)، والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (٣٩٤/١)؛ لأن حديث القضاء في الدماء متعلق بمعاملات الخلق، وحديث الصلاة متعلق بعبادة الخالق سبحانه، وقد جاء الجمع بينهما في حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أول ما يحاسب به العبد الصلاة، وأول ما يقضى بين الناس في الدماء» أخرجه النسائي (٨٣/٧)، أفاد ذلك الحافظ في الفتح (١١/٤٠٤).

يا رب، سل هذا فيم قتلني»^(٤)، وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً: «يأتي المقتول معلقاً رأسه بإحدى يديه مُتَلَبِّباً قاتله بيده الأخرى تشخبُ أوداجهُ دماً حتى يقفا بين يدي الله تعالى»^(٥).

إنه موقف عظيم، ومشهدٌ فظيعٌ مريع، يخافه المؤمن فلا يلطخ يديه بدم حرام، وويل لمن أبادوا أئماً من البشر من قوى الظلم والاستكبار؛ لتحقيق مكاسب سياسية، أو منافع مادية، كم ستبلغ أعداد خصومهم، من الذين قُتلوا ظلماً وعدواناً على أيديهم؟!

قال الحافظ ابن حجر بعد أن ساق حديث القضاء في الدماء: «وفي هذا الحديث عظم أمر الدم، فإن البداءة إنما تكون بالأهم، والذنب يعظم بحسب عظم المفسدة وتفويت المصلحة. وإعدامُ البنية الإنسانية

(٤) جزء من حديث الصور الطويل الذي أخرجه الطبراني في الأحاديث الطوال (٣٦) وعزاه الحافظ في الفتح (٣٧٦/١١) لعبد بن حميد والطبري وأبي يعلى والبيهقي في البعث وعلى بن معبد في كتاب الطاعة والمعصية.

(٥) أخرجه أحمد (٢٢٢/١ - ٢٤٠ - ٢٩٤ - ٣٦٤)، والنسائي في تحريم الدم باب تعظيم الدم (٨٥/٧)، وفي القصاص (٦٣/٨)، وابن ماجه في الديات باب هل لقاتل المؤمن توبة (٦٢١)، والطبري في تفسيره (٢١٨/٥)، والطبراني في الكبير (٣٧٢/١٠) برقم (١٠٧٤٢)، وفي الأوسط (٤٢١٧) وصححه الشيخ أحمد شاكر في شرحه على المسند (١٩٤١). وقوله: «متلبباً» أي ممسكاً بلبته وهي اللهزمة التي فوق الصدر وفيها تنحر الإبل، قال في اللسان (١/٧٣٣): «وَلَبَّبَ الرجل: جعل ثيابه في عنقه وصدره في الخصومة ثم قبضه وجره... يقال: أخذ فلان بتليب فلان إذا جمع عليه ثوبه الذي هو لابسه عند صدره، وقبض عليه يجره» اهـ.

غاية في ذلك، وقد ورد في التخليط في أمر القتل آيات كثيرة وآثار شهيرة^(٦).

وأول من يجلس للمخاصمة من مجاهدي هذه الأمة: علي بن أبي طالب وحمزة بن عبد المطلب وعبيدة بن الحارث رضي الله عنهم، وفيهم نزل قول الله تعالى: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ [الحج: ١٩]. روى البخاري في صحيحه من حديث علي رضي الله عنه أنه قال: «أنا أول من يجثو بين يدي الرحمن للخصومة يوم القيامة» قال قيس ابن عباد: «وفيهم أنزلت: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ [الحج: ١٩] قال: هم الذين تبارزوا يوم بدر: حمزة وعلي وعبيدة بن الحارث، وشيبة بن ربيعة وعتبة بن ربيعة والوليد بن عتبة»^(٧).

وهؤلاء الرهط هم أول من تبارزوا في أول فرقان بين الحق والباطل وقع في هذه الأمة.

وتتوالى الخصومات والقضاء فيها من الدماء إلى ما هو أقل منها؛ حتى يقضى في اللطمة والضربة بالسوط ولو استقلها الناس واستصغروها، قال جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: «بلغني حديث عن رجل سمعه

(٦) فتح الباري (٤٠٤/١١).

(٧) أخرجه البخاري في المغازي باب قتل أبي جهل (٣٩٦٥)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٤٥٧/٥)، برقم: (٢٧٩٥٠)، والطبري في تفسيره (١٧/١٣١)، قال الحافظ في الفتح (٣٤٦/٧) تعليقا على قول علي رضي الله عنه: «أنا أول من يجثو بين يدي الرحمن»: «والمراد بهذه الأولوية تقييده بالمجاهدين من هذه الأمة؛ لأن المبارزة المذكورة أول مبارزة وقعت في الإسلام».

من رسول الله صلى الله عليه وسلم فاشتريت بغيراً، ثم شددت عليه رحلي، فسرتُ إليه شهراً حتى قدمت عليه الشام، فإذا عبد الله بن أنيس، فقال للبواب: قل له: جابر على الباب، فقال: ابن عبد الله؟ قلت: نعم، فخرج يظاً ثوبه، فاعتنقني واعتنقته، فقلت: حديثاً بلغني عنك أنك سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم في القصاص، فخشيتُ أن تموت أو أموت قبل أن أسمعه، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ - أَوْ قَالَ: الْعِبَاد - عِرَاءَ غِرْلًا بُهْمًا»، قال: وما بُهْمًا؟ قال: ليس معهم شيء، ثم يناديهم بصوت يسمعه من بُعد كما يسمعه من قُرب: أنا الملك، أنا الديان، ولا ينبغي لأحد من أهل النار أن يدخل النار وله عند أحد من أهل الجنة حقٌ حتى أُقِصَّ منه، ولا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة ولأحد من أهل النار عنده حق حتى أُقِصَّ منه، حتى اللطمة، قال: قلنا: كيف وإنما نأتي الله عزَّ وجلَّ عِرَاءَ غِرْلًا بُهْمًا؟ قال: بالحسنات والسيئات» أخرجه أحمد والحاكم وصححه ووافقه الذهبي^(٨).

(٨) أخرجه أحمد (٤٩٥/٣)، والبخاري في الأدب المفرد (٩٧٠)، والحاثر بن أبي أسامة كما في زوائده للهيثمي (٤٤)، وابن أبي عاصم في الأحاد والمثاني (٢٠٣٤)، والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (٤٧٥/٢)، وحسنه المنذري في الترغيب (٢٠٢/٤)، والألباني في صحيح الأدب المفرد (٧٤٦)، وفي الصحيحة (١٦٠).

وهذا الحديث يدل على حرص الصحابة رضي الله عنهم على طلب العلم، والرحلة من أجل ذلك، وتلقي الأخبار من مصادرها؛ فإن جابراً رضي الله عنه كان يستطيع تحمل الحديث ممن نقله عن عبد الله بن أنيس رضي الله عنه، لكنه=

وجاء عند البزار والطبراني بإسناد حسن من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من ضرب سوطاً ظلماً اقتص منه يوم القيامة»^(٩).

ولا يقتصر القصاص على الأفعال من القتل والضرب واللطم فحسب؛ بل حتى الأقوال من السب والشتم والقذف تقع فيها الخصومات، ويقتصر للمظلوم ممن ظلمه؛ كما جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «من قذف مملوكه وهو برئ مما قال جلد يوم القيامة إلا أن يكون كما قال» رواه الشيخان^(١٠).

وأول المتخاصمين في غير الدماء جاران؛ كما جاء في حديث عقبة ابن عامر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

= رحل إليه طلباً لعلو الإسناد، وليلتقى الخبر ممن سمعه من النبي صلى الله عليه وسلم، واستغرق سيره إليه شهراً، ليس له حاجة إلا أن يسمع منه هذا الحديث!! ولذلك أخرج المحدثون هذا الحديث في الكتب التي تعنى بالعلم وطلبه والرحلة في سبيل ذلك؛ كما فعل الخطيب إذ أخرجه في كتابه (الرحلة في طلب الحديث) (٣١ - ٣٢ - ٣٣)، وفي (الجامع لأخلاق الراوي) (١٧٤٨)، وأخرجه ابن عبد البر في (بيان العلم وفضله) باب ذكر الرحلة في طلب العلم (٥٦٥) وعلقه البخاري بصيغة الجزم في كتاب العلم من صحيحه باب الخروج في طلب العلم (١٧٣/١). (٩) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (١٨٥)، وأبو نعيم في الحلية (٣٧٨/٤)، والطبراني في الأوسط واللفظ له (١٤٤٥)، وقال المنذري: أخرجه الطبراني ورواته ثقات (١٦١/٣)، وحسنه السيوطي في البدور السافرة (١٢١٧)، وذكره الألباني في السلسلة الصحيحة وحسنه (٢٣٥٢).

(١٠) أخرجه البخاري في الحدود باب قذف العبيد (٦٨٥٨)، ومسلم في الإيمان باب التغليظ على من قذف مملوكه بالزنى (١٦٦٠).

«أول خصمين يوم القيامة جاران» رواه الإمام أحمد بسند حسن^(١١). وإذا قصر الجار في حق جاره، وما يجب له عليه؛ خاصمه يوم القيامة؛ كما جاء عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال: «لقد أتى علينا زمان وما أحدٌ أحق بديناره ودرهمه من أخيه المسلم، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: كم من جار متعلق بجاره يوم القيامة يقول: يا رب، هذا أغلق بابي دوني فمنع معرفته» رواه البخاري في الأدب المفرد بإسناد حسن^(١٢).

وويل ثم ويل لمن خلف مجاهداً في أهله ثم خانه، إنه يقتص من حسناته حتى لا يبقى منها شيء؛ كما جاء في حديث بريدة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «حرمة نساء المجاهدين على القاعدين كحرمة أمهاتهم، وما من رجل من القاعدين يخلف رجلاً من المجاهدين في أهله، فيخونه فيهم إلا وقف له يوم القيامة فيأخذ من عمله ما شاء، فما ظنكم؟» رواه مسلم^(١٣). والمعنى: أنه لن يبقى من حسناته شيئاً.

(١١) أخرجه أحمد (١٥١/٤) والطبراني في الكبير (٣٠٣/١٧ - ٣٠٩) برقم: (٨٣٦ - ٨٥٢) وحسنه السيوطي في البدور السافرة (١٢١٥) ثم الألباني في صحيح الجامع (٢٥٦٣).

(١٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (١١)، وابن أبي الدنيا في مكارم الأخلاق (٣٤٦)، وحسنه الألباني في صحيحه الأدب المفرد (٨١)، وذكره في الصحيحة (٢٦٤٦).

(١٣) أخرجه سعيد بن منصور في سننه (٢٣٣١)، وعنه مسلم في الإمارة باب حرمة نساء المجاهدين وإثم من خانهم فيهن واللفظ له (١٨٩٧)، وأحمد (٥/٣٥٢)، والحميدي (٩٠٧) وأبو داود في الجهاد باب حرمة نساء المجاهدين (٢٤٩٦)، والنسائي في الجهاد باب من خان غازياً (٥١/٦).

ألا فاتقوا الله ربكم، وأدوا الحقوق إلى أهلها، واحذروا ما بينكم وبين الناس؛ فإن القصاص غداً من الحسنات والسيئات، نعوذ بالله من أن نظلم أو نُظلم، أو نجهل أو يُجهل علينا.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمَلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [النحل: ١١١].
بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم، ، ،

الخطبة الثانية

الحمد لله حمداً طيباً كثيراً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى، أحمدته وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ومن سار على نهجهم واقتفى أثرهم إلى يوم الدين.
أما بعد: فاتقوا الله - عباد الله - ومن كانت عنده مظالم فليخلص منها، وليطلب من أصحابها العفو والصفح قبل أن يُحال بينه وبين ذلك، وقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم بذلك في قوله: «من كانت عنده مظلمة لأخيه فليتحللها منها، فإنه ليس ثم دينار ولا درهم من قبل أن يؤخذ لأخيه من حسناته، فإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات أخيه فطرح عليه» رواه البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه^(١٤).

(١٤) أخرجه البخاري في الرقاق باب القصاص يوم القيامة (٦٥٣٤)، وأحمد (٢)/

والمظلمة تشمل القول والفعل من الغيبة والنميمة والشتم، والاعتداء بالضرب أو القتل أو أي نوع من أنواع الأذى، كما تعم الحقوق التي قصر فيها أصحابها، والأموال التي اقتطعوها بغير حق، والديون التي لم تقض عنهم. وكم في الناس من ظالم ومظلوم؟ وكم من حقوق ضيعت، وأموال انتهبت، ودماء سفكت بغير حق؟ وكل ذلك لن يضيع، وسيأتي أقوام يوم القيامة مفاليس مع أنهم كانوا يصلون ويزكون ويصومون، قد أفلسهم القصاص، وقضت حقوق العباد على حسناتهم^(١٥).

وسيطن أقوامٌ لهم أعمال صالحة كثيرة أنهم ينجون بأعمالهم من النار بعد رحمة الله تعالى، فإذا مظلّمهم في الدنيا قد حالت بينهم وبين النجاة؛ لكثرة ما عليهم من الحقوق.

جاء في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «تدفع للرجل صحيفة يوم القيامة حتى يرى أنه ناج فما تزال مظالم بني آدم

(١٥) دل على ذلك حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أتدرون من المفلس؟ قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، فقال: إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ويأتي وقد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا فيعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار» أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب باب تحريم الظلم (٢٥٨١)، والترمذي في صفة القيامة باب ما جاء في شأن الحساب والقصاص (٢٤١٨)، وأحمد (٣٠٣/٢).

تبعه حتى ما تبقى له حسنة ويُزاد عليه من سيئاتهم» أخرجه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي^(١٦).

إنه موقف عظيم للقضاء في الخصومات، وخلق كثير من البشر والحيوان والحشرات والهوام سيقفون أمام حكم عدلٍ جلٍّ في علاه، ينظرون في مظالمهم، فيعطي كل ذي حق حقه، كم أعدادهم؟ كم خصومهم؟ كم يكتفون للتخلص من الحقوق والمظالم؟ ومن قُضي على حسناته من أهل التوحيد فاستحق النار فدخلها كم يمكث فيها؟! كل ذلك وغيره من أحوال هذا المشهد العظيم من مشاهد الحساب لا يعلمه إلا الله تعالى.

وفي ذلك الموقف العظيم قصاص خاص بالمؤمنين، يقتص بعضهم من بعض؛ لإزالة الشحنة من قلوبهم، وتنقيتهم مما بقي عليهم؛ استعداداً لدخول الجنة، فبعد أن يردَّ المؤمنون على النار، وينجون منها بالجواز على الصراط، يُوقفون قبل دخول الجنة للقصاص، ولا يدخل أهل

(١٦) أخرجه من حديث أبي عثمان النهدي رحمه الله تعالى الحاكم وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي (٣٩/٢)، وفي آخر الحديث أن أبا عثمان رحمه الله تعالى سئل عن يحدث بهذا - يعني من الصحابة رضي الله عنهم - فقال: عن سلمان وسعد وابن مسعود ورجلين آخرين لم يحفظهما، قال شعبة: فسألت عاصماً عن هذا الحديث فحدثني عن أبي عثمان عن سلمان. اهـ.

قلت: وأخرجه من حديث أبي عثمان عن سلمان رضي الله عنهما ابن أبي شيبة في مصنفه (١٢١/٧) برقم: (٣٤٦٦٩).

الجنة الجنة إلا بعد أن تنهى مظالمهم، كما جاء في حديث أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يَخْلُصُ المؤمنون من النار فيُحبسون على قنطرة بين الجنة والنار، فيُقص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هُذِّبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة...» رواه البخاري^(١٧).

(١٧) أخرجه البخاري في الرقاق باب القصاص يوم القيامة (٦٥٣٥)، وأحمد (١٣/٣ - ٦٣ - ٧٤)، وعبد بن حميد (٩٣٥).

والظاهر من جمع النصوص في فصل القضاء بين الخلق أنه يكون مرتين، والنصوص التي جاءت في ذلك على أنواع ثلاثة:

النوع الأول: نصوص عامة لم يرد فيها متى يكون هذا القصاص؟ وما موقعه من مشاهد القيامة؟ وهل هو قبل الصراط أم بعده؟ ومن تلك النصوص:

- ١ - حديث الزبير بن العوام رضي الله عنه المخرج في هامش (١).
- ٢ - حديث أبي هريرة: «من ضرب سوطاً ظلماً..» وهو مخرج في هامش (٩).
- ٣ - حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «لتؤدن الحقوق إلى أهلها...» المخرج في هامش (٢).

٤ - حديث بريدة: «ما من رجل يخلف...» المخرج في هامش (١٣).
فهذه الأحاديث وأمثالها لم يرد في ثناياها ما يدل على موقع فصل الخصومات، وأداء الحقوق من مشاهد يوم القيامة.

النوع الثاني: نصوص يُفهم منها أن القضاء في الخصومات يكون قبل المرور على الصراط ومن ذلك:

- ١ - حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: «إذا كان يوم القيامة مُدَّت الأرض مدَّة الأديم، وحشر الله الخلائق الإنس والجن والدواب والوحوش، فإذا كان ذلك اليوم جعل الله القصاص بين الدواب حتى تقص الجماء من القرناء بنطحها، فإذا فرغ الله من القصاص بين الدواب قال لها: كوني تراباً، فتكون=

= تراباً، فيراها الكافر فيقول: يا ليتني كنت تراباً» أخرجه الحاكم وفي سنده أبو المغيرة القواس لينه سليمان التيمي وباقي رجاله ثقات كما قال الحاكم (٤/ ٥٧٥)، وله حكم الرفع؛ إذ لا مجال للرأي فيه، لكن يحتمل أن ابن عمرو رضي الله عنهما أخذه عن أهل الكتاب.

٢ - حديث الصور الطويل وقد جاء فيه ترتيب مشاهد القيامة وأن الفصل في الخصومات قبل الصراط وجاء فيه ما نصه: «ثم يقضي الله بين الثقلين الجن والإنس فيكون أول ما يقضى فيه الدماء...» ثم ذكر عدة مشاهد ثم ذكر نصب الصراط على ظهري جهنم. وهذا صريح في أن الفصل في الخصومات قبل الصراط، ولكن الحديث ضعيف أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه إسحاق بن راهويه في مسنده (١٠) والطبراني في الأحاديث الطوال (٣٦).

٣ - حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «أنا أول من يجثو للخصومة» المخرج في هامش (٧) فهذا حديث صحيح وواضح الدلالة على أن الفصل في الخصومات قبل الصراط؛ لأنه ذكر خصومته وحزمة وعبيدة بن الحارث رضي الله عنهم لشيبة وعتبة ابني ربيعة وللوليد بن عتبة، وهؤلاء قتلوا على الشرك فلا يجتازون الصراط؛ لأنهم من أهل النار.

٤ - حديث جابر بن عبد الله عن عبد الله بن أنيس رضي الله عنهم المخرج في هامش (٨) وموضع الشاهد منه قول الله عز وجل: «ولا ينبغي لأحد من أهل النار أن يدخل النار وله عند أحد من أهل الجنة حق حتى أقصه منه، ولا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة ولأحد من أهل النار عنده حق حتى أقصه منه».

فدل هذا الحديث على أن القصاص يكون قبل دخول أهل النار النار، وأهل النار من الكفار والمنافقين لا يمرون على الصراط، وإذا كان بعض أهل الكبائر من الموحدين تسقط بهم معاصيهم أثناء المرور على الصراط ليعذبوا بذنوبهم، ثم يخرجون من النار، فالكفار والمنافقون أولى بالسقوط، والأحاديث التي =

= جاءت في شأن الصراط تدل على ذلك صراحة، لا أطيل بذكرها، وقال الحافظ ابن رجب رحمه الله تعالى بعد أن ساق أحاديث الصراط: «واعلم أن الناس منقسمون إلى مؤمن يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً، ومشرك يعبد مع الله غيره، فأما المشركون فإنهم لا يميرون على الصراط، وإنما يقعون في النار قبل وضع الصراط» ١ هـ من التخويف من النار (١٨٨).

٥ - إذا جمعنا الأحاديث التي تفيد أن القصاص يوم القيامة يكون من الحسنات والسيئات مع أحاديث وزن الأعمال تبين لنا أن القصاص يكون قبل الصراط؛ لأن الميزان قبل الصراط؛ والوزن يكون للأعمال - الحسنات والسيئات - كما يكون للصالحات والعاملين، ولو كان القصاص بين الخلق بعد الميزان للزم أن يكون هناك وزن آخر؛ لأن حسنات العباد وسيئاتهم تختلف بعد القصاص عما كان قبله؛ كما دلت على ذلك أحاديث القصاص.

النوع الثالث: نصوص تنص صراحة على أن فصل القضاء يكون عقب المرور على الصراط في القنطرة بين الجنة والنار، ومن تلك النصوص: حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: «يخلص المؤمنون...» المخرج في هامش (١٧). وللجمع بين هذه الأحاديث لابد من تقرير أن الفصل في الخصومات يكون مرتين: ١ - قبل الميزان والصراط وهو فصل عام يتقاضى فيه المؤمنون والكفار والبهائم. ٢ - بعد المرور على الصراط كما في حديث أبي سعيد رضي الله عنه، ويكون خاصاً بتقاضى المؤمنين فيما بينهم.

وتقاضى المؤمنين فيما بينهم هو لأجل تهذيبهم وتنقيتهم استعداداً لدخول الجنة، ولأجل أن يزول ما في صدور بعضهم على بعض بسبب هذه المظالم والحقوق، ودليل ذلك ما جاء في بعض روايات حديث أبي سعيد من تفسير ذلك بقول الله عز وجل: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ﴾ [الحجر: ٤٧]؛ كما في رواية البخاري: حدثنا الصلت بن محمد، حدثنا يزيد بن زريع، قتلا يزيد بن زريع الآية مفسراً بها الحديث ونقل الحافظ في الفتح (٤٠٦/١١): أن=

= الإسماعيلي أخرج هذا الحديث من طريق محمد بن المنهال عن يزيد بن زريع بهذا السند إلى أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم في هذه الآية ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧] قال: «يخلص المؤمنون...» الحديث. ثم قال الحافظ: «وظاهره أن تلاوة الآية مرفوع؛ فإن كان محفوظاً احتمل أن يكون كل من رواه تلا الآية عند إيراد الحديث فاختصر ذلك في رواية الصلت ممن فوق يزيد بن زريع» اهـ وقد أخرجه الطبري في تفسيره من حديث سعيد بن أبي عروبة في هذه الآية فذكرها وذكر حديث أبي سعيد (٣٨/٤) ..

وعموماً أحاديث القصاص تدل على أن القصاص يكون من الحسنات والسيئات في كلا الموقعين: ما قبل الصراط وما بعده، ويكون القصاص الذي بعد الصراط رفعة درجات للمظلوم، ولكن ما بقي من حسنات ظالمه يدخله الجنة؛ ولذلك اجتاز الصراط، قال القرطبي رحمه الله تعالى: «فإذا خلص من خلص من هذا الصراط الأكبر الذي ذكرناه، ولا يخلص منه إلا المؤمنون الذي علم الله منهم أن القصاص لا يستنفد حسناتهم حبسوا على آخر خاص لهم، ولا يرجع إلى النار من هؤلاء أحد إن شاء الله؛ لأنهم قد عبروا الصراط الأول المضروب على متن جهنم الذي يسقط فيها من أوبقة ذنبه، وأربى على الحسنات بالقصاص جرمه» اهـ من التذكرة (٥٤/٢).

* مسألة: استشكل بعضهم كون القصاص من الحسنات، وثواب الحسنات لا يتناهى؛ بل نعيم مقيم في الجنة، بينما جزاء السيئات متناه، والعقوبة على قدر الجرم. وأجيب عن هذا الإشكال بأنه محمول على أن الذي يعطاه صاحب الحق من أصل الثواب ما يوازي العقوبة عن السيئة، وأما ما زاد على ذلك بفضل الله تعالى فإنه يبقى لصاحبه. قال البيهقي: «سيئات المؤمن على أصول أهل السنة متناهية الجزاء، وحسناته غير متناهية الجزاء؛ لأن من ثوابها الخلود في الجنة فوجه الحديث عندي - والله أعلم - أنه يعطى خصماء المؤمن المسيء من أجر =

إن من آمن بالحساب، وأيقن بعدل الله تعالى، وأنه سبحانه سيقص من الظالم للمظلوم؛ خاف ظلم الناس، وأذى الحقوق إلى أهلها، وكم في الناس من يقع في الظلم، وبخس الحقوق، ويجهل أن أفعاله من الظلم، وأكثر ما يقع ذلك بين القربات، تجد واحد منهم يتوقى حقوق الناس، ويحاسب نفسه عليها أشد المحاسبة؛ لكنه يقع في ظلم أهل بيته أو قرابته، من والد أو والدة أو زوجة أو ولد أو أخ أو أخت أو أي قريب، وذلك من أشد أنواع الظلم.

ومحاسبة النفس في كل صغير وكبير مع القريب والبعيد تقي العبد من الظلم، وتحفظ حسناته من الضياع يوم القيامة.

وإذا آمن المظلوم بفصل القضاء يوم القيامة، وأن حقه وإن ضاع في الدنيا فلن يضيع أمام الله تعالى، وأنه سيقاضي ظالمه في محكمة الرب جلّ جلاله التي لا جور فيها؛ سلى ذلك نفسه، وأذهب همه وغمه، وصبر على ظلم من ظلمه، ورجا ما عند الله تعالى؛ فما عنده سبحانه خير وأبقى.

= حسناته ما يوازي عقوبة سيئاته، فإن فنيت حسناته أخذ من خطايا خصومه فطرح عليه، ثم يعذب إن لم يعف عنه، فإذا انتهت عقوبة تلك الخطايا أدخل الجنة بما كتب له من الخلود فيها بإيمانه، ولا يعطى خصماؤه ما زاد من أجر حسناته على ما قابل عقوبة سيئاته يعني المضاعفة؛ لأن ذلك من فضل الله يختص به من وافى يوم القيامة مؤمناً والله أعلم» اهـ من فتح الباري لابن حجر (٤٠٤/١١).

فاتقوا الظلم - يا عباد الله - فإنه ظلمات يوم القيامة ، وحاذروا أن تعملوا أعمالاً صالحة كثيرة ثم تذهب إلى غيركم بسبب غيبة أو غيبة ، أو مالٍ أخذتموه بغير حق ، أو ظلم وقعتم فيه ؛ فإن السعيد في ذلك اليوم من جاء مظلوماً يستوفي من حسنات ظالميه ، وإن الشقي من كان ظالماً فأخذ من حسناته ، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من سيئاتهم فطرح عليه ثم طرح في النار ، نعوذ بالله من ذلك .
ألا وصلوا وسلموا على نبيكم ، ، ، ، ،

٢٠٠- ميزان الآخرة

١٤٢١/٦/٢٣ هـ

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلَّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ..

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١] .

أما بعد: فإن أصدق الحديث كلام الله تعالى، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها المسلمون: عندما تتمكن الشهوات من الناس تحجب عنهم نور الطاعة، وتضعف الإيمان في قلوبهم. وزماننا هذا كثرت فيه الأهواء والشهوات؛ مما يجعل المسلم يحتاج إلى أن يتذكر ويذكر بأمر الآخرة وما فيها من أهوال وحساب ونعيم وعذاب؛ حتى يصير على حذر من

الشیطان ونفسه الأماره بالسوء .

والأرض في هذا العصر قد تحيّرت^(١) بأنواع الفتن، وضجت من عظم الظلم: ظلم الأفراد بعضهم لبعض، وظلم الأمم بعضها لبعض. فَضَعَفُ الإيمان، والانغماس في الشهوات، والتنافس على الدینا كان من أسباب ظلم الأخ لأخيه، والقريب لقريبه، والجار لجاره. وتحولُ السیادة والقیادة من أمة الإسلام إلى غيرها كان سبباً في انتشار الظلم بين الدول والأمم، وأكثر الظلم في هذا العصر إنما يقع على المسلمين من قبل أعدائهم، عبر منظمات وهيئات دولية، تکیل بمکیالین، وتزن بمیزانین.

وإذا تفكر العبد في نفسه، وتذكر مصيره، وعلم أن الدنيا تزول، وأن الحساب أمامه، وأن ما عمل من عمل سيجده محضراً، وأن حسناته توزن كما توزن سيئاته؛ قاده علمه بذلك إلى اجتناب الظلم بأنواعه كلها، سواءً ظلم نفسه بالعصیان، أو ظلم غيره.

وهذا تذکیر بالحساب، والذکری تنفع المؤمنین، وحديثٌ عن میزان يوم القيامة، المذكور في كتاب الله تعالى، وحديث رسولہ محمد صلی الله علیه وسلم، وأجمع أهل السنة والجماعة على أنه میزان حسی؛ كما قال أبو إسحاق الزجاج: «أجمع أهل السنة على الإيمان بالمیزان، وأن أعمال العباد توزن يوم القيامة، وأن المیزان له لسان وكفتان، ويمیل

(١) أي: امتلأت، يقال: تحير الوادي بالماء إذا امتلأ.

بالأعمال»^(٢).

﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، ﴿وَالْوِزْنُ يُوَمَّذُ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (٨) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ٨ - ٩].

وقد دلت النصوص النبوية على أن الأعمال توزن، وتوزن صحائفها، ويوزن صاحبها.

أما وزن الأعمال فيقول النبي صلى الله عليه وسلم: «كلمتان خفيفتان على اللسان، حبيبتان إلى الرحمن، ثقيلتان في الميزان: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم» أخرجه الشيخان^(٣).

وأما وزن صحيفة العمل فقد روى عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله عز وجل يستخلص رجلاً من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة، فينشر له تسعة وتسعين سجلاً، كل سجل مد البصر، ثم يقول له: أتتكر من هذا شيئاً؟ أظلمت كتبتي الحافظون؟ قال: لا يا رب، فيقول: ألك عذر أو حسنة؟ فيئته الرجل فيقول: لا يا رب، فيقول: بلى، إن لك عندنا

(٢) فتح الباري للحافظ ابن حجر (١٣/٥٣٨).

(٣) أخرجه البخاري في الإيمان والنذور، باب إذا قال: والله لا أتكلم اليوم؛ فصلى أو قرأ أو سبح أو كبر أو حمد أو هلل فهو على نيته (٦٦٨٢)، ومسلم في الذكر والدعاء، باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء (٢٦٩٤).

حسنة واحدة ، لا ظلم عليك؛ فتخرج له بطاقة فيها: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، فيقول: أحضروه، فيقول: يا رب، ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟! فيقال: إنك لا تظلم، قال: فتوضع السجلات في كفة، فطاشت السجلات، وثقلت البطاقة، ولا يثقل شيءٌ بسم الله الرحمن الرحيم» أخرجه أحمد وصححه ابن حبان والحاكم والذهبي^(٤).
وأما وزن العامل فدل عليه حديث معاوية بن قرة عن أبيه قال: كان ابن مسعود على شجرة يجتني لهم منها، فهبت الريح وكشفت عن ساقيه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «والذي نفسي بيده لهما في الميزان أثقل من أحد»^(٥)، والكافر على العكس من ذلك ولو كان عظيماً ثقيلاً في الدنيا فإنه يخف في ميزان القيامة، قال النبي صلى الله عليه وسلم: «إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا

(٤) أخرجه أحمد واللفظ له (٢/٢١٣)، والترمذي في الإيمان باب ما جاء فيمن يموت وهو يشهد أن لا إله إلا الله، وقال: حسن غريب (٢٦٤١)، وابن ماجه في الزهد باب ما يرجى من رحمة الله يوم القيامة (٤٣٠٠)، والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (١/٥٢٩)، وصححه ابن حبان (٢٢٥)، والشيخ أحمد شاكر في شرحه على المسند (٦٩٩٤).

(٥) أخرجه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي (٣/٣١٧)، وله شاهد من حديث علي رضي الله عنه أخرجه أحمد (١/١١٤)، وأبو نعيم في الحلية (١/١٢٧)، وله شاهد آخر من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عند أبي نعيم (١/١٢٧) وصححه الشيخ أحمد شاكر في شرحه على المسند (٩٢٠)، وقال الهيثمي: رواه أحمد وأبو يعلى والطبراني ورجالهم رجال الصحيح غير أم موسى وهي ثقة (٩/٢٨٨)، وحسنه الحافظ في الإصابة (٦/٢١٧).

يزن عند الله جناح بعوضة، وقال: اقرؤوا: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: ١٠٥] متفق عليه^(٦).

قال ابن كثير رحمه الله تعالى بعد أن ذكر الآثار الدالة على وزن العمل وصحيفته وصاحبه: «وقد يمكن الجمع بين هذه الآثار بأن يكون ذلك كله صحيحاً؛ فتارة توزن الأعمال، وتارة توزن محالها، وتارة يوزن فاعلها»^(٧).

إنه لميزان عظيم! يدعو كل عاقل للتفكر في عظمتة! ميزان توزن فيه أعمال العباد كلهم من لدن آدم عليه السلام إلى آخر رجل من هذه الأمة إلا من استثنى من السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب، ومن الكفار الذين يقذفون في النار قذفاً؛ لكن خلقاً كثيراً ستوضع أعمالهم وأجسامهم وصحائفهم في الميزان لا يعلم عددهم إلا الله تعالى، فأبي عظمة لهذا الميزان الذي لا يعرف قدره ووصفه إلا خالقه وواضعه سبحانه وتعالى؟!!

وقد دل على عظمتة قول النبي صلى الله عليه وسلم: «يوضع الميزان يوم القيامة فلو وزن فيه السموات والأرض لو سعت، فتقول الملائكة: يا رب لمن وزن هذا؟ فيقول الله تعالى: لمن شئت من خلقي،

(٦) أخرجه البخاري في التفسير، تفسير سورة الكهف باب: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ [الكهف: ١٠٥] (٤٧٢٩)، ومسلم في صفة القيامة والجنة والنار (٢٧٨٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٧) تفسير ابن كثير (٢/٣٢٥)، عند تفسير الآية (٩) من سورة الأعراف.

فتقول الملائكة: سبحانك ما عبدناك حق عبادتك...» أخرجه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي^(٨).

وأثناء الوزن يؤخذ من حسنات الظالم فتجعل للمظلوم، ويكون القصاص بين العباد قال حذيفة رضي الله عنه: «صاحب الميزان يوم القيامة جبريل يرد بعضهم على بعض، قال: فيؤخذ من حسنات الظالم فترد على المظلوم، فإن لم تكن له حسنات أخذ من سيئات المظلوم فردت على الظالم»^(٩).

إن العمل الصالح مع الإيمان بالله تعالى سببٌ لثقل ميزان العبد يوم القيامة، كما أن العصيان وظلم الناس وبخسهم حقوقهم سبب لخفته، وقد نص النبي صلى الله عليه وسلم على أعمال تثقل الموازين منها: التسبيح والتحميد وذكر الله تعالى، قال عليه الصلاة والسلام: «بخ بخ بخمسة ما أثقلهن في الميزان: لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله، والحمد لله، والولد الصالح يتوفى للمسلم فيحتسبه» أخرجه أحمد وصححه الحاكم^(١٠).

(٨) أخرجه الحاكم وصححه وقال: على شرط مسلم، ووافقه الذهبي من حديث سلمان مرفوعاً (٢١١/٤)، وأخرجه موقوفاً على سلمان ابن المبارك في الزهد (٤٧٨)، والآجري في الشريعة (٨٩٤ - ٨٩٥)، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٢٢٠٨).

(٩) أخرجه اللالكائي واللفظ له (٢٢٠٩)، والطبري في تفسيره (٩١/٨).

(١٠) أخرجه أحمد (٥٤١/٣)، والنسائي في عمل اليوم والليلة (١٦٧)، وابن سعد في الطبقات (٥٨/٦)، وابن أبي عاصم في السنة (٧٨١)، والطبراني =

وقال نوح عليه السلام لابنه عند موته: «أمرك بلا إله إلا الله، فإن السموات السبع، والأرضين السبع لو وضعت في كفة، ووضعت لا إله إلا الله في كفة رجحت بهن لا إله إلا الله»^(١١).

وحسن الخلق ثقل في الميزان، قال عليه الصلاة والسلام: «ما من شيء أثقل في الميزان من الخلق الحسن»^(١٢).

وروى الشيخان من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «من احتبس فرساً في سبيل الله إيماناً بالله

= في الكبير (٣٢٨/٢٢) والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (٥١١/١)، وصححه ابن حبان (٨٣٣)، وقال الهيثمي: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح؛ كما في مجمع الزوائد (٨٨/١٠)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، ونقل تحسين البزار له (١٢٠٤).

(١١) أخرجه أحمد (١٧٠/٢ - ٢٢٥)، والبخاري في الأدب المفرد (٥٤٨)، والبيهقي في الأسماء والصفات (١٨٦)، والبزار كما في كشف الأستار (٣٠٦٩)، والحاكم وصححه (٤٨/١)، وصححه ابن كثير في البداية والنهاية (١١٩/١)، وعزاه الهيثمي للطبراني وقال: ورجال أحمد ثقات (٢٢٠/٤)، ورجح الشيخ أحمد شاكر تصحيحه في شرحه على المسند (٦٥٨٣)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٣٤)، وفي صحيح الأدب المفرد (٤٢٦).

(١٢) أخرجه من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه أحمد (٤٤٦/٦)، وأبو داود في الأدب باب في حسن الخلق (٤٧٩٩)، والترمذي في البر والصلة باب ما جاء في حسن الخلق، وقال: حسن صحيح (٢٠٠٣) وعبد بن حميد في المنتخب من مسنده (٢٠٤)، والطبراني في مسند الشاميين (٩٩٣)، وابن أبي الدنيا في التواضع والخمول (١٧٣)، والسهمي في تاريخ جرجان (٣٢١/١) برقم: (٥٧٦).

وتصديقاً بوعده فإن شبعه وريه وروثه وبوله في ميزانه يوم القيامة»^(١٣).
 والتخفيف على الخدم سببٌ لثقل الميزان كما جاء في حديث عمرو
 ابن حريث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ما خففت عن
 خادمك من عمله كان لك أجراً في موازينك» أخرجه أبو يعلى وصححه
 ابن حبان^(١٤).

ألا فاتقوا الله ربكم، وخذوا بأسباب النجاة، وأكثرُوا من الأعمال
 الصالحة؛ لتكون لكم ذخراً في الآخرة.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ (٦) ﴿فَهُوَ فِي
 عِشَةِ رَاضِيَةٍ﴾ (٧) ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ (٨) ﴿فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾ (٩) ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَ﴾
 (١٠) ﴿نَارٌ حَامِيَةٌ﴾ [القارعة: ٦ - ١١].

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم.

الخطبة الثانية

الحمد لله حمداً طيباً كثيراً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى، أحمدته
 وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا

(١٣) أخرجه أحمد (٣٧٤/٢)، والبخاري في الجهاد، باب من احتبس فرساً في
 سبيل الله تعالى (٢٨٥٣)، والنسائي في الخيل باب علف الخيل (٢٢٥/٦).
 (١٤) أخرجه أبو يعلى (١٤٧٢)، وعبد بن حميد في المنتخب من مسنده (٢٨٤)،
 وصححه ابن حبان (٤٣١٤). واختلف في راوي الحديث عمرو بن حريث
 هل له صحبة أم لا؟ فإن لم يكن له صحبة فالحديث مرسل، وهو ما رجحه
 البخاري؛ كما نقله عنه الحافظ في تهذيب التهذيب (١٧/٨)، ونقل في
 الإصابة (٦٢٠/٤) عن ابن معين وأبي حاتم أنه تابعي وحديثه مرسل.

شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهداهم إلى يوم الدين.

أما بعد: فاتقوا الله - عباد الله - فإن تقوى الله تعالى تثقل الموازين، وهي سبب للرضوان والنعيم ﴿فَمَنْ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأعراف: ٣٥].

أيها المؤمنون: في الإيمان بنشر الديوان، ونصب الميزان، دفع للمؤمنين لاكتساب الحسنات، واجتناب السيئات، والحذر من الظلم، كما أن فيه تسلية للمظلومين، وعزاء للمضطهدين من المؤمنين الذين فتنوا في دينهم، وأخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله؛ لأنهم يعلمون أنهم سيقفون مع أعدائهم أمام حكم عدل لا يظلم، وميزانه لا يبخس؛ بل يعطي كل ذي حق حقه.

ومهما زُينت موازين البشر الظالمة، التي تُرجح كفتها لمن يريدون، وتُبخس لمن لا يريدون، فإنها توشك أن تنكفى وتتحطم أمام ميزان العدل، فليصبر المظلومون، وليتب الظالمون؛ فإن القصاص سيكون من الأعمال التي تثقل الموازين.

إن الخير والشر سيوزنان، وإن مثقال الذرة والخردلة لا يضيع ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء: ٤٠]، ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧-٨].

هل يعي ذلك ويفهمه المنغمسون في المحرمات، والمسرفون على أنفسهم بالعصيان؟

هل يظهر أثر الإيمان بالقيامة وأهوالها، وميزانها وصراطها، وكل شؤونها على أكلة الربا الذين يحاربون الله ورسوله، أو مرتكبي الزنى، أو شاربي الخمر، أو الذين يتخوضون في المال الحرام، ويأكلون أموال الناس بالباطل، ويمنعون الحقوق عن أهلها أو يؤخرونها؟! والذين لن تنفعهم يوم القيامة أموالهم ولا جاههم، ولا أنسابهم ولا مكانتهم بين الناس؛ بل ربما صار ذلك وبالاً عليهم! نسأل الله العافية.

فاتقوا الله ربكم، واعملوا لآخرتكم، واسألوا الله تعالى أن يثقل موازينكم بالحسنات؛ فلقد كان من دعاء النبي صلى الله عليه وسلم إذا أخذ مضجعه للنوم أن يقول: «اللهم اغفر لي، وأخسئ شيطاني، وفك رهاني، وثقل ميزاني، واجعلني في النّديّ الأعلى»^(١٥).
ألا وصلوا وسلموا على نبيكم كما أمركم بذلك ربكم...

(١٥) أخرجه من حديث زهير الأنماري رضي الله عنه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي (١/ ٥٤٠)، والطبراني في الكبير (٢٢/ ٢٩٨) برقم: (٧٥٨ - ٧٥٩)، وفي مسند الشاميين (٤٣٥)، وابن أبي عاصم في الأحاد والمثاني (٢٨٧٨)، وأخرجه أبو داود في الأدب باب ما يقول عند النوم (٥٠٥٤) دون جملة: «وثقل ميزاني».

٢٠١- الشهود على العبد في القيامة

الجمعة ١٧/٨/١٤١٧هـ

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران] ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧١)﴾ [الأحزاب].

أما بعد: فإن أصدق الحديث كلام الله تعالى، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها الإخوة المؤمنون: في هذه الأيام والناس يعيشون هموم أولادهم في قطف ثمار جهدهم خلال أشهر مضت. والإعلام يُعنى بهذا الأمر الذي أهتم الناس كلهم، فيطرح الدراسات والبحوث التربوية، وتُسمع منه التوجيهات والنصائح والوصايا في كيفية التعامل مع هذه الأجواء المشحونة بالهم والقلق. فإن هذا مثالٌ مصغرٌ للعالم والعمل

فيها ثم الموت والبعث والحساب، مع البعد في المثالين، والفرق الكبير بين الحالين. فليس حسابُ البشر فيما بينهم كحساب رب العالمين للبشر، وليس كتابُ الدنيا الذي يضيع منه الكثير ككتاب ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ [الكهف: ٤٩].

إن العبرة تؤخذ من مرور الأيام سراعاً على المحسن والمفرط معاً، فما يكادُ عامٌ يبتدئُ إلا وينتهي، وما يولي رمضان إلا ويأتي آخر، والناس عن الآخرة غافلون. وما يجري في هذه الأيام ونتائجها فيه موعظةٌ وتذكير لمن كان قلبه أهلاً للمواعظ والتذكير، فكما أن البسمة والبشرى ستشرق بها وجوهُ المجددين والعاملين؛ ينطلقون مسرورين بين الناس بنتائج عملهم. والندامة والحسرة تُقطع قلوبَ المفرطين، فإن ما هو أعظم من ذلك سيكون في الحساب الأكبر عند رب العالمين، حينما توصل أبوابُ التوبة، وتنقطع أعمالُ العباد، ويشرع في الحساب. حينما ينصب الميزان، وينشر الديوان؛ سيفرح أقوام بتقواهم وصلاحهم، وأعمالهم ورحمة ربهم، وسيندم آخرون على كفرهم وعصيانهم، يقطعهم البكاء من غضب ربهم عليهم.

يجتاز المؤمنون الحساب وكأنهم لا يصدقون أن رحمة الله تعالى قد شملتهم؛ لما في قلوبهم من خوف مكره وخشيته. ويؤمر بالمكذبين إلى السعير فلم ينفعهم ما شيدوا في الدنيا من عمران، ولا ما خلفوا من أولاد وأموال ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بِاسِرَّةٍ (٢٤) تَنْظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ (٢٥)﴾ [القيامة] ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ

مُسْفَرَةٌ (٣٨) ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ (٣٩) وَوَجْوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (٤٠) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ (٤١) أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجَرَةُ (٤٢) ﴿[عبس].

أيها الإخوة: والحديث عن ذلك اليوم يطول؛ لكثرة ما فيه من حساب، وعظيم ما يتضمنه من أحداث، وهذا حديث عن جزء منه: عن الشهود الذين يشهدون على عمل الإنسان في الدنيا، هؤلاء الشهود الذين كثروا وتنوعوا. منهم أهل الشرف والفضل: الملائكة والمرسلون، ومنهم من لا ينطق إنما يُنطقه الله تعالى كالحجر والشجر والأرض، منهم القريب من العبد كأهله وعشيرته، بل منهم ما هم أقرب ما يكونون إليه: جسده وأعضاؤه.

وأشرف هؤلاء الشهود وأصدقهم رب العالمين جل جلاله ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْرُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٦١)﴾ [يونس: ٦١] ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ (٩٨)﴾ [آل عمران].

والملائكة يشهدون بصدق الأنبياء عليهم السلام، ويشهدون على أعمال العباد ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا (١٦٦)﴾ [النساء] ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ (٥١)﴾ [غافر]، قال مجاهد: «هم الملائكة» (١) ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَها سَائِقٌ وَشَهِيدٌ (٢١)﴾

(١) أخرجه عن مجاهد أبو الشيخ كما في الدر المنثور (٣٥٢/٥) وانظر: البدور السافرة في أحوال الآخرة للسيوطي (٢٨٨).

[ق] أي: ملك يسوقه إلى المحشر، وملك يشهد عليه بأعماله^(٢).
 وأمة محمد صلى الله عليه وسلم تشهد على سائر الأمم، ورسول
 الله صلى الله عليه وسلم يشهد على أمته، عن أبي سعيد الخدري رضي
 الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يجيء النبي ومعه
 الرجلان، ويجيء النبي ومعه الثلاثة، وأكثر من ذلك وأقل، فيقال له:
 هل بلغت قومك؟ فيقول: نعم، فيُدعى قومه، فيقال: هل بلغكم؟ فيقولون:
 لا، فيقال: من شهد لك؟ فيقول: محمد وأمته، فتدعى أمة محمد فيقال:
 هل بلغ هذا؟ فيقولون: نعم، فيقول: وما علمكم بذلك؟ فيقولون: أخبرنا
 نبينا بذلك أن الرسل قد بلغوا فصدقناه، قال: فذلكم قوله تعالى ﴿وَكَذَلِكَ
 جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾
 [البقرة: ١٤٣] أخرجه البخاري وأحمد^(٣)، ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا
 عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ﴾ [النحل: ٨٩] ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا
 إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾ [المزمل].
 وهذه الشهادة أبكت النبي صلى الله عليه وسلم كما أخرج الشيخان
 من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله

(٢) تفسير ابن كثير (٤/٣٤٧).

(٣) أخرجه البخاري في تفسير القرآن سورة البقرة باب ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا
 لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ (٤٤٨٧) وأحمد (٣/
 ٥٨) والنسائي في السنن الكبرى (٦/٢٩٢) والترمذي في التفسير باب ومن
 سورة البقرة (٢٩٦١) وابن ماجه في الزهد باب صفة أمة محمد صلى الله
 عليه وسلم (٤٢٨٤).

صلى الله عليه وسلم: «اقرأ علي القرآن»، قلت: يا رسول الله، أقرأُ عليك وعليك أنزل؟ قال: «إني أشتهد أن أسمع من غيري»، فقرأت عليه سورة النساء حتى بلغت ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيداً﴾ (٤١) [النساء: ٤١] فغمزني برجله، فإذا عيناه تذرفان^(٤).

والكفار يشهدون على أنفسهم بكفرهم ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ (١٣٠) [الأنعام].

ويُعَيَّر الكافر يوم القيامة بعمله، فإذا أنكر شهد عليه قرابته وجيرانه حتى يشهد عليه لسانه فيعترف أنه كفر، قال عليه الصلاة والسلام: «إذا كان يوم القيامة عَيَّرَ الكافر بعمله فجحد وخاصم، فيقال له: جيرانك يشهدون عليك، فيقول: كذبوا، فيقال: أهلك وعشيرتك، فيقول: كذبوا، فيقال: احلفوا، فيحلفون، ثم يصمتهم الله ويُشهد عليهم ألسنتهم، فيدخلهم النار» أخرجه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي^(٥).

وَيُنْطِقُ اللهُ الْأَعْضَاءَ فَتَتَكَلَّمُ وَتَشْهَدُ، ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ

(٤) أخرجه البخاري في فضائل القرآن باب البكاء عند قراءة القرآن (٥٠٥٥) ومسلم في صلاة المسافرين باب فضل استماع القرآن.. (٨٠٠) والترمذي في التفسير باب ومن سورة النساء (٣٠٢٤).

(٥) أخرجه أبو يعلى (١٣٩٢) والحاكم وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي (٦٠٥/٤) وعزاه الهيثمي لأبي يعلى وقال: إسناده حسن على ضعف فيه، انظر: مجمع الزوائد (٢٨٩/١).

وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ [النور] ﴿يَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [يس] ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا لَجُلُودُهُمْ لَمْ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقْنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَرْوْنَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنْنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنْنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [فصلت].

روى مسلم من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فضحك، فقال: «هل تدرون ممّ أضحك؟ قال: قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: من مخاطبة العبد ربه، يقول: يارب ألم تجرني من الظلم؟ قال: فيقول: بلى، قال: فيقول: فإني لأجيز على نفسي إلا شاهداً مني، قال: فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك شهيداً وبالكرام الكاتبين شهوداً، قال: فيُختم على فيه، ويُقال لأركانه: انطقي، قال: فتتطقُ بأعماله، قال: ثم يخلى بينه وبين الكلام قال: فيقول: بعداً لَكُنَّ وسحقاً فعنكن كنت أناضل» (٦).

وكما تشهد الجوارح على العبد بالمعصية تشهد له بالطاعة، عن يُسَيْرَةِ رضي الله عنها - وكانت إحدى المهاجرات - قالت: قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم: «عليكن بالتسبيح والتهليل والتقدیس

فاعقدن بالأنامل فإنهن مسؤولات ومستنطقات» أخرجه أبو داود والترمذي^(٧).

والأرض وما عليها تشهد بالطاعة والمعصية قال أبو هريرة رضي الله عنه: قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ [الزلزلة] قال: «أتدرون ما أخبارها؟» قالوا: الله ورسوله أعلم! قال: «فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد أو أمة بما عمل على ظهرها تقول: عمل كذا وكذا في يوم كذا وكذا فهذه أخبارها» أخرجه أحمد والترمذي وقال: حسن صحيح^(٨).

وفي صحيح البخاري عن أبي سعيد أنه قال لعبدالرحمن بن أبي صعصعة: «إني أراك تحب الغنم والبادية، فإذا كنت في غنمك وباديتك

(٧) أخرجه أبو داود في الوتر باب التسييح بالحصى (١٥٠/١) والترمذي في الدعوات باب فضل التسييح والتهليل والتقديس (٣٥٨٣) وأحمد (٣٧٠/٦-٣٧١) وابن أبي شيبة في مصنفه (٣٨٩/١٠) والطبراني في الكبير (٧٤/٢٥) برقم (١٨٠-١٨١) وعبد بن حميد في المنتخب من مسنده (١٥٨٠) وصححه ابن حبان (٨٤٢) والحاكم ووافقه الذهبي (٥٤٧/١).

(٨) أخرجه الترمذي في صفة القيامة والرفائق والورع وقال: هذا حديث حسن غريب (٢٤٢٩) وأخرجه في كتاب تفسير القرآن وقال: هذا حديث حسن صحيح بنفس إسناده الأول (٣٣٥٣) والنسائي في الكبرى في التفسير (٥٢٠/٦) وأحمد (٤٩٥/٢) والحاكم وصححه وتعقبه الذهبي بأن في إسناده يحيى بن أبي سليمان وهو منكر الحديث كما قال البخاري (٥٣٢/٢) والبخاري في شرح السنة وقال: هذا حديث حسن غريب (٤٣٠/٨) والبيهقي في شعب الإيمان ونقل عن أحمد قوله: فهذا أصح من رواية رشدين بن سعد، ورشدين ضعيف (٤٦٤/٥).

فأذنت بالصلاة فارفع صوتك بالنداء؛ فإنه لا يسمع مدى صوت المؤذن جنٌ ولا إنسٌ ولا شيءٌ إلا شهد له يوم القيامة. قال أبو سعيد: سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم»^(٩) وقال النبي عليه الصلاة والسلام: «المؤذن يغفر له مدى صوته ويشهد له كل رطب ويابس»^(١٠). والحجرُ الأسود يشهد لمن استلمه إيماناً واحتساباً قال النبي عليه الصلاة والسلام: «ليأتين هذا الحجرُ يوم القيامة وله عيان يبصر بهما ولسانٌ ينطق به يشهد على من استلمه بحق» أخرجه الترمذي وحسنه والحاكم وصححه^(١١).

والمالُ الحرام يشهد على صاحبه يوم القيامة، أخرج البخاري ومسلم في حديث طويل وفيه قوله صلى الله عليه وسلم «... وإن هذا المال خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ، فَنَعَمْ صَاحِبُ الْمُسْلِمِ مَا أُعْطِيَ مِنْهُ الْمَسْكِينُ وَالْيَتِيمُ وَابْنُ

(٩) أخرجه مالك (٦٩/١) وأحمد (٤٣/٣) والبخاري في الأذان باب رفع الصوت بالنداء (٦٠٩) وابن خزيمة في صحيحه (٢٠٣/١).

(١٠) أخرجه أحمد واللفظ له (٤١١/٢) وأبو داود في الصلاة باب رفع الصوت بالأذان (٥١٥) والنسائي في الأذان باب رفع الصوت بالأذان (١٣/٢) وابن ماجه في الأذان باب فضل الأذان وثواب المؤذن (٣٩٠) وصححه ابن حبان (١٦٦٤).

(١١) أخرجه أحمد (٢٦٦/١) وأبو يعلى (٢٧١٩) والترمذي في الحج باب ما جاء في الحجر الأسود وصححه (٩٦١) وابن ماجه في المناسك باب استلام الحجر (٢٩٤٤) والدارمي (٦٣/٢) وأبو نعيم في الحلية (٢٤٣/٦) وصححه ابن خزيمة (٢٧٣٦) وابن حبان (٣٧١١) والحاكم وقال: على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبي (٤٥٧/١)، ومعنى قوله: «استلمه بحقه» أي: إيماناً واحتساباً، انظر: تحفة الأحوذى (٣٥/٤).

السبيل.. وإنه من يأخذه بغير حقه كالذي يأكل ولا يشبع، ويكون شهيداً عليه يوم القيامة» (١٢).

أيها الإخوة: هذه جملة من الشهود على العبد يوم القيامة جاء بها الكتاب والسنة، فعسى أن تكون شهوداً لنا لا علينا.
أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ (٨٤) [النحل] بَارَكَ اللَّهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ...

الخطبة الثانية

الحمد لله، حمداً طيباً كثيراً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى،
وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده
ورسوله صلى الله وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجهم
واقتنى أثرهم إلى يوم الدين.
أما بعد: فاتقوا الله - عباد الله - فتقوى الله تعالى أمانٌ في الدنيا،
وأُنيسٌ في القبر، واجتيازٌ في الحساب، وفوزٌ بالجنات ورضى الرحمن.
أيها الإخوة المؤمنون: علمنا وأيقنا أن الجمار في الحساب يشهد،
والأعضاء تنطق، فسبحان من أنطقها! وسبحان من ختم على الأفواه
فلا تتكلم! ﴿قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [فصلت: ٢١].

(١٢) أخرجه البخاري في الزكاة باب الصدقة على اليتامى في حديث طويل (١٤٦٥) ومسلم في الزكاة (١٢٣).

إن هذا لمن الدلائل على قدرة الله العظيم فهل يُعصى وهو بهذه القدرة والعظمة؟! ﴿قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ﴾ (١٧) [عبس].

إن أصحاب النزعات الإلحادية، ومؤلهي المادة، يشككون في ذلك؛ لأن عقولهم لا تدركه، وما عقولهم الصغيرة بجانب عظمة الله تعالى وقدرته؟!

إن أقواماً من بني جلدتنا، ويتكلمون بالسنتنا ممن تلقوا ثقافاتٍ أو فلسفاتٍ شرقية أو غربية فسدت بها قلوبهم، وانحرفت عقولهم؛ فظنوا أنهم بتحررهم من الإسلام، وتشكيكهم في أخبار اليقين، وتكذيبهم لنصوص رب العالمين؛ ظنوا أنهم يتقدمون بذلك.

ربما كتبوا مقالة في صحيفة، أو ألقوا حديثاً في إذاعة، أو نشروا صورة في شاشة، فيها تصريح أو تلميح، بتكذيب أو تشكيك في ثوابت المسلمين ومُسلّماتهم من أخبار القبور، وأحوال البعث والنشور، ومشاهد الحساب والجزاء وغير ذلك؛ مما يُظهر ردتهم ونفاقهم، يقولون: كيف تنطق الأرض؟ وكيف تتكلم الأعضاء وهي جمادات؟ وما علموا أن حال الدنيا ليس كحال الآخرة، وأن الذي أنطق الألسن قادر على أن ينطق غيرها؟ ولكنهم لا يعقلون. تبا لهم كيف يجترئون على الله تعالى ويشككون في قدرته؟

لكن أهل الإيمان واليقين يؤمنون بأن ذلك حقٌ أخبر عنه رب العالمين، ورسوله الأمين صلى الله عليه وسلم، فظهر أثر ذلك الإيمان بتلك الحقائق عليهم في عبادتهم وأخلاقهم، فلا يقولون بالسنتهم إلا

حقاً؛ لأنهم يؤمنون أنها ستشهد عليهم. لا يسمعون حراماً، ولا يبصرون فحشاً، ولا يمشون في معصية؛ لأنهم مؤمنون أن أعضاءهم ستنتطق بما عملوا.

أما الذين يحاربون الإسلام وعلماءه ودعاته بأقلامهم، ويتأكلون بالنيل من الإسلام وأهله، ويزعمون أنهم يدافعون عن الإسلام بإيذاء الصالحين منهم؛ فيفرون الكلمة، ويشتون الشمل، ويضعفون الأمة، فبعداً لهم وساء ما يقولون!!

ماذا يصنعون حينما تنطق الشهود عليهم، وتظهر نفاقهم... ﴿فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة].

فاتقوا الله ربكم، وسخروا أعضاءكم في طاعة الله تعالى، فيا لَسعادة من شهدت له أعضاؤه وداره وأرضه وأهله وجيرانه بالطاعة. ويا شقاء من سخر أعضاءه في المعصية، وملاً داره بالمنكرات والموبقات وأسلم أولاده إليها، سوف تشهد عليه بما عمل وسوف يُسأل عن رعيته الذين أضاعهم وأسلمهم للشهوات والشيطان، نعوذ بالله من حاله، ونعوذ بالله أن نكون من الجاهلين.

اللهم استعملنا في طاعتك، واجعل الشهود في القيامة لنا لا علينا، إنك سميع مجيب ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

٢٠٢- صراط الآخرة

الجمعة ٢٥ / ٥ / ١٤١٨ هـ

الحمد لله؛ ﴿ خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [الملك: ٢] أحمده وأشكره وأتوب إليه وأستغفره ﴿ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (٧٠) [القصص].

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له؛ رب العالمين، ومليك يوم الدين، وجامع الناس ليوم لا ريب فيه.

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله؛ صاحب اللواء المعقود، والحوض المورود، والمقام المحمود. أول من يبعث من قبره، وأول من يجوز الصراط، وأول من تفتح له الجنة، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه؛ كانوا في عبادة ربهم بدوراً سافرة، وفي جبين التاريخ صورة ناصعة، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فيا عباد الله اتقوا الله تعالى حق التقوى، وتقربوا إليه بما يحب ويرضى؛ فإن من ورائكم أياماً يشيب من هولها الوليد، ويظير صواب اللبيب. أيامٌ تذهل فيها المراضع عن مراضعها، وتضع الحوامل حملها، ﴿ وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ [الحج: ٢].

أيها الإخوة المؤمنون: الحديث عن القيامة وأحوالها يُذكر المؤمن أصل مبتداه، ويخبره علم منتهاه. يتيقن أن البعث كائن لا محالة، وأن الحساب واقع لا بد منه، وأن الجزاء على الأعمال ما منه مهرب

ولا مفر؛ فيقوده ذلك إلى المسابقة في ميدان الأعمال الزاكيات، والتزود من الباقيات الصالحات، والخوف من الموبقات وسائر المحرمات، مع الدعاء دائماً بالثبات على ذلك؛ إذ إن ذلك هو الصراط المستقيم الذي من حقق المسير عليه في الدنيا تحققت له النجاة من النار بعبور صراط الآخرة الموصل إلى دار النعيم. ذلك الجسر المنصوب على متن جهنم، ينصب عقب العرض والحساب والصحف والميزان^(١).

وصف هذا الصراط هو ما جاء في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «...ثم يؤتى بالجسر فيُجعل بين ظهري جهنم»، قلنا: يا رسول الله، وما الجسر؟ قال: «مدحضة مزلة، عليه خطاطيف وكلايب مفلطحة، لها شوكة عقيفاء تكون بنجد يقال لها: السعدان...» أخرجه البخاري^(٢) وفي صحيح مسلم قال أبو سعيد: «بلغني أن الجسر أدق من الشعر وأحد من السيف»^(٣). وقد جاء في وصفه «أن في حافتيه كلايب معلقة مأمورة بأخذ من أمرت به وأن هذه الكلايب مثل شوك السعدان»^(٤).

(١) انظر: الحياة الآخرة ما بين البعث إلى دخول الجنة أو النار للدكتور غالب بن علي عواجي (١٢٦٣/٢).

(٢) أخرجه البخاري في التوحيد باب قوله تعالى ﴿وَجُودٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ (٢٢) إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ (٢٢) [القيامة] (٧٤٣٩) ومسلم في الإيمان باب معرفة طريق الرؤية (١٨٣).

(٣) انظر: صحيح مسلم كتاب الإيمان باب معرفة طريق الرؤية (١٧١).

(٤) وذلك في رواية أبي هريرة عند البخاري في الأذان باب فضل السجود (٨٠٦) ومسلم في الإيمان باب معرفة طريق الرؤية (١٨٢).

وجاء في وصف هذه الكلايب أنها ضخمة جداً؛ حتى قال النبي صلى الله عليه وسلم: «غير أنه لا يعلم قدر عِظَمِهَا إلا الله تعالى»^(٥).
 واتباع الشهوات في الدنيا سبب للوقوع في شرك تلك الكلايب، قال القاضي أبو بكر ابن العربي رحمه الله تعالى: «هذه الكلايب هي الشهوات المشار إليها في الحديث «حفت النار بالشهوات» قال: فالشهوات موضوعة على جوانبها فمن اقتحم الشهوة سقط في النار لأنها خطاطيفها» اهـ^(٦).

ولعظيم أمر الأمانة والرحم فإن لهما شأنًا عظيمًا على الصراط في ذلك اليوم، فقد جاء في حديث حذيفة: «وترسل الأمانة والرحم فيقومان جنبتي الصراط يميناً وشمالاً»^(٧)، قال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى: «والمعنى: أن الأمانة والرحم لعظم شأنهما، وفخامة ما يلزمُ العباد من رعاية حقهما؛ يوقفان هناك للأمين والخائن والمواصل والقاطع، فيحاجان عن المحق ويشهدان على المبطل» اهـ^(٨)

وإذا نصب الصراط على متن جهنم بأوصافه من الحِدَّة والدقة، وبما فيه من الكلايب والخطاطيف، لم يبق إلا أن يمر الناس عليه. ومن شرف هذه الأمة أنها أول الأمم مروراً على الصراط يُقدَّمها رسول

(٥) كما في رواية أبي هريرة رضي الله عنه في البخاري كتاب الرقاق باب الصراط جسر جهنم (٦٥٧٣).

(٦) فتح الباري (١١/٤٦١).

(٧) أخرجه مسلم في الإيمان باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها (١٩٥).

(٨) فتح الباري (١١/٤٦١).

الله صلى الله عليه وسلم كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي عليه الصلاة والسلام: «... ويضرب الصراط بين ظهري جهنم فأكون أنا وأمتي أول من يُجيز»^(٩)، ثم تتبعهم سائر الأمم.

أما سرعة سيرهم على الصراط فهي بقدر أعمالهم، تختلف أحوال المارين عليه باختلاف أعمالهم في الدنيا. ولشدة الظلام على الصراط، وكونه مزلة مدحضة يحتاج المارون عليه إلى النور، فيقسم بينهم النور على قدر أعمالهم في الدنيا. فمنهم من يكون نوره قوياً عظيماً لصلاح أعماله في الدنيا، ومنهم من يكون نوره خافتاً، ومنهم من نوره يضيء تارة وينطفئ أخرى؛ إذا أضاء مشى وإذا انطفأ توقف؛ كما جاء في حديث ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «... فيعطون نورهم على قدر أعمالهم، قال: فمنهم من يعطى نوره مثل الجبل بين يديه، ومنهم من يعطى نوره فوق ذلك، ومنهم من يعطى نوره مثل النخلة بيمينه، ومنهم من يعطى دون ذلك بيمينه، حتى يكون آخر ذلك من يعطى نوره على إبهام قدمه يضيء مرة ويُطفئ مرة؛ فإذا أضاء قدمه، وإذا أطفئ قام فيمر، ويمرون على الصراط، والصراط كحد السيف دحضٌ مزلة فيقال: انجوا على قدر نوركم، فمنهم من يمر كإنقضاض الكوكب، ومنهم من يمر كالطرف، ومنهم من يمر كالريح، ومنهم من يمر كشدة الرجل ويرمل رَمَلاً، فيمرون على قدر أعمالهم حتى يمر الذي نوره على إبهام قدمه قال: يَجْرُ يداً ويعلق يداً، ويجر

(٩) أخرجه مسلم في الإيمان باب معرفة طريق الرؤية (١٨٢).

رجلاً ويعلق رجلاً وتَضْرِبُ جوانبه النار، قال: فيخلصوا، فإذا خلصوا قالوا: الحمد لله الذي نجانا منك بعد الذي أُراناك، لقد أعطانا الله ما لم يعط أحداً» أخرجه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي^(١٠).

وقد جاء في نصوص أخرى أن منهم من يمر كالخيل، ومنهم من يمر كالطير، ومنهم من يمر كالإبل، ومنهم من يحبو حبواً، ومنهم من يزحف زحفاً، وتأخذ النار منهم بذنوب أصابوها حتى يجتازوا جهنم^(١١)، ومنهم من يسقط في جهنم.

قال ابن أبي جمرة رحمه الله تعالى: «يؤخذ منه أن المارين على الصراط ثلاثة أصناف: ناج بلا خدوش، وهالكٌ من أول وهلة، ومتوسط بينهما يصاب ثم ينجو، وكل قسم منهم ينقسم أقساماً تعرف بقوله: «بقدر أعمالهم» اهـ^(١٢)، إلا الكفار والمنافقين فإنهم لا يجتازون.

أما الكفار فإنهم يقذفون في جهنم قذفاً قبل الصراط قال الحافظ ابن رجب رحمه الله تعالى: «واعلم أن الناس ينقسمون إلى مؤمنٍ يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً، ومشرِكٍ يعبد مع الله غيره. فأما المشركون فإنهم لا يمرون على الصراط، وإنما يقعون في النار قبل وضع الصراط» اهـ^(١٣).

(١٠) أخرجه الحاكم وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه بهذا اللفظ ووافقه الذهبي (٤٠٨/٢).

(١١) انظر: فتح الباري (٤٦١/١١) والبدور السافرة للسيوطي (٣٤٢).

(١٢) فتح الباري (٤٦٣/١١).

(١٣) التخويف من النار لابن رجب (١٧١).

وقد جاء في حديث أبي سعيد رضي الله عنه قول النبي صلى الله عليه وسلم «... ينادي مناد: ليذهب كل قوم إلى ما كانوا يعبدون، فيذهب أصحاب الصليب مع صليبيهم، وأصحاب الأوثان مع أوثانهم، وأصحاب كل آلهة مع آلهتهم؛ حتى يبقى من كان يعبد الله من بر أو فاجر وغُبرات من أهل الكتاب، ثم يؤتى بجهنم تُعرض كأنها سراب، فيقال لليهود: ما كنتم تعبدون؟ قالوا: كنا نعبد عزيراً ابن الله، فيقال: كذبتُم لم يكن لله صاحبة ولا ولد، فما تريدون؟ قالوا: نريد أن تسقينا، فيقال: اشربوا؛ فيتساقطون، حتى يبقى من كان يعبد الله من بر أو فاجر، فيقال لهم: ما يحبسكم وقد ذهب الناس؟ فيقولون: فارقناهم ونحن أحوج منا إليه اليوم، وإناسمنا منادياً ينادي: ليلحق كل قوم بما كانوا يعبدون، وإنما نتظر ربنا. قال: فيأتيهم الجبار في صورة غير صورته التي رآوه فيها أول مرة، فيقولون: أنت ربنا، فلا يكلمه إلا الأنبياء، فيقول: هل بينكم وبينه آية تعرفونه؟ فيقولون: الساق، فيكشف عن ساقه، فيسجد له كل مؤمن، ويبقى من كان يسجد لله رياء وسمعة، فيذهب كيما يسجد فيعود ظهره طبقاً واحداً، ثم يؤتى بالجسر فيجعل بين ظهري جهنم» (١٤).

وأما المنافقون فكما أنهم كانوا يخادعون الله تعالى في الدنيا فإن الله يخادعهم يوم القيامة ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢]

(١٤) أخرجه البخاري في التوحيد باب قول الله تعالى ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ (٢٢) إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ ﴿٢٢﴾ [القيامة] (٧٤٣٩).

فلا يعطون من النور شيئاً، وإذا أعطي بعضهم حينما تقسم الأنوار بين المؤمنين؛ فإن نور المنافقين ينطفئ عند السور فلا يَمرون^(١٥).

وحينما يرى المؤمنون انطفاء نور المنافقين يخافون انطفاء نورهم فيلهجون بالدعاء قائلين ﴿رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا﴾ [التحريم: ٨] ويصيح المنافقون مناديين للمؤمنين أن يعطوهم من نورهم ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾ [الحديد: ١٣] فيرجع المنافقون إلى المكان الذي قسم فيه النور فلا يجدون شيئاً وهذه خدعة الله لهم؛ فيرجعون مرة أخرى إلى المؤمنين ﴿فَضْرَبَ بَيْنَهُمْ سُورًا لَّهُ بِابٍ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ (١٣) يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ (١٤) قَالِيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٥)﴾ [الحديد].

أسأل الله تعالى أن يتمم لنا نورنا في ذلك الموقف، وأن يثبت أقدامنا على الصراط، وأن يثقل موازيننا بالحسنات، وأن يعطينا كتبنا بالإيمان؛ إنه سميع مجيب.

(١٥) المسألة هنا خلافية، قيل: إنهم لا يعطون من النور أصلاً وهو منقول عن أبي أمامة رضي الله عنه، والرأي الآخر أنهم يعطون فالمؤمن يبقى نوره أما المنافق فينطفئ نوره وهو المنقول عن ابن عباس رضي الله عنهما، وانظر: التخويف من النار (١٧٢) والحياة الآخرة (١٢٥٨/٢).

وأقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم فاستغفروه إنه هو الغفور
الرحيم...

الخطبة الثانية

الحمد لله، حمداً طيباً كثيراً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى،
أحمده وأشكره وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده
لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله وسلم وبارك
عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فاتقوا الله - عباد الله - واثبتوا على الصراط المستقيم
في الدنيا؛ فإن جزاء الثبات عليه الثبات على صراط الآخرة، ومجاوزته
إلى الجنة. لذا كان المسلم في يومه وليلته يسأل الله الهداية إليه سبع
عشرة مرة على الأقل ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ [الفاتحة].

قال الرازي رحمه الله تعالى: «وإنما قال: الصراط، ولم يقل السبيل
ولا الطريق وإن كان الكل واحداً ليكون لفظ الصراط مذكراً بصراط
جهنم، فيكون الإنسان على مزيد خوف وخشية» اهـ^(١٦).

أيها الإخوة المؤمنون: الصراط مرحلة عظيمة من مراحل القيامة،
من جازه جاز إلى الجنة. ممرٌ رهيب؛ أحده من السيف، وأدق من
الشعرة، ومع ذلك فهو زلق لا تثبت الأقدام عليه إلا من ثبته الله تعالى.
وإذا نظر المؤمن نظرة محاسبة لنفسه ثم سألها هل تثبت قدمه على
الصراط وهو بهذا الوصف الخطير؟! ثم إذا ثبت فهل ينجو من الكلايب

(١٦) التفسير الكبير للرازي (١/٢٥٧).

والخطاطيف التي تخطف من أمرت بخطفه قاده ذلك إلى الخشية والتقوى؟! إنه والله لموقف مخيف لمن تأمل حق التأمل؛ ولذا فإنه لا يتكلم أحد في ذلك الموقف إلا الأنبياء عليهم السلام يدعون لأقوامهم بالسلامة والنجاة، قال النبي عليه الصلاة والسلام: «... فأكون أول من يجوز من الرسل بأمته ولا يتكلم يومئذ أحد إلا الرسل، وكلام الرسل يومئذ: اللهم سلم سلم»^(١٧).

أيها الإخوة: هناك أعمالٌ صالحة تكون سبباً للنور واجتياز الصراط، كما أن من الأعمال السيئة ما يكون سبباً للظلمة وعدم الاجتياز. فمن أسباب النور في ذلك الموقف: المحافظة على الصلوات في المساجد قال النبي عليه الصلاة والسلام: «بشر المشائين في الظُّلُم إلى المساجد بالنور التام يوم القيامة»^(١٨)، وفي المقابل فإن المضيعين للصلاة في الدنيا يفقدون النور في ذلك الموقف، كما روى عبدالله ابن عمرو عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه ذكر الصلاة يوماً فقال: «من حافظ عليها كانت له نوراً وبرهاناً ونجاة يوم القيامة، ومن لم يحافظ عليها لم يكن له نور ولا برهان ولا نجاة، وكان يوم القيامة مع قارون

(١٧) كما في حديث أبي هريرة المتقدم عند البخاري وغيره.

(١٨) أخرجه أبو داود في الصلاة باب ما جاء في المشي إلى الصلاة في الظلم (٥٦١) والترمذي في الصلاة باب ما جاء في فضل العشاء والفجر في الجماعة، (٢٢٣) والبيهقي في الكبرى (٤٩٧٧) والبخاري في شرح السنة (٣٥٨/٢) كلهم من حديث بريدة رضي الله عنه، وأخرجه ابن ماجه في المساجد والجماعات باب المشي إلى الصلاة (٧٨١) والحاكم وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي (٢١٢/١) من حديث أنس رضي الله عنه.

وهامان وفرعون وأبي بن خلف» أخرجه أحمد وصححه ابن حبان^(١٩).
ومن طال عمره في الإسلام فقد بُشِّرَ بالنور يوم القيامة قال النبي
عليه الصلاة والسلام: «من شاب شية في الإسلام كانت له نوراً يوم
القيامة» أخرجه أحمد والترمذي وقال: حسن صحيح^(٢٠).
وكذا من رمى في سبيل الله، قال النبي عليه الصلاة والسلام:
«من رمى بسهم في سبيل الله كان له نور يوم القيامة»^(٢١).

(١٩) أخرجه أحمد (١٦٩/٢) والدارمي (٣٠١/٢) والطحاوي في شرح مشكل
الآثار (٣١٨٠) والطبراني في الأوسط (١٧٦٧) وصححه ابن حبان (١٤٦٧)
وقال الهيثمي: رجال أحمد ثقات (١٩٢/١) وصححه الشيخ أحمد شاكر
في شرحه على المسند (٦٥٧٦).

(٢٠) أخرجه من حديث أبي نجيع السلمى أحمد (٣٨٦/٤) والترمذي في فضائل
الجهاد باب ما جاء في فضل من شاب شية في سبيل الله وقال: حسن صحيح
(١٦٣٥) والنسائي في الجهاد باب ثواب من رمى بسهم في سبيل الله عز وجل (٦/
٢٦) وصححه ابن حبان (٢٩٨٤) والبيهقي في الكبرى (٢٧٢/٩)، وورد أيضاً من
حديث عمر بن الخطاب وحديث كعب بن مرة وحديث أبي هريرة وحديث
فضالة بن عبيد وحديث أبي أمامة رضي الله عنهم.

(٢١) جاء ذلك في رواية النسائي من حديث أبي نجيع السلمى المخرج في هامش
(٢٠) وجاء في حديث أبي هريرة الذي أخرجه البزار كما في كشف الأستار
(١٧٠٧) وقال الحافظ في مختصر زوائد البزار: رجاله رجال الصحيح غير
عبدالرحمن بن الفضل وهو ثقة (١٢٩١) وعزاه السيوطي للطبراني كما في البدور
السافرة وحسنه (١٠١٦) وحسنه المنذري في الترغيب والترهيب (١٧٢/٢).
وقال الهيثمي: «رواه البزار عن شيخه عبدالرحمن بن الفضل بن موفق ولم
أعرفه، وبقية رجاله رجال الصحيح» مجمع الزوائد (٢٧٠/٥) وقال الألباني
في صحيح الترغيب والترهيب: صحيح لغيره (١٢٩٢).

ومن أسباب حرمان النور في القيامة: الظلم فقد قال النبي عليه الصلاة والسلام: «إياكم والظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة» متفق عليه^(٢٢).

ومن الأسباب التي توقف العبد على الصراط: رَمَى المؤمن بما يؤذيه قال النبي عليه الصلاة والسلام: «من حمى مؤمناً من منافق بعث الله ملكاً يحمي لحمه يوم القيامة من نار جهنم، ومن رمى مسلماً بشيء يريد شينه به حبسه الله على جسر جهنم حتى يخرج مما قال» أخرجه أبو داود^(٢٣).

ومن أعظم ما يكون سبباً لسرعة تجاوز الصراط: التخفف من الدنيا وملذاتها، قالت أم الدرداء لأبي الدرداء: «ألا تبتغي لأضيافك ما يبتغي الرجال لأضيافهم؟ فقال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إن أمامكم عقبة كؤوداً لا يجوزها المثقلون» فأحب أن أتخفف لتلك العقبة» صححه الحاكم والذهبي^(٢٤) وأخرج الإمام أحمد

(٢٢) أخرجه البخاري في المظالم باب الظلم ظلمات يوم القيامة (٢٤٤٧) ومسلم في البر والصلة باب تحريم الظلم (٢٥٧٩) والترمذي في البر والصلة باب ما جاء في الظلم (٢٠٣٠) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢٣) أخرجه أحمد في المسند (٥٣٨/٣) وأبو داود في الأدب باب الرجل يذب عن عرض أخيه (٤٨٨٣) وأبو نعيم في الحلية (١٨٨/٨) والطبراني في الكبير (٢٠/١٩٤) والبغوي في شرح السنة (١٠٥/١٣) وحسنه الألباني في صحيح أبي داود (٤٠٨٦).

(٢٤) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٢٢٦/١) و الحاكم وصححه ووافقه الذهبي (٥٧٣/٤).

عن أبي ذر رضي الله عنه قال: «إن خليلي صلى الله عليه وسلم عهد إليّ أن دون جسر جهنم طريقاً ذا دحض ومزلة، وأنا نأتي وفي أحمالنا اقتدار واصطبار أخرى أن ننجو من أن نأتي ونحن مواقير»^(٢٥).

قال أبوطاهر القزويني رحمه الله تعالى: «ومن اعتاد المرور في الدنيا على صراط الإسلام هان عليه المرور على صراط الآخرة. ومن لم يتعود ذلك في الدنيا صعب عليه وزلت قدمه. وهل هذا الصراط إلا مثال محسوس للصراط المعنوي؟! وبالجمله فسرعة مرور الناس على صراط الآخرة وبطؤهم يكون على حسب مبادرتهم إلى مرضاة الله وبطئهم عنها» اهـ^(٢٦).

فاتقوا الله ربكم، وبادروا إلى مرضاته، وانتهو عن مناهيه، واجعلوا موقف الصراط نصب أعينكم؛ فإنه موقف عظيم. ومن دق عليه الصراط في الدنيا عرض عليه في الآخرة، ومن عرض عليه الصراط في الدنيا دق عليه في الآخرة كما قال سهل التستري^(٢٧)، ثم صلوا وسلموا على محمد بن عبد الله كما أمركم بذلك ربكم...

* * *

(٢٥) أخرجه أحمد (١٩٠/٥) والحاكم وصححه على شرطهما إن كان أبو قلابه سمع من أبي ذر، قال الذهبي: ما لحقه (٦٠٩/٤) وصححه السيوطي في البدور السافرة (١٠٥٢).

(٢٦) انظر: الحياة الآخرة (١٢٧٤/٢) وأحاله على النشر الطيب (٣٨٠/٢).

(٢٧) ذكره السيوطي في البدور السافرة وعزاه لأبي نعيم انظر: البدور السافرة (١٠٥٥).

الكشاف

السير والأعلام

- ١٥٤- مقتل عمر رضي الله عنه ٧
- ١٥٥- سيد الشهداء حمزة ٢٠
- ١٥٦- أبو عبيدة بن الجراح ٣١
- ١٥٧- ذو الجناحين ٤٤
- ١٥٨- عبدالله بن مسعود ٥٨
- ١٥٩- سيف الله المسلول ٧١
- ١٦٠- عمرو بن العاص ٨٣
- ١٦١- البراء بن مالك ٩٣
- ١٦٢- أبو الدرداء ١٠٤
- ١٦٣- أبو دجانة ١١٥
- ١٦٤- الإمام البخاري ١٢٦
- ١٦٥- الشيخ ابن باز ١٣٩
- ١٦٦- الشيخ الألباني ١٥٠
- ١٦٧- الشيخ ابن عثيمين ١٥٨

الفكر والثقافة

- ١٦٨- الإنسان بين العبودية والحرية ١٦٧
- ١٦٩- التعليم وترسيخ المبادئ أو قتلها ١٧٦

- ١٧٠- ضرورة ارتباط العلم بالإيمان ١٨٦
- ١٧١- حقوق الإنسان بين الإسلام وقوانين الغرب ١٩٤
- ١٧٢- بين الرحمة الإسلامية والرحمة الغربية ٢٠٣
- ١٧٣- الإِفناء البشري في الفكر الرأسمالي ٢١٥
- ١٧٤- نقد الديمقراطية ٢٢٦
- ١٧٥- سبب ذلة المسلمين ٢٣٦
- ١٧٦- لماذا لا نتتصر؟ ٢٤٦
- ١٧٧- الهزيمة النفسية عند المسلمين ٢٥٨
- ١٧٨- المرأة في ظل الإسلام ٢٦٩
- ١٧٩- تاريخ الحركة النسوية ٢٨٠
- ١٨٠- مؤتمر المرأة عام ٢٠٠٠ م ٢٩٢
- ١٨١- الفن وإفساد المرأة ٣٠١
- ١٨٢- فضل اللغة العربية ٣١٠
- ١٨٣- قصة تقدم الغرب وتخلف الشرق ٣٢٠

القضايا الإسلامية

- ١٨٤- بين حضارة عاد وحضارة الغرب ٣٣٣
- ١٨٥- الظلم مقوض الحضارات ٣٤١
- ١٨٦- الغرب الرأسمالي والبراجماتية ٣٥٤
- ١٨٧- رعاة البقر وإشعال الحروب ٣٦٧
- ١٨٨- جرائم شارون (١) ٣٨٢

- ١٨٩- جرائم شارون (٢) ٣٩٥
 ١٩٠- نهاية طاغية ٤٠٧

علامات الساعة وأخبار القيامة

- ١٩١- المهدي المنتظر ٤١٩
 ١٩٢- فتنة المسيح الدجال ٤٣٧
 ١٩٣- نزول عيسى عليه السلام ٤٤٩
 ١٩٤- خبر يأجوج ومأجوج ٤٥٨
 ١٩٥- خروج الدابة ٤٧١
 ١٩٦- البعث والنشور ٤٨٢
 ١٩٧- بين امتحان الدنيا وحشر الآخرة ٥٠٢
 ١٩٨- صحائف الأعمال ٥١١
 ١٩٩- القضاء في الخصومات ٥٢٢
 ٢٠٠- ميزان الآخرة ٥٣٩
 ٢٠١- الشهود على العبد يوم القيامة ٥٤٩
 ٢٠٢- صراط الآخرة ٥٦٠